كتاب

التاج

في

أخلاق الملوك

للجاحظ

بتحقيق

الأستاذ أحمد زكي باشا

كاتب أسرار مجلس النظار

أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد

لصاحبها

قاسم محمد الرجب

كتاب التاج

في

أخلاق الملوك

للجاحظ

بتحقيق

الأستاذ أحمد زكي باشا

كاتب أسرار مجلس النظار

(الطبعة الأولى)

بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

سنة ١٣٣٢ هـ

١٩١٤ م

كتاب التاج

للجاحظ

بتحقيق أحمد زكى باشا

فذلكة المضامين

١ ــ فهرس التصـــــدير

لأحمد زكى باشا محقق هـــذا الكتاب

(أرقام هذا الفهرس موضوعة فى أسفل الصفحات)

فهرس التصـــدير

(يليه فهرس كتاب "التاج")

٢ — فهرس كتاب "التاج"
للجاحظ

صفحة

بابٌ فى المنادمة

صفحة

باب فى صفة ندماء الملك

صفحة

خاتمـــــــة الكتاب

(يليـه "الملحقات")

٣ ـــ ملحقات الكتاب

٤ ـــ الفهارس الأبجدية لكتاب "التاج"

٥

تصــــدير

لكتاب "التاج"

بقــلم محققه

الأستاذ أحمد زكى باشــا

بسم الله الرحمن الرحيم

تصديرٌ

لمحقق هذا الكتاب

"واجبٌ على كلّ ذى مقالة أن يبتدئ بالحمد قبل آستفتاحها، كما بُدِئَ بالنعمة قبل آستحقاقها"[1] .

نظرة عامة فى الكتاب ومؤلفه.

وبعدُ، فهذا الكتاب، كتاب "التاج". وهو المشهور أيضا بكتاب "أخلاق الملوك".

هذا الكتاب : وضعه الجاحظ أيامَ كانت بَغدادُ دارَ السلام، وقُبَّة الإسلام، ومركز الخلافة، وجنّة الأرض، وقطب العالَم، ومعدن الظرائف، ومنشأ أرباب الغايات، أيامَ كان العراق بستانا زاهرا بأنوار المعارف والمعالى، وكانت أمصارُه وقُراه مناهلَ عذبةً يزدحم عليها طُلّاب العلوم والآداب .

هذا الكتاب : قد ضمّنه الجاحظ طائفة كبيرة من نظامات الدولة العباسية على عهده، مما تقرّاه هو بنفسه أو كان متعارَفًا فى عصره. ولقد أودعه ما وصل إليه علمُه مما يندمج تحت هذا الباب من الرسوم والآصطلاحات التى كانت فاشية بين العرب أو شائعة فى صدر دولتهم، على ما بلغ المؤلِّف بالسند المتصل عن الحجة الصادق والثقة الأمين.

(١) هكذا صدّر سهلُ بن هارون أحد كتبه ، وكان معاصرا للجاحظ . أُنظر "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٨٨).

هذا الكتاب: قد جعله الجاحظ مِرْآةً تتجلّى فيها مشاهد الخلفاء والأكابر فى حفلاتهم الرسمية وحُشودهم العامّة، إلىٰ ماهنالك من طرائقَ ملوكية[1] وترتيباتٍ سياسيةٍ اقتبس العربُ بعضَها من الفُرْس حينما دالت الدولة إلىٰ الإسلام، واجتمعتِ الكلمة فى العرب الكرام: لا سيّما بعد ما سادت المسوِّدة[2] من آل عبّاس، وخفقت علىٰ رؤوسهم البنود والأعلام، وجلس علىٰ سرير الخلافة سابعهم، الميمون النقيبة، المبارك الناصية، وأعنى به المأمون بن هارون. وكان ذلك بفضل أشياعه وأَوْليائه من أهل خُراسان وما والاها، علىٰ ماهو معلوم.

هذا الكتاب: نتعرّف به مقدار التأثير الكبير الذى كان للحضارة الفارسية فى الحضارة الإسلامية علىٰ عهد العباسيين، حتّى لقد ينسىٰ الجاحظ خُطّته ومِنهاجه فيسْرُدَ بعض عاداتِ الفُرْس ورسومَهم القديمة، كأنها مألوفةٌ فى تلك الأيام؛ وهى مما لايمكن أن يكون تحت حكم الإسلام[3].

---

(١) هذه النسبة قد استعملها كثير من فحول البلغاء. قال الجاحظ: "ولو شئنا أن نقول إن سهره بالليل ونومه بالنهار خصلة ملوكية، لقلنا. ولو كان خلاف ذلك ألذّ، لكانت الملوك بذلك أولىٰ". انظر كتاب الحيوان، (ج ١ ص ١٣٧). وقال الهَمْدانى فى "صفة جزيرة العرب": وبها آلة الحرير النفيسة الملوكية (ص ٢٠٢) ـ ومعلوم أن الإمام ابن جنى ألف كتابا سماه "التصريف الملوكى".

(٢) كان السواد شعاراً لبنى العباس، وكان أشياعهم يرتدُّون به. ولذلك سماهم التاريخ "المسوِّدة" [بكسر الواو المشدّدة]. أما بنو أُمية فكان شعارهم البياض، وذووهم والمنتصرون لهم يسمون "المبيِّضة" [بكسر الياء المشدّدة]. وقد اصطلح الكتّاب والمؤرّخون علىٰ أن يقولوا: "سوَّد أهل المدينة الفلانية" أو "بيّضوا" دليلا علىٰ انضوائهم تحت لواء العباسيين أو انضمامهم إلىٰ بنى أمية.

(٣) انظر حاشيتىْ (رقم ٤، ٥ من ص ١٤٦)، ثم (س ١١ من ص ١٦٠) من كتاب "التاج". وفيه مواضع أخرى كثيرة من هذا القبيل.

هذا الكتاب : شرح لنا فيه الجاحظ أحوال أمراء المؤمنين، وسادات المسلمين في أَخْوِيَتِهِمْ[1] الخصوصية ، وفي أنديتهم العمومية، ووقفنا فيه على سَمَرِهِم في سَهَرِهِم، وقَصْفِهِم في ليالي أُنسهم ، إلى ما كانوا يصنعون في مجالي حظّهم، ومسارح لَهْوِهِم، ومراتع طَرَبِهِم . وناهيك بمجالسهم في الأغاني والمنادمة ، ومجامعهم في الملاعبة والمداعبة، ومشاهدهم في المسايرة والمباسطة !

هذا الكتاب : فيه تبصرةٌ لنا بأساليب القوم في اللّبس والطّيب وغير ذلك من الرسوم والآداب التي كانت معتبرةً لدى السَّراة والأماثل في أيام العرب، وفيما بعد الإسلام .

هذا الكتاب : تدلُّنا عباراته على أن الجاحظ آستخدم بعض التصانيف التي وضعها الفُرْس في هذا المعنى[2] ، بل نراه قد آنساق بعامل الآستمرار في النقل عنها إلى إيراد بعض السُّنن التي قلنا إنها لم يبق لها مجالٌ بعد ظهور الإسلام[3] . لذلك يغلب على ظني أن المؤلف آستعان بالكتب التي نقلها المترجمون من الفارسية إلى العربية في أيام

(١) مفرده "خِبَاء" وزان كتاب . وهي جماعة البيوت المتدانية . وقد آستعمل الجاحظ "الأخوية والأندية" في كتاب "البخلاء" (ص ٢٣٥) ، فقال : "إن صاحب المأدُبة وولىّ الدعوة إذا جاء رسولُه — والقومُ في أخويتهم وأنديتهم — فقال : أجيبوا إلى طعام فلان . فجعلهم جَفَلَةً واحدة — وهي الجُفالة — فذلك هو المحمود . وإذا آنتقر ، فقال : قم أنت ، يافلان ؛ وقم أنت ، يافلان . فدعا بعضا وترك بعضا ، فقد آنتقر" . [والنَّقَرى هي المذمومة] . وقد ورد في طبعة العلامة فان فلوتن "أخويتهم" بالخاء المعجمة . ولا وجه للاعجام في هذا المقام ، والإهمال هو المتعين في هذه الحال .

(٢) أُنظر (ص ١٩ و ٢٣) من كتاب التاج .

(٣) نقل الجاحظ صفحات كاملة من آيين الفرس وقوانينهم . [أُنظر (ص ١٤٥ — ١٥٠) من كتاب التاج ، وآنظر أيضا (ص ١٥٨ و ١٥٩ — ١٦٣ ثم ص ١٧٣)] . فقد توسل بهذين الآستطرادين الطويلين العريضين لإيراد ثلاثة سطور ثم سطرين .

أبى جعفر المنصور، ومَن كان قبله من بنى مَرْوان، ومَن أتىٰ بعده من سُلالة هاشم .
ولعلّه يكون قد آعتمد أيضا علىٰ كتاب "التاج" المصنَّف بآسم كسرىٰ أنوشروان ،
ذلك الكتاب الذى فسّره آبن المقفّع ، وهو لا يزال إلىٰ الآن سرًّا مكتوما فى ضمير
الزمان .

هذا الكتاب : يتضمن من أساليب التعبير والتفكير مالا يكاد يجرى به قلمٌ غير قلم
الجاحظ ، أو يرتع فيه رجل سوىٰ شيخ الأدب ، أو يتبجح فيه غير ذلك العميد لكلّ
مفيد ومستفيد .

* * *

النسخة الاولىٰ
هذا الكتاب

ظَفِرْتُ بنسخةٍ مخطوطة منه فى خزانة طُوبْ قَپُو[(١)] بمدينة القُسطنطينية فى مجلّدةٍ
ـ هى لعمرى ! ـ من أنفس الذخائر التى خلّفها الأوائل للأواخر. ذلك بأنها تحوى
ثلاثة كتب قيّمة :

١ ـ كتاب الآداب[(٢)] ، لآبن المقفع ؛

٢ ـ الأدب الصغير[(٣)] ، له أيضا ؛

٣ ـ التــاج ، للجاحظ .

(١) تحت (رقم ٢٤١٧ ورقم ١٣٣ أدب) .

(٢) وقد حققنا أنه " الأدب الكبير " بعينه ، كما أشرنا إليه فى طبعتنا الأولىٰ وكما بيناه فى التصدير الذى وضعناه فى مقدمة طبعتنا الثانية التى شرعت جمعية العروة الوثقىٰ بالاسكندرية فى إصدارها فى هذه السنة (١٩١٤) .

(٣) وفى آخر صفحة منه مانصه : " يتلوه كتاب " التــاج " للإمام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ورحم جميع المسلمين ! " .

فسَرعانَ ماتجرّدتُ لنقل هذه المجلّدة من أوّلها إلىٰ آخرها بالتصوير الشمسىّ! وقد أحضرتُها معى ـ إلىٰ مقرّها الأصيل علىٰ ضِفاف النيل ـ فى جملة ماتصيّدتُهُ من مفاخر العرب وكنوز الإسلام : من غُرر التصانيف وروائع الأسفار .

غير أن هذه المجلّدة لاتحتوى ـ لا فى أوّلها ولا فى آخرها ـ علىٰ شىء من البيانات التاريخية التى توجد عادة فى الكتب المخطوطة . فهى خِلْوٌ من كلِّ أثر للمعلومات التى تدل الباحث علىٰ اسم الخِزانة التى كُتبتْ برسمها، أو علىٰ اسم مالك هـذه النسخة، أو علىٰ الذين آلت إليهم، أو علىٰ كاتبها، أو علىٰ سنة نَسْخها وموضع كتابتها، أو علىٰ مقابلتها بنسخة أخرىٰ، ونحو ذلك من التفاصيل الجزئيـة أو العرضية التى قد يكون من ورائها فائدة كلية أو جوهرية فى معرفة تاريخ الكتاب وهويّته وماهيّته .

وغاية ما يوجد فيها من هذا القبيل هو تعليقة مكتوبة فى أسفل طرّة المجموعة ، تفيد أن رجلا اسمه " يوسف الحلبى " قرأها من أوّلهـا إلىٰ آخرها، وأن ذلك كان فى سـنة ٨٩٤ هـ . فيجوز أن تكون هـذه النسخة مكتوبة فى حلب نفسها أو فى القاهرة .

وهذه المجموعة مشكولةٌ من أوّلها إلىٰ آخرها بالحركات . علىٰ أنّ هذا الضبط مما لا يصح الاعتداد به أو الاعتماد عليه فى كثير من الأحيان، إن لم نقل فى أغلب الأحوال .

ولكنها ـ مهما كان الأمر ـ من ذخائر مصر . إذْ أنَ حَلَب كانت فى ذلك الوقت عُمـالة تابعة لسلطان مصر (وهو السلطان قايتباى المحمودىّ المشهور) . وبقيت فى حوزة خلفـائه إلىٰ أن انتزعها السلطان سليم العثمانى من السلطان قانصوه الغورى فى سنة ٩٢٢ للهجرة . فلا بدّ أن تكون هذه المجموعة قد وصلت إلىٰ القسطنطينية

فى ضمن الغنائم التى آستولىٰ عليها السلطان العثمانى ، فإنه نقل خزائن الكتب فى جملة[1] ما انتقل إلىٰ ضفاف البوسفور من ذخائر وطننا وتحفه وطرائفه .

فأما "الأَدَبَان" لآبن المقفع ، فقد أكملتُ طبعهما علىٰ مايليق بمكانتهما فى عالم الأدب والتصنيف ، و بمقام مؤلفهما المنقطع النظير[2] . وكان ذلك بالإسكندرية : مدينتى التى بها درجتُ ، وفيها ترعرعتُ ، وإليها آنتسبتُ . قدمتُهما هديّةً لجمعية "العروة الوثقىٰ" القائمة بنشر العلم والتهذيب فى أرضٍ أحنّ إليها وأحنو عليها .

أما "التاج" وهو هذا ، فإنه يقع فى ١٥٨ صفحة بخط نسخى من النوع المصرى الذى كان مستعملا فى القرن التاسع للهجرة . وكل صفحة منه تتألف من ١٥ سطرا . وليس علىٰ طُرّته أوعلىٰ خاتمته بيانٌ من البيانات التى توجد عادة فى أوائل المخطوطات وأواخرها سوىٰ ماعلىٰ طرّة المجلدة التى هو فى ضمنها مما يدل علىٰ قراءة هذا الكتاب فى سنة ٨٩٤ وأن القارئ له هو "يوسف الحلبى" الذى سبق لنا الكلام عليه .

اعتمدتُ هـذه النسخة وآنقطعتُ إلىٰ تحقيقها حولين كاملين حتّى وصلتُ بهـا إلىٰ الغاية التى جعلتُها نُصبَ عينى بمـا آنتهىٰ إليه وُسْعى و بلغه مدىٰ جهدى . و يعلم الله ـ ويشهد الكثير من أخصّائى الذين كانوا يتردّدون علىّ بمصيفى برمل الإسكندرية

(١) أُنظر مقالتنا باللغة الفرنسية علىٰ الفنون الإسلامية والسبيل إلىٰ إحيائها علىٰ ضفاف النيل :

Le Passé et l'Avenir de l'Art Musulman en Egypte (**Mémoire** sur la genèse et la floraison de l'art musulman et sur les moyens propres à le faire revivre en Egypte). par Ahmed Zéki **Pacha.**
Le Caire 1913, p. 15.

(٢) وقد قررتْ نظارة المعارف العمومية آستعمالهما فى مدارسها ، وذلك من فضل الشيوع والآنتشار ماهو خليق بفضل مؤلفهما القدير .

أو "بخزانتى الزكية" فى القاهرة ــ أننى راجعتُ فى هــذه السبيل أكثر من خمسمائة ديوان فى اللغة والأدب والتاريخ، وأننى كنتُ فى بعض الأحوال أفوز بنيل الأمل[1]، ولكننى فى أكثر الأحيان كنتُ أرضى "من الغنيمة بعد الكدّ بالقَفَل!".

* * *

تحقيق بشأن هذا الكتاب

الجـاحظ هو صاحب تلك البـدائع الروائع التى يتطلّع إليها أهل الأدب من العرب ومن غير العرب . ولقد آمتاز هذا النابغة بمزيّةٍ لم يَشْرَكْهُ فيها إلى اليوم أحَدٌ غيره من المتقدّمين والمتأخرين : بين الشرقيين أو الغربيين . تلك الميزة ــ ولا أدرى أهذه التسمية مطابقة لمرادى أم لا ــ هى أن نَفَثاتِ صدره ونَفَحاتِ قلمه ماعتّمَتْ أَنْ أصبحتْ مَتاعاً مُشاعاً ونَهْباً مُقَسَّماً بين فُرسان الكتابة وقُرصان الأدب . فقديماً سطا عليها المتقدّمون من أرباب الأقلام، ثم هذه بقاياها التى وصلتْ إلينا : لا تزال ملكاً مُباحاً لكل مَن يتعاطَوْن الإنشاء، يرونها طُرْفة لكل خاطف، وثمرة لكل قاطف .

قاعدةٌ قرّرها القاضى الفاضل، وناهيك بمكانته التى لم يصل إليها أحد من بعده! أفمـا تراه قد سجّل آعترافه على نفسه، وشَرَعَ هذا المورد لمن آقتدى به أو حاول الجرى على سَنَنِه، منذ قال كلمته المأثورة : "وأما الجاحظ، فمـا منا معاشر الكُتّاب إلا مَن دخل داره، أو شنّ على كلامه الغاره، وخرج وعلى كتفه منه الكاره"[2]؟

(١) لذلك آقتصرتُ فى الفهرس الأبجدىّ الأوّل من الفهارس الملحقة بهذا الكتاب على سرد المصنفات التى آنتفعتُ بها أو نقلتُ عنها أو أشرتُ إليها فى الحواشى وفى تكميل الروايات .

(٢) روى هــذه الكلمة آبن فضل الله العمرى صاحب "مسالك الأبصار" والصفدىّ صاحب "الوافى بالوفيات" وآبن شاكر صاحب "عيون التواريخ" فى ترجمتهم للجاحظ . [والكارة، ايحمله الرجُل على ظهره من الثياب . وهى تقارب التى نسميها الآن فى مصر "بُقْجَة" . كلمة تركية، وعربيتها الفصحى "عِكْمَة"] .

حُكْمٌ اعتمدته الجماعة، وقابلته بالسمع والطاعة، وما زالت تدأبُ فى تنفيذه إلىٰ هذه الساعة ! حتى إن المتصفِّح لدواوين الأدب لَيرَىٰ كثيرا من المتقدّمين والمتأخّرين ينقلون عبارة الجاحظ بِرُمّتها فينسخونها نسخا، وآخرين يبترونها بترا أو يمسخونها مسخا. وكأنّى بهمْ قد تمالؤُوا كلهم علىٰ عدم الإشارة إليه، ألّلهم إلا فى النادر.

أمرٌ يراه الناظر فى تضاعيف هذا الكتاب وأعطافه، وفيما علّقتهُ عليه من الحواشى والشروح، وفيما أضفتهُ إليه فى "تكميل الروايات"[(١)].

* * *

ما آسم هذا الكتاب ؟

لكنّ العجب العُجاب، أنه مع كثرة الناقلين عن هذا الكتاب، لم يُشر إليه واحدٌ منهم علىٰ الإطلاق ! بل إننى لم أعثر علىٰ آسمه فى كل ما وقفتُ عليه من أسفار المتقدّمين والمتأخّرين، مع شدّة التنقيب والبحث، ومداومة التقليب والحرث[(٢)].

زد علىٰ ذلك أن التاريخيين الذين كتبوا لنا سيرة الجاحظ، وأن الأخباريين الذين أفادونا بعض ما له من الكتب والرسائل، لم يشيروا قطُّ إلىٰ هذا الكتاب بآسم "كتاب التاج"[(٣)].

---

(١) وآنظر أيضا الجدول المتضمن للكتب الناقلة عن "التاج" فى ص ٦٩ التالية.

(٢) فى "أساس البلاغة": "حرثت القرآن: أطلت دراسته وتدبُّره". وفى "تاج العروس": "الحرث تفتيش الكتاب وتدبره ... وفى حديث عبدالله: أُحرثوا هذا القرآن، أى فتشوه وثوِّروه". ومثل هذا فى لغة الفرنسيين لحرث الأرض ولحرث العلم، فيقولون: Cultiver une terre، وCultiver une science

(٣) مع أنه هو المكتوب علىٰ طرّة النسخة المحفوظة بخزانة طوپ قپو، كما تراه فى أحد الرواميز الفتوغرافية التالية لهذا التصدير (ص ٧٣). ومع أنه مكتوب أيضا بطريق العرض علىٰ نسخة آيا صوفيا كما تراه فى الراموز المطبوع (ص ٧٥) التالية. [وهو مكتوب أيضا فى آخر نسخة "الأدب الصغير" الموجودة فى ضمن المجموعة المحفوظة بطوپ قپو].

فكان من الواجب أن أتوفر على تحقيق هـذه النقطة لإظهار غامضها وإيضاح مُشكلها .

* * *

تحقيق فى آسم "التاج"

فَزِعتُ حينئذ إلى الجاحظ نفسه . فقد نوه ببعض مصنفاته فى مقدّمة مصحفه الكبير المعروف بكتاب "الحيوان"(١) وفى تضاعيفه أيضا ، وكذلك فعل فى "البيان والتبيين" . ثم رجعتُ إلى ثَبَت مصنفاته فى "معجم الأدباء" لياقوت الحموى(٢) ، وراجعتُ ما كتبه عنه الصفدى فى "الوافى بالوفيات"(٣) وما أورده آبن شاكر صاحب "عيون التواريخ"(٤) ، ونظرتُ فيما أورده كاتب چلبى صاحب "كشف الظنون" .

فلم أرَ فى كل ذلك أثرًا لكتاب آسمه "كتاب التاج" منسوبًا إلى الجاحظ . ولكننى وجدتُ ياقوت والصفدى وآبن شاكر وكاتب چلبى يذكرون كلهم لصاحبنا كتابا عنوانه "أخلاق الملوك" . فتخيلتُ أن الكتاب واحدٌ ، وله آسمان .

النسخة الثانية لهذا الكتاب

أكّد ذلك الظنّ عندى وجعله عين اليقين أن النسخة المخطوطة الثانية الباقية من هذا الكتاب لا تزال محفوظة فى خزانة آيا صوفيا بالقسطنطينية ، وعنوانها "كتاب أخلاق الملوك" .

---

(١) طبع بالقاهرة . ومنه نسخة مخطوطة فى مجموعة الإمام الشيخ محمد محمود الشنقيطى بدار الكتب الخديوية . تغلب الصحة على الجزء الأول منها ، وأما الثانى فشأنه كالنسخة المطبوعة .

(٢) فى الجزء السادس الذى تم طبعه أخيرا بالقاهرة بعناية صديقى الأستاذ مرجوليوث ، المستشرق الإنكليزى .

(٣) وقد آستحضرت القطعة المتعلقة بترجمة الجاحظ من نسخة "الوافى بالوفيات" من مجموعة كتب الطيب الذكر العلامة جيانجوس Gayangos . وهـذه المجموعة النفيسة موجودة الآن (تحت رقم ٩٢) بخزانة جمعية التاريخ الملوكية بمدريد عاصمة إسبانيا . نقلها لى بالفتوغرافية صديقى الشيخ فرنسكو قُداره D. Francisco Codera المستشرق الإسبانى الشهير . فله مزيد الشكر على هذه المعونة الأدبية .

(٤) فى حوادث سنة ٢٥٠ هجرية . وقد تفضل الأب شابو (L'abbé Chabot) المستشرق الفرنسى ، فأتحفنى بصورة فتوغرافية منقولة عن النسخة المحفوظة بمكتبة باريس الأهلية (تحت رقم ١٥٨٨) . فله مزيد الشكر على هذه المعونة الأدبية .

وقد وضع بعضهم فى طرّتهـا فوق حرف الباء من لفظة "كتاب" كلمة "التـاج" مكتوبة بخط غير الخط الأصلىّ ؛ وكذلك تحت كلمة "كتاب" وضع قوله "فى أُمور الرياسة"[1] .

وقد حَصَلْتُ ، بحمد الله ، علىٰ صورتها الفتوغرافية فى الوقت المناسب . وهى التى رمزت لها بحرف (صـ) وتمكنتُ من ٱستخدامها بكل دقة فى تحقيق هذه الطبعة ، علىٰ ما يراه الناظر فى كل صفحة .

وهذه النسخة تقع فى ١٦٦ صفحة ، وكل صفحة تحتوى علىٰ ١٣ سطرا . وهى مجرّدة من البيانات التاريخية التى قد تكون لها علاقة بأصلها وما هيتها . وغاية ما فيها أنّ ناسخها وضع فى آخرها حاشية مختصرة هذا نصها : "وكان فى المنقول عنها سقامة".

فلا غرو أن جاءت السقامة فيها مزدوجة .

عود إلى التحقيق فى ٱسم "التاج"

والراجح عندى أن ٱسم "التاج" قد صار إطلاقه علىٰ هذا الكتاب بعد وفاة مؤلفه بزمان . أعنى فيما وراء القرن الثامن للهجرة ، أى بعد عصر ياقوت والصفدىّ وٱبن شاكر الكتبىّ . علىٰ أننى لا يتسنّىٰ لى أن أُعيّن ــ ولو بطريق التقريب أو التخمين ــ الوقتَ الذى أطلقوا فيه ٱسم "التاج" علىٰ كتاب "أخلاق الملوك" .

هذا . وأنا أستبعد كلَّ البعد أن يكون ذلك المجهول الذى كتب لفظة "التاج" علىٰ طرّة النسخة الموجودة فى آيا صوفيا قد ٱستمدّ ذلك من النسخة الموجودة فى خزانة طوپ قپو . فإن هذه الخزانة كانت لا تزال مُوصَدة الأبواب إلىٰ سنة ١٩٠٨ للميلاد .

(١) أنظر هذا العنوان فى الراموز الثانى من الرواميز الفتوغرافية (*Fac-simile*) التالية لهذا التصـدير (ص ٧٥) .

وفوق ذلك ، فهذا فهرسها خِلْوٌ من العنوانين : "التاج" و"أخلاق الملوك". بل يسوغ لى أن أحكم بأنّ واضع ذلك الفهرس لم يعرِف عن كلّ من العنوانين شيئا على الإطلاق . لأن القرائن كلها ــ فيما يتعلق بهذا الكتاب وبغيره ــ تدلنا على أن واضع ذلك الفهرس إنما اكتفى بأخذ العنوان الموجود فى الورقة الأولى من كل مجلّد ، دون أن يتصفّح المجلد بأكمله ، ليرى ما إذا كان فى تضاعيفه وثناياه كتبٌ أُخرى : كما هى العادة فى كثير من كتب المشارقة ، وكما هو حاصلٌ بالفعل فى تلك الخِزانة نفسها .

لذلك أجزمُ أن واضع الفهرس الخاصّ بطوب قپو ، قد اقتصر على ما رآه فى صدر الورقة الأولى ؛ وقد فعل .

وكيف لا ، ونحن إنما نرى فى الفهرس قوله : "كتاب الآداب للشيخ الإمام العالم العلامة عبد الله بن المقفع رحمة الله عليه" دون أن تكون هنا لك أدنى إشارة إلى "الأدب الصغير" أو إلى "كتاب التاج" ، مع أن الثلاثة موجودة بين الدفّتين .

لا يصحّ القول بأن ذلك العنوانَ جامعٌ يشمل الكتب الثلاثة معا . وذلك لأنه لم يرد فى طرّة الكتاب الأوّل وهو "الأدب الكبير" عنوانٌ خاصٌّ له ، وذلك بخلاف ماحصل فى طرّة الكتاب الثانى حيث أورد عنوانه هكذا "آداب عبد الله بن المقفع الصغرى" وكما حصل فى الكتاب الثالث حيث أورد عنوانه هكذا : "كتاب التاج تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، رحمة الله عليه" .

فيكون من الصعب ــ والحالة هذه ــ أن يطّلع على كتاب "التاج" إنسان آخر ، اللهم إلا أن يكون قد صادف ما وفقنى الله إليه من تقرّى الكتب التاريخية والأدبية كلها فى طوب قپو ، واحدًا واحدًا ، كما أُتيح لى منذ بضع سنين . وذلك أمرٌ تحقّقتُ من رب الدار أنه ما كان .

*
* *

عود الكلام على اسم التـاج والكتب المسماة بهذا الاسم

وهناك باب للتظنّى. ذلك أن المتقدّمين كثيرا ما يسمون كتبهم بأسمـاء متعدّدة[1] . وها هى كتب الجاحظ نفسه، نرى لبعضها عنوانات مختلفة. بل هو نفسه يسميها بأسماء، بعضها مختصر و بعضها فيه شىء من التطويل[2] .

و بعدُ، فنحن نعلم أن الجاحظ كان مُولَعا بابن المقفع، ومُعْجَبًا به و بآثاره. أفلا يصح القول بأنه اختار فى بعض الأحيان اسم "التاج" متابعةً لذلك الكاتب العظيم، صاحب كتاب "التـاج فى سيرة كسرى أنوشروان[3]" ؟

ومن جهة أُخرى نرى هذا العنوان "التاج" قد استهام به كثير من أكابر المصنفين فاختاره نفرٌ من صدور الصدر الأوّل، وعنونوا به بعض كتبهم ، مجاراةً لمـا وصلهم عن أهل فارس الذين سبقوا العرب بتأليف "كتاب التاج وما تفاءلت به ملوكهم". وهو الذى ذكره ابن النديم فى ضمن الكتب التى "ألّفها الفرس فى السِّيَر والأسمـار الصحيحة التى لملوكهم[4]" .

(١) نكتفى بذكر "معجم الأُدباء" لياقوت . فإنه مشهور أيضا باسم "إرشاد الأريب" ، أو باسم "طبقات الأدباء" . ومثل ذلك كتاب المقريزى ، فإن اسمه "المواعظ والاعتبار" ، وهو مشهور باسم "الخطط" . أوليس القليلون هم الذين يعرفون العنوان الأصلى لتاريخ ابن خلدون ؟ وأشباه ذلك كثيرة جدّا يعرفها الذين يعانون هذا النوع من الأبحاث ، أو كما يقول الجاحظ : "كل من كان كلفا بتعرافها وكان له فى العلم أصل وكان بينه و بين التبيين نصيب" . أنظر كتاب الحيوان (ج ٣ ص ٧٣) .

(٢) وأنظر الرسالة التى كتبتها بعنوان : "مَن هو الجاحظ ، وما هى مصنفاته" ؟ وسأنشرها فيما بعد .

(٣) من مؤلفات ابن المقفع أو من ترجمته عن الفارسية . وذكره صاحب كتاب الفهرست . وعليه بحثٌ مفيد وضعه باللغة الروسية الأستاذ إينوستْرانسف C. Inostrancew فى كتاب "المباحث الساسانية" المطبوع فى بطرسبورج سنة ١٩٠٩ (ص ٢٨ — ٣٢) .

(٤) كتاب الفهرست (ص ٣٠٥) .

فمما ظهر من المصنفات فى اللغة العربية بهذا العنوان، مرتبا على حسب تواريخ وفيات المؤلفين :

١ ــ كتاب التــاج(١) فى سيرة أنوشروان ، لعبد الله بن المقفع (وهو أول كتاب صدر بالعربية بهذا العنوان) .

٢ ــ كتاب التــاج(٢)، لأبى عُبيدة، المتوفَّى فيما بين سنتى ٢٠٧ و ٢١٣ للهجرة .

(١) كتاب الفهرست (ص ١١٨) . [ولعله هو الذى نقل عنــه صاحب العقد الفريد ــ لأننى لم أجد فى كتاب الجاحظ الذى أقدِّمه اليوم للقراء ما أورده ابن عبد ربه عن كتاب " التاج " ــ فى الجزء الأول من العقد الفريد (ج ١ ص ١١ ، ٢٦ وغيرهما) ، ولا ما أورده ابن قتيبة فى كتاب "عيون الأخبار"] .

(٢) ذكر القفطى فى كتاب " إنباه الرواه على أنباه النحاه " كتابين لأبى عبيدة أحدهما باسم " التــاج " والثانى باسم "الديباج" (انظر النسخة المنقولة بالفتوغرافية الموجودة بدار الكتب الخديوية) . كذلك فعل ابن خلكان فى ترجمة أبى عبيدة (انظر طبع بولاق وطبع باريس والترجمة الانكليزية) . ولم يذكر هذين الكتابين ابن الأنبارى فى "نزهة الألباء" ولا السيوطى فى "بغية الوعاة" . وقد نقل ابن عبد ربّه فى العقد الفريد عن "كتاب التاج " الذى لأبى عبيــدة (انظر ج ٢ ص ٥٣ و ٥٥ و ٦٩) . ولكن ابن النديم (ص ٥٢) وابن خير الأندلسى (ص ٣٦١) وصاحب "تاج العروس" فى مادة (ج م ر) لم يذكروا له غير كتاب الديباج . ومما ينبغى التنبيه إليه أن العبارة التى نقلها صاحب "تاج العروس" عن جمرات العرب (وقال إنها عن أبى عبيدة فى كتاب الديباج) نراها واردة بنصها تقريبا عن "كتاب الديباج" أيضا فى كتاب "الكامل" للمبرد (ص ٣٧٢ من طبعة ليبسك وص ١١ من ج ٢ طبعة القاهرة) . وهى واردة أيضا مع زيادة ونقص طفيفين فى الألفاظ فى العقد الفريد (ج ٢ ص ٦٩) وصاحبه يقول بأنه نقلها عن كتاب "التاج" لأبى عبيدة . نعم إن التحريف كثير فى العقد الفريد المطبوع فى بولاق ، ولكنه ذكر هــذا " التاج " ثلاث مرات وقد شهد القفطى وابن خلكان بأن لأبى عبيدة هذا كتابين أحدهما "التاج" وثانيهما "الديباج" . فهل هما كتاب واحد؟ ربما يكون ذلك كان . ولعل الرجل سمى كتابه بالديباج ثم لقبه هو أو غيره بالتاج . وذلك لأن النقول التى أوردها صاحب العقد الفريد تدل على أنه موضوع فى بيان مفاخر العرب وبيوتاتها ، وذلك مما يحمل على الظن بأن صاحبه أراد أن يضاهى به كتاب التاج الذى ألفه الفرس . على أن المعلوم أن أبا عبيــدة كان من الشعوبية وكان يكره العرب ، وقد ألف كثيرا فى مثالبهم .

٣ ــ كتاب التاج، لابن الراوندى[1]، المتوفى سنة ٣٠١ . [ونقضه أبو سهل إسماعيل النوبختى فى كتاب سماه "السبك"[2]] .

٤ ــ كتاب التاج، للصابى، المتوفى سنة ٣٨٤[3] . ويسمى "التاجى" ويسمى "المتوج فى العدل والسياسة"[4] .

٥ ــ كتاب التاج، لابن فارس، صاحب "مجمل اللغة"، المتوفى سنة ٣٩٥[5] .

٦ ــ التـاج[6] فى زوائد الروضة على المنهاج، فى الفقه، لأحد علماء القرن التاسع .

هذه هى بعض الكتب التى عرفناها بهذا الاسم، فيما قبل الجاحظ وبعده، مما قد بلغنا خبره وإن لم يصلنا أثره[7] .

(١) ذكره فى كشف الظنون، ولم يعرّفنا بموضوعه .

(٢) أنظر كتاب "الفهرست" (ص ١٧٧) .

(٣) ذكره فى كتاب "الفهرست" . ونقل عنه البيرونى فى الآثار الباقية (ص ٣٨) .

(٤) ذكره فى كتاب الفهرست (ص ١٣٤)، وذكره ابن خلكان فى ترجمة الصابى .

(٥) عرّفنا به ابن خير الأندلسى فى جملة الكتب التى رواها عن أشـياخه بالسند المتصـل إلى مؤلفيها، فى كتابه المطبوع بمدينة سرقسطة Saragosse من أعمال إسبانيا سنة ١٨٩٥ (ص ٣٧٤) .

(٦) ذكره صاحب "كشف الظنون" فى حرف التاء ثم فى حرف الراء والميم (وانظر أعداد ٢٠٦٠، ١٣٢٤٢، ٦٦٦٦ من طبعة العلامة فلوجل) .

(٧) ثم إن العرب أضافوا هذا الاسم إلى غيره . فألفوا : تاج الأسماء، تاج الأنساب، تاج التراجم فى طبقات الحنفية، تاج الحرّة للمعرّى، تاج السلاطين فى معرفة الأباليس والشياطين، تاج العارفين، تاج العروس فى الزهد، تاج المداخل، تاج المذكرين، تاج المصادر، تاج المعانى، تاج المعلّى، تاج المفرق، تاج النسرين . [ذكرها كلها صاحب كشف الظنون . وقد أهملتُ مما أورده ما هو بالتركية أو الفارسية] . ثم تاج الحلية ذكره ابن خير الأندلسى، التاج فى كيفية العلاج، تاج المجاميع، التاج المرصع فى شرح رجز أبى مقرع، تاج المعارف وتاريخ الخلائف، تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق، وهذه الكتب موجودة بخزانة باريس الأهلية . ثم تاج العروس فى شرح القاموس للزبيدى، الخ الخ .

إلىٰ هنا آنتهينا من أنه لا مانع أن يكون الكتاب الذى بين أيدينا قد سماه صاحبه أو الذين جاؤوا من بعده بآسم "التاج" . ولا شك عندنا ولا عند غيرنا فى أنه هو كتاب "أخلاق الملوك" .

ولكن ...

* * *

من هو المؤلف لهذا الكتاب ؟

بقى علينا أمرٌ آخر، وهو من الجلالة بمكان .

. فمن هو المؤلف لهذا الكتاب ؟ ... آلجاحظ أم غيره ؟

إن الجاحظ ترك نحوًا من ٣٦٠ مؤلَّفا، رآها سبط آبن الجوزى كلَّها تقريبا فى مشهد أبى حنيفة النعمان ببغداد، وإن كان لم يذكر لنا شيئا من أسمائها فى "مرآة الزمان".

ولما كان الجاحظ لم يُشر فى مقدّمة كتاب "الحيوان" إلا لشىء يسير جدًا من تآليفه (وليس فيها كتاب "التاج" ولا كتاب " أخلاق الملوك ") وكذلك الحال فيما وقفنا عليه من أسفاره الأخرىٰ، فقد بقينا من ذلك الأمر فى شكٍّ مُريب .

نظرة فى أُسلوب الكتاب من حيث الإنشاء

ويزداد هذا الشكُّ متىٰ قلنا بأنّ أُسلوب الكتاب فى مجموعه قد لا يوافق ما هو معهود من كتابة الجاحظ وظرافته ومجانته، أو ما هو معروف عنه من التمسك بأوهىٰ الأسباب للتلاعب بالألباب .

ذلك لأننا نراه قد خالف هنا عادته فى الآستطراد والآسترسال، والتنقل من حال إلىٰ حال، اللهم إلا فيما لا يُؤْبَهُ به ولا يمكن آتخاذه حجة فيما نحن بصدده من الأبحاث .

لكننا إذا قررنا أن هذا الكتابَ سِفْرُ آدابٍ وأخلاقٍ لا دفتر تبيين وبيان، وأنه خاصٌّ بموضوع معين محصور فى أمر واحد معلوم، فقد يزول ذلك الآرتياب الذى ربما يعلق ببعض الأذهان .

نعم، فلقد كانت وظيفة الجاحظ فى هذا الكتاب أن ينقل ماراقه من الآداب التى دونها الفرس فى آيينهم وقوانينهم[1]، وأن يسطِّر ما تلقّاه عن شيوخه أو سمعه من أقرانه أو تلقفه عن صحابته ممـا يتعلق بأحوال الخلفاء والسادات . فكان عمله قاصرا علىٰ ربط الأفكار بعضها ببعض، ولم يكن له مجالٌ يتبسَّط فيه ويسرح، أو ميدانٌ يتنشَّط فيه ويمرح. كذلك كان شأنه فى طائفة من مقالاته التى قصر فيها الكلام علىٰ موضوع واحد، كما فعل فى "مقالة الشيعة" وفى غيرها من رسائله العـديدة وفصوله الكثيرة التى وصلتنا .

علىٰ أننا مع ذلك نراه فى " التـاج " ـ كلمـا تراءت له سانحة أو هَزَّته نشوة ـ قد يغلبه طبعه فيستطرد ويستدرك ثم يعود أدراجه ، ولكنْ فى المعنىٰ الواحد وفى البـابة[2] الواحدة .

---

(١) أُنظر شرح هذه الكلمة فى كتاب التاج، فى حاشية (ص ١٩) .

(٢) البابة معناها : الحدّ، الوجه، الخصلة، الشرط، القبيل، النوع . وآستعمالنا لها هنا هو بالمعنيين الأخيرين . قال الجاحظ فى الحيوان (ج ٢ ص ٤٥) : " فليس الديك من بابة الكلب، لأنه إن ساوره قتله قتلا ذريعا " . وقال أيضا (ج ٧ ص ٤٣) : " وقد أيقنا أنهما ليسا من بابته " . ثم روىٰ أيضا (ج ٧ ص ٣٦) أبياتا لتميم بن مقبل، هذا محلّ الشاهد منها :

بنى عامر، ما تأمُرونَ بشاعر * تخيَّرَ باباتِ الكتاب هجائيـا ؟ ...

نعم إن طابع "الحيوان" صحف الكلمتين الأوليين من الشـطر الثانى من البيت الأول (كما صحف وحرف ومسخ وشوّه فى كثير من المواضع التى لا تعدّ ولا تحصر) فأوردهمـا هكذا " يحبر بآيات " ولكن الصحيح ما أوردته هنا . ويؤيد ذلك أن صاحب تاج العروس روىٰ البيت الأوّل فى مادة (ب و ب) مثـل روايتى وقد فسره بقوله : معناه تخـيّر هجائى من بابات الكتاب .

وقال الجاحظ أيضا فى كتاب البخلاء : "أنت من ذى البابة ... ؛ وأما سائر حديث هذا الرجل فهو من هذه البابة" (ص ٤٥، ١٤٣) =

وإذا نظرنا بعد ذلك إلى ما تضمنه "التاج" من بعض العبارات[1]، نرى أسلوبه يتجلى فيها على أحسن مثال. فبينا هو ينقل عن آداب الفرس وأحوال ملوكهم، إذا به قد أخذته النعرة العربية فعقّب بما يماثل هذه الأحوال أو ما يجانسها مما كان قد وقع للعرب قبل الإسلام أو بعد الإسلام. وذلك كله على سبيل الاستطراد والاسترسال، اللذين هما من أخص سجاياه.

= ومثل ذلك (فى نفح الطيب، ج ١ ص ٥٥٩ طبعة ليدن؛ ج ١ ص ٣٩٨ طبعة بولاق سنة ١٢٧٩ هـ) قول القاضى محمد بن بشير الأندلسىّ :

إنما أُزرِى بقدرى أنّنى ٭ لَسْتُ من "بابة" أهل البَلَدِ ...

وفى "تاج العروس" ما خلاصته : "هذا بابته أى شرطه؛ وإذا قال الناس : من بابتى، فعناه من الوجه الذى أُريده ويصلح . ...

والبابة فى الحساب والحدود ونحوه الغاية" .

وقال البيرونىّ فى كتاب "تحقيق ما للهند" : وبسببه أقول فيما هو بابتى منهم ... (ص ١٢).

وفى "شفاء الغليل" أنهم يقولون للعب خيال الظلّ بابة [أى لكل نوع وقسم من أنواع التمثيل وأقسامه التى نسميها الآن فصول الرواية = Scène] فيقولون بابات خيال الظل . وقد أورد الخفاجى هناك تفصيلا لطيفا وتورية بديعة فى أشعار رائقة . فانظرها .

وعلى ذلك قول ابن إياس المؤرّخ المصرى : "فكانوا مثل بابات خيال الظلّ : فشىءٌ يجىء وشىءٌ يروح" (بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ١ ص ٣٤٧).

(١) أُنظر ص ٢، ٤، ٥، ٨، ١٥، ١٧، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٧، ٣٠، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٦١، ٦٢، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨٣، ٨٥، ٩٠، ٩١، ٩٤، ٩٩، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١١٢، ١١٣، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٥٠، ١٦٧، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٧ .

ولنا دليل آخر، وهو أننا نرىٰ الكتاب ينمّ علىٰ مؤلفه . ذلك لأن الجاحظ مشهور بالتكرار والترداد والتكثير حتّى لقد عابه النقّادة من أهل زمانه، بل أشار هو فى مقدّمة كتاب الحيوان[1] إلىٰ تلك الزراية علىٰ طبعه ونَحيزَته .

ولكنه مع هذا التكرار الذى نراه فاشيا فى كتبه ،ومع هذا الآنتقاد الذى عابه به قوم من أهل زمانه،لم يرجع عن دينه وديدنه وعادته فى نفس كتاب "الحيوان" ثم فى كتاب "البيان والتبيين" . فقد نراه فى تضاعيفهما يذكر الحكمة التى تدعوه إلىٰ ذلك ، وقد يكرر فصولا من الكلام ومقطّعات من الأشعار،كلما حانت له نُهْزة أو تجدّدت لديه الفُرْصة، بل كلما تراآى له شِقٌّ ضئيل يفضى به إلىٰ ميدان فسيح يسمح له بالتوسع فى التعبير .

ثم هو فوق ذلك ينقل فى بعض كتبه ما قد تقدّم له فى بعضها الآخر .

فإذا علمنا ذلك كلّه ،فلننظر فى كتابه هذا لنتبيّن منه أهذه السليقة موجودة فيه أم لا .

نحن نجد ذلك، بَلْهَ نجد ماهو أبلغ .

أفما تراه ينقل فى "التاج" شيئا كثيرا مما أورده فى "البيان والتبيين"[2] ؟ وهذا أيضا كتاب "الحيوان" قد نقل عنه فى "التاج" فى موضع واحد[3] . ومثلهما كتاب "البخلاء" فى موضع واحد[4] أيضا .

---

(١) أنظر مقدّمة "الحيوان" (ص ٣ س ٤) .

(٢) أنظر (ج ٣ ص ١٢ ؛ ج ٣ ص ٥١ ؛ ج ١ ص ٦٩ ؛ ج ٣ ص ١٠٩) . وآنظر ما أوردته فى تكميل الروايات فى (ص ١٩٢ عن ص ٢٠) و(ص ١٩٦ عن ح ٤ ص ٤٧) وفى (ص ١٩٧ عن ص ٥٣ ، ٥٤) و(ص ٢٠٣ عن ح ٤ ص ٨١) .

(٣) أنظر فى تكميل الروايات فى (ص ٢٠٣ عن ح ١ ص ٨٩) .

(٤) فإن الحكاية التى أوردها فى "التاج" (ص ٢٠) عن الجارود بن أبى سبرة وعبد الأعلىٰ، نراها بنصها وحرفها تقريبا فى كتاب "البخلاء" (ص ١٩٣) . وقد رواها فى "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٣٢) .

فلو كان المؤلف رجلا غير الجاحظ، لكان قد أشار ـ ولو عَرَضا أومرّة واحدة ـ إلىٰ المنقول عنه بطريقة التصريح أوالتلميح، أوكان آستعمل عبارة مبهمة تفيد النقل علىٰ أى وجه كان .

وإذا نظرنا الآن من جهة أخرىٰ، رأينا أن جماعة من المؤلفين قد سطوا علىٰ هذا الكتاب ، كما أغار غيرهم علىٰ كثير من بقيّة الآثار التى دبجها بنان الجاحظ . وقد أشرتُ إلىٰ شىء كثير من هذا القبيل فى الحواشى التى حَلَّيْتُ بها صفحات هذه الطبعة ، ولكننى رأيت ـ لزيادة الفائدة ولتمحيص الحقيقة ـ أن أجمع ذلك كلَّه فى جدول خاصٍّ فى آخر هذا التصدير[1] . الناقلون السارقون

فعلينا أن نبحث فيما إذا كان القلم قد خان بعض الناقلين فتركوا أثرا محسوسا ملموسا نستدل به تصريحا أو تلميحا علىٰ أن كتابنا هذا إنما هو من نفثات يراع الجاحظ .

فهذا المسعودىّ، قد آستحوذ علىٰ حديث يزيد بن شجرة مع معاوية . ولما آضْطُرّ لنقل حُكْم الجاحظ، حاسب ذمته وراجع ضميره فلم ينسبه لنفسه بل آكتفىٰ بقوله : "قال بعض أهل المعرفة والأدب ممن صنف الكتب فى هذا المعنىٰ وغيره[2]" .

وهذا البيهقىّ، حذا حذو المسعودىّ . ولكنّه تخبّط عند ما نقل حُكْم الجاحظ والحديث الذى يرويه عمن ألقاه إليه[3] .

(١) فى (ص ٦٩) التالية .

(٢) أنظر (ص ٥٧) من التاج و (ح ٤) فيها .

(٣) أنظر (ص ١٧٠) من التاج و (ح ٣ و ٤) فيها ، وآنظر أيضا (ص ١٧١) و (حواشى ٢ و ٣ و ٤) فيها .

وهذا صاحب "محاسن الملوك". سطا على "التاج" فنقله كله تقريبا: تارة بالحرف وغالبا بالاختصار. وكأنه قد عاهد نفسه أن لا يذكر الجاحظ قطّ، غير أنه سها فى آخر الأمر فذكره وسماه باسمه مرتين وأورد ألفاظه بمعناها (١).

على أن هذه الشواهد ـ وإن كان التدليل بها، كما يقول الجاحظ، قائما فى العقل مُطَّرِدًا فى الرأى غير مستحيل فى النظر (٢) ـ فإنها، والحق يقال، لم تصل بنا إلى حدّ اليقين الذى يحسن التسليم به والسكوت عنده، لأنها لا تتضمن القول المقنع ولا الدليل الذى تثلج به الصدور. ونحن إنما نتلمّس البرهانات النيِّرة الناصعة، والحجج الظاهرة الساطعة، والشهادات القائمة اللامعة، التى ينتهى إليها العلم، ويقف عندها البيان.

* * *

مراجعة العيون التاريخية

وحينئذ فلا سبيل لإزالة الإبهام واستجلاء الحقيقة بطريقة حاسمة إلا إذا استفتينا رجلين هما عمدة التحقيق فى هذا الباب، لأنّ قولهما هو الفصل الذى لا نقض فيه ولا إبرام. أعنى بهما: محمد بن إسحاق النديم، وأبا حيّان التوحيدىّ الكاتب الشهير.

فكان حقا علينا أن نسائلهما، فعند جهينة الخبر اليقين.

استفتاء ابن النديم، وتحقيق بشأن المطبوع من كتابه

١ ـ إن "كتاب الفهرست" الذى ألّفه العلامة ابن النديم، قد طبعه الأُستاذ فلوجل (Flügel) سنة ١٨٧١ فى ليبسك، مدينة العلم بألمانيا. ولكننا لا نرى فيه شيئا عن الجاحظ، إلا من طريق العَرَض ومن باب الاستطراد.

(١) أنظر (ص ١٤٠) من التاج و(ح ٢) فيها.

(٢) كتاب "الحيوان" (ج ٣ ص ١١٧).

فهل يُعقل أن ذلك العلامة الأختصاصى[١]، الواسع الأطلاع، المنقطع لمثل هذا الشأن، يهمل رجلا كالجاحظ ؟

اللهم لا ! وكيف وقد ذكر كثيرا من العلماء والمصنفين الذين هم أقل من صاحبنا بدرجات كثيرة !

بيد أن الحق الصُّراح هو أن النسخة المطبوعة مبتورة. وقد ثبت ذلك مثل وَضَح النهار، بأُمور ثلاثة :

أولها — أن ياقوت يذكر فى "معجم الأدباء" أسماء كثير من العلماء، ويورد عنهم تفصيلات متعددة، ويذكر لهم تصانيف متنوعة، ثم يصرح بنقله عن كتاب الفهرست لأبن النديم[٢]. فإذا ما رجعنا إلى النسخة المطبوعة (أو إلى تلك الفصول التى عثر عليها الأُستاذ هوتسما كما سيجىء قريبا) لا نجد لذلك أثرا على الإطلاق. ومعلومٌ أن ياقوت حجة فى النقل وأهل للتصديق فيما يتعلق بالكتب والتعريف بها.

---

(١) ولا أقول الإخصائى. لما فى هذه اللفظة من الخلط الذى يتبادر إلى الأذهان، ولأنها غير واردة بالنص. وكان حقا على الذين آختاروها أن يقولوا "المُخْصى" وينظروا بعد ذلك إن كانوا يريدون الإصرار على آسم الفاعل، وهو كما يرون. فغاية ما فى شرح القاموس أنهم يقولون : "أخصى الرجل تعلّم علما واحدا. نقله الصاغانى. وهو مجاز". ولكنا نحن نريد بالأختصاصى الذى يبرع فى الأختصاص والأنفراد بعلم واحد ويكون مع ذلك قد شدا بعضا من المعارف المتعلقة به. هذا فضلا عن أننا نريد الحقيقة لا المجاز. ولذلك ننسبه إلى كلمة الأختصاص، ويكون اللفظ بالمعنى الشائع فى هذه الأيام من المولّدات. وقد قال فى تاج العروس : "إختص فلان بالأمر وتخصص له إذا آنفرد". فإن كان أخصّاء الإخصاء يريدون النسبة إلى المصدر، فقد جاريناهم ؛ ولكننا دفعنا اللبس العالق بآختيارهم.

(٢) أُنظر (ج ١) حواشى (ص ٤٦ و١٢٧ و١٤١ و٣٤٤ و٣١٥) ؛ ثم (ج ٢) حواشى (ص ٨ و١٧ و٣٧ و٤٧ و١٣١ و٢٢٢ و٢٢٦ و٢٣٥ و٢٣٨ و٢٤٩ و٣٥٠ و٣٨٨ و٣٩٦ و٤٠٠ و٤١٩ و٥٢٥) ؛ ثم (ج ٣) حواشى (ص ١٣ و٨٦ و١٤٠) ؛ ثم (ج ٥) حواشى (ص ٥٦ و٢٢١ و٢٧٠ و٣٧٦ و٤٣٢ و٤٣٥) ؛ ثم (ج ٦) حواشى (ص ٤٩ و١٤١ و١٩٧ و١٩٨ و٢٠٤).

ثانيها — أن الأُستاذ هوتسما Houtsma عثر على جملة تراجم[1] مما كتبه ابن النديم (وهى غير واردة فى النسخة المطبوعة) فنشرها فى المجلة النمساوية للعلوم الشرقية بنصها العربى[2]، مع خلاصة عليها باللغة الألمانية. وكلُّ ماجاء فيها عن الجاحظ لا يزيد على أحد عشر سطرا، مبتورة من الأول ومن الوسط ومن الآخر. وما هى إلا نُتَفة من رسالته إلى محمد بن عبد الملك الزيات، الوزير العباسى المشهور. ولا مُشاحّة فى أنها كانت مبثوثة فى فصل كبير طويل.

ثالثها — (وهو أبلغها) أن ياقوت قد أورد ترجمة الجاحظ فى الجزء السادس من "معجم الأُدباء" ونقل فيها عن كتاب الفهرست أن صاحبه يقول إنه رأى كتابين من كتب الجاحظ بخط ورّاقه[3]. ونحن نبحث على غير طائل عن هذه العبارة فى النسخة المطبوعة من كتاب ابن النديم !

فلم يبقَ بعد ذلك أدنى ريب فى أن ابن النديم ترجم للجاحظ، وعرّف به تعريفا وافيا، وأفاض فى سرد أسماء كتبه، وشرح أحوالها كلّها أو بعضها.

لذلك تعلّقتْ همتى بمواصلة البحث واستقصائه فيما أعلمه من النسخ المخطوطة التى لا تزال محفوظة ببعض الخزائن المعروفة لنا.

(١) عن : واصل بن عطاء، العلاف، النظّام، ثُمامة بن أشرس، الجاحظ، ابن دؤاد، ابن الراوندى، الناشى، أبوعلى الجُبّائى، الرُّمّانى، ابن زَبْر، هشام بن الحَكَم، شيطان الطاق.

(٢) راجع (ص ٢١٨ — ٢٣٥ من ج ٣) ن المجلة المذكورة (WZKM) الصادر فى سنة ١٨٨٩.

(٣) أُنظر معجم الأدباء (ج ٦ ص ٧٥)، وهذا نصه : قال ابن النديم : "ورأيتُ أنا هذين الكتابين بخط زكريا بن يحيىٰ، ويكنى أبا يحيىٰ، ورّاق الجاحظ".

فكان أوّلَ ما باشرتُ البحث فيه (بالواسطة) هو النسخة الباقية من ذلك الكتاب النفيس بمكتبة المرحوم عارف حكمت (١) بالمدينة المنورة . ولكننى تحققتُ أنها لا تتضمن الضالّة المنشودة .

كذلك كان الشأن فى النسخ الثلاث الباقية بالقسطنطينية ، والأُولىٰ منها محفوظة بخزانة يكى جامع (٢) ، والثانيتان فى مكتبة الكوپريلى (٣) .

ولكنّ هذه النتيجة السلبية لم تُثبط همتى ولم تُقعد عزيمتى . بل واصلتُ البحث والتنقيب حتى عثرتُ فى خزانة الشهيد على باشا بالقسطنطينية (٤) علىٰ النصف الثانى من كتاب "الفهرست" ، وعليه أماراتٌ ربما يؤخذ منها أنه بخط المصنف نفسه . وهى نسخة جليلة جدًّا ، وبخط واضح فى غاية الصحة والضبط (٥) . فنقلتها بالفتوغرافية وضممتُها دُرّة فاخرة إلىٰ خزانة كتبى بالقاهرة . غير أن سوء الحظ قضىٰ أنْ لا تتحقق فيها الأُمنية ، وأن يبقىٰ الظلام حائلا دون بلوغ المرام . فإن هذا النصف يبتدئ من الكلام علىٰ «الواسطىّ» المعتزلىّ ، وينتهى إلىٰ آخر الكتاب .

وهـذا الاسم واردٌ فى النسخة المطبوعة (٦) تحت عنوان المقالة الخامسة ، مباشرة (٧) . ولكنّه جاء فى نسختنا فى رأس الصفحة ، بما يدل علىٰ أنه تالٍ لكلامٍ آخر تقدّم عليه

(١) تحت رقم (٤٤٧) بعنوان "فهرست العلوم القديمة" .

(٢) تحت رقم (٨١٥) وعنوانها "أسامى الكتب المسمّى بالتذكار الجامع للآثار" .

(٣) تحت رقمى (١١٣٤ ، ١١٣٥) ، وكل منهما عنوانه "فهرس العلوم" .

(٤) وفهرسها غير مطبوع للآن .

(٥) محفوظة تحت رقم (١٩٣٤) .

(٦) ص ١٧٢ .

(٧) وقد نبّه الطابع فى تعليقاته باللغة الألمانية علىٰ سقوط بعض الفصول التى يجب أنها كانت تكون واردة فى هذه المقالة قبل الكلام علىٰ "الواسطىّ" .

تحت عنوان تلك المقالة التي يدور فيها الكلام على المعتزلة. وبديهيّ أن القسم الذي عثر عليه العلامة هوتسما هو متقدّم أيضا على الواسطيّ المذكور: لأنه يشتمل على أسماء كثير من كبار المعتزلة، وفي جملتهم الجاحظ.

فلا بدّ أن يكون الكلام على الجاحظ قد جاء في ختام النصف الأوّل بَلْهَ في رأس النصف الثاني من هذه النسخة الثمينة. ولكنْ أين هي تلك الورقات التي تزيل الشك المريب، وتقول لأهل البحث والتنقيب: "قَطَعَتْ جَهِيزَةُ قَوْلَ كُلِّ خَطِيبٍ"؟

فلم يكن لي مناصٌ بعد جميع هذه النتائج السلبية سوى أن أحتسب على الله ما تجشمته من العناء، وأن أتربّص إلى أن تُتيح لنا الأقدار نسخة كاملة صحيحة من كتاب "الفهرست" فنقف منها على ما قاله صاحبه عن الجاحظ ونعرف ما أورده له من أسماء الكتب والمصنفات، وهل فيها إشارة إلى "التاج" أم لا.

استفتاء أبي حيان التوحيديّ

٢ — أبو حيّان التوحيديّ الكاتب الطويل النفَس، ألّف كتابا في "تقريظ الجاحظ". وقد رآه ياقوت الحمويّ ونقل عنه فصولا كثيرة في "معجم الأدباء" وأفادنا أنه نقل ما نقل من خط أبي حيّان (١). ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا أيضا. غير أن الذي نقله عنه ياقوت يدلّ على أن الرجل قد آستوعب فيه الكلام عن الجاحظ، ولا بدّ أن يكون قد آستوفى فيه التعريف بكتبه أيضا. وأين "أين السُّها من كفّ المتطاول"؟ بل أين "أينَ الثُّرَيَّا مِنْ يَدِ الْمُتَنَاوِلِ"؟

(١) أنظر معجم الأدباء (ج ٦ ص ٥٨، ٦٩) في ترجمة الجاحظ.

* * *

بحث عن الكتب المسماة بأخلاق الملوك

حينئذ لم يبق لدينا سندٌ صحيح، ولا نصٌّ صريح ـ قبل ياقوت ـ على أن الجاحظ هو صاحب كتاب "أخلاق الملوك".

فكان حقا علينا أن نقف هُنَيهة لنرى هل هذا النقل صادق وهل هذا الخبر مطابق للواقع.

نترك جانبا ما لنا من الثقة التامة فى أمانة ياقوت الذى كان من أعرف الناس بالكتب ومصنفيها، ونقول:

إذا ما نظرنا فيما وصل إلينا عن الكتب المسماة بـ"أخلاق الملوك" نرى أن الأمر لايتعدّى ثلاثة من الناس، وهم: الفتح بن خاقان، ومحمد بن الحارث التغلبى (أو الثعلبى)، والجاحظ.

فلننظر أيُّهم هو صاحب كتابنا هذا!

التعريف بالفتح ابن خاقان

١ ـ الفتح بن خاقان. هذا الوزير كان من المغرمين بالكتب غراما شديدا. وكانت له خِزانة حكمةٍ لم يرَ الناس أعظم منها: كثرةً وحسنا. جمعها له علىّ بن يحيى المنجم من كتبه ومما استكتبه الفتح نفسه (١).

وقد كان يشمل برعايته كثيرا من أكابر العلماء (٢)، وكان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء البصرة والكوفة (٣). وممن كان فى جملته المفضَّل بن سَلَمَة اللغوىّ المعروف (٤).

(١) أنظر كتاب الفهرست، والوافى بالوفيات (عن القطعة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب الخديوية: فى ترجمة الفتح بن خاقان).

(٢) أنظر كتاب الفهرست فى ترجمته.

(٣) الوافى بالوفيات (عن القطعة السابق ذكرها قبلُ).

(٤) أنظر كتاب الفهرست (ص ٧٣).

وكان الفتح يَتَبَارىٰ فى تفسير الآيات مع المبرد وأمثاله [1] . وللبحترىّ فيه مدائح كثيرة ، هى من غُرر ديوانه [2] . وصنف جماعة منهم كتبا بآسمه ـ أى قدّموها إليه ـ ومن جملتهم الجاحظ ،وكذلك العلّامة الشهير أبوجعفر محمد بن حبيب الذى صنف بآسمه "كتاب القبائل الكبير" [3] . ومثلهما صاحبنا محمد بن الحـارث ، صاحب الكتاب المسمّى "أخلاق الملوك" الذى سيأتى الكلام عليه عما قريب .

فلا غرابة أن رجلا مثل الفتح فى محبته للكتب وآجتماعه بالعلماء ومشاركته لهم فى المباحث الدقيقة يكون هو أيضا من جملة المصنفين . فقد روىٰ له صاحب "الفهرست" أربعة كتب ، وهى :

(١) كتاب الصيد والجوارح ،

(٢) كتاب الروضة والزهر ،

(٣) كتاب البستان ،

(٤) كتاب آختلاف الملوك . (هكذا بالتاء والفاء)

---

(١) أنظر مروج الذهب (ج ٧ ص ١٩٧) .

(٢) يوجد منه ثلاث نسخ مخطوطة بدار الكتب الخديوية ، ثنتان واسعتان متشابهتان ، والثالثة مختصرة . (أنظر الفهرس فى قسم الأدب) . وذلك خلاف النسخة المطبوعة فى "الجوائب" وفيها أغلاط مطبعية كثيرة . وليست المخطوطات من الطراز الأوّل من حيث الصحة والضبط .

(٣) كتاب الفهرست (ص ١٠٧) .

فأما الكتاب الأول، فهو خارج عن موضوعنا وعن دائرة "آختصاصنا" وبحثنا. ولا شبهة لنا فى أنه من تصنيف هذا الوزير، لاسيما أنه يتعلق بأمور، يألفها الملوك والأُمراء والوزراء والسادات. ونحن نعلم أنه كان فارسا مِقْداما وأنه قَتَل أسـدا، علىٰ ما تشهد به إحدىٰ القصائد الطنانة التى مدحه بها البحترىّ.

أما الكتاب الثانى، فسيأتى الكلام عليه عند ذكر محمد بن الحارث.

وأما الثالث (وهو كتاب البستان) فقد صرّح المسعودىّ بأنه ألفه فى أنواع من الأدب[1]. ولكن آبن النديم (الذى هو أعرف بهذه الشؤون) نفىٰ ذلك وأكد لنا أنه "منسوب إليه والذى ألفه رجل يعرف بمحمد بن عبد ربه ويلقب برأس البغل[2]". وهكذا الصفدىّ، فإنه لم يذكر للفتح سوىٰ الكتاب الأوّل (الصيد والجوارح) ثم كتاب البستان هذا، وقد قال عنه: "صنفه رجل يعرف بمحمد بن عبد ربه ويلقب برأس البغل، ونسبه إليه[3]".

فهذه أوّل شبهة يصح لنا أن نستنبط منها أنّ من الكتب المصنفة برسمه، ما قد آشتهر بعده بآسمه، حتّى قال الناس إنه من وضعه.

وأما الكتاب الرابع، فالظاهر أن آسمه ورد محرّفا عن "أخلاق الملوك". ولا نستشهد بأن صاحب "معجم الأدباء" ولا صاحب "كشف الظنون" ولا صاحب

(١) مروج الذهب (ج ٧ ص ١٩٢).

(٢) أُنظر ترجمته فى كتاب الفهرست.

(٣) فى ترجمته فى الوافى بالوفيات (عن القطعة السابق ذكرها قبل).

"الوافى بالوفيات" لم يذكروا أن للوزير كتابا باسم "آختلاف الملوك" أو "أخلاق الملوك" . لأنه ربما يكون قد فاتهم، هذا إن كان. ولكننا نقول هنا إنه يجوز أن يكون هذا الكتاب للفتح، أو لمحمد بن الحارث، أو للجاحظ .

فإن كان للفتح كتاب بآسم "أخلاق الملوك" أو "آختلاف الملوك" فهو على كل حال ليس الذى بأيدينا . لأن كتاب "التاج" يتضمن فى أوله وفى آخره مدحا للفتح آبن خاقان وتنويها بذكره، وينادى صاحبه بأعلى عقيرته أنه قدّمه للفتح بن خاقان (1) .

ولنا أن نتوهم أن صاحب "الفهرست" إنما أراد ـ عند الكلام على الفتح ـ أن يشير إلى الكتاب المترجم بأخلاق الملوك الذى ألفه محمد بن الحارث أو الجاحظ بآسم الفتح، ثم نتوسع فنقول إن آبن النديم لم يذكر لنا مؤلفه الأصلى كما فعل عند كلامه على "كتاب البستان" . ولسنا نبحث عما إذا كان الإهمال حصل من نفس آبن النديم، أو حدث بسبب النقص الكثير الموجود فى النسخة المطبوعة (2) .

وعلى كل حال فليس للفتح بن خاقان شأن فيما نحن بصدده .

كلام عن محمد آبن الحارث

بقى علينا أن نبحث عما يتعلق بابن الحارث التغلبى (أو الثعلبى) الذى يؤكد لنا آبن النديم بأنه ألف كتابا بآسم "أخلاق الملوك" (3) .

أنا لا أمنع أن يكون هذا الرجل ألف كتابا بهذا الآسم وقدّمه إلى ذلك الوزير . وإنما أقول إن ذلك لا يعارض أن يكون الجاحظ أيضا قد ألف كتابا آخر وترجمه

---

(1) أنظر (ص ٤ و ١٨٦) من كتاب التاج .

(2) ففى نسخة كتاب الفهرست مواضع كثيرة لاهل النقد والنظر . مثال ذلك أنها نسبت إلى حسن بن محبوب ثمانية عشر كتابا من الكتب التى ثبت أنها من تآليف الكوفى . أنظر معجم الأدباء (ج ٢ ص ١٣) .

(3) كتاب الفهرست (ص ١٤٨) .

بنفس ذلك العنوان ثم قدّمه إلىٰ الوزير نفسه . فكثيرا ما نرىٰ المتعاصرين يؤلفون كتبا بعنوان واحد و يقدّمونها إلىٰ سريّ واحد[1] .

ولكننى أرىٰ هنالك شبهة قوية تمنع أن يكون الكتاب الذى بأيدينا هو من تأليف محمد بن الحارث .

بيان ذلك :

إن هذا الرجل ألف كتابين آخرين بشهادة آبن النديم . أحدهما كتاب رسائله ، والثانى كتاب "الروضة" .

نقف قليلا عند هذا الكتاب الثانى ، مترددين فى شأنه . أفلا يكون هو نفس الكتاب الذى نسبه آبن النديم للفتح بعنوان "الروضة والزهر"؟ فيكون شأنه حينئذ شأن كتاب "البستان" الذى ألفه رأس البغل ونسبه الناس للفتح !

ولكننا نرجع مسرعين إلىٰ كتاب "أخلاق الملوك" المنسوب لآبن الحارث ، ونأتى بما عندنا من الدلائل علىٰ أنه إذا صح وجوده ، فهو غير الذى بأيدينا .

نعم إن "مروج الذهب" المطبوع فى پاريس أشار إلىٰ "محمد بن الحارث الثعلبى صاحب الكتاب المعروف بأخلاق الملوك المؤلف للفتح بن خاقان"[2] . ولكن النسخة المطبوعة فى بولاق تسميه "أخبار الملوك"[3] ومثلها نسخة أخرىٰ مخطوطة فى "خزانتى الزكيّة" .

(١) أنظر كتاب الفهرست ، ومعجم الأدباء ، وكشف الظنون (فى غير ما موضع) .
(٢) طبعة پاريس (ج ٢ ص ١٢) .
(٣) طبعة بولاق (ج ١ ص ٥ س ١) .

فلِم لا يكون ذلك الرجل كتب كتابه وترجمه "أخبار الملوك" ثم تصحفت الكلمة في النسخة أو النسخ التي كانت أصلا لما آعتمده في طبع "المروج" بباريس ؟ ولم لا يكون حصل مثل ذلك عند طبع "الفهرست" في ليبسك[1] ؟

ولكن ذلك — والحق يقال — لا نعتبره برهانا حاسما في أن هذا الكتاب الذي بأيدينا ليس لآبن الحارث .

لذلك كله لم يبق لدينا سوى وسيلة واحدة لآستطلاع الحقيقة من الكتاب نفسه .

* * *

إستفتاء الكتاب نفسه لمعرفة مؤلفه

فتعالوا بنا نسائله ليخبرنا هو عن مؤلفه الحقيقي بما يزول معه كل آرتياب وتتجلى به الحقيقة ناصعة دون حجاب .

الكتاب يُدلي بحجة صاحبه وينادي على رؤوس الأشهاد بأنه من تأليف الجاحظ .

أسلوب الجاحظ

أوّلا — إن الجاحظ قد آمتاز بأُسلوب مخصوص من الكتابة والتعبير : أُسلوب فيه حلاوة ، وعليه طلاوة ، وله رشاقة ؛ أسلوب تتجلّى فيه الألفاظ العذبة ، والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ، والطبع المتمكّن ، والمعاني التي إذا طرقت الصدور عمرتها ، وإذا صارت إلى القلوب أصلحتها من الفساد القديم ، وإذا جرت على الألسنة فتحت لها أبواب البلاغة .

وها هو "التاج" إذا أجلنا النظر في تضاعيفه وثناياه وأعطافه ، وجدناه حاليا بعيون الكلم الروائع والفقر الحسان ، والنتف الجياد ، مما ينادي بأن صانعه الماهر ، وصائغه الحاذق ، هو هو "الجاحظ" صاحب السبك الجيد ، وربّ الكلام الذي له ماء

(١) وقد ثبت لنا عن ياقوت أن فيها تحريفا كثيرا ، كما أشرنا إليه في إحدى الحواشي المتقدمة (ص ٤٣) .

ورونق، وفيه قرّة العين وجلاء الصـدور . تلك الصنعة عليها طابَع الجاحظ كما هو معهود عند نُقّاد الألفاظ وصيارفة النثار والنظام وجهابذة المعانى .

والشاهد الصادق والحجة القاطعة علىٰ مانقول يتجليـان فى أجمل حُلّة عند ما ينظر القارئ فى الصفحات التى سبقت الإشارة إلىٰ أرقامها(١) .

هنـالك يشنف القارئ سمعـه بالألفاظ المستحسنة فى الآذان، التى تدخل علىٰ الأذهان بغير آستئذان . هنالك يذوق فى كل سطر تلك الحلاوة ويبتهج فؤاده حيال تلك الطلاوة وهاتيك الرشاقة التى آختص بها "الجاحظ" ، إلى ماهو معروف عنه من السهولة والعـذوبة التى تحببـه إلىٰ النفوس . هنالك نجد المعنىٰ يسابق اللفظ، ونشهد اللفظ يجارى المعنىٰ : بطريقة تَهَشُّ لهـا الأسماع، وتلتحم بالعقول، وترتاح إليها القلوب . هنالك نجد اللفظ كريما فى نفسه، متحيزا إلىٰ جنسه، متخيّرا فى نوعه . هنالك نرىٰ الكلام سليما من الفضول، بريئا من التعقيد .

و إليك أمثلةً نؤيد بهـا قولنا، وننقلها هنا حجة علىٰ صدق رأْينا ، ونترك للقـارئ مراجعة الباقى فى سائر المواطن التى نبهناه إليها . أمثلة من صياغته

قال صاحب "التاج" فى صفحة ٢١ :

فإنا قد نرىٰ الملك يحتاج إلىٰ الوضيع للهوه ، كما يحتاج إلىٰ الشجاع لبأسه ؛ ويحتاج إلىٰ المضحك لحكايته ، كما يحتاج إلىٰ الناسك لعظته ؛ ويحتاج إلىٰ أهل الهزل ، كما يحتاج إلىٰ أهل الجدّ والعقل ؛ ويحتاج إلىٰ الزامر المطرب ، كما يحتاج إلىٰ العالم المُتْقِن :

---

(١) فى (ح ١ ص ٣٩) من هذا التصدير .

وفى صفحة ٢٤ :

لم يكن فى هذه الطبقة الثالثة خسيس الأصل ولا وضيعه ، ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول والقِصَر ولا مؤوف ولا مرمىّ بأُبنة ، ولا مجهول الأبوين ، ولا آبن صناعة دنيئة كآبن حائك أو حجّام ، ولو كان يعلم الغيب مثلا .

وفى صفحة ٤٥ :

وللسكر حدّ إذا بلغه نديم الملك ، فأجمل الأمور وأحراها بأخلاقه أن لا يؤاخذه بزلة إن سبقته ، ولا بلفظة إن غلبت لسانه ، ولا بهفوة كانت إحدىٰ خواطره .

والحدّ فى ذلك أن لا يعقل ما يقول ولا ما يقال له ، و إن خُلِّيَ ونفسَه رمىٰ بها فى مهواة ، و إن أراد أحد أخذ ثيابه لم يمانعه .

فأما إذا كان ممن يعرف ما يأتى وما يذر ، وكان إذا رام أحد أخذ ما معه ، قاتله دونه ؛ وكان إذا شتم ، غضب وآنتصر ؛ و إذا تكلم ، أفصح وقل سَقَطُه : فإذا كانت هذه صفته ثم جاءت منه زلة ، فعلىٰ عمد أتاها و بقصد فعلها . فالملك جدير أن يعاقبه بقدر ذنبه . فإنّ ترك عقوبة هذا ومن أشبهه ، قدح فى عزه وسلطانه .

وفى صفحة ٤٨ :

وهذا إبراهيم بن المهدىّ بالأمس . دخل علىٰ (أحمد) بن أبى دؤاد (بن علىّ) وعليه مبطنة ملوّنة من أحسن ثوب فى الأرض ، وقد آعتم علىٰ رأسه رصافية بعمامة خز سوداء لها طرفان خلفه وأمامه ، وعليه خف أصفر ، وفى يده عكازة آبنوس ملوّح بذهب ، وفى أصبعه فص ياقوت تضىء يده منه . فنظر إلىٰ هيئة ملأت قلبه ، وكان جسيما ، فقال : "يا إبراهيم ! لقد جئتنى فى لبسة وهيئة ما تصلح إلا لواحد من الخلق". فآنصرف فلم يأته حتّى مات .

وفى صفحة ٦١ :

ألا ترىٰ أن الملك قد يغضب علىٰ الرجل من حُمَاته ، والرجل من حامته وبطانته : إما لجناية فى سلب مال ، أو لخيانة حرمة الملك ، فيؤخر عقوبته دهرا طويلا ، ثم لا يظهر له ما يوحشه ، حتّى يتق ذلك فى اللحظة والكلمة والإشارة وما أشبه ذلك .

وليست هذه أخلاق سائر الناس ، إذ كنا نعلم أن طبائع الناس الآنتصار فى أوّل أوقات الجنايات وعند أوّل بوادر الغضب .

فأما الملوك وأبناؤهم، فليست تقاس أخلاقهم ولا يعاير عليها . اذ كان أحدهم يضع أعدىٰ خلق الله له بين أذنه وعاتقه، و بين سحره ونحره . فتطول بذلك المدّة وتمرّ به الأزمنة، وهو لو قتله فى أوّل حادثة تكون وعند أوّل عثرة يعثر، لم يكن بين هــذه القتلة و بين الأخرىٰ بعدها بعشرين ســنة فرق . إذ كان لايخاف ثأرا، ولا فى الملك وهنا .

وفى صفحة ٦٦ — ٦٨ :

ومن حق الملك أن لايرفع أحد من خاصته و بطانته رأســه إلىٰ حرمة له، صغرت أم كبرت . فكم من فيل قد وطئ هامة عظيم و بطنه حتّى بدت أمعاؤه، وكم من شريف وعزيز قوم قد مزقته السباع وتمششته، وكم من جارية كانت كريمة علىٰ قومها، عزيزة فى ناديها قد أكلتها حيتان البحر وطير المـاء، وكم من جمجمة كانت تصان وتعلّى بالمسك والبان، قد ألقيت بالعراء، وغيبت جثتها فى الثرىٰ بسبب الحرم، والنساء، والخدم، والأولياء ! ولم يأت الشــيطان أحدا من باب قط حتّى يراه بحيث يهوى منقسم اللحم والأعضاء، هو أبلغ فى مكيدته وأحرىٰ أن يرىٰ فيه أمنيته من هــذا الباب، إذ كان من ألطف مكايده وأدق وساوسه وأحلىٰ تزيينه !

فعلىٰ الحكيم المحب لبقاء هذا النسيم الدقيق، وهذا المـاء الرقيق، أن يطلب دوامهما لنفسه بكل حيلة يجد إليها سبيلا، ويدفع مقارفتها لكل شيء يقع فيه التأويل بين أمرين من سلامة تجبى أو عطب يتلف، ولا يتكل علىٰ خيانة خفيت أو فجرة حظى بها أحد من أهل السـفه والبطالة . فإن تلك لاتسمى سلامة، بل إنمـا هى حسرة وندامة يوم القيامة . وكم من فعلة قد ظهر عليها بعــد مرور الأيام وطول الأزمنة بها، فردّت من كان قد أحسن بها الظن حتّى تركته كأمس الذاهب كأن لم يكن فى العالم !

وفى صفحة ٧١ :

ومن حق الملك — إذا زامله بعض بطانته — أن يكون عارفا بمنازل الطريق وقطع المسافة، دليلا بهدايته وأعلامه ومياهه، قليل التثاؤب والنعاس، قليل السعال والعطاس، معتدل المزاج، صحيح البنية، طيب المفاكهة والمحادثة، قصير المياومة والملايلة، عالمـا بأيام الناس ومكارم أخلاقهم، عالمـا بالنادر من الشــعر والسائر من المثل، متطرّفا من كل فن، آخذا من الخير والشر بنصيب . إن ذكر الآخرة ونعيم أهل الجنة، حدّثه بما أعدّ الله تعالىٰ لأهل طاعته من الثواب فرغبه فيما عنده، وإن ذكر النـار، حذّره ماقرّب إليها . فزهده مرة، ورغبه أخرىٰ . فإن بالملك أعظم الحاجة إلىٰ من كانت هذه صفاته . و بالحرىٰ إذا أصاب هذا، أن لا يفارقه إلا عن أمر تنقطع به العصمة وتجب به النقمة .

ومن حق الملك ، إذا خرج لسفر أو نزهة ، أن لا يفارقه خلع للكساء ، وأموال للصلات ، وسياط للآداب ، وقيود للعصاة ، وسلاح للأعداء ، وحماة يكونون من ورائه وبين يديه ، ومؤنس يفضى إليه بسره ، وعالم يسأله عن حوادث أمره وسنة شريعته ، ومُلْه يقصر ليله و يكثر فوائده .

وفى صفحة ١٠٢ :

والعامة تضع هذا وما أشبهه فى غير موضعه . وإنما هو شيء ألقاه الشيطان فى قلوبهم وأجراه على ألسنتهم ، حتى قالوا فى نحو من هذا فى البائع والمشترى : "المغبون لا محمود ولا مأجور" . فحملوا الجهلة على المنازعة للبزعة ، والمشاتمة للسفلة والسوقة ، والمقاذفة للرعاع والوضعاء ، والنظر فى قيمة حبة ، والأطلاع فى لسان الميزان ، وأخذ المعايير بالأيدى .

وبالحرىٰ أن يكون المغبون محمودا ومأجورا . اللهم إلا أن يكون قال له : آغبنى . بل لو قالها ، كانت أكرومة وفضيلة ، وفعلة جميلة تدل على كرم عنصر القائل وطيب مركبه .

ولذلك قالت العرب : "السّرُوُ التغافُلُ !" .

وأنت لاتجد أبدا أحدا يتغافل عن ماله إذا خرج ، وعن مبايعته إذا غبن ، وعن التقصى إذا بخس ، إلا وجدتَ له فى قلبك فضيلة وجلالة ماتقدر على دفعها .

وقال فى ص ١٤٣ ، عند ردّه على من وصف أبا جعفر المنصور بالبخل ، بعد أن أورد الدلائل والشواهد :

"فهل سمع هذا الجاهل الخائن بمثل هذه المكارم لعربىّ أو عجمىّ ؟ ولو أردنا أن نذكر محاسن المنصور"
"على التفصيل والتقصى لطال بها الكتّاب وكثرت فيه الأخبار" .

"وقلما آستعملت العامة وكثير من الخاصة التمييز ، إيثارا للتقليد . إذ كان أقل فى الشغل وأدل على الجهل"
"وأخف فى المؤونة . وحسبك من جهل العامة أنها تفضل السمين على النحيف ، وإن كان السمين مأفونا"
"والنحيف ذا فضائل ، وتفضل الطويل على القصير ، لا للطول ولكن لشىء آخر لاندرى ماهو ؛ وتفضِّل"
"راكب الدابة على راكب البغل وراكبَ البغل على راكب الحمار ، آقتصارا على التقليد إذ كان أسهل فى المأتى"
"وأهون فى الآختبار" .

أفليست هذه ديباجة الجاحظ ؟ وهلا ترىٰ روحه سارية فى هذه التراكيب الرشيقة الناصعة وتلك الأساليب الأنيقة البارعة ؟

بعض مصادره

ثانيا — إن بعض المصادر التى عوّل عليها صاحب "التـاج" نجدها متفقة مع ماتراه فى الكتب التى لاريب فى أنها من آثار "الجاحظ" .

فقد اعتمد الجاحظ على ابن نجيح(١) وعلى إبراهيم بن السِّنْدِىّ بن شَاهَك(٢) وعلى محمد ابن الجَهْم(٣) وعلى صباح بن خاقان(٤) .

وكذلك شأنه فى النقل عن "كَليلَةَ ودِمْنَه"(٥) .

أما المدائنىّ والهيثم والشَّرْقِىُّ بن القَطَامِىّ، فالنقل عنهم كثير جدّا فى كل كتبه . فلا نطيل بالاستدلال بهم فيما نحن بصدده .

تكرار الجاحظ وترداده

ثالثـا — إن الجاحظ مشهور بالتكرار والترداد . وهو أمر نشاهده أيضا فى كتاب "التـاج" ودليلنا على ذلك ماتراه :

---

(١) فى "التاج" (ص ٤) وفى "الحيوان" (ج ٦ ص ١٢٩).

(٢) فى "التـاج" (ص ١٢) وفى "الحيوان" (ج ٢ ص ٥٠ ، ج ٤ ص ١٣٥ ، ج ٥ ص ١٠٣ ، ١١٩ ، ج ٧ ص ١٢) وفى "البخلاء" (ص ٢٦) وفى "البيـان والتبيين" (ج ١ ص ٤١ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٧٩ ، ١٢٩ ؛ ج ٢ ص ٣٩ و ١٥٤). وفى "مناقب الترك" (ص ٤٧ و ٥٠) وفى "العشق والنساء" (ص ١٦٧).

(٣) فى "التاج" (ص ٥١) وفى "الحيوان" (فى مواضع كثيرة من جميع الأجزاء) وفى "البخلاء" (ص ١٤٨) وفى "البيان والتبيين" (ج ١ ص ٤٥ ، ج ٢ ص ١٦ و ١٦١) وفى "مناقب الترك" (ص ٢٤ و ٣٥).

(٤) فى "التاج" (ص ١١٠) وفى "الحيوان" (ج ٤ ص ١٠٠) وفى "البيان" (ج ١ ص ٤٨ و ١٣٦).

(٥) فى "التاج" (ص ١٣٨) وفى "الحيوان" (ج ٦ ص ١٠٨ ؛ ج ٧ ص ٢٩ ، ٣٠).

١ً ـ فى كلامه علىٰ تفرد الملوك (ص ١٧، ٤٧)؛

٢ً ـ فى بيانه لكمية الشرب وكيفيته (ص ٢٢، ٤٩، ٨٩)؛

٣ً ـ فى شرحه لاستماع حديث الملوك (ص ٥٣، ١١٢)؛

٤ً ـ فى ذكره لطريقة تحديث الملوك (ص ٤٩، ١١٢، ١١٧)؛

٥ً ـ فى سرده سيرة الخلفاء والملوك فى الشرب (ص ٣٢ـ٤٣ و ص ١٥١)؛

٦ً ـ فى إتيانه علىٰ آداب أهل الزلفىٰ بعد المضاحكة (ص ٦١، ٦٨)؛

٧ً ـ فى دلالته علىٰ وجوب الاحتياط علىٰ الملك عند الدتومنه (ص ٥٣، ٧٠).

وهنالك مواضع أخرىٰ من هذا القبيل، أضربنا عن ذكرها لأنها مبثوثة فى الكتاب يراها المتأمل بغير عناء.

إشارته إلىٰ كتبه المتقدمة

رابعا ـ لأن المؤلف نفسه يقول فى صفحة ٥ من "التاج":

ولعل قائلا يقول، إذا رآنا قد حكينا فى كتابنا هذا بعض أخلاق الملوك الماضين من آل ساسان وملوك العرب: "قد ناقض واضع هذا الكتاب إذ زعم أنه ليس لأخلاق الملك الأعظم نهاية". فيظلم فى اللفظ و يعتدى فى المقال. وأولئك الملوك هم عند ملوكنا كالطبقة الوسطىٰ عند النمط الأعلىٰ. أنت تجد ذلك عيانا وتشهد عليه بيانا. وعلىٰ أن هذه المقالة لا يقولها من نظر فى سير من مضىٰ وسير من شاهد. و بالله التوفيق!

و بديهى أن محمد بن الحارث لا يصح له أن يقول مثل هذه الكلمة لأن كتبه الثلاثة "الصيد والجوارح"، و"الروضة والزهر"، و"البستان" لا تحتمل أن تكون موضوعا لبعض "أخلاق الملوك الماضين من آل ساسان وملوك العرب". أما الذى له الحق الصُّراح فى أن يأتى بمثل هذا القول فإنما هو الجاحظ دون صاحبه. وها هى كتب الجاحظ التى وصلت إلينا نراها مفعمة بتفاصيل من هذا القبيل! فما ظنك بالتى ضنّ بها علينا الزمان؟

خامسا — لأن مصنف "التاج" يقول فى خطبته : "إنا ألفنا كتابا قبل كتابنا هذا فيه أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة . وكان غير ذلك أولى بنا وأحق فى مذهبنا وأحرى أن نصرف عنايتنا إلى ما يجب للملوك من ذكر أخلاقها وشيمها[1]". تصريحه بكتاب معين له

سادسا — إن المؤلف يعود فيؤكد ذلك بقوله : "فرأينا إذ أخطأنا فى تقديمنا أخلاق أهل البطالة — وإن كان فيها بعض الآداب وما يحتاج إليه أهل الشرف من محاسن الأخلاق — أن نتلافى ما فرط منا بوضع كتاب فى أخلاق الملوك وخصائصها التى هى لها فى أنفسها[2]" . تأكيده لهذا التصريح

فهذان نصان صريحان فى أن الذى ألف كتابا فى أخلاق أهل البطالة هو نفس الذى صنف كتاب " أخلاق الملوك " . ولا مِرْيَةَ عند أحدٍ فى أن الجاحظ هو الذى صنف كتاب الفتيان وأخلاق أهل البطالة (كما يشهد به ياقوت والصفدى وابن شاكر) .

*
* *

فوجب علينا حينئذ أن نجزم القول ونبرم الحكم بأن الجاحظ هو هو صاحب هذا الكتاب . النتيجة والحكم

أما محمد بن الحارث التغلبى (أو الثعلبى) فلم يقل أحد قط إنه كتب شيئا فى أخلاق الفتيان وأهل البطالة .

---

(١) أنظر كتاب التاج (ص ٣ س ٢ — ٤) .

(٢) أنظر كتاب التاج (ص ٤ س ١٠ — ١٢) .

وبناء على ذلك فليس يصح لإنسان أن يقول بعد الآن إن لهذا الرجل شأنا تما في الكتاب الذى نقدمه اليوم إلى أهل الفضل والأدب .

وها نحن ، بحمد الله، قد وفّينا البحث حقه بما وصلت اليه طاقتنا وانتهى إليه وسعنا . ولم نأل جهدا فيما شرطه الجاحظ (فى البيان والتبيين، ج ١ ص ٤) من حيث الإفصاح بالحجة والمبالغة فى وضوح الدلالة لتكون الأعناق إليه أميل والعقول عنه أفهم والنفوس إليه أسرع . والله ولىّ الهداية والتوفيق .

أحمد زكى

عن "الخزانة الزكية" بالقاهرة فى سنة جمادى الأولى ١٣٣٢ / أبريل ١٩١٤

حاشية :

أرى من واجبى أن أذكر بالشكر المعاونة الثمينة التى بذلها لى صديقى المفضال نعمت الله افندى البغدادى المشتغل بمهنة المحاماة بالقسطنطينية . فقد جعل نفسه وقفا على خدمتى ومساعدتى أثناء اشتغالى فى عاصمة الخلافة الإسلامية بجمع المواد التى كانت أساسا لمشروع "إحياء الآداب العربية" . وكان فى كل معاملاته معى مثالا للإخلاص وعنوانا للأمانة . وله اليد الطولى فى خدمة هذا الكتاب بنوع أخص ، لأنه تفضل وراجع بمزيد الدقة تجارب المطبعة على النسخة المحفوظة فى آياصوفيا قبل أن تصلنى صورتها الفتوغرافية . فكان حقا علىّ أن أسطر له آية من الشكر فى تضاعيف هذا السفر .

أ . زكى

بعد التحرير

وفيه تعريف بنسخة ثالثة من كتاب "التاج"

مكتوبة فى مدينة حلب الشهباء

كان إرسال كتاب "التاج" إلىٰ المطبعة الأهلية فى يوم ١٧ محرم سنة ١٣٣٠ (٧ يناير سنة ١٩١٢) بأمر رسمىّ من نظارة المعارف العمومية .

من ذلك العهد توفّرتُ علىٰ خدمته بتحقيق ألفاظه وعباراته وإنعام البحث فى مبانيه ومعانيه وتحلية حواشيه وتصحيح مسوّداته وتجاربه ، ثم آنقطعتُ لكتابة "التصدير" وتكميل الحواشى وتحرير الفهارس حتى فرغتُ من ذلك كله فى يوم الأربعاء ٢٠ ذى الحجة سنة ١٣٣١ (١٩ نوفمبر سنة ١٩١٣) . فأرسلتُ للمطبعة الأميرية الإذن بآعتماد الطبع نهائيا .

ولكن الأقدار ساقت لى نسخة ثالثة من "التاج" علىٰ غير آنتظار . فقد حضر إلىٰ القاهرة فى يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٩١٣ رجلٌ من الذين يتعاطَوْن تجارة التحائف والطرائف بمدينة فلورانسة ، من أعمال إيطاليا ، وهو جناب المسيو شرمان S. Sherman ومعه طائفة من الكتب الخطية باللغة العربية والتركية والفارسية مما آشتراه من القسطنطينية من المجموعة التى تضمنتها خزانة خالص بك . وقد طلب منى مشاهدة مامعه من الأسفار ، فتصفّحتُها واحدا واحدا ، وليس فى وسعى أن أصف آبتهاجى وسرورى حينما عثرتُ فى جملتها علىٰ نسخة من كتاب "التاج" .

لذلك أسرعتُ فطلبتُ من المطبعة إيقافَ طبع التصدير والفهارس إلىٰ أن يتم لى تصفُّح هذه النسخة الثالثة التى أُسميها "بالحلبية" .

راجعتُ هذه النسخة على طبعتى كلمةً كلمةً وحرفا حرفا . فألفيت فى "الحلبية" أغلوطات كثيرة، وتحريفات متعددة . ووجدتُ فيها بعضا من العبارات التى اعتمدتها فى طبعتى، نقلا عن نسخة آيا صوفيا . ولست أتكلم عما فى "الحلبية" من التحريف الذى قلما تخلو منه صفحة واحدة بل سطر واحد، ولا عما تضمّنته من الحروف والكلمات الزائدة أو الناقصة، ولا عن العبارات المبتورة . فإن الذى يَعْنِينى منها إنما هو بعض ماتضمّنته من الزيادات التى فيها فائدة جوهرية، أو قد يكون لها شبه مزية عَرَضية . هذه الزيادات هى التى اكتفيتُ بتحريرها فى باب عنونتُه باسم "استدراك" وأضفته عقب باب "التصحيحات" حتى يكون "التاج" متحليا بكل ما يمكن من مزايا الجمال والكمال .

* * *

أمّا وقد سبق لى وصف النسخة السلطانية (س) فى صفحة ٢٧ و٢٨ ونسخة آيا صوفيا (ص) فى صفحة ٣١ و٣٢ من هذا التصدير، فلا بدّ لى من أن أقول فى هذا المقام إننى أكملتُ كلًّا من هاتين النسختين بالأخرى، وأتعبتُ نفسى كثيرا فى تصحيح ما أودعه فيها الناسخان الماسخان من سخافات وحماقات وضلالات، ومن تشويهات وتبديلات وجهالات .

ذلك بأنى شمّرتُ عن ساعد الجِدّ ، وراجعتُ كتب الثقات، وبذلتُ كل ما فى الطوق لتقويم المعوجّ وإصلاح الخطل بما وسعه الجهد وبلغه المقدور، حتى جاءت طبعتى لكتاب "التاج" جامعةً لكل ما جاء فى النسختين المذكورتين على قسطاس مستقيم، فأصبحتْ وافية من كل وجه بما يتطلبه أهل العلم والتحقيق، ويستغنِى بها القارئ عن الأصلين متحدين أو منفردين .

*
* *

والآن أرىٰ من الواجب تخصيص كلمة أخرىٰ للتعريف بالنسخة "الحلبية" فأقول :

إنها موجودة فى مجموعة تشتمل علىٰ كتابين، وليس فى أحدهما عنوان .

فأما الأوّل فيتضمن آداب الملوك ونصائحهم، وأما الثانى فهو كتاب "التاج" .

علىٰ الصفحة الأولىٰ من هــذه المجموعة عبارة تفيد أنها دخلتْ فى نوبة "خويدم الفقراء النقشبندية السيد أحمد نجـل المرحوم المبرور الشـيخ داود افندى النقشبندى الخـالدى عُفِى عنهما فى ١٩ شوّال سنة ١٣٠٨" .

وأنا أعلم علم اليقين أنّ هذه المجموعة قد دخلتْ بعد ذلك التاريخ فى خزانة كتب خالص بك من رجالات السلطان عبد الحميد الثانى المخلوع فى عصرنا هـذا . فإن الخواجه شرمان وشركاءه قد اشـتروا هذه الخزانة أومعظمها منذ سـنة أوأقلّ من سنة من خالص بك المشار إليه .

وأعود لوصف نسخة "التاج" الموجودة فى هـذه المجموعة "الحلبية" فأقول علىٰ وجه الإجمـال : إنها تشـترك مع (ص) فى كثير من الزيادات التى تضمنتها، وتشـترك مع (س) فى بعض العبارات التى انفردتْ بها . (وحينئذ فهذه النسـخ الثلاث التى وقعت لى هى صادرة عن ثلاث أمهات أصلية متغايرة) .

أما هذه النسخة "الحلبيـــة" فهى مكتوبة بقلم النسـخ العادىّ الذى كان مستعملا فى القرن التاسع الهجرىّ . وهى تقع فى ١٠٥ صفحات، فى كل صفحة منها ١٧ سطرا . ولكنها مبتورة من آخرها . ذلك لأنها تنتهى عند قول الجاحظ :

"ولولا أن يطول كتابنا فى إسحاق وذكره وحكينا (كذا) مناقبه لحكينا عنه أخبارا كثيرة ، وهى من هـذا الجنس وفيما ذكرناه كفاية . والله أعلم بالصواب" .

فهذه العبارة هى الواردة فى صفحة ١٧١ من طبعتنا . وإنما أضاف إليها الناسخ الحلبى قوله "والله أعلم بالصواب" ليختم الكتاب . وعلى ذلك تكون النسخة الحلبية ناقصة ١٥ صفحة من طبعتنا ، أى ١٧ صفحة من النسخة السلطانية ، أى ١٣ صفحة من نسخة آيا صوفيا .

ومما ينبغى إعادة التنبيه اليه أن هـذه النسخة خِلْو من العنوان . والأمر المهم فيها أنها تتضمن فى الصفحة الأولى نسبة الكتاب إلى الجاحظ . فإنها مصدّرة بعد البسملة بهذه العبارة :

"قال الشيخ الإمام العالم العلامة ذو التصانيف المفيدة والمقاصد الحميدة أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله"[1] .

والأمر الأهم فيما يعنينا أن آخر صفحة منها تتضمن اسم الكاتب لها وموضع نسخها والخِزانة التى كانت بها . فقد ورد فيها مانصه بالحرف الواحد :

"بلغ المقابلة من هذا الكتاب بالمدرسة المعروفة بإنشاء الخواجا أمير حاج بن جنيد ببانقوسا[2] بحلب المحروسة ، فى السادس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة . وكتبه عبد الله بن عمر الشافعى[3]" .

(١) أنظر الراموز الفتوغرافى فى صفحة ٨١ وقد نقلناه عن الأصل بإذن صاحبه المسيو شرمان .

(٢) بانقوسا (بفتح النون كما فى ياقوت ، ولكن أهلها ينطقون به ساكنا الآن) هى قرية كبيرة كانت خارج سور حلب وفيها جامع قديم مشهور . وقد اتصلت العمارة بينهما حتى صارت الآن جزءا من المدينة . ولا تزال بها آثار تلك المدرسة ولكن أطلالها دارسة ، ومعالمها طامسة . وهى من المدارس المهجورة . وأنظر الراموز الفتوغرافى فى صفحة ٨٣ وقد نقلناه عن الأصل بإذن صاحبه المسيو شرمان .

(٣) كلمة "الشافعى" قرأتها بالتخمين . وفى كتابتها إبهام كثير فلذلك لا أضمن صحة القراءة .

فهــذه العبارة الأخيرة لها فائدة كبيرة فى التحقيق . لأنها تدل أوّلا على أن هــذا الكتاب كان معروفا فى ســنة ٨٨٤ بأنه من تأليف الجاحظ ، ولأنها جاءت مؤكدة لما قاله ياقوت قبل ذلك بثلاثة قرون من حيث إن للجاحظ كتابا فى أخلاق الملوك . فهذا هو الســند التــاريخىّ الذى تخيلناه فى مبــاحثنا وتحقيقاتنا على ما يراه القــارئ فى "التصدير" حينما سقنا الدليل وراء الدليل على أن هذا الكتاب من تأليف الجاحظ بلا جدال ولا إشكال .

ومن سوء الحظ أن الناسخ الحلبىّ لم يضع لنا فى أوّل نسخته اسم "التاج" ولا اسم "أخلاق الملوك" . فسواء كان الكتاب معروفا فى ذلك الوقت بهذا الاسم أو بذاك العنوان فلا ريب بعد هــذه الشهادة التاريخية الثابتة ثبوتا حاسما فى أن هذا الكتاب هو من كتب الجاحظ دون سواه . وكأنّ الأقدار أرسلت لنا هــذا الدليل الناطق وهــذا البرهان القاطع لتأييد البحث الذى سهرنا عليه الليالى وأوفيناه قسطه من التحقيق الدقيق حتّى وصلنا إلى الغاية التى جاءت النسخة الحلبية مصدّقة لها بمــا فيه تمــام الإقناع ونهاية اليقين .

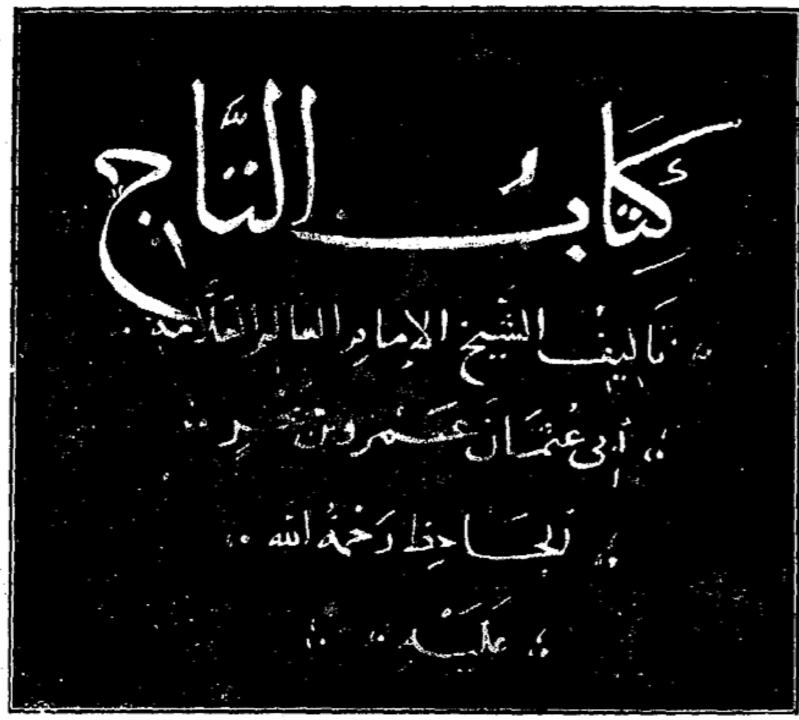
أ . زكى

رامـــــوز

لكتاب أرسله لى أحد أفاضل العلماء المستشرقين بالروسيا، وهو الأستاذ أغناطيوس كروتشوفسكى . وقد كان قابلنى بالقاهرة وفاوضته فى شأن " التاج " وغيره من نفائس المصنفات .

رأيتُ من الواجب إثبات هذا الكتاب علىٰ صورته الأصلية وبخط صاحبه ، لكى يعرف قومنا مقدار عناية الأفرنج بآثار أجدادنا وتفانيهم فى البحث عنها . وإنى أشكره علىٰ هذه العنايه ، وأهنِّيه علىٰ بلوغه فى فن الإنشاء العربى هذه الغايه .

(كما تراه فى الصفحتين التاليتين)



كتاب التاج

تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة

أبى عثمان عمرو بن بحر

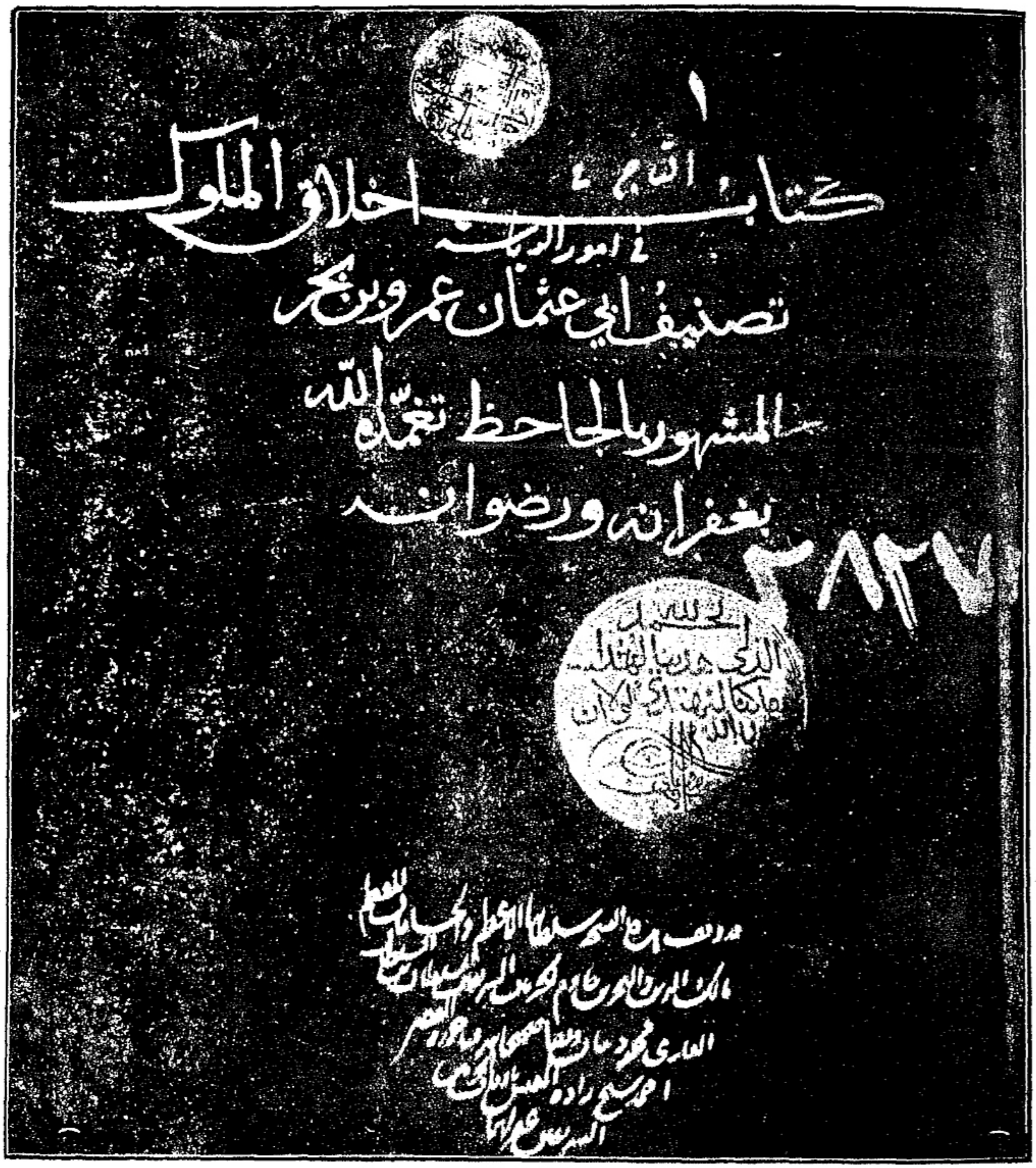
الجاحظ رحمة الله

عليه

(الراموز الاول)

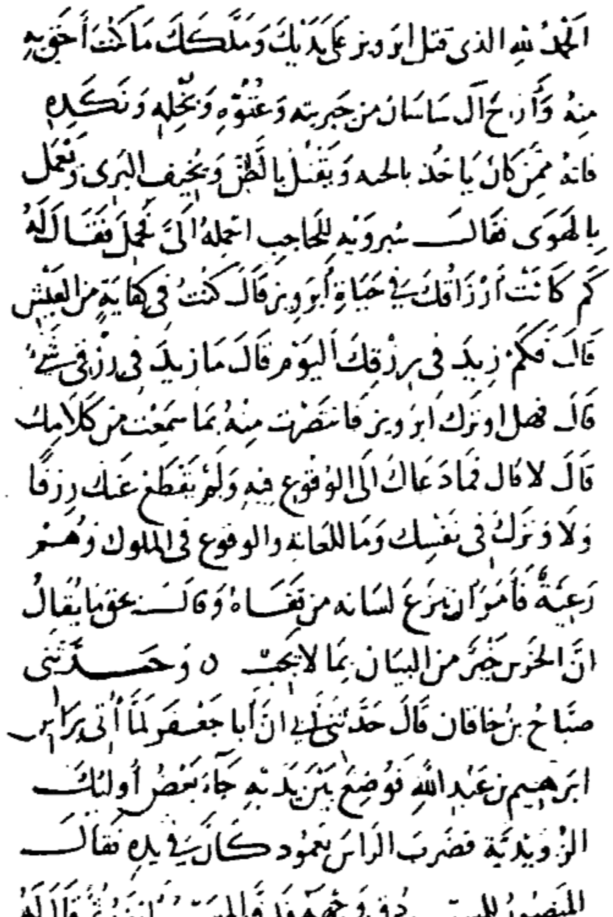
تمثل فيه طرة النسخة السلطانية (المرموز لها فى حواشى هــذه الطبعة بحرف س)

وهذه النسخة محفوظة بخزانة طوپ قپو بالقسطنطينية ، رقم ١٣٣ أدب .


كتاب أخلاق الملوك
تصنيف أبي عثمان عمرو بن بحر
المشهور بالجاحظ تغمده الله
بغفرانه ورضوانه
٢٨٢٧

(الراموز الثانى)

تمثل فيه طرة النسخة الثانية المحفوظة بخزانة آياصوفيا تحت رقم ٢٨٢٧ .
وهذه النسخة هى المرموز لها بحرف صـ فى هذه الطبعة


الحمد لله الذي قتل ابرويز على يديك وملّكك ما كنت أحق به
منه وأراح آل ساسان من جبريته وعتوّه وبخله ونكده
فإنه ممن كان يأخذ بالحنة ويقتل بالظن ويخيف البرى ويعمل
بالهوى فقال شيرويه للحاجب احمله إلى محمل فقال له
كم كانت أرزاقك في حياة أبرويز قال كنت في كفاية من العيش
قال فكم زيد في رزقك اليوم قال ما زيد في رزقي شيء
قال فهل أوترك أبرويز فانتصرت منه بما سمعت من كلامك
قال لا قال فما دعاك إلى الوقوع فيه ولم ينقطع عنك رزقا
ولا وترك في نفسك وما للعامة والوقوع في الملوك وهم
رعية فأمر أن ينزع لسانه من قفاه وكان يقال
إن الخرس خير من البيان بما لا يجب ٥ وحدثني
صباح بن خاقان قال حدثني أبي أن أبا جعفر لما أتى برأس
ابرهيم بن عبد الله فوضع بين يديه جاء بعض أولئك
الزيدية فضرب الرأس بعمود كان في يده فقال
المنصور للمسيب دق وجهه فدق المسيب أنفه ثم قال له

(الراموز الثالث)

تمثل فيه إحدى صفحات النسخة السلطانية (وهى صفحة ٩٣ من الأصل ،

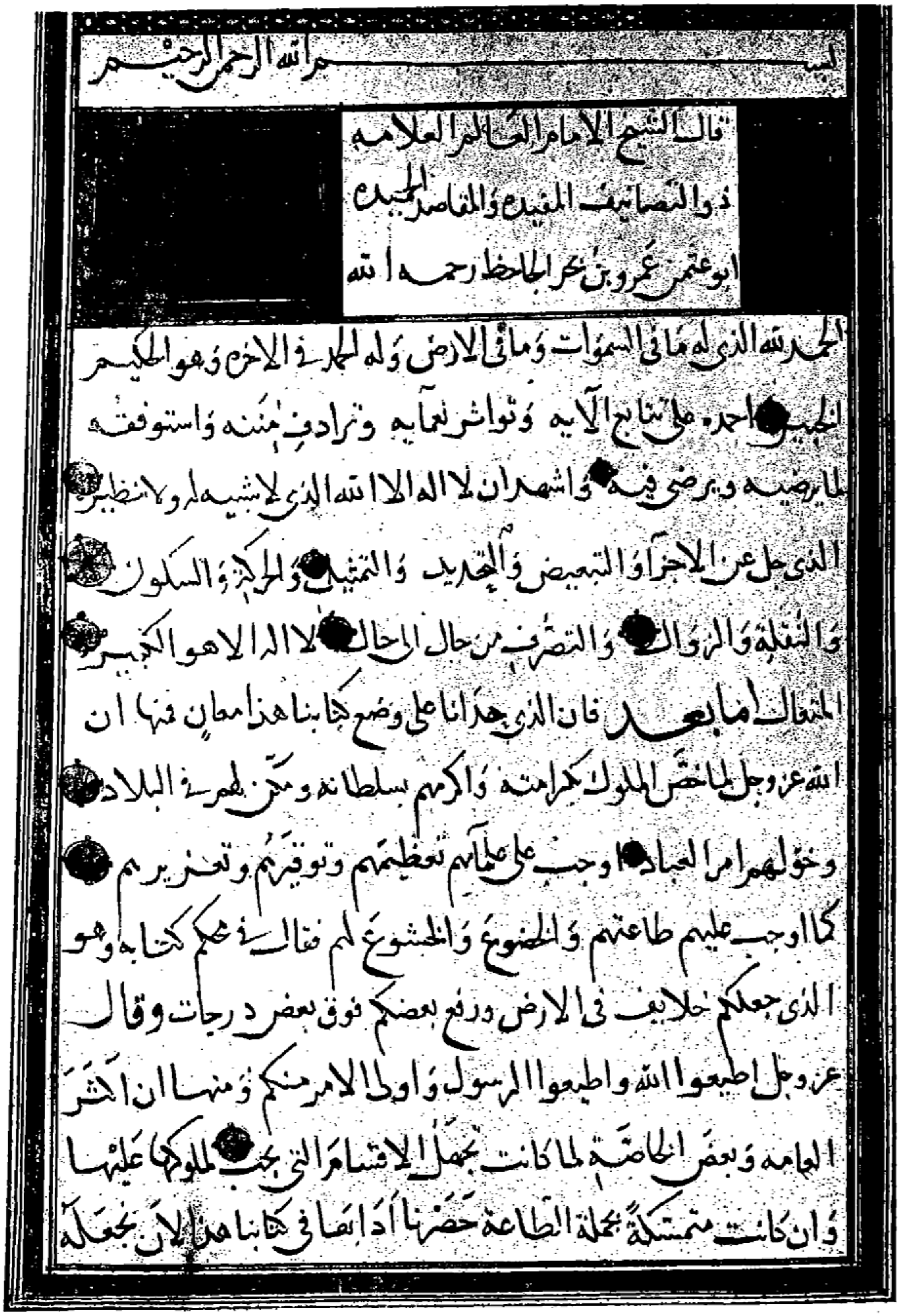
و يقابلها صفحة ١٠٩ ـ ١١١ من هذه الطبعة) .

٢٩

الآن وعرفت غرضه فقلت آخذ سبعين ولك ثلثون قال شأنك فانصرفت
بسبعين بدرة وانصرف ملك الموت عن الدار   قال وكان الرشيد
في اخلاق ابي جعفر يشبهه كلها الا في العطايا فانه كان يتبع افعال
ابي العباس والمهدي ومن اخبرك انه رآه يشرب الا الماء فكذبه وكان
لا يحضر شربه الا خاص جواريه ومن تمام طرب الغناء فتحرك حركة بين
الحركتين في الثقل والكرم وهو من بين خلفاء بني العباس من جعل
للمغنيين مراتب وطبقات على ما وضعهم اردشير وانوشروان وكان
ابرهيم وابن جامع وزلزل في الطبقة الاولى وكان زلزل يضرب ويغني
هذان عليه والطبقة الثانية سليم بن سلام وعمرو الغزال ومن
اشبههما والطبقة الثالثة اصحاب المعازف والونج والطنابير
وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصلاتهم   وكان اذا وصل
واحدا من الطبقة الاولى بمال كثير خطير جعل لصاحبيه الذين
معه في الضمة نصيبا منه وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه

(الراموز الرابع)

تمثل فيه إحدى صفحات النسخة المحفوظة فى آياصوفيا (وهى صفحة ٢٩ ، و يقابلها صفحة ٣٧ — ٣٩ من هذه الطبعة) .

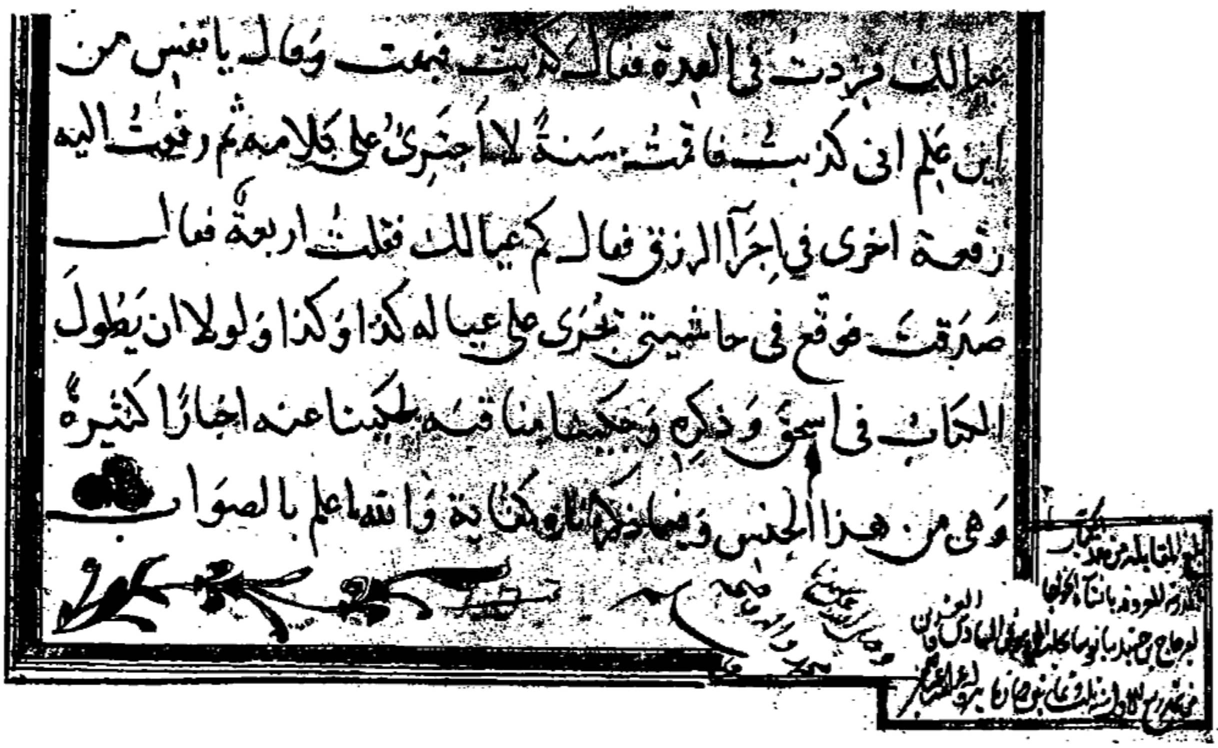


بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام العالم العلامه
ذو التصانيف المفيده والمقاصد الحميده
ابو عثمن عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله

الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض وله الحمد في الاخرة وهو الحكيم
الخبير احمده على تتابع آلايه وتواتر نعمايه وترادف مننه واستوفقه
لما يرضيه ويرضى فيه واشهد ان لا اله الا الله الذي لا شبيه له ولا نظير
الذي جل عن الاجزاء والتبعيض والتحديد والتمثيل والحركة والسكون
والنقلة والزوال والتصرف من حال الى حال لا اله الا هو الكبير
المتعال اما بعد فان الذي حدانا على وضع كتابنا هذا معان فمنها ان
الله عز وجل لما خص الملوك بكرامته واكرمهم بسلطانه ومكن لهم في البلاد
وخولهم امر العباد اوجب على علمايهم تعظيمهم وتوقيرهم وتعزيرهم
كما اوجب عليهم طاعتهم والخضوع والخشوع لهم فقال في محكم كتابه وهو
الذي جعلكم خلايف في الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات وقال
عز وجل اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ومنها ان اكثر
العامه وبعض الخاصة لما كانت تجهل الاقسام التي يجب لملوكها عليها
وان كانت متمسكة بجملة الطاعة حضرنا اداءها في كتابنا هذا لان نجعله

(الراموز الخامس)
تمثل فيه الصفحة الاولى من النسخة الحلبية (المكتوبة فى سنة ٨٨٣ هجرية)



عيالك فزدت في العدة فقال كذبت فهمت وقال يا نفس من
اين علم اني كذبت فاقمت سنة لا اجترئ على كلامه ثم رفعت اليه
رقعة اخرى في اجرا الرزق فقال كم عيالك فقلت اربعة فقال
صدقت فوقع في حاشيتي تجرى على عياله كذا وكذا ولولا ان يطول
الكتاب في سخو وذكره وحكينا ما فيه لحكينا عنه اخبارا كثيرة
وهي من هذا الجنس ومما ذكرنا كفاية والله اعلم بالصواب

(الراموز السادس)

تمثل فيه الصفحة الأخيرة من النسخة الحلبية

(أنظر صفحة ١٧١ من طبعتنا)

بسم الله الرحمن الرحيم

"الحمدُ لِلّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الحمدُ فِى الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ." (٣)

أحمَده على تتابُع آلائه، وتواتُر نعائه، وترادُف مننه؛ وأستهديه وأستوفقُه لما يُرضيه ويَرضى فيه.(١)

وأشهد أنْ لاإلٰه إلّا الله الذى لاشبيهَ له ولا نظير، الذى جلّ عن الأجزاء والتبعيض، والتحديد والتمثيل، والحركة والسكون، والنُّقْلة والزوال، والتصرُّف من حال إلىٰ حال. لاإلٰه إلّا هو الكبير المتعال!

*وأشهد أن محمّدًا عبدُه ورسولُه وأمينه ونجيّه! ابتعثه على فَترة من الرسالة وطُمُوس من الهداية ودروس من شرائع الأنبياء والمرسَلين "لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ" والعربُ تَئِدُ أولادها وتتسافك دماءها وتتباوج(٢) أموالَها وتعبُدُ اللّاتَ والعُزّى ومَنَاةَ الثالثةَ الأُخرىٰ، فصدع بأمر ربّه، وجاهد فى سبيله، ودعا إلىٰ معالم

(١) هذه الكلمة مأخوذة عن صـ .

(٢) الوارد فى صـ : "تتاوح". ولما كان السياق يدل على التناهب واستباحة الأموال، فلذلك صححتُ الكلمة بردّها إلى مادة (ب و ح). قال فى لسان العرب: "والإباحةُ شِبْهُ النُّهْبَى، وقد استباحه أى انتهبه". على أننى لم أعثر على هذا الحرف مستعملا بصيغة التفاعل.

دينه، وجاء بما أعجز الجنّ والإنس أَنْ يأْتُوا "بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا."

فصلّى الله عليه وعلىٰ جميع المرسَلين! وخصَّه بصَلاةٍ من نوافله دون العالَمين! وعليه السلام ورحمة الله وبركاته![(١)]

أما بعـد،

فإنّ الذى حدانا علىٰ وضع كتابنا هذا معانٍ:

منها أنّ الله (عزّ وجلّ) لمّا خصّ الملوكَ بكرامته، وأكرمهم بسلطانه، ومكّن لهم فى البلاد، وخوّلهم أمْرَ العباد، أوْجبَ علىٰ علمائهم تعظيمَهم وتوقيرهم وتعزيزهم وتقريظَهم، كما أوجب عليهم طاعتَهم والخضوعَ والخشوعَ لهم. فقال فى مُحْكَم كتابه: "وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ."

وقال عز وجلّ: "أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ."

(٣) ومنها أنّ أكثرَ العامّة وبعضَ الخاصّة، لمّا كانت تجهل الأقسام التى تجب لملوكها عليها — وإن كانت مُتمسِّكةً بجُمْلة الطاعة — حصَرْنا آدابَها فى كتابنا هذا لنجعلها قدوةً لها وإمامًا لتأدُّبها.[(٢)]

وأيضا فإنّ لنا فى ذلك أجْرَيْن: أما أحدُهما فلِمَا نَبَّهْنا عليه العامّةَ من معرفة حقّ ملوكها، وأما الآخَرُ فلِما يجب من حقّ الملوك علينا من تقويم كلّ مائل عنها وردّ كلّ نافرٍ إليها.

ومنها أنّ سعادة العامّة فى تبجيل الملوك وطاعتها، كما قال أردشير بن بابَك: "سعادةُ الرعية فى طاعة الملوك، وسعادةُ الملوك فى طاعة المالك."

---

(١) الفقرتان المحصورتان بين نجمتين ** مأخوذتان عن صـ.

(٢) فى صـ لتأديبها.

ومنها أنّ الملوكَ هم الأُسّ، والرعيّة هم البناء. وما لا أُسَّ له مهدومٌ.

ومنها أنّا ألّفنا كتاباً قبل كتابنا هذا، فيه أخلاقُ الفتيانِ وفضائلُ أهلِ البَطالة[1]، وكان غيرُ ذلك أولىٰ بنا وأحقَّ في مذهبنا[2] وأحرىٰ أنْ نصرف عنايتنا إلىٰ ما يجب للملوك من ذكر أخلاقها وشِيَمِها، إذ فضّلها الله علىٰ العالَمين، وجعل ذكرها في الباقين إلى يوم الدِّين.

ألَا ترىٰ حين ذكر الله تعالىٰ الأُمَمَ السالفة والقرون الخالية، لم يقصِدْ من ذكرها إلىٰ وضيع ولا خامل؟

بل قال تعالىٰ حكاية عمّن مضىٰ منهم: "رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا." وقال تبارك اسمه: "اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ."

وقال جلّت عظمته: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ."

وقال جلّ وعلا: "وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ."

وقال تقدّست أسماؤه: "إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً."

وقال تبارك وتعالىٰ: "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ."

وقال عزّ وجلّ، وقد بعث موسىٰ عليه السلام إلىٰ أعتىٰ خلقه وأشدّهم عُنوداً وصُدوفاً عن أمره: "اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ."

(١) فسرها في صـ بالشجاعة، وحينئذ تكون مماثلة للفظة Héroïsme عند الفرنسيين.
(٢) في صـ: طبعنا.

فلْيَفْهمِ الحكماء هـذه الأُعجوبةَ التى وصلتْ عنِ الله تبارك وتعالىٰ! فإنَّ فيها حكمةً عجيبةً ومَوْعِظةً بليغةً وتنبيهًا لمن كان له قلبٌ .

حدّثَنـا أصحابُنا عن شَـبابة عن ورقاء عن ٱبن أبى نَجِيحٍ[(١)] عن مُجاهـدٍ فى قوله تبارك وتعالىٰ: ‹‹فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا››[(٢)] قال : كَنِّياه . (٥)

وإنّما أمرَهما بذلك لأن الملوكَ ــ وإنْ عصىٰ أكثرُها ــ فمن حقّها أنْ تُدْعىٰ إلىٰ الله بأسْهل القول وألْين اللفظ وأحسن المخاطبة . فإذا كان هـذا حُكمَ الله فى العاصى من الملوك والذين ٱدّعَوُا الرُّبوبيّةَ وجحدوا الآياتِ وعاندوا الرُّسلَ ، فما ظنُّك بمن أطاع اللهَ منها ، وحَفظ شرائعَهُ وفرائضَــهُ ، وقُلِّد مَقامَ أنبيائه ، وجَعَلَهُ الحُجّةَ بعد حُجَّته ، وفَرَضَ طاعتَهُ حتّىٰ قَرَنَها بطاعته وطاعة رسوله ، صلّىٰ الله عليه وسلم؟

فرأينـا ــ إذ أخطأْنا فى تقديمنا أخلاقَ أهل البَطَالة ، وإن كان فيها بعضُ الآداب وما يَحتاج إليــه أهلُ الشرف من محاسن الأخلاق ــ أنْ نتلافىٰ مافرَط منّـا بوضع كتابٍ فى أخلاق الملوك وخصائصها التى هى لهـا فى أنفسها ، وأن نَخُصَّ بوضع كتابنا هذا **الأمير الفتح بن خاقان** مولىٰ أمير المؤمنين : إذ كان بالحكمة مشغوفا ، وعلىٰ طلبها مثابرا ، وفيها وفى أهلها راغبا ، ليبقىٰ له ذكرُهُ ويحيا به ٱسْمُهُ ، ما بَقِيَ الضياء والظلام . وبالله التوفيق والإعانة ! إهداء الكتاب

---

(١) فى ص : حدّثنا أصحابنا عن مقدام عن ٱبن أبى نجيح . وكلهم من رواة الحديث .

(٢) فى هامش ص : ‹‹وكان له ثلاث كُنًى : أبو العباس وأبو الوليد وأبو مُرّة›› . وٱنظر كتب التفسير ، وٱنظر ‹‹المستطرف فى كلّ فنّ مستظرف›› للأبشيهىّ (ج ٢ ص ٤٤) .

الفاتحة (١)

*وبعدُ، فإنّ أكثر كلامنا فى هذا الكتاب إنّما هو علىٰ مَن دُونَ الملك الأعظم. إذ لم يكن فى ٱستطاعتنا أنْ نَصِفَ أخلاقه، بل نعجِزُ عن نهاية ما يجب له لو رُمْنا شرحَها. وأيضًا فإنّ مَن تكلَّفَ ذلك بعدَنا من الناس بأقصىٰ تكلُّفٍ وأَغْوَرِ تَهَيٍّ وأحدِّ فكرٍ، فلعلّه أن يعتذر بمثل ٱعتذارنا.

وليس لأخلاق الملك الأعظم نهايةٌ تقوم فى وَهْمٍ، ولا يُحيط بها فكرٌ. وأنت تراها تتزيّد مذ أوّل مَلِكٍ مَلَكَ الدنيا إلىٰ هذه الغاية. ومَن ظنَّ أنّه يبلغ أقصىٰ هذا المدىٰ، فهو عندنا كمَن قال بالتشبيه مَثَلًا (٢)، و بالجسم مُعارَضَةً.

ولعلّ قائلًا يقول، إذا رآنا قد حكَيْنا فى كتابنا هذا بعض أخلاق الملوك الماضين من آل ساسانَ وملوكِ العرب: «قد ناقض واضعُ هذا الكتاب، إذ زعم أنه ليس لأخلاق الملك الأعظم نهايةٌ.» فيظلِمُ فى اللفظ و يعتدى فى المقال. وأولئك الملوك هم عند ملوكنا كالطبقة الوُسطىٰ عند النَّمَط الأعلىٰ. أنت تجد ذلك عِيانًا وتشهده عينك (٣) بيانًا. وعلىٰ أنّ هذه المقالة لا يقولها مَن نظر فى سِيَرِ مَن مضىٰ وسِيَرِ مَن شاهَدَ. و بالله التوفيق!*

---

(١) وضعنا هذا العنوان للفقرات الثلاث التالية له المحصورة بين نجمتين * * وكلها منقولة عن صـ.
(٢) فى الأصل وهو صـ: كما.
(٣) فى الأصل وهو صـ: وتُشهِد عليك بيانًا.

(٦)

بـاب

فى الدخول على الملوك وفيما يجب على الملك إذا دخل الرجلُ عليه

الاشراف وسلامهم وقعودهم وآنصرافهم

إن كان الداخلُ من الاشراف والطبقة العاليـة، فمن حقِّ الملك أن يقف[(١)] منـه بالموضع الذى لاينأى عنـه ولا يقرب منـه، وأن يسـلِّم عليه قائمـا. فإنِ آستدناه، قَرُب منـه فأكبّ على أطرافه يُقبِّلها. ثم تنحّى عنـه قائمـًا حتّى يقف فى مرتبـةِ مثـله. فإنْ أَوْمَأَ إليـه بالقعود، قعد، فإنْ كلّمه، أجابه بآنخفـاضِ صوتٍ وقِلّةِ حركةٍ. وإن سكت، نهض من ساعته قبـل أن يتمكّن به مجلسُـه بغير تسـليمٍ ثانٍ ولا آنتظارِ أمرٍ.

الاوساط سلامهم وقعودهم وآنصرافهم

و إن كان الداخلُ من الطبقة الوُسطى فمن حَقِّ الملك إذا رآه، أن يقف وإن كان نائيًا عنه. فإن آستدناه، دنا خُطًى ثلاثًا أونحوها. ثم وقف أيضا. فإن آستدناه، دنا نحوًا من دُنوّه الأوّل، ولا ينظر إلى تعب[(٢)] الملك فى إشـارةٍ أو تحريك جارحةٍ. فإنّ ذلك، و إن كان فيه على الملك مُعاناةٌ، فهو من حقّه وتعظيمه.

و إن كان دخوله عليه من الباب الأوّل[(٣)] يقابل وجهَ الملك ويحاذيه ــ وكان له طريقٌ عن يمينه أو شمَاله ــ عَدَلَ نحو[(٤)] الطريق الذى لايقابله فيه بوجهه ثم آنحرف نحو مجلس الملك، فسلَّم قائمـًا ملاحظًا للملك. فإن سكت عنه، آنصرف راجعًا من غير سـلامٍ

---

(١) أى الداخل.

(٢) صـ : لَفت.

(٣) هكذا فى سـ، صـ. والمعنى واضح فى أن الدخول يكون من أوّل باب يقابل وجه الملك. ولذلك لم نر وجها لزيادة لفظ "الذى" أو وضعه مكان "الأوّل".

(٤) صـ : عن.

(٧) ولا كلامٍ. وإن آستدناه، دنا خُطًى وهو مُطْرِقٌ ثم رفع رأسَه. فإن آستدناه، دنا خُطًى أيضا ثم رفع رأسه حتى إذا أمسك الملك عن إشارةٍ أو حركةٍ، وقف (فى ذلك الموضع الذى يقطع الملكُ فيه إشارتَه) قائمًا. فإن أومأ إليه بالقعود، قعد مُقْعِيًا(١) أو جاثيا. فإن كلّمه، أجابه بآنخفاضِ صوتٍ وقلّة حركة وحُسن آستماع. فإذا قطع الملك كلامَه، قام فرجع القَهْقَرىٰ. فإن أمكنه أن يستتر عن وجهه بجدارٍ أو مسلكٍ لايحاذيه إذا ولّى، مشى كيف شاء.

استقبال الملك للمساوين له وتشييعهم

وعلىٰ الملك — إذا دخل عليه من يساويه فى السلطان والتَّبَع والعزّ والولادة والبيت — أن يقوم فيخطو إليه خُطًى ويعانقه، ويأْخذ بيده فيُقعده فى مجلسه ويجلس دونه. لأنّ هذه حالٌ يحتاج الملك إلىٰ مثلها من الداخل عليه، إذا زاره. فإن بَخَسَه حظَّه ومَنَعَه مايجب له، لم يأْمَنِ الملكُ أن يَفْعَلَ به مثْلَ ذلك. ومتىٰ فعل كلٌّ واحدٍ منهما بصاحبه ماهو خارجٌ عن النواميس والشرائع(٢)، تولّد من ذلك (٨) فسادٌ وحدثتْ ضغائنُ بين الملوك يقع بسببها التباغُض والتعادى والتحاسُد. وإذا آجتمع ذلك فى المملكة، كان سببًا للبوار وداعيةً إلىٰ التحارب.

وعلىٰ الملك — إذا أراد هذا الذى قدّمنا صفتَهُ الآنْصرافَ — أن يقوم معه إذا قام، ويدعو بدابّته ليركب حيث يراه، ويشيّعه ماشيا قبل ركوبه خُطًى يسيرةً، ويأْمر حشمه(٣) بالسعْى بين يديه.

(١) س : "مُقعيا" بدون إيراد "جاثيا" التى تليها : وأقنع الرجُل رأسه نصبه أو لا يلتفت يمينا ولا شمالا وجعل طرْفَه موازيا. (قاموس). [وآنظر صفحة ٢٢ من هذا الكتاب].

(٢) ص : الشريعة.

(٣) ص : خلمه.

وعلىٰ هذا كانت أخلاق آل ساسان من الملوك وأبنائهم . وبهذه السياسة أخذهم أردشير بن بابك . فلم تَزَلْ فيهم حتى مَلَكَ كِسْرىٰ أبرويزُ فغيّرها . فكان مما اعتدّ عليه شيرويه ، ابنه ، فى ذكر مثالبه ومعايبه (١) .

وقد قلنا إن من حقّ الملك أنْ لايُطيلَ أحدٌ عنده القعود . فإنْ أخطأ مخطئٌ فى ذلك ، فَمِنْ إذْنِ الملك له بالانصراف أنْ يلحظه (٢) . فإذا عَرَفَ ذلك فلم يَقُمْ ، كان ممن يحتاج إلىٰ أدبٍ ، وكان الذى وصّله بالملك ظالماً له ولنفسه .

---

(١) أبرويز هذا كاتَبَه النبيُّ يدعوه للإسلام فزّق كتابه وقال : "يكتبُ لى هذا ، وهو عبدى ؟" فدعا عليه النبيّ بتمزيق ملكه . استبدَّ بفارس فوثب عليه ابنه شيرويه (وهو أيضا شيرى) فحبسه وأرسل إليه ينعىٰ عليه ماارتكبه من المثالب والمعايب فى رسالة "خشنة يقطر منها الدم فى تقريعه بأفاعيله" ثم قتله . وأرسل شيرويه بعد أن جلس على سرير الملك كتابا إلى النبيّ فى جملته : "أما بعد فإنى قتلتُ كسرىٰ ، ولم أقتله إلّا غضباً لفارسَ لِمَا كان استحلّ من قتل أشرافهم وتجميرهم فى ثغورهم" [وتجمير العساكر حبسهم فى أرض العدوّ وعدم إرجاعهم إلىٰ وطنهم] . هذا ولكن شيرويه لم يظفر بالملك بعد أبيه سوى ستة أشهر فمات بعلّة أفاض المؤرّخون فى وصفها .

ومن غريب الاتفاقات التى لاحظها كتّاب العرب أن المَلِك الذى يقتل أباه لايمضى عليه فى المُلْك سوى ستة أشهر فقط ، كما حصل ليزيد بن الوليد بن عبد الملك الأمويّ ، وكما حصل للمنتصر العباسيّ .

ومن غريب الاتفاقات أيضا أن المنتصر هذا قتل أباه المتوكل فى نفس الموضع المعروف بالماخورة الذى قتل فيه شيرويه أباه كسرىٰ أبرويز ، وأن المنتصر جلس فى بعض الأيّام على بساط فاخر مزدان بالنقوش . ومن جملة مافيه صورة شيرويه على رأسه التاج كأنه ينطق وتحتها ماتعريبه : "صورة شيرويه القاتل لأبيه أبرويز الملك . مَلَكَ ستة أشهر" . وكان من جملة الصور أيضا صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، ومكتوبٌ عليها ماتعريبه : "صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك قاتل ابن عمه الوليد . ملك ستة أشهر" . وقد أمر بعضُ المقرّبين بإحراق هذا البساط النفيس حتى لايتفطن الخليفة لمافيه من العبرة ، ولكن أبىٰ الله إلّا أن يكون ثالث الثلاثة . (التفاصيل فى "غرر أخبار الفرس" ص ٧١٢ ـ ٧٣٨ ؛ والطبرىّ سلسلة ١ ص ١٠٤٣ ، ١٠٦١ ، ١٥٧٤ وسلسلة ٣ ص ١٤٩٦ ؛ وابن الأثير ج ١ ص ٣٦١ ؛ والمسعودىّ ج ٧ ص ٢٩٣ وما يليها ؛ وفى "المحاسن والمساوى" ص ٥٩٢ ـ ٥٩٣) . وفيه أيضا أن أبرويز انتقم لنفسه قبل أن يموت فوضع سُمًّا فى حقة وكتب عليها مايغرى الإنسان بالتناول مما فيها . فلما رآها شيرويه تعاطى منها فكانت علته التى أعقبها هلاكه (ص ١٣٨) [وانظر ص ١٠٩ من هذا الكتاب]

(٢) فى س ، ص : "فمن إذن له الملك بالانصراف أن يلحظه" . وقد صححتُ الرواية ليستقيم الكلام .

باب
في مطاعمة الملوك

تخفيف الأكل بحضرة الملك

ومن حق الملك — إذا تبذّل مع أحدٍ وأنِسَ به حتّى طاعمه — أنْ لا ينبسط بين يديه في مطعمه. فإنّ في ذلك خلالًا مذمومة:

منها، أنّ انبساطه يدلّ على شَرَهه؛

ومنها، أنّ في ذلك سوءَ أدبٍ وقِلّةَ تمييزٍ؛

ومنها، أن فيه جُرْأةً على الملك ببسط اليد ومدّها وكثرة الحركة.

(٩) وليس في كثرة الأكل مع الملك معنًى يُحمد. إلّا أن يكون الآكلُ كَمَيْسَرَةَ التَّرّاس أو حفصٍ الكيّال،[1] الذين إنما يحضرون لكثرة الأكل فقط. فأما أهلُ الأدب وذوو المروءة، فإنما حظُّهم من مائدة الملك المرتبةُ التي رفعهم إليها والأُنْس الذي خصّهم به.

(١) أورد المسعوديّ هذين الاسمين هكذا: "ميسرة التمّار" و"حاتم الكيّال". وسمّى طابع الابشيهي أوّلَهما "ميسرة البرّاش". وقد أوردا، هما والراغب الإصفهانيّ، نوادر كثيرة لطيفة لمشاهير الأكَلَة نكتفي بالاشارة إلى مواطنها للرجوع إليها. ونذكر فقط أسماءَهم بالترتيب، فهم: أبو الحسن بن بكر العلّاف الشاعر، أبو العالية، أبو مُرّة، أحمد بن أبي خالد الأحول، أحمد بن أبي دُؤاد، إسحاق الحمانيّ، بسرة الأحول، بلال بن أبي بُردة، الحجاج بن يوسف الثقفيّ، حفص (أو حاتم) الكيّال، درواس، دورق القصّاب، زهمان، سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأمويّ)، العادل الأيّوبيّ (سلطان مصر)، عبيد الله بن زياد بن أبيه، عمرو بن معديكرب، قاسم التمار، قُفّ المقمّ، محمد بن إسحاق بن إبراهيم المصعبيّ، مزود، معاوية بن أبي سفيان (الخليفة الأموي)، ميسرة (البرّاش أو الترّاس أو التمّار)، هلال بن الأسعر، هلال بن سعد المازنيّ، هلال بن مسعر التيمي، وزوجه، الواثق (الخليفة العباسي). (أُنظر "العقد الفريد" ج ٣ ص ٣٨٤—٣٨٦؛ و"مروج الذهب" طبع باريس ج ٥ ص ٤٠١ و ٤٠٢ وج ٦ ص ٢١٥—٢١٨ وج ٧ ص ١٧٠ وج ٨ =

* قال: وحدّثنى إبراهيم بن السندىّ [بن شاهَك][1] عن أبيه، قال: دخل شابٌّ من بنى هاشم على المنصور، فٱستجلسه ذاتَ يومٍ ودعا بغدائه، وقال للفتى[2]: أُدْنُهْ. فقال الفتى: قد تغدّيْتُ. فكفَّ عنه الربيعُ حتّى ظننتُ أنه لم يفطَن لخطاءٍ. فلمّا نهض للخروج، أمهله. فلما كان من وراء السّتر، دفع فى قفاه. فلما رأى الحجّاب ذلك منه، دفعوا فى قفاه حتّى أخرجوه من الدار. فدخل رجالٌ من عمومة الفتى فشَكَوُا الربيعَ إلى المنصور. فقال المنصور: إنّ الربيع لا يُقْدِم على مثل هذا، إلا وفى يده حُجّة؛ فإن شئتم أغضيتم على ما فيها، وإن شئتم سألته وأنتم تسمعون. قالوا: فسَلْهُ! فدعا الربيعَ، وقصّوا قصّته. فقال الربيع: "هذا الفتى كان يُسلِّم من بعيدٍ وينصرف. فٱستدناه أمير المؤمنين، حتّى سلَّم عليه من قريب، ثم أمره بالجلوس. ثم تبذّل[3] بفضيلة المرتبة التى صيّره فيها أنْ قال حين دعاه إلى طعامه[4]: "قد فعلت." وإذًا ليس عنده لمن أكل مع أمير المؤمنين إلّا سَدّ خَلّة الجُوع. ومثلُ هذا لا يقوِّمه القوْل دون الفعل"*[5].

= ص ١١٠؛ و"كتاب البخلاء" للجاحظ ص ٢١٥ و٢١٦؛ و"الأغانى" ج ٢ ص ١٨١ — ١٩٠؛ و"شذرات الذهب فى أخبار من ذهب" ج ١ ص ١٢٧؛ والفصل السادس من الباب الثانى من القسم الثالث من الفن الثانى من "نهاية الأرب فى فنون الأدب" للنويرىّ؛ "والمستطرف" ج ١ ص ٢١٤ و٢١٥؛ و"مطالع البدور فى منازل السرور" ج ٢ ص ٥٧؛ و"محاضرات الراغب" ج ١ ص ٣٩٢؛ والطبرىّ سلسلة ٣ ص ١٤٠٤؛ و"بدائع الزهور" لابن إياس (جزء ١ ص ٧٧) و"شرح المقامات" للشريشى ج ١ ص ٢٣٧ و٢٤١ و٢٤٢؛ وكذلك "الأغانى" (فى فهرسه عن بعض الأسماء التى أوردناها). هذا وقد صنف المدائنى كتابا فى "أخبار الأكلة" ذكره "صاحب الفهرست" ص ١٠٤ ولم يصل إلينا سوى ٱسمه فيما أعلم.

(١) ذكره فى "تاج العروس" فى مادة س ن د، وأورد له شعرًا.

(٢) هو محمد بن عيسى بن علىّ الهاشمى [كما فى "المحاسن والمساوى"].

(٣) أى الفتى. [وروى الجاحظ هذه الحكاية بهذه الألفاظ عن ابراهيم بن السندى عن أبيه فى كتاب "البيان والتبيين" ج ٢ ص ٣٨ — ٤٨]

(٤) أى الخليفة.

(٥) هذه الفقرة المحصورة بين النجمتين * * منقولة عن ص. وقد أوردها صاحب "المحاسن والمساوى" بعبارة أخرى (ص ١٧٢).

حدّثني أحمد بن عبد الرّحمن الحرّانيّ[١]، قال: "كنتُ أحضر على مائدة إسحاق ابن إبراهيم[٢]، أنا وهاشم ابن أخي الأبرد والناقديّ[٣]. فكنتُ أعُدّ على مائدته ثلاثين طائرا. فأما الحُلْوُ والحامض والحارّ والقارّ[٤]، فأكثر من أن أُحصيه. فلا نرزأُ[٥] من ذلك كلّه إلّا مقدار ما يأكل الطائر. إنما نكسر الخبز بأظفارنا." قلتُ: فما كان يُنَشِّطكم؟ قال: لا، ولو فعل ما فعلنا. قال: فما هو إلّا أنْ نتوارىٰ عن عينه حتّىٰ ننتهب.

وكذلك يجب للملوك أنْ لا يشرَه أحدٌ إلىٰ طعامهم، ولا يكونَ غرضُه أن يملأ بطنَهُ وينصرفَ إلىٰ رَحْله[٦]: إلّا أنْ يكون الآكلُ أخا الملك أو ابنَه أو عمَّه أو ابن عمّه، أو مَن أشبه هؤلاء، ويكون أيضا ممن يُقْصَر بعد الأكل[٧] ويُطيل المنادمة، ويَجعل ما يأكل غذاء يومه وليلته، إذ كان لا يمكنه الانصرافُ متىٰ شاء[٨].

(١٠)

عقوبة الشره عند الفُرس

وكانت ملوكُ فارسَ، إذا رأت أحدًا في هذه الحال التي وصفنا من شرهِ المطعم والنَّهَم، أخرجوه من طبقة الجِدّ إلىٰ طبقة الهزل، ومن باب التعظيم إلىٰ باب الاحتقار والتصغير.

---

(١) س: عبد الرحيم. ورواية ص ربما كانت أصح، فقد ذكر الطبريّ رجلا بهذا الاسم (سلسلة ٣ ص ١٣٨١) ووصفه بالراوي.

(٢) هو الأمير إسحاق بن إبراهيم المصعبي حاكم بغداد في أيام المأمون والمعتصم والواثق وهو الذي سيرد ذكره كثيرا في هذا الكتاب.

(٣) س: "الحرّاني قال كنت أعدّ على مائدة ثلاثين". والتكميل عن ص.

(٤) ص: والبارد.

(٥) أي: نُصيب منه. يقال: إنه لقليل الرُّزء من الطعام، أي قليل الإصابة منه. (تاج العروس)

(٦) بيته.

(٧) ص: "هؤلاء ولا يكون إلا من يقيم بعد الأكل".

(٨) روى هذه الآداب بزيادة وباختصار في "محاسن الملوك" (ص ٢٩) وأورد فيها قولهم: "موائد الملوك للشّرَف لا للسَّرَف".

والملك ـ وإن بسط الرجُلَ لطعامه ـ فمن حقّه على نفسه وحقّ الملك عليه أنْ لا يفارقه آستعمال الأدب ولا يميلَ إلى ما تهوى طبيعتُهُ، فإنّه من عُرِف بالشَّرَه، لم يجب له آسم الأديب، ومَن عُرف بالنَّهَم، زال عنه آسم التمييز.

وإذا وضع الملك بين يدىْ أحدٍ طعامًا، فليعلمْ ذلك الرجُلُ أنّه لم يضعه بين يديْه ليأتِيَ عليه، بل لعلّه ـ إن كان لم يقصد بذلك إلى إكرامه أو مؤانسته ـ أنْ يكون أراد أنْ يعرِف ضبطَهُ نفسَه، إذا رأى ما يشتهى من بسطه لهــا.

وحسْبُ الرجُل[١] ـ إذا أتحفه الملك بتُحفة على مائدته ـ أن يضع يَدَهُ عليها. فإن ذلك يجزئُه[٢] ويزيد فى آدابه[٣].

بين معاوية والحسين آبن علىّ بشأن دجاجة (١٢)

ألا ترى إلى مُعاوية بن أبى سُـفْيَان حين وضع بين يدىْ الحسن عليه السـلام دَجاجةً[٤] ففكّها، نظر إليــه معاوية فقال: هل كان بينــك وبينها عداوة؟[٥] فقــال له الحسن: هل كان بينك وبين أُمِّها قرابة؟[٦]

---

(١) صـ : ويجب على الرجل.

(٢) أى يكفيه.

(٣) أورد صاحب "محاسن الملوك" هذه الآداب المتقدمة مختصرة فى باب أدب مؤاكلة الملوك. (ص ٢٩)

(٤) سـ : "بين يدى سيد جليل دجاجة".

(٥) صـ : "وبين أُمّها".

وقد روى هذه الحكاية صاحب "المستطرف" وعلّق عليها بقوله : "أراد معاوية أنّ الحسن يوقر مجلسه كما توقر مجالس الملوك، والحسن أعلم منه بالآداب والرسوم المستحسنة". (ج ١ ص ٢١٣)

(٦) تغدّى رجل مع بعض الرؤساء، فقدّم إليه جديا، فجعــل يمعن فيه. فقال له الرئيس : إنك لتمزّقه حتى كأنّ أباه نطحك! فقال له : وأنت تُشفق عليه كأنّ أُمه أرضعتك. فخجل وآنقطع. (أنظر "مطالع البدور فى منازل السرور" ج ٢ ص ٥٢)

ضيافات معاوية في عاصمته وسائر قواعد مملكته

إنّ هذا الكلام الذي دار بينهما قد قَرَحَ(١) في قلب كلٍّ واحد منهما . ومعاويةُ لم يقل هذا القول ، لأنه كان يعظُم عليه قدْر الدجاجة .

فكيف يكون ذلك ، وهو يكتب إلىٰ أطرافه وعمّــاله و إلىٰ زيادٍ(٢) بالعراق بإطعام السابلة والفقراء وذوى الحاجة ، وله في كل يوم أربعون مائدة يتقسَّمها وجوهُ جُند الشام؟ ولكنْ علم أنّ من حقّ الملك توقيرَ مجلسه وتعظيمَه . وليس من التوقير والتعظيم مدُّ اليد و إظهارُ القَرَم وشدّةُ النَّهَم وطلبُ التشبّع بين يدَي الملوك و بحضرتها .

وعلىٰ هذا كانت ملوك الأعاجم من لَدُنْ أردشيرَ بن بابك إلىٰ يَزْدَجِرْد(٣) .

اختبار سابور لرجل رشحه لقضاء القضاة

ويقال إنّ سابورَ ذا الأكتاف(٤) ، لمّا مات مُوبَذَانُ مُوبَذ(٥) ، وُصف له رجلٌ من كُورة إصْطَخْرَ ، يصلُحُ لقضاء القضاة في العِلم والتألُّه والأمانة . فوجّه إليه . فلمّا قَدِم ، دخل عليه . ودعا بالطعام ودعاه إليه . فدنا فأكل معه . فأخذ سابور دَجاجة فنصَّفها .

(١) معناه جَرَح . وفي س : " قدح " .

(٢) هو زياد ابن أبيه الذي استلحقه معاوية بنسبه . وأخباره مشهورة معلومة تكفلت بها كتب التاريخ والأدب . (وانظر "العقد الفريد" ج ٣ ص ٢ — ٦) . وهو أول من أخذ الناس بقانون العجم (محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر) . وللمدائني كتاب في أخباره ، وكتاب في ولده ودعوته (عن الفهرست ومعجم الأدباء لياقوت) . وللهيثم بن عديّ كتاب في أخبـاره ويسـميه (في الفهرست) زياد بن أمية ، وذلك تصحيف من الناسخ أو الطابع ، وإلا فلا خلاف في أنه زياد ابن أبيه .

(٣) بعضهم يضبط هذا الاسم بفتح الجيم وبعضهم بكسرها ، وطائفة تقول بالروايتين . والصواب الكسر دون سواه ، وهو الذي اعتمده الإمام الذهبيّ في كتاب "المشتبه في الأسماء" ، وكذلك العلّامة رتشاردصن في معجمه الفارسيّ العربيّ الإنكليزيّ .

(٤) تعريب شاه پور . وسماه العرب ذا الأكتاف لانه انتصر عليهم فخلع أكتافهم .

(٥) أي قاضي القضاة في دولة الفرس قبل الإسلام . وبقيت وظيفة الموبذ أى القاضي إلى أواخر الدولة العباسية ، للقيام بأمور المجوس الذين دخلوا في الذمة .

ووضع نصفَها بين يدَي الرجُل ونصفَها بين يديْه، ثم أوْمأ إليـه أن كُلْ من هـذه، ولا تخلِطْ بها طعامًا، فإنَّه أمرأُ لطعامك وأخفُّ علىٰ مَعِـدتك. وأقبل سابور علىٰ النصف، فأكل كنحو ما كان يأْكل. ففرغ الرجُل من النصف قبل فراغ سابور، ثم مدّ يده إلىٰ طعام آخر، وسابورُ يلحظه.

(١٢) فلما رُفعت المـائدة قال له: وَدِّع وٱنصرف إلىٰ بلدك! فإنّ آباءنا وسلَفَنا من الملوك كانوا يقولون: "من شَرِهَ بين يَدَي الملك إلىٰ الطعام كان إلىٰ أموال الرعيّـة والسُّوقة والوضعاء أشدَّ شَرَهًا." فلم يستكفِه[1] علىٰ ما كان أحضره له[2]

عدم النظر للملك عند مؤاكلته

ومن حقّ الملك أنْ لا يرفع أحدٌ إليه طَرْفَهُ، إذا أكل، ولا يحرِّك يده معه فى صَحْفَة.

التسوية بين الملك وبين مدعوّيه

ومن قوانين المُلك أن توضع بين يدىْ كلّ رجُلٍ صحفةٌ فيها كالذى بين يدَي الملك من طعامٍ غليظٍ أو دقيقٍ أو حارّ أو قارّ، ولا يخصُّ الملك نفسَه بطعام دون أصحابه. لأن فى ذلك ضَعَةً علىٰ المَلك ودليلا علىٰ الآستئثار.

---

(١) فى س: لم يستنكفه. ولعلها محرفة عن "لم يستكفه" بمعنى أنه لم يطلب كفايته لمؤونة العمل، وكثيرا ما يستعمل الجاحظ وغيره، استكفاه بمعنى ولاه [انظر البيان والتبين ج ٢ ص ١٨٦] ومن هذه المادة "الكفاة" وهم العُمّال أهل القدرة على العمل والنهوض به. [أنظر ص ٥٠ س ٧–١١ من هذا الكتاب]، ومنها أيضا "كافى الكفاة" لوظيفة كبيرة كانت فى الدولة الإسلامية. يؤيد ذلك أنه قيل لعروة بن عدىّ آبن حاتم (وهو صبىٌّ) فى وليمة كانت لهم: قِفْ بالباب، فآحجُبْ مَن لا تعرف وأَدْخِلْ مَن تعرف. فقال: والله لا يكون أوّلَ شىْءٍ أستكفيه منعَ الناس عن الطعام! (طراز المجالس للشهاب الخفاجىّ ص ٩٢). هذا. وربما يجوز أن تكون محرفة عن "يستكفئه" أى "يجده كفؤا". والذى فى ص: "فلما رفعت المائدة اليه إلا أن نغسل ونخدد". [وليس للجملة بقية، وهى مبتورة ومشوّهة، كما ترى].

(٢) وردت هذه القصة بحروفها ماعدا بعض ألفاظ فى صحيفتى ٢٦ و ٢٧ من كتاب "تنبيه الملوك والمكايد"، وهى مختتمة بهذه العبارة: "فلم يستكفه لما كان أحضره إليه وعوّل فيه عليه". ووردت أيضا مبتورة فى "محاسن الملوك" (ص ٢٩ و ٣٠)

غسل اليد بحضرة الملك

ومن حقِّ الملك أنْ لا يغسل أحدٌ بحضرته يديْه من خاصّته وبطانته (١)، إلّا أنْ يكون معه مَن يساويه فى الجاه والعز والبيت والولادة. فقد بيّنا ما يجب لأولئك آنفا.

إيناس الملك لمدعويه

ومن العدل أن يُعطِىَ الملك كلَّ أحد قِسطَه (٢)، وكلَّ طبقةٍ حقَّها، وأن تكون شريعةُ العدل فى أخلاقه كشريعة مايقتدى به من أداء الفرائض والنوافل التى تجب عليه رعايتُها والمثابرةُ علىٰ التمسُّك بها، وإيناسُ الناس فى بَسْط أيديهم فى الطعام حتّى يُسَوِّىَ فى ذلك بين الملوك والنَّمط الأَوْسط والعامّة.

(١٣)

مباينة الملوك لمن سواهم

وليس أخلاقُ الملوك كأخلاق العامّة. وكانوا لايُشَبَّهون فى شىء (٣). وإنما تحسن كثرة الأكل مع الصديق والعشير والمُساوى فى منازل الدنيا من الرفعة والضَّعَة. فأما الملوك فيرتفعون عن هذه الصفة ويَجِلُّون عن هذا المقدار.

قيام الملك عن الطعام

ومن حقِّ الملك ـ إذا رفع يديْه عن الطعام ـ أنْ يَنْهَضَ عن مائدته كلُّ مِنَ الحافّ (٤) بها حتى يتوارَوْا عنه بجدارٍ أو حائلٍ غيره. فإن أراد الدخول، كان ذلك بحيث لا يرون قيامه؛ وإذا أراد القعود لهم، دخلوا إليه بإذنٍ ثانٍ.

منشفة الذَّفَر

ومن قوانين الملك أن يكون منديل غَمَره (٥) كمنديل وجهه فى النقاء والبياض، وأنْ لا يعاد إليه إلّا أنْ يُغسَل أو يُجدّد.

---

(١) أُنظر فى الحاشية التى فى ص ١١٦ ما كان يفعله ابن دأب من غسل يده فى حضرة الخليفة الهادى.

(٢) فى سـ : "بقسطه" . وليست هذه الفقرة واردة فى صـ .

(٣) فى سـ : "لايشتهون فى شىء" . وليست هذه الفقرة واردة فى صـ .

(٤) أراد "الحافّين" فوضع المفرد فى موضع الجمع، باستعمال "أل" التى للجنس. ومثل ذلك كثير فى عبارات البلغاء.

(٥) فى سـ : "غمره" بالمهملة. وصوابه بالمعجمة، والغَمَر بالتحريك زَنَخ اللحم وما يعلق باليد من دسمه. وهو يماثل ما نسميه الآن فى مصر: فوطة الذَّفَر. وليست هذه العبارة واردة فى صـ.

حديث الملك على المائدة

ومن حقِّ الملك أن لا يُحَدَّث على طعامه بحديثِ جِدٍّ ولا هزلٍ. وإنِ ٱبتدأ بحديثٍ، فليس من حقِّه أنْ يُعارَض بمثله. وليس فيه أكثرُ من الآستماع لحديثه، والأبصارُ خاشعةٌ.

زمزمة الفرس على الطعام وامتناعهم عن مطلق الكلام

ولشيءٍ مَا كانت ملوك آل ساسان — إذا قُدِّمتْ موائدهم — زمزموا عليها، فلم ينطق ناطقٌ بحرفٍ حتّى تُرفع. فإنِ ٱضطُرُّوا إلى كلام، كان مكانه إشارةٌ وإيماءٌ يدلُّ على الغرض الذى أرادوا والمعنى الذى قصدوا[1].

(١٤)

---

(١) الزمزمة: تراطُنُ العلوج على أكلهم، وهم صُموتٌ، لا يستعملون لسانا ولا شفة فى كلامهم؛ لكنّه صوتٌ تُديره فى خياشيمها وحلوقها، فيفهم بعضها عن بعض. وقد زمزم العلج، إذا تكلف الكلام عند الأكل، وهو مُطبِقٌ فه. وقال الجوهرىّ: الزمزمة كلام المجوس عند أكلهم. زاد ٱبن الأثير [فى النهاية]: بصوت خفىّ (عن تاج العروس). وذلك يرادف قول الفرنسيين Marmotter.

قال فى مروج الذهب: "ذكروا أن كيومرث هو أوّل من أمر بالسكوت عند الطعام، لتأخذ الطبيعة بقسطها، فيصلح البدن بما يرد إليه من الغذاء. وتسكن النفس عند ذلك، فتدبر لكل عضو من الأعضاء تدبيرًا يؤدّى إلى ما فيه صلاح الجسم من أخذ صفو الطعام. فيكون الذى يرد إلى الكبد وغيره من الأعضاء القابلة للغذاء ما يناسبها وما فيه صلاحها. وإن الإنسان متى شغل عن طعامه بضرب من الضروب، ٱنصرف قسط من التدبير وجزء من التغذى إلى حيث ٱنصباب الهمة ووقوع الآشتراك، فأضرّ ذلك بالنفس الحيوانية والقوى الإنسانية. وإذا كان ذلك دائمًا، أدّى ذلك إلى مفارقة النفس الناطقة المميزة الفكرية لهذا الجسد المرئىّ. وفى ذلك ترك للحكمة وخروج عن الصواب." (مروج الذهب طبع باريس ج ٢ ص ١٠٨ — ١٠٩)

وأقول إن عادة العرب والإفرنج قد جرت على خلاف ذلك.

وبمناسبة الزمزمة، نروى ما حكاه ٱبن النديم فى كتاب "الفهرست" (ص ١٩) عن الجاحظ فى "البيان والتبيين" إن "للزنج خطابة وبلاغة على مذهبهم وبلغتهم، وإن من رأى ذلك وشاهده قال إذا حزبتهم الأمور ولزّتهم الشدائد، جلس خطيبهم على ما علا من الأرض وأطرق، وتكلم بما يشبه الدمدمة والهمهمة، فيفهم عنه الباقون. قال الجاحظ: وإنما يظهر لهم فى تلك الخطابة الرأى الذى يريدونه فيعملون عليه. والله أعلم".

وكانوا يقولون : ”إنّ هذه الأطعمة بها حياةُ هذا العالَم. فينبغى للإنسان أنْ يجعل ذهنه فى مطعمه وَيَشْغَل رُوحه وجوارحه فيه، لأنْ تأْخذ كلُّ جارحة بقسطها من الطعام، فيغتذى بها البدنُ والرُّوح الحيوانية التى فى القلب والطبيعةُ التى فى الكَبِد، ٱغتذاءً تامًّا، وتقبله الطبيعة قبولا جامعا.“

وفى ترك الكلام على الطعام فضائل[1] كثيرة هى فى آيينهم[2] تركنا ذكرها، إذ كانت ليست من جنس كتابنا هذا.

(١) صـ : وفى ترك الكلام فضائل.

(٢) الآيين كلمة فارسية عرّبها العرب وٱستعملوها. ومعناها القانون والعادة. (وٱنظر ص ٢٣ و ٣٠ و ٧٧ من هذا الكتاب)

قال السيد صديق بن حسن خان فى ”لف القِماط فى تصحيح ماتستعمله العامة من المعرّب والدخيل والمولد والأغلاط“ مانصه : ”آيين بمعنى العادة. وأصل معناه السياسة المسيرة بين فرقة عظيمة. أعجمىّ عرّبه المُوَلَّدون.

وفى الكشاف : ليس من آيين الملوك ٱستراق الظفر.“ وعلى هامشه للسيد نور الحسن مانصه : ”أى فى سورة النمل. قيل لذى القرنين : بيِّتْ على العدوّ! فقال : ليس من آيين الملوك ٱستراق الظفر. وقال مهيار فى قصيدة له :

يَجْمَعُ الخِرِّيتُ حَوْلَا أَمْرَهُ * وَهُوَ لَمْ يَأْخُذْ لَهَا آيِينَهُ“

وهاتان العبارتان منقولتان بدون تنبيه عن ”شفاء الغليل“ للخفاجىّ. والخرّيت هو الدليل البصير بالطريق.

وكلمة ”آيين“ لا تزال مستعملة إلى الآن بهذا المعنى عند الفُرس والأتراك.

وفى المعجم الفارسى العربى الانكليزى تأليف ٱستاردُسن مانصه :

آيين = An institution, rite, custom, or ordinance, canon, usage, prescription. Common law (in contradistinction to the laws delivered by Muhammad, and which are called شرع). Mode, form, manner.

ولابن المُقَفَّع تأليفٌ بهذا الأسم ذكره صاحب الفهرست. وكلام الجاحظ هنا يدل على كتاب بعينه ضمّنه الفُرس مجموع القوانين والنواميس والعادات والأصطلاحات المقررة عندهم. وإلى ”آيين الأكاسرة“ أشار البيرونى فى ”الآثار الباقية عن القرون الخالية“ (ص ٢١٨)

*قال: وحدّثني بعض المُحدِّثين قال: قال بعض الأُمراء ـ وأظنه بلال بن أبي بُردة[(١)] ـ لأبي نَوْفل الجارود بن أبي سَبْرة[(٢)]:

ماذا تصنعون عند عبد الأعلى [بن عبدالله بن عامر بن كريز القرشي][(٣)]، إذا كنتم عنده؟

قال: نشاهد[(٤)] أحسن حديث وأحسن آستماع، ثم يأتي الطّباخ فيتمثّل بين عينيه، فيقول: ماعندك؟ فيقول: عندي لون كذا، ودَجاجة كذا، ومن الحلواء كذا.

قال: ولِمَ يسأَلُ عن ذلك؟

قال: ليقصّر كلّ رجُلٍ عمّا لايشتهيه، حتّى يأتيه بما يشتهي. قال: ثم يُؤْتَى بالخِوان، فيتضايق ويتّسع، ويقصر ويجتهد. فإذا آستغنى، خَوّى[(٥)] تخْوِيةَ الظليم[(٦)] ثم أكَلَ أكْل الجائع المقرور[(٧)].

قال: والجارود هـذا هو الذي قال: "سوء الخُلُق يُفسد العمل، كما يفسد الخَلُّ العسل."[(٨)]*

(١) كان أميرًا على البَصرة وكان قاضيا. وهو أوّل من جار في القضاء. كان يقول: إن الخصمين يتقدّمان إليّ فأجد أحدهما أخفّ على قلبي من الآخر، فأقضي له. (محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر). وكان مع ذلك كريما مدحه ذو الرُّمّة والحُطَيْئة. وانظر ترجمته في خزانة الأدب للبغدادي (ج ١ ص ٤٥٣)، وله في "الأغاني" و"كامل" المبرّد ذكر كثير (أنظر فهارسهما).

(٢) الهُذَليّ البصريّ. صدوقٌ. تُوُفِّيَ سنة ١٢٠ (تقريب التهذيب للحافظ العسقلانيّ ص ٢٨)

(٣) الزيادة عن "العقد الفريد" وفهرس الطبري.

(٤) في الأصل وهو صر: فشاهدنا.

(٥) الخَوّ والخَوَاء: الجوع. والخَوَى، والخَواء خُلُوّ الجوف من الطعام. وخَوِيَ خَوًى وخَوَاءً: تتابع عليه الجوع. وخَوّى الطائر تخوية بسط جناحيه، وذلك إذا أراد أن يقع (عن تاج العروس). ولعلّ هذا المعنى الأخير هو الذي أراده الجاحظ، لأنه في كتاب الحيوان يُلحق النعام بالطير.

(٦) الذكر من النّعام.

(٧) روى هذه الحكاية صاحب "العقد الفريد" بزيادة ونقص في الألفاظ والمعاني (ج ٣ ص ٣٨٢)

(٨) هذه الفقرات المحصورة بين نجمتين ** منقولة عن صر.

باب
فى المنادمة

مراتب الندماء واحتياج الملوك لجميع الطبقات

ومن أخلاق الملك أن يجعل نُدماءه طبقاتٍ ومراتبَ، وأن يُخُصَّ ويُعُمَّ، ويقرِّب ويباعد، ويرفع ويضع، إذ كانوا على أقسام وأدوات.(١)

فإنَّا قد نرى الملك يحتاج إلى الوضيع لِلَهْوِه، كما يحتاج إلى الشجاع لبأسه؛ ويحتاج إلى المُضحك لحكايته، كما يحتاج إلى الناسك لعِظته؛ ويحتاج إلى أهل الهزل، كما يحتاج إلى اهل الجِدّ والعقل(٢)؛ ويحتاج إلى الزامر المُطرِب، كما يحتاج إلى العالِم المُتقن(٣).

(١٥) وهذه أخلاق الملوك أنْ يحضرهم كُلَّ طبقة، إذ كانوا يتصرَّفون من حالِ جِدّ إلى حالِ هزل، ومن ضَحِكٍ إلى تذكير، ومن لَهْوٍ إلى عِظَةٍ.

فكلُّ طبقة من هذه الطبقات تُرْفع مرَّةً وتُحَطُّ أُخرى، وتُعْطَى مَرَّةً وتُحرم أخرى، خلا الأشرافَ والعلماءَ. فإنّ الذى يجب لهم رفعةُ المرتبة(٤) وإعطاءُ القِسط من الميزة والنَّصَفَةُ عند المعاشرة، ما لزموا الطاعة ورَعَوْا حقَّها.

(١) كذا فى صـ، سـ. [والسياق يقتضى معنى المراتب.]

(٢) صـ: والنبل.

(٣) صـ: المفتى. قال فى "محاسن الملوك" (ص ٤٣): "ولما كان الملك محتاجا إلى اصطناع الرجال كحاجته إلى اصطفاء الأموال، وجب أنْ يتخيّر لسامرته من يكون طيِّبَ الأعراق، باعثا على مكارم الأخلاق؛ ولكنه قد يحتاج إلى المطرب المُلْهِى كما يحتاج إلى العالم المفتى. لأنه يحتاج إلى أن يتصرّف بين الهزل والجدّ لما هو بصدده من التعب فى النظر فى أمر الجمهور".

(٤) صـ: المرتبة.

آداب الخروج من حضرة الملك والرجوع إليها

وليس من حقّ الملك أن يَبْرَحَ أحدٌ من مجلسه[١] إلّا لقضاء حاجة. فإذا أراد ذلك، فمن الواجب أن يلاحظه. فإنْ سكت الملكُ، قام بين يديْه ثم لاحظه. فإنْ نظر إليه، مضىٰ لحاجته. فإذا رجع، قام ماثلاً بين يديه أبداً، وإن طال ذلك، حتّىٰ يُومِئَ إليه بالقعود. فإذا قعد، فمقعيا أو جاثيا[٢]. فإنْ نظر إليه بعد قعوده، فهو إذنه له بالتمكُّن في قعوده.

كمية الشرب وكيفيته موكولتان للملك، وعليه العدل

وليس له أن يختار كميَّة مايشرب ولا كيفيَّتها، إنما هذا إلىٰ الملك. إلا أنَّ من حقِّه علىٰ الملك أن يأمر بالعدل عليه والنَّصَفَة له، ولا يجاوز به حدّ طاقته ولا وُسْعَ آستطاعته، فيخرج به من ميزان القسط وحدّ القصد: لأنّه لا يأْمن أنْ يتلف نفسا، وهو يجد إلىٰ إحيائها سبيلا.

ومن أخلاق الملك السعيد أن يحرص علىٰ إحياء بِطانته، حِرْصَه علىٰ إحياء نفسه، إذ كان بهم نظامه.

(١٦)

طبقات الندماء والمغنين عند الفرس وفي الإسلام

وإذ قد آنتهينا إلىٰ هذا القانون من القول، فبنا حاجة إلىٰ الإخبار عن مراتب الطبقات الثلاث من النُّدماء والمغنِّين[٣]، وإن كانت مراتبهم في كتاب الأغاني محصورةً، فقد يجب ذكرها في هذا الموضع أيضا، لأنها داخلة في أخلاق الملوك.

---

(١) كذا في س، ص "يبرح أحد من مجلسه" بتعدية يبرح بمن. والذى فى كتب اللغة تعديته بنفسه. علىٰ أن بعض أكابر أهل الأدب قد يُعَدُّون هذا الفعل بحرف "من" كما فعل الجاحظ هنا. فقد ورد فى التبريزى "لم يبرح من مكانه" و"مابرحت من مكان كذا" (شرح الحماسة للخطيب التبريزى طبع أوربة ص ١٦٤ و ٢٥٠) وفى الأغانى "ما أنا بارح من بابها" (ج ٢ ص ١٣٧). وفى "المحاسن والمساوى" قوله: لاأبرح من بغداد (ص ١٩٣). [وآنظر ص ١٤٤ من هذا الكتاب].

(٢) س: قعد مقنعا. [وآنظر الحاشية ١ ص ٨ من هذا الكتاب].

(٣) ليست الإشارة هنا إلى كتاب الأغانى المشهور الذى لابى الفرج الاصفهانىّ، فقد تُوُفِّىَ الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ، وكانت وفاة أبى الفرج فى سنة ٣٥٦. ولا بُدّ أن الجاحظ يعنى كتابا للفرس أوسفرا آخر =

ولنبدأْ بملوك الأعاجم، إذ كانوا هم الأُوَل فى ذلك، وعنهم أخذنا قوانين المُلك والمملكة (١) وترتيبَ الخاصّة والعامّة، وسياسةَ الرعيّة، وإلزامَ كلٍّ طبقة حظَّها والاقتصار علىٰ جديلتها (٢).

(٣) كان أردشيرُ بن بابَكَ أوّلَ من رتّب النُّدماءَ وأخذ بزمام سياستهم. فجعلهم ثلاث طبقات:

= من أسفار الاغانى التى كانت متداولة فى صدر الدولة العباسية كما تدل عليه عبارة الاصفهانى فى مقدمته.

هذا وقد أشار المسعوديّ (مروج الذهب ج ٦ ص ١٠) إلى كتاب الأغانى ولم يقيده بشىء آخر من حيث ذكر المؤلف أو غيره. فلعله هو نفس الكتاب الذى يشير إليه الجاحظ. لان المسعوديّ فرغ من مروج الذهب فى سنة ٣٣٦ أى قبل وفاة أبى الفرج الأصفهانيّ بعشرين سنة. وهو لم يعرفه المسعوديّ ولم يشر إليه ولا إلى مؤلفاته مطلقا فى كتبه التى بلغتنا.

ويتلخص مما ذكره المسعوديّ وأبوالفرج الاصفهانيّ فى هذا الموضوع: أوّلا — أن إبراهيم بن المهديّ المعروف بابن شَكلة (وهى جارية فارسية افترشها الخليفة المهديّ) صنّف كتابا فى الأغانى. وهو أوّل كتاب فى هذا المعنى وصلنا خبره، غير الذى يشير إليه الجاحظ والمسعوديّ؛ ثانيا — أن الرشيد أمر إبراهيم الموصليّ وإسماعيل بن جامع وفليح بن العوراء فألفوا له كتابا فى الاغانى وضمنوه المائة الصوت المختارة؛ ثالثا — أن كتاب هؤلاء الثلاثة وقع إلى الواثق، فأمر إسحاق بن إبراهيم الموصليّ بتهذيبه وتوسيعه. وقد روى صاحب الأغانى (أعنى أبا الفرج) أن هذا الكتاب ليس من تأليف إسحاق بل هو مصطنع عليه ومنسوب إليه، وأورد حججا تؤيد ذلك فى مقدمة كتابه. ولكن المسعودى ذكره باعتبار أنه من تأليفه.

(١) "صر: وعنهم أخذنا آيين المملكة" | وانظر الحاشية ٢ ص ١٩ وص ٣٠ و ٧٧ من هذا الكتاب.

(٢) هذه الكلمة وردت فى سر مهملة من النقط هكذا: "حد لىها". وفوقها كلمة "كذا". وقد اعتمدنا رواية صر. وفيه تفسيرها بقوله: "شا كلتها". وهذا التفسير منقول عن القاموس.

(٣) من هنا إلى قوله "أنت يا فلان كذا وكذا" فى ص ٢٩ من هذا الكتاب نقله المسعوديّ فى "مروج الذهب" بالحرف الواحد تقريبا، ولم يشر إلى أنه نقل هذه البيانات عن التاج للجاحظ. وقد جرى هو وغيره على هذه العادة فى كثير من العبارات، كما ستراه فيما يرد عليك من الحواشى. وقد زاد فى هذه العبارة التى نحن بصددها ألفاظا تزيد المعنى وضوحا، وضم إليها معلومات أخرى. (انظر مروج الذهب طبع باريس ج ٢ ص ١٥٣ — ١٥٩، وطبع بولاق سنة ١٢٨٣ ج ١ ص ١١٧ — ١١٨)

فكانت الأساورة[١] وأبناء الملوك فى الطبقة الأُولىٰ. وكان مجلس هذه الطبقة من الملك علىٰ عشرة أذرع من الستارة.

ثم الطبقة الثانية، كان مجلسها من هذه الطبقة علىٰ عشرة أذرع (وهم بِطانة الملك وندماؤه ومحدِّثوه من أهل الشرف والعلم)؛

ثم الطبقة الثالثة، كان مجلسهم علىٰ عشرة أذرع من الثانية، وهم المُضحِكون وأهل الهزْل والبطالة. غير أنه لم يكن فى هذه الطبقة الثالثة خسيسُ الأصل ولا وضيعه ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول والقِصَر ولا مَؤُوفٌ[٢] ولا مرمىٌّ بأُبْنَة[٣] ولا مجهولُ (١٧)
الأبَوَيْن ولا ٱبن صناعة دنيئة، كٱبن حائك أو حجّام، ولو كان يعلم الغيب مثلا.

وكان أردشير يقول: "ماشيءٌ أضرَّ علىٰ نفسِ ملكٍ من معاشرةِ سخيفٍ أو مخاطبةِ وضيعٍ. لأنه كما أنّ النفس تصلُح علىٰ مخاطبة الشريف الأديب الحسيب، كذلك تفسُد بمعاشرة الدنىء الخسيس، حتى يَقدَح ذلك فيها ويُزيلَها عن فضيلتها. وكما أن الريح، إذا مرّت بِطيب، حملت طِيبًا تحيا به النفس وتقوىٰ به جوارحها، كذلك إذا مَرَّتْ بالنَّتْن فحملته أَلِمَتْ له النفس وأضرّ بأعلاقها إضرارًا تامًّا.[٤]"

---

(١) الأُسوار: الواحد من أساورة الفرس. قال أبو عُبيد: هم الفرسان، والأساورة أيضا قوم من العجم بالبصرة كالأحامرة بالكوفة (الصحاح) [حاشية عن صـ]. قال الخوارزمىّ فى "مفاتيح العلوم" إن العجم لا تضع ٱسم أُسوار إلا على الرجل الشجاع البطل المشهور. وعلى ذلك يكون مقابله فى اللغة الفرنسية: Chevalier.

(٢) هذه الكلمة وردت فى صـ فقط. [ومعناها مصاب بآفة].

(٣) الأُبنة: العيب. (قاموس)

(٤) هذه العبارة منقولة عن ٱبن المقفع فى "الادب الصغير" وفى "كليلة ودمنة".

أقسام الناس عند الفُرس أربعة

وكذلك جعل الناس على أقسام أربعة،(١) وحَصَر(٢) كل طبقة على قسمتها:

فالأوّل الأساورة من أبناء الملوك؛

والقسم الثانى النُّسَّاك وسَدَنَة(٣) بيوت النِّيران؛

والقسم الثالث الأطبَّاء والكُتَّاب والمنجِّمون؛

والقسم الرابع الزُّرَّاع والمِهَان(٤) وأضرابهم.

وكان أردشير يقول: "ما شئٌ أسرعَ فى انتقال الدُّول وخراب المملكة من انتقال هذه الطبقات عن مراتبها حتّى يُرفَعَ الوضيع إلى مرتبة الشريف، ويُحَطَّ الشريف إلى مرتبة الوضيع."

(١٨)

مقابلة كل طبقة من الندماء بمثلها

وكان الذى يقابل الطبقة الأُولى من الأساورة وأبناء الملوك أهلَ الحذاقة بالموسيقيات والأغانى. فكانوا بإزاء هؤلاء نُصْبَ خطّ الاستواء.

وكان الذى يقابل الطبقة الثانية من ندماء الملك وبِطانته الطبقةَ الثانية من أصحاب الموسيقيات.

(١) فى س، ص: خصّ.

(٢) أردشير بن بابك هو أوّل من رتب الرعية على طبقات ووضع لهم الكتب فى الآداب الملوكية من أحوال الدين والدنيا، وعلّم مراتب الخلق فى الديوان والدول، ونصب الموبذان موبذ يعنى كبير القضاة الشهير اليوم بقاضى العسكر. (عن محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر)

(٣) أى خَدَمَة.

(٤) ضبطها فى س بكسر الميم وفتح الهاء بغير تشديد. [وقد تكون هذه الكلمة جمع ماهن أى صاحب المهنة. وهو أيضا الخادم والعبد. وجمعه يكون حينئذ "مُهَّان" مثل كاهن وكُهَّان وصانع وصُنَّاع]. وعلى هذا الوجه الثانى ضبطها فى ص.

وكان الذى يقابل الطبقة الثالثـة من أصحاب الفكاهات والمضحكين أصحـاب(١) الوَنّج(٢) والمعازف والطنابير. وكان لا يَزْمُرُ(٣) الحاذق من الزامرين إلا على الحـاذق من المُغَنِّين. وإنْ أمره الملك بذلك، راجعه وٱحتجّ عليه.

احتفاظ الفُرس بهذا الترتيب

وقلّما كانت ملوك الأعاجم خاصـةً تأمر أن يَزْمُرَ على المُغنِّى إلّا من كان معه فى أُسلوب واحد، إذ لم يكن من شأْنهم أن ينقلوا أحدا من طبقة وضيعة إلىٰ طبقة

(١) فى س، ص: وأصحاب.

(٢) كلمة فارسية معرّبة. والعرب تقول الونّ بتشديد النون. وهى الصنج، آلة من آلات الطرب. وقيل إنه الصنج ذو الأوتار (أُنظر تاج العروس، ومفاتيح العلوم للخوارزمى). وروىٰ فى كتاب الملاهى بيتاً للأعشى، وهو:

وَمُسْتَقُ صينى ووَنٌّ وبَرْبَطٌ * يجاوبه صَنْجٌ إذا ما ترنّما

وقال صاحب شفاء الغليل: "إن الونج هو عود الطيب، معرب". فانظر من أين أتىٰ بالطيب هنا. ولعله أراد عود الطرب. فصحفها الناسخ وفاتت الطابع.

(٣) أُنظر أسماء آلات الموسيقىٰ عند العرب فى الجزء ١٣ من "المخصص" لابن سِيده (ص ١١ — ١٥). فتعرف أن الطُّنْبُور والطِّنْبار من الأسماء المعروفة عند العرب | نقلا عن الفُرس |. أما ما زعمه العلامة دوزى من أنهم أخذوا هذا الآسم عن اللغة السلتية Celtique، فهو زعمٌ يقوم الدليل على خلافه:

أوّلا — ورد هذا اللفظ فى شعر ذى الرمة (المتوفى سنة ١٠١ أو ١١١ للهجرة). قال:

"من الطنابير يَزْهى صَوْتَه ثَمِلٌ فى لحنه عن لغات العُرْب تعجيمُ."

ومعلومٌ أن العرب ٱبتـدءوا فتح الأندلس فى سنة ٩٢ هـ. ولا يكفى سبعُ سنواتٍ أوثمانٍ لآنتقال اللفظ من أقصىٰ الغرب إلى بادية العرب وشيوعه فيها حتّى رضى ذو الرُّمّة بآستعماله وٱرتضاه الناس منه.

ثانيـاً — إن الاسـبانيين يقولون إلى الآن Atambor، وهو لفظ مأخوذ عن الآسم العربىّ بأداة التعريف العربية. فلو كان ٱسم هذه الآلة شائعا عندهم قبل دخول العرب بلادهم لما بقى فى لغتهم بهذه الصورة العربيـة. وهذا رأى الأُستاذ ليناردى الطليانى فى معجمه المسمّى Le parole italiane derivate dall'arabo وهو رأىٌ رجيح، أيدناه بشعر صحيح، لبدوىّ لَحِ فصيح، نبت فى المهامِهِ الفيح، ومات بين القيصوم والشيح. (أُنظر ترجمته فى الاغانى ج ١٦ ص ١١٠ وما يليها)

رفيعة . إلّا أن الملك كان ربما غلب عليه السُّكْر حتّى يؤثِّر فيه ، فيأمر الزامر من الطبقة الثانية أو الثالثة أن يزمُر على المغنى من الطبقة الأُولىٰ ، فيأبىٰ ذلك . حتّى إنه ربما ضربه الخدم بالمراوح والمَذَابِّ (١) فيكون من آعتذاره أن يقول : إن كان ضربى بأمر الملك وعن رأْيه ، فإنه سيرضىٰ عنى إذا صحا ، بلزومى مرتبتى . (١٩)

معاقبة أردشير لنفسه لمخالفته هذا القانون

وكان أردشير قد وكّل غلامين ذكيين ـ لا يفارقان مجلسه ـ بحفظ ألفاظه عند الشرب والمنادمة . فأحدهما يُمِلُّ (٢) والآخر يكتب حرفًا حرفًا . وهذا إنما يفعلانه إذا غلب عليه السُّكْر . فإذا أصبحَ ورَفَعَ عن وجهه الحجابَ ، قرأ عليه الكاتبُ كلَّ ما لَفَظَ به فى مجلسه إلىٰ أن نام . فإذا قرأ عليه ما أمر به الزامرَ ومخالفةَ الزامر أمْرَه ، دعا بالزامر فخلع عليه وجزاه الخير ، وقال : "أصبتَ فيما فعلتَ وأخطأ الملكُ فيما أمرك به . فهذا ثوابُ صوابك (٣) . وكذلك العقوبة لمن أخطأ . وعقوبتى أنْ لا نزمزم اليوم إلا علىٰ خبز الشعير والجُبْن ." فلم يَطْعَم فى يومه ذلك غيرهما .

وما ذاك إلا حثًّا علىٰ لزوم سُنَّتِهم وحفظ نواميسهم وأخذ العامّة بالسياسة التامّة والأمر اللازم .

---

(١) جمع مِذَبَّة . وهى آلة لطرد الذباب ، وهى التى نسميها فى مصر بالمنشة . أما المراوح فمعروفة ، وآنظر تفصيلا شافيا عن أنواعها فى أيام الدولة العباسية وما بعدها فى كتاب "مطالع البدور فى منازل السرور" . (ج ١ ص ٦٤ ـ ٦٦)

(٢) صحه : يُمْلِل .

(٣) س : "فهذا صوابٌ هذه ثمرته" . وهى روايةٌ صحيحةٌ تشابه التى آخترناها فى المتن عن صحه لأنها مختصرة مفيدة .

اختلال هذا النظام أيام بهرام جور وإعادة أنوشروان له

فلم يزل على ذلك ملوك الأعاجم حتّى ملك بَهرام جُور بن يَزْدَجِرْد[١]، فأقرّ مرتبة الأشراف وأبناء الملوك وسَدَنَة بيوت النّيران على ما كانت، وسوّى بين الطبقتين من الندماء والمغنّين ورفع مَن أطْرَبَه ــ وإن كان فى أوضع الدرجات ــ إلى الدرجة (٢٠) الأُولى، وحطّ مَن قصّر عن إرادته إلى الطبقة الثانية. فأفسد سيرة أردشير فى المغنّين وأصحاب الملاهى خاصّةً. فلم يزل الأمر على ذلك حتّى ملك كسرى أنوشِرْوَانَ، فردّ الطبقات إلى مراتبها الأُولى.

احتجاب ملوك الفرس عن الندماء ومقدار المسافة بين الطبقات

وكانت ملوك الأعاجم كلّها من لَدُنْ أردشير بن بابك إلى يَزْدَجِرْدَ تحتجب عن الندماء بستارة. فكان يكون بينه وبين أوّل الطبقات عشرون ذراعا. لأن الستارة من الملك على عشرة أذرع، والستارة من الطبقة الأولى على عشرة أذرع.

وكان الموكّل بحفظ الستارة رجُلا من أبناء الأساورة يقال له "خُرَّم باش"[٢]. فإذا مات هذا الرجُل وُكِّل بها آخر من أبناء الأساورة وسُمِّىَ بهذا الاسم. فكان "خرم باش"[٢] إذا جلس الملك لندمائه وشغله، أمر رجلا أن يرتفع[٣] على أعلى مكان فى قرار دار الملك ويُغرِّد[٤] بصوت رفيع يسمعه كل من حضر فيقول: "يالسان! احفظ رأسك[٥]، فإنك تجالس فى هذا اليوم ملك الملوك!" ثم ينزل.

---

(١) أُنظر السبب فى إضافة الجور إلى اسمه فى كتاب "غرر أخبار ملوك الفُرْس وسِيَرِهم" للثعالبىّ (صفحة ٥٤٤).

(٢) فى سـ : "خرم تاش". وصححنا عن صـ وعن المسعودىّ الذى قال: "وتفسير ذلك: كُنْ فَرِحًا."

(٣) فى سـ "يرفع". والتصحيح عن صـ وعن المسعودىّ.

(٤) سـ : "يعرب". والتصحيح عن صـ وعن المسعودىّ.

(٥) صـ : الرأس.

فكان هــذا [فِعلَهم] فى كل يوم يجلس فيــه الملك للَهْوِه، ولا يجترئُ أحد من (٢١) خلْق الله أن يدير(١) لســانه فى فيه بخير ولا غيره، حتّى تُحرَّك الستارة، فَيَطْلُعَ القائمُ عليها فَيُؤْمَرَ(٢) بأمرٍ فينفّذه(٣)، ويقول: افعل يافلان كذا، وتُغَنّى أنت يافلان كذا وكذا.

وكان الندماء من العظماء والأشراف وأبناء الملوك وإخوة الملك وعمومته وبنى عمّه وأوضع الطبقات فى مجلس الملك فى نِقابٍ(٤) واحد: إطراقا و إخباتا(٥) وسكونَ طائرٍ وقلّة حركةٍ.

فلم يَزَل أمر الملوك من الأعاجم كذلك حتّى ملك الأرْدَوَان الأحمر(٦)، فكان يقول: «مَن كانت له منكم حاجة، فليكتبْها فى رُقعة وليرفعْها قبل شُغْلى(٧) فأفهَمُ مافيها

(١) صـ : يفيض.

(٢) سـ : تحوّل الستارة فيؤمر.

(٣) انظر حاشية ٣ ص ٢٣ من هذا الكتاب. (وهنا ينتهى ما نقله المسعودىّ عن الجاحظ.)

(٤) قال فى أساس البلاغة: كانا فى نقاب واحد: أى كانا مثلَين ونظيرين. وفى سـ : فى نصـاب واحد.

(٥) أى خشوعا وخضوعا وتواضعا.

(٦) كذا فى سـ، صـ هنا [ثم فى صفحتى ١١٨ و ١٥١ من هذا الكتاب]. والذى يستفاد مما ذكره المسعودىّ فى "مروج الذهب" وفى "التنبيه والإشراف" أن الأردوان هو علَمٌ على جماعة من ملوك النَّبَط، وكانوا من ملوك الطوائف بعد الإسكندر. وهؤلاء ليس لهم شأن فيما نحن بسبيله الآن.

ويستفاد منه أيضا أن فارس قام عليها ملكان أحدهما اسمه الأردوان الأكبر والثانى الأصـغر. وأن هذا الثانى كان أعظم شأنا وأكبر ملكا. وهو الأردوان بن بهرام بن بلاش آخر ملوك الأشكانية. قتله أردشير بن بابك وقام بأعباء الملك بعــده. يؤيد ذلك ابن الأثير والثعالبىّ. والراجح أن هــذا الأردوان هو المراد هنا وأن كلمة "الأحمر" تحريف من الناسخ للفظة "الأصغر".

(٧) سـ : تنقّــلى.

ويَخرجُ إليــه أمرى، وعقلى صحيحٌ وفكرى جامعٌ.» فَمَن سأل فى غير هذا الوقت حاجة، ضُرِبتْ عنقه. وهو أوّل مَن فتح هذا. وكان لا يَرُدّ سائلاً، ولا يُعْطِى مبتدئا.

فلم يزل الأمر علىٰ ذلك حتّى ملك بَهْرام جُور، فكان يقول للنــدماء: «إذا رأيتمونى قد طَرِبْتُ وخرجتُ من باب الجِدّ إلىٰ باب الهزل، فسلوا حوائجكم.» وكان يُوَكِّل بحوائجهم صاحبَ الستارة. فكان إذا سَكِر، مدّ الناس أيديهم برقاعهم، فأخذها صاحب الســتارة، فأنفذها إليه. فأخذها بيــده وضمّها عليها، ثم رمى بهـا من غير أن ينظر فى شىء منها، ويقول: «أنفِذوا كلَّ مافيها.» فكان ذلك ربمـا بلغ فى ليـلة (٣٣) واحدة من سؤالٍ فى إقطاع أو قضاءِ دَيْنٍ أو طابِ مِنْحةٍ[1] ألفَ ألفٍ أو أكثر. إلاّ أنّ ذلك لم يكن تِبَاعا.

وكان إذا رفع أحدهم فى رقعته ما ليس يجوز لمثله ــ وهو خارج من حدّ القصد وأَدْخَلُ[2] فى باب الإفراط ــ لم تُقْضَ له حاجةٌ، وسُمِّىَ جاهــلا، ولم تؤخذ له رُقعــةٌ بعــدها أبدا.

التسوية بين الطبقات فى أيام يزيد بن عبد الملك

ثم لم يكن ذلك بعدُ فى أخلاق الملوك من الأعاجم والعرب حتّى ملك يزيد بن عبد الملك. فسوّى بين الطبقة العُلْيَا والسُّــفلىٰ، وأفسد أقسام المراتب، وغلب عليه اللهْوُ، واستخفّ بآيين[3] المملكة، وأذِنَ للنُّدماء فى الكلام والضحك والهزل فى مجلسه والردّ عليــه.

أوّل خليفة شُتِم فى وجهه هزلا

وهو أوّل من شُــتِمَ فى وجهه من الخلفاء علىٰ جهة الهزل والسُّخْف.

---

(١) صـ: «منيحة». وهى المنحة أيضا.

(٢) صـ: وداخــل.

(٣) سـ: بقوانين. (أنظر الحاشية رقم ٢ ص ١٩ وص ٢٣ وص ٧٧ من هــذا الكتاب)

أحوال الأمويين في الشرب واللهو

قلتُ لإسحاق بن إبراهيم (١): هل كانت الخلفاء من بني أُميَّة تظهر للندماء والمغنين؟

(١) في صـ : لأبي اسحاق بن ابراهيم الموصلي. (وأبو، زائدةٌ ولاشك).

لم أترك طريقا من طرق البحث للتعريف بهذا الاسم إلّا سلكتُها. فتقصَّيتُ كلَّ مَن اسمه "إسحاق بن إبراهيم" ممَّن عاصر الجاحظ فلم أستطع أن أحصر مصدر هذا الخبر إلّا في رجلين: أحدهما (وهو الذي يتبادر الذهن إليه) إسحاق بن إبراهيم الموصليّ صاحب الصيت البعيد في الغناء والأدب والرواية؛ والثاني إسحاق بن إبراهيم المُصعبيّ (حاكم بغـداد في أيام المأمون والمعتصم والواثق) وهو من أرباب المكانة العالية في الأدب والرواية ونقد الغناء.

غير أنه ليس من المحتمل أن يكون الراوي هو إسحاق المصعبيّ، لأنه من ذوي قرابة طاهر بن الحسـين، قاتل الأمين. وأهل هذا البيت جميعهم نشأُوا في بوشنج من خراسان، ولم يحضروا بغـداد إلا بعد دخول المأمون فيها. يعرِف ذلك كل من عانى التاريخ الإسـلاميّ. فكيف يكون إسحاق المصعبيّ قد شهد مجلس الأمين في دار السلام أو أخذ منه الجوائز والصِّلات؟ (أُنظر ص ٤٣ من هذا الكتاب).

أما إسحاق الموصليّ فـا أشبهه بأن يكون هو الراوي للخبر، لولا أن عبارة الجاحظ مضطربة مشوّشة بحيث إنهـا لو بقيت على حالهـا كما هي واردة في سـ، صـ (وكما جرت العادة به في الكتابة العربيـة أي بدون علامات الترقيم) لكان من المتعذر معرفة وجه الصواب أو نسـبة الحديث إلى صاحبه. وذلك لأن القصـة تضمنت خبرا فيـه تحقير لأبيه وتصـغير لشأنه (كما تراه في ص ٣٩ و ٤٠) فضلا عن أنها تنتهي بخبر عن إسحاق الموصليّ نفسه (في ص ٤٣ و ٤٤). وهذا الخبر الثاني منقول بصيغة الغائب المحدَّث عنه، لا كما يتكلم الإنسان عن نفسه. وفيه ما يجدر بمثل الموصليّ أنْ يملأً به فمه تشدُّقا ونخرا ويرفع له رأسه تيها وكبرا. كيف لا وفيه أنَّ المأمون ضمَّ إسحاق وقبَّله. فكان المعقول والمتحتّم أن يقول الراوي مُدِلًّا معجبا: "فضمَّني وقبَّلني".

على أن الشكَّ في راوي هذا الحديث قديم. يرجع أوّل عهده إلى الطبريّ المتوفى سنة ٣١٠. فقد روى إمام المؤرّخين واقعة إبراهيم (والد إسحاق الموصليّ) مع الهادي (راجع السلسلة ٣ ص ٥٩٥). والخبر بنصه تقريبا وارد في عبارة الجاحظ (ص ٣٦). لكن الطبريّ رواه بصـيغة الغائب وصدّره بقوله: "وذُكر عن إسحاق بن إبراهيم الموصليّ أو عن غيره". وكذلك روى صاحب "الأغاني" خبر إبراهيم بن المهدي مع الأمين (الوارد في حديث الجاحظ ص ٤٣) بروايتين مختلفتين جدا، إحداهما عن إسحاق الموصليّ متكلما عن نفسه والثانية عن محمد بن الحارث بن بشخير (راجع الأغاني ج ٩ ص ٧١). والخبر نفسه وارد أيضا عن إسحاق الموصلي بلهجة المحدّث عن نفسه في "العقد الفريد" لابن عبد ربه (ج ٣ ص ٢٤٤) وفي "معجم الأدباء" لياقوت (ج ٢ ص ٢٠٦). =

قال: „أما مُعاويَةُ ومَرْوَانُ وعبد المَلِك والوليد وسليمان وهشام ومَرْوان"
„آبن محمد، فكان بينهم وبين الندماء ستارة. وكان لا يظهر أحدٌ من الندماء علىٰ ما يفعله"
„الخليفة، إذا طرِبَ للمَغنى وآلْتَذَّهُ حتّى ينقَلِبَ ويمشى ويحرِّكَ كتفيْه ويرقص" ٣٣
„ويتجرّد حيث لا يراه إلا خواصّ جواريه. إلاّ أنّه كان إذا آرتفع من خلف الستارة"
„صوتٌ أو نعير طَرَبٍ أو رقصٌ أو حركةٌ بزفير تجاوز المقدار، قال صاحب الستارة:"
„حَسْبُكِ يا جارية! كُفّى! اِنتَهى! أَقْصِرى! ـ يُوهِمُ الندماء أنّ الفاعل لذلك بعض"
„الجوارى."

„فأما الباقون من خلفاء بنى أُمَيَّة فلم يكونوا يتحاشَوْن أن يرقصوا ويتجرّدوا"
„ويحضروا عُراة بحضرة الندماء والمغنِّين. وعلىٰ ذلك، لم يكن أحدٌ منهم فى مثل حال"
„يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد فى المُجُون والرَّفَث بحضرة الندماء والتجرُّد:"
„ما يُباليان ما صنعا."

= وعندى أنه لا يمكن التوفيق بين جميع هذه الروايات، إلا إذا فرضنا أن هذا الحديث قد رواه الجاحظ عن إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ، ثم حشاه بآستطرادات من عنده وروايات أخرىٰ ضمّها إليه مما يَتَّسق معه ويناسب المقام أو يرتبط بالموضوع. فكان الجاحظ إذا آنتهى من الحشو والآستطراد على ما آعتادته طبيعته وألِفَتْهُ نفسه كما هو المعهود فى كلّ كتبه وتصانيفه، عاد إلى الحديث الأصلىّ مستعملا لفظة "قال" تنبيهًا للقارئ إلى رجع ما آنقطع ووصل ما آنفصل وآستئنافا لما حدثه به إسحاق بن إبراهيم (الموصلىّ). فحينما كان المقام يدعو الجاحظ للكلام عن نفس إسحاق (صاحب الحديث)، وضع لفظة "ويقال". فيذكر من عنده خبرا عن نفس إسحاق بصيغة الغائب المحدّث عنه. أما إذا عرض للجاحظ أن يحشر فى تضاعيف الحديث الأصلى شيئا من عنده لأجل زيادة التعريف بأحد الخلفاء أو أحد الأشخاص المذكورين فى الحديث، فكان يستعمل لفظة "وهو" أو "وكان". فإن أتى المؤلف برواية أخرى، عبّر بقوله "وزعم فلان" أو "ولقد حدثنى فلان".

فلذلك كله وضعتُ بين شولتين مزدوجتين „ " كل سطر من السطور التى ورد فيها كلامٌ دلَّنى السياق والبحث والآستقصاء على أنه من حديث إسحاق بن إبراهيم الموصلى للجاحظ. وأغفلتُ من هذه الإشارة كل ما تأكد عندى أنه من حشو الجاحظ وآستطراداته، لأنه من ضمن عبارته، والكتاب كله له.

(عمر بن عبد العزيز)

قلتُ: فعمر بن عبد العزيز؟

قال: «ما طنّ فى سمعه حرفُ غِناء، منذ أفضتْ الخلافة إليه إلىٰ أن فارق الدنيا.
فأما قبلها ــ وهو أمير المدينة ــ فكان يسمع الغِناء، ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل.
وكان ربما صفّق بيديه، وربما تمرّغ علىٰ فراشه وضرب برجليْه وطَرِبَ. فأما أن
يخرج عن مقدار السرور إلىٰ السُّخْف، فلا.» (٢٤)

قلتُ: فخلفاؤُنا؟[1]

أحوال العباسيين فى الشرب واللهو

(السفاح)

قال: «كان أبو العباس فى أوّل أيامه يظهر للندماء ثم ٱحتجب عنهم بعد سنة.[2]
أشار بذلك عليه أُسَيْد[3] بن عبد الله [الخُزاعىّ]. وكان يطرَب ويبتهِج ويصيح من
وراء الستارة: "أحسنْتَ والله! أعِدْ هذا الصوتَ!" فيُعاد له مرارًا، فيقول فى كلها:
"أحسنتَ!" وكانت فيه فضيلة لا تجدها فى أحد. كان لا يحضُره نديم ولا مُغَنٍّ
ولا مُلْهٍ فينصرف إلّا بِصِلَةٍ أو كُسْوَةٍ، قلّتْ أم كَثُرَتْ.[4] وكان لا يُؤَخِّر إحسانَ
مُحْسِنٍ لغدٍ، ويقول: "العجب ممن يُفَرِّحُ إنسانًا، فيتعجَّلُ السرورَ ويجعلُ ثوابَ مَن
سَرَّه تسويفًا وعِدَةً!"، فكان فى كل يوم وليلة يقعد فيه لشغله، لا ينصرف أحدٌ ممن
حضره إلّا مسرورًا. ولم يكن هذا لعربىّ ولا عجمىّ قبله. غير أنه يُحْكَىٰ عن بَهْرَامَ جُورٍ
ما يُقارِب هذا.»[5]

(١) صـ: فخلفاء بنى العباس؟

(٢) أنظر شذرات الذهب. "ج ١ ص ٢١٦"

(٣) كان من القائمين بالدعوة العباسية ومن رجالات أبى مُسلم الخراسانى، وكان على مقدّمته عند دخوله مرو. توفى سنة ١٥٦ هـ وهو أمير خراسان. (أنظر الفهارس فى الطبرىّ وفى ٱبن الأثير)

(٤) أورد صاحب "محاسن الملوك" ما يضارع ذلك (ص ٣٠)

(٥) قارنْ ذلك بما نقله صاحب "مروج الذهب" (ج ٦ ص ١٢١ و ١٢٢).

(المنصور) „فأما أبو جعفر المنصور، فلم يكن يظهر لنديمٍ قطُّ، ولا رآه أحد يشرب غير الماء.“ „وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعا، وبين الستارة والندماء مثلها. فإذا غنَّاه“ „المُغَنِّي فأطربه، حَرَّكتِ الستارةَ بعضُ الجوارى فأَطَّلَعَ إليه الخادمُ صاحبُ الستارة“ (٢٥) „فيقول: قل له: „أحسنتَ! بارك الله فيك!“ وربما أراد أن يُصفِّق بيديه، فيقوم عن“ „مجلسه ويدخل بعض حُجَر نسائه، فيكون ذاك هناك. وكان لا يُثِيب أحدًا من ندمائه“ „وغيرهم درهما، فيكون له رَسْمًا فى ديوانٍ. ولم يُقْطِعْ أحدًا ممن كان يضاف إلى مُلْهِيَـةٍ“ „أو ضَحِكٍ أو هزْلٍ موضعَ قَدَمٍ من الأرض. وكان يحفظ كلَّ ما أعطىٰ واحدًا منهم“ „عشْرَ سنين ويحسِبُهُ ويذكره له.“

وكان أبو جعفر المنصور يقول: „مَن صنع مثل ما صُنع إليه، فقد كافأ؛ ومَن أضعفَ، كان مشكورًا؛ ومَن شكر، كان كريمًا؛ ومَن علم أن ماصَنع فإلىٰ نفسه صنع، لم يستبطئ النـاس فى شكرهم ولم يستـزدهم فى مودّتهم. ولا تلتمس من غيرك شكر ما أتيتَـه إلىٰ نفسك ووقيتَ به عِرضَـك. وآعلم أن الطالب إليك الحاجةَ لم يُكْرِمْ وجهه عن مسألتك، فأكرِمْ وجهك عن ردّه.“[1]

(المهـدى) „وكان المهدىُّ فى أول أمره يحتجب عن الندماء، متشبِّها بالمنصور نحوًا من سنة.“ „ثم ظهر لهم. فأشار عليـه أبو عَوْنٍ[2] بأن يحتجب عنهم، فقال: «إليك عنى، يا جاهل!“

---

(١) هذه الفقرة المحصورة بين نجمتين** منقولة عن ص. وهى آستطرادٌ أجنبيٌّ من موضوع الحديث.

(٢) هو عبد الملك بن يزيد الخراسانىّ الأزدىّ. كان من أهل الرأى ومن وجوه الشيعة القائمين بالدعوة العباسية، ومن قوّاد أبى مسـلم الخراسانىّ. وكان له بلاء حسـن فى تمهيد الأمر لبنى العباس. دخل بجنوده دمشق عنوة من باب كيسان ثم تعقب مروان بن محمد الجعدىّ إلى مصر عند هربه إليها، وفيها قتله. و بقى فيها ومعه السلاح والأموال والرقيق. فولّاه عليها أبو العباس السفاح مرتين: الأُولىٰ من شعبان سنة ١٣٢. ==

„إنما اللذة فى مشاهدة السرور وفى الدُّنُوّ ممن سرَّنى. فأما من وراء وراء، فما خيرُها" „ولذّتها؟ ولو لم يكن فى الظهور للندماء والإخوان إلّا أنّى أُعطيهم من السرور" „بمشاهدتى مثلَ الذى يُعطونى من فوائدهم، لجعلتُ لهم فى ذلك حظًّا موفَّرا.» وكان" „كثير العطايا، يواترها(١). قلَّ من حضره إلّا أغناه. وكان لَيِّنَ العريكة، سَهْلَ الشريعة،" (٣٦) „لذيذ المنادمة، قصير المناومة(٢)، ما يَمَلُّ نديما ولا يتركه إلّا عن ضرورة، قطيع الخنا،" „صبورا على الجلوس، ضاحك السنّ، قليل الأذىٰ والبَذاء."

(الهادى) „وكان الهادى شَكِسَ الأخلاق، صعْب المرام، قليل الإغضاء، سيِّئَ الظنّ(٣). قلَّ" „مَن توقَّاه وعرف أخلاقه، إلّا أغناه. وما كان شئٌ أبغضَ إليه من ٱبتدائه بسؤال." „وكان يأمر للمغنّى بالمال الخطير الجزيل، فيقول: «لا يُعطينى بعدَها شيأ»، فيعطيه" „بعد أيام مثل تلك العطيّة."

= إلى سنة ١٣٥. وهو الذى أمر أصحابه بالبناء فى الأرض الفضاء التى محلها الآن جامع ٱبن طولون. و بنى هو هنالك دار الإمارة ومسجدًا عُرف بجامع العسكر. ولذلك سمى المكان كله بٱسم العسكر من ذلك الوقت، وصار فيابعد مدينة عامرة. ثم أرسله أبو العباس السفاح على رأس الجيش المتوجه إلى المغرب فى جمادى الآخرة سنة ١٣٦. ولكن الخليفة مات، فجاء أمر الخليفة الجديد أبى جعفر المنصور بالعدول عن هذه الغزوة. فأقام أبو عون ببرقة شهرًا. ثم عاد إلى مصر بجيشه فذهب إلى فلسطين لحرب الخوارج. فهزمهم وقتل منهم جما غفيرا، وأرسل إلى مصر ثلاثة آلاف رأس. ثم تولّى خراج مصر وصلاتها بطريق النيابة حتى جاءه التقليد فى ٢٠ رمضان سنة ١٣٧. وأقام فى هذه الولاية الثانية ثلاث سنين وستة أشهر. وعاد إلى مصاحبة المنصور وحضر معه واقعة الراوندية. فلما أفضت الخلافة إلى المهدىّ ٱستعمله على خراسان سنة ١٥٩ ثم عزله عنها سنة ١٦١. (أُنظر الأغانى وٱبن الأثير وأبى المحاسن تغرى بردى، فى فهارسها)

(١) صـ: وافرها.

(٢) سـ: قصير المياومة والملايلة.

(٣) سـ: النظر.

ويقال إنه قال يوما، وعنده ابن جامع وإبراهيم الموصلىّ ومُعاذ بن الطبيب — وكان أوّل يومٍ دخل عليه مُعاذ [١] وكان حاذقا بالاغانى عارفا بها — : مَن أطربنى اليومَ منكم فله حُكْمُهُ. فغنّاه ابن جامع غِناءً لم يحرّكه، وكان إبراهيم قد فهم غرضه فغنّاه:

سُلَيْمَىٰ أجمعَتْ بينًا. * فأيْنَ تَقُولُهَا [٢] أيْنَا ؟

فطرِب حتّى قام عن مجلسه ورفع صوته، وقال: "أَعِدْ بالله، وبحياتى!" فأعاد، فقال: ! «أنت صاحبى فاحتكم» فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، حائط [٣] عبد الملك بن مروان وعينه الخرّارة [٤] بالمدينة! قال: فدارت عيناه فى رأسه حتّى صارتا كأنهما جمرتان ثم قال: «يا ابن اللخناء! أردتَ أن تَسْمَعَ العامّةُ أنك أطربتَنى، وأنّى حكّمْتُك فأقطعتُك! [أما والله] [٥] لولا بادرةُ جهلك التى غلبتْ علىٰ صحيح عقلك وفكرك، لضربتُ الذى فيه عيناك!» ثم سكت هُنَيْهَةً. قال إبراهيم: فرأيتُ مَلَكَ الموت قائما بينى وبينه ينتظر أمره. ثم دعا إبراهيم الحرّانىّ [٦]، فقال: «خذ بيد هذا الجاهل، فأدخِلْه بيت المال، فليأخُذْ منه ماشاء!» فأخذ الحرّانىّ بيدى حتّى دخل بى بيت (٣٧)

---

(١) صـ : مَن.

(٢) "تقولها" هنا مثل "تظنّها" معنًى وعملًا. وقد تحرَّفَتْ هذه الكلمة فى كثير من كتب الأدب المطبوعة. وهذه القصة التى ذكرها الجاحظ أوردها الطّبرى أيضا (سلسلة ٣ ص ٥٩٥) باختلاف قليل، وهى غير واردة فى الأغانى، وإنما هنالك حكاية أخرى وفيها الأبيات بأكملها. (أنظر ج ٢١ ص ١٦٦)

(٣) أى بستان.

(٤) الينبوع الذى يخرج منه جدول يتدفق ماؤه.

(٥) الزيادة عن الطبرى (سلسلة ٣ ص ٥٩٦).

(٦) هو عديل هارون الرشيد. وكان من ندماء الهادى وهو ولىّ العهد. ويظهر من كلام ابن الأثير أنه كان قيّما على خزائن الأموال فى أيام الهادى. (الأغانى ج ٦ ص ٦٧ وج ١٧ ص ١٧)

المـال، فقال : كم تأخذ؟ فقلتُ : مائة بدرة[(١)]. فقال : دعنى أؤامره. قلتُ : فآخذُ تسعين. قال : حتى أؤامره. قلتُ : فثمانين. قال : لا. فأبى إلّا أن يؤامره، فعرفتُ غرضه، فقلت له : آخذُ سبعين لى، ولك ثلاثون. قال شأنك[(٢)]! قال : فانصرفتُ بسبعمائة ألف، وانصرف مَلَك الموت عن الدار[(٣)].

(٣٨)
(الرشيد)

قال[(٤)] : "وكان الرشيد فى أخلاق أبى جعفر المنصور، يتمثلها كلّها إلّا فى العطايا والصِّلات والخِلَع. فإنه كان يقفو فعل أبى العبّاس والمهدىّ. ومَنْ خبَّرك أنه رآه قطُّ وهو يشرب إلّا الماء، فكذِّبه[(٥)]. وكان لا يحضُر شربه إلّا خاصّ جواريه. وربما طرب للغناء فتحرّك حركةً بين الحركتين فى القِلّة والكثرة."

وهو من بين خلفاء بنى العباس مَن جَعَل للمغنِّين مراتب وطبقات، على نحو

(١) البدرة فى الأصل جلد السخلة (أى ولد الضائنة أو الماعزة). كانوا يضعون فيها الأموال، ثم أطلقوا اسمها على المال نفسه مجازا. والمستفاد من كتب اللغة أن البدرة كيس فيه ألف درهم أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار. ورواية الجاحظ هنا تدل على أن مقدارها فى أيام العباسيين كان عشرة آلاف درهم.

(٢) فى س، ص : شارك. وفى الطبرى : "قال الآن جئتَ بالحق، فشأنك!" (سلسلة ٣ ص ٥٩٦)

(٣) أورد صاحب "محاسن الملوك" هذه القصة باختصار ألفاظ الجاحظ. (ص ٣٠ و ٣١)

(٤) أى إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ راوى هذه الحكاية كلها للمؤلف.

(٥) هذا النصّ الصريح يؤيد رأى ابن خلدون فى مقدمته (ص ١٤). وذلك أن "إلّا" هنا معناها "غير" كما وردت فى غير ما آية قرآنية وبيت شعرىّ. فيكون المعنى الذى أراده محدِّث الجاحظ : لو خبّرك إنسان بأنه رأى هارون وهو يشرب شرابا غير الماء، فاعلمْ أنّه كاذبٌ. لأن الرشيد، كان إذا أراد الشرب، فإنما يشرب بحضرة خاصّ جواريه دون سائر الناس، بحيث لم يره أحد يشرب شيئا سوى الماء، حتى يجوز له الإخبار بذلك عنه [وانظر ص ١٥٣ من هذا الكتاب]. يؤيد ذلك ما وقع له مع ابن بختيشوع بشأن السمكة التى منعه الطبيب من أكلها. (مروج الذهب ج ٦ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦؛ وعيون الأنباء ج ١ ص ١٢٩)

ما وضعهم أردشير بن بابك وأنوشروان. فكان إبراهيم [الموصلي][١] و[إسماعيل أبو القاسم] ابن جامع وزلزل [منصور الضارب] في الطبقة الأولى.[٢] وكان زلزل يضرب، ويغنّي هذانِ[٣] عليه.

---

(١) الأسماء والكُنَى والألقاب الموضوعة بين [ ] في هذه الصفحة والتي تليها مأخوذة عن الأغاني لأبي الفرج.

(٢) كان زلزل هذا ممن يضرب به المثل في حسن الضرب بالعود وكان من الأجواد. وقد اشتهر في أيام المهديّ والهادي والرشيد. ومن آثاره العمرانية بِرْكةٌ أنشأها في بغداد ووقفها على المسلمين، فاشتهرت باسمه: واشتهرت المحلة الكائنة فيها باسمها. قال فيها نفطويه النحوي:

لو انّ زُهيرا وامْرأَ القَيْس أبصرا * مَلَاحةَ ما تحويه بركة زَلْزَل،
لَمَا وَصَفَا سَلْمَى ولا أُمّ جُنْدُبٍ * ولا أكثرا ذكر الدَّخول فَحَوْمَلِ.

وقد أكثر الشعراء من ذكرها.

غضب عليه الرشيد فحبسه سنين. وكانت أخته تحت إبراهيم الموصلي، فقال إبراهيم فيه:

هل دهرُنا بك عائدٌ يا زَلْزَلُ * أيامَ يغنينا العدوّ المُبْطِلُ،
أيامَ أنت من المكاره آمنٌ * والخيرُ مُتّسعٌ علينا مُقْبِلُ؟
يا بُؤْسَ مَن فقد الإمام وقُرْبَه! * ما ذا به من ذِلّة، لو يعقِلُ؟
ما زلتُ بعدك في الهموم مرددا * أبكي بأربعة كأني مُثْكِلُ.

فرضي عنه الرشيد وأخرجه من الحبس. (انظر معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٥٩٢ وج ٤ ص ١٢٣ و ٢٥٢؛ وانظر شفاء الغليل للخفاجي ص ١١٧؛ والأغاني ج ٥ ص ٢٢)

(٣) أي صاحباه الآخران وهما إبراهيم الموصلي وابن جامع. والذي جاء "في الأغاني" (ج ٥ ص ٤٠) أن إبراهيم الموصلي وزلزلا وبرصوما اجتمعوا بين يدي الرشيد فضرب زلزلٌ وزَمَر برصوما وغنّى إبراهيم:

صحا قلبي وراغ إليّ عقلي * وأقصرَ باطلي ونسيتُ جهلي.
رأيتُ الغانيات، وكنّ خُزْرًا * إليّ، صرمْنَني وقطعْنَ حبلي.

فطرب هارون حتى وثب على رجليه وصاح: يا آدم! لو رأيتَ مَن يحضرني من وَلَدِك اليوم، لسرّك! ثم جلس =

والطبقة الثانية سُلَيْم بن سلام[1] [أبو عبيدالله الكوفىّ] وعمرو الغزال[2] ومَن أشبههما. والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والونج والطنابير. وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصِلاتهم. وكان إذا وصل واحدًا من الطبقة الأُولى بالمال الكثير الخطير، جعل لصاحبيه اللذين معه فى الطبقة نصيبا منه، وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه أيضا نصيبا. وإذا وصل أحدا من الطبقتين الأُخرَيَيْن بصلة، لم يقبل واحدٌ من الطبقة العالية منه درهما، ولا يجترئُ أن يعرض ذلك عليه. (٣٩)

قال[3]: "فسأل الرشيد يومًا برصوما الزامر، فقال له: يا إسحاق! ما تقول فى ٱبن جامع؟ فحرّك رأسه [و] قال: خَمْرٌ قُطْرُبُّلٌ، يعقِل الرجْل ويُذهب العقْل. قال: فما تقول فى إبراهيم الموصلىّ؟ قال: بستانٌ فيه خوخ وكُمَّثْرَى وتُفَّاح وشَوْكٌ وخُرْنُوبٌ. قال: فما تقول فى سليم بن سلام؟ فقال: ما أحسنَ خِضابه! قال: فما تقول فى عمرو الغزال؟ قال: ما أحسن بنانه[4]!"

قال: وكان منصورٌ زلزل من أحسن وأحذق مَن بَرَأَ اللهُ بالجَسّ. فكان إذا جَسَّ العُود، فلو سمعه الأحنف[5] ومَن تحالم فى دهره كله، لم يملكْ نفسه حتّى يطرَب.

= وقال: أستغفر الله!

وفى العقد الفريد (ج ٢ ص ٢٤٧) أن زلزلا كان يضرب على إبراهيم، يعنى الموصلى.

(١) صـ: سليمان بن سلامة (وهكذا فى بقية الحكاية).

(٢) فى سـ، صـ: "العزال" بالعين المهملة (وهكذا فى بقية الحكاية). وقد ٱعتمدتُ ما أورده صاحب الأغانى (ج ١١ ص ٣٤ و ٧٧ وج ٢٠ ص ٦٤ و ٦٥).

(٣) أى إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ راوى الحكاية للجاحظ.

(٤) سـ: "ثيابه". وفى الاغانى (ج ٦ ص ٧٢) أن برصوما الزامر ذكر إبراهيم الموصلى وٱبن جامع، فقال: "الموصلىُّ بستانٌ تجد فيه الحلو والحامض، وطريا لم ينضج، فتأْكل منه من ذا ومن ذا؛ وٱبن جامع زِقُّ عسل، إن فتحتَ فمه خرج عسل حُلوٌ؛ وإن خرقتَ جنبه خرج عسَل حُلوٌ، وإن فتحت يده خرج عسل حُلوٌ: كله جَيِّدٌ."

(٥) هو أبو بحر الضحَّاك بن قيس. ينتهى نسبه إلى زيد مناة. وهو الذى يضرب به المَثَل فى الحلم. وكان آية فى الجدّ والوقار. (أُنظر ترجمته فى ٱبن خلكان والأغانى وغيرهما)

قال إبراهيم : فغنّيتُ يومًا علىٰ ضربه[١] ، فخطّأني . فقلتُ لصاحب الستارة : هو والله أخطأ ! قال : فرَفع الستارة ، ثم قال : يقول لك أمير المؤمنين : أنت والله أخطأتَ ! فحمِيَ زَلزلٌ وقال : يا إبراهيم ، تخطّئني ؟ فوالله ما فتح أحدٌ من المغنين فاهُ بغير لفظٍ إلّا عرَفتُ غرضَه ! فكيف أُخْطِئُ وهذه حالي ؟ فأدّاها صاحبُ الستارة ، فقال (٣٠)
الرشيد : قل له : صدقتَ ! أنت كما وصفتَ نفسك ، وكذَبَ إبراهيم وأَخْطأَ . قال إبراهيم : فغمّني ذلك ، فقلتُ لصاحب الستارة : أبلغْ أمير المؤمنين ، سيّدي ومولاي ، أنّ بفارسَ رجلا يقال له سُنَيْد[٢] ، لم يخلُق الله أضربَ منه بعود ولا أحسن مَجَسًّا ، وإن بعث إليه أمير المؤمنين فحمله عرف فضله وتغنّيتُ علىٰ ضربه . فإن زَلزلًا يكايدني مُكايدةَ القُصّاص والقرّادين . قال : فوجّه الرشيد إلىٰ الفارسيّ فحُمِل علىٰ البريد ، فأقلق ذلك زَلزلًا وغمّه . فلما قدم بالفارسيّ ، أحضرنا وأخذنا مجالسنا وجاؤا بالعيدان قد سُوّيتْ . وكذلك كان يُفعَل في مجلس الخلافة ، ليس يُدفَع إلىٰ أحدٍ عودُه فيحتاج إلىٰ أن يحرّكه لأنها قد سُوّيتْ وعُلِّقتْ مثالثها مُشاكِلَةً للزِّيَرة[٣] علىٰ الدقة والغلظ . قال : فلما وُضع عُود الفارسيّ في يديه ، نظر إليه منصور زلزل ، فأسفر وجهه وأشرق لونه . فضرب وتغنّىٰ عليه إبراهيم . ثم قال صاحب الستارة لزلزل : يامنصور : اِضربْ ! قال : فلما جسّ العود ، ماتمالك الفارسيّ أنْ وثب من (٣١)
مجلسه بغير إذنٍ حتّى قبل رأس زَلزَلٍ وأطرافه ، وقال : مِثْلُكَ ــ جُعِلتُ فداك ! ــ

(١) أي إبراهيم الموصليّ حكاية عن نفسه . وهذه القصة من استطرادات الجاحظ أيضا

(٢) لم يذكره صاحب الأغاني ، ولم يورد هذه الحكاية . وهي غير واردة في ص .

(٣) جمع زير ، مثل ديك وديَكَة . والزير هو الوتر الدقيق من الأوتار وأحكمها فتلًا (في عود الطرب) . فكأنّ المؤلف قال : وعُلِّقتْ مثالثه مشاكلة لمثانيه . قال المفضل بن سلمة النحوي في كتاب الملاهي ما نصه : "ويقال لأوتاره [أي العود] المحابضُ واحدها مِحبَض وهي الشُّرَع واحدتها شِرْعة . فمنها الزير ، والذي يليه المثنى ومنهم من يسميه الثاني ، والمثلث ومنهم من يسميه الثالث ، والبَمّ . ويقال للتي يسميها الفرس دساتين ، العَتَبُ . وكل ذلك قد جاء في الشعر ."

لا يُمتَهن ويُستعمل ؛ مثلك يُعبَدُ . فعجب الرشيد من قوله وعرف فضيلة زلزل على الفارسىّ ، فأمر له بصلة وردّه إلى بلده .

* وكان منصور زلزل من أسخى الناس وأكرمهم . نزل بين ظَهرانَىْ قوم ، وقد كان يحلّ لهم أخذ الزكاة . فما مات حتّى وجبت عليهم الزكاة .* (١)

،، وكان إسحاق بَرْصُومَا فى الطبقة الثانية . قال : فطرب الرشيد يوما لزمره ، فقال ،، له صاحب الستارة : يا إسحاق ! أَزْمُرْ على غناء آبن جامع . قال : لا أفعلُ . قال : يقول ،، لك أمير المؤمنين ، ولا تفعلُ ؟ قال : إن كنت أزمُرُ على الطبقة العالية ، رُفِعتُ إليها . ،، فأَمّا أنْ أكون فى الطبقة الثانية وأزْمُرَ على الأُولى ، فلا أفعلُ ! فقال الرشيد لصاحب ،، الستارة : اِرفعه إلى الطبقة الأُولى ؛ فإذا قمتُ ، فآدْفَعِ البساط الذى فى مجلسهم إليه . ،، فرُفع إسحاق إلى الطبقة العالية وأخذ البساط ، وكان يساوى ألفىْ دينار . فلما حمله إلى ،، منزله آستبشرت به أُمُّه وأخواته . وكانت أمه نَبَطِيّةً لكناء . (٢) فخرج برصوما عن منزله ،، لبعض حوائجه ، وجاء نساءُ جيرانه يهنِّئْنَ أُمَّه بما خُصَّ به دون أصحابه ويدعون لها . ،، (٣٢) فأخذت سِكِّينًا وجعلت تقطع لكل مَن دخل عليها قطعة من البساط ، حتّى أتت على ،، أكثره . فجاء برصوما فإذا البساط قد تُقُسِّمَ بالسكاكين . فقال : وَيْلَكِ ! ماصنعْتِ ؟ ،، قالت : لم أدرِ ، ظننتُ أنه كذا يُقَسَّم . فحدّث الرشيد بذلك ، فضحك ووهب له آخر . ،،

* وزعم سعيد بن وهب (٣) أنّ إبراهيم الموصلىّ غنّى أمير المؤمنين هارون صوتًا ، فكاد

---

(١) هذه العبارة المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن صـ .

(٢) التى لا تُقيم العربية لعجمة لسانها . (قاموس)

(٣) هو أبو عثمان سعيد بن وهب البصرىّ . كان كاتبا شاعرا مطبوعا . مات فى أيام المأمون . (أُنظر أخباره فى الأغانى ج ٢١ ص ١٠٤ — ١١٠)

يطير طربًا، فاستعاده عامة ليله، وقال: «ما رأيت صوتًا يجمع السخاء والطرب وجودة الصنعة والسخف غير هذا الصوت!» فأقبل إبراهيم، فقال: «يا أمير المؤمنين! لو وهب لك إنسان مائة ألف درهم، أو لو وجدتَ مائة ألف درهم مطروحةً، كنتَ أَسَرَّ بها أو بهذا الصوت؟» قال: «والله لأَنَا أَسَرُّ بهذا الصوت مني بألف ألف، وألف ألف!» قال: «فلو فقدتَ من بيت مالكَ مائة ألف كان أشدَّ عليك، أو لو فقدتَ هذا الصوت وفاتك هذا السرور؟» قال: «بل ألف ألف، وألف ألف أهونُ عليَّ.» قال: «فَلِمَ لا تَهَبُ مائة ألف أو مائتى ألف لمن أتاك بشيءٍ فَقْدُ ألفى ألف أهونُ عليك منه؟» فأمر [له] بمائتى ألف درهم.* (١)

(الامين) قلتُ لإسحاق: فالمخلوع (٢)، أين كان ممن ذكرتَ؟

قال: «ما كان أعجبَ أمرَه كلَّه! فأما تبذُّله، فما كان يبالى أين قعد ومع مَن قعد. وكان، لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب، خرَّقها كلَّها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيثُ قعدوا. وكان مِنْ أعطى الخلق لذهبٍ وفضةٍ، وأنهبهم للأموال إذا طَرِبَ أو لَهَا. وقد رأيتُه وقد أمر لبعض أهل بيته (٣) في ليلةٍ بوقْرِ زورقٍ ذهبًا، فانصرف به. وأمر لى (٤) ذات ليلة بأربعين ألف دينار، حُمِلتْ أمامى. ولقد غنَّاه إبراهيم بن المهديّ غناء لم أرتضه. فقام عن مجلسه فأكبَّ عليه فقبَّل رأسه. فقام

---

(١) هذه الجملة المحصورة بين نجمتين ** منقولة عن ص.

(٢) يعنى الأمين الخليفة العباسى. وبذلك اللقب يسميه أغلب الكتّاب والمؤرخين المعاصرين له أو الذين بعده بقليل، لقرب عهدهم بخلعه واشتهاره بينهم. وشاهدُ ذلك بين أيدينا الآن، فإن الأتراك لا يُسَمّون السلطان عبد الحميد فى كتاباتهم وأحاديثهم إلّا باسم "المخلوع".

(٣) الإشارة إلى إبراهيم بن المهدىّ عمّ الخليفة. (أنظر الأغانى ج ٩ ص ٧١)

(٤) الضمير يعود إلى راوى الحكاية وهو إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ.

(٣٣) "ابراهيم فقبَّل ما وطِئَتْ رجلاه من بِساطه. فأمر له بمـائتىْ ألف دينار. ولقد رأيتُه "يوما، وعلى رأسه بعض غلمانه، فنظر إليه فقال: وَيْلَكَ! ثيابُك هذه تحتاج إلىٰ أنْ "تُغْسَلَ. إِنطلِقْ، فَخُذْ ثلاثين بَدرة، فاْغسِلْ بها ثيابك."

ولقد حدَّثنى عَلُّوَيْه [(١) الأعسر وهو أبو الحسن علىّ بن عبد الله بن سـيف] عنه قال: لمـا أُحيطَ به وبلغت حجارة المنجنيق بِساطه، كنّا عنده فغنَّتْه جاريةٌ له بغناء تَرَكَتْ فيه شيأً لم تُجِدْ حكايته. فصاح: يا زانية! تغنينى الخطأ! خذوها! فحُمِلتْ. وكان آخرَ العهد بها.

قلتُ: فالمأمون؟ (المأمون)

قال: "أقام بعد قدومه عشرين شهرًا لم يسمع حرفًا من الغناء. ثم سمعه من وراء "حجابٍ، متشبِّهًا بالرشـيد. فكان كذلك سَبْعَ حِجَجٍ. ثم ظهر للنـدماء والمغنين."

قال: "وكان حين أَحبَّ السماع ظاهراً بعينه، أَكْبَرَ ذاك أهلُ بيته وبنو أبيه."

ويقال إنه سأل عن إسحاق بن إبراهيم الموصِلىِّ (٢) فغمزه بعضُ مَن حضر، وقالوا: مايُغادر تيهًا وبَأْوًا (٣). فأمسك عن ذكره. قال: فجـاءه زُرْزُر يوما فقال له: يا إسحاق، نحن اليومَ عند أمير المؤمنين! فقال إسحاق: فغَنِّهِ بهذا الشعر:

---

(١) الزيادة التى بين [ ] عن كتاب الاغانى لأبى الفرج.

(٢) كان المأمون يعقد مجلسا لتفريق الأرزاق، فكانـ إسحاق هذا أوّلَ مَن يدخل عليه فى طـائفة الوزراء، ثم القُوّاد، ثم القضاة، ثم الفقهاء والمعدِّلين، ثم الشعراء ثم المغنِّين، ثم الرماة فى الهَدَف. (عن ذيل أمالى القالى ص ٩٠)

(٣) البأْو هو الفخر والكِبر والتيه. قال حاتم الطائىّ:

فما زادنا بأْوًا على ذى قـرابة * غِنانا، ولاأزرى بأحسابنا الفَقْرُ.

وانظر هذه القصة أيضا فى العقد الفريد (ج ٣ ص ٢٤٤).

يَاسَرْحَةَ[١] المَـاءِ قدسُدّتْ مَوارِدُهُ، * أما إليكِ طريقٌ غيرُ مسـدودِ؟
لِحَـائِمٍ حَامَ[٢] حتّى لاحَرَاكَ به * مُحَلَّأٍ[٣] عن سبيل[٤] المـاءِ مَطرودِ.[٥]

فلما غنّاه به زُرْزُر، أطربه وأبهجه وحرّك له جوارحه. وقال: ويلك! مَن هذا؟

---

(١) وردت هذه الكلمة هكذا: "سرحة" فى س ، صـ وفى "الأغانى" والطبرى و"معجم الأدباء" وأكثر كتب الأدب التى وقعت لنا، ومنها محاسن الملوك. وأما صاحب العقد الفريد فقد روى صدر البيت هكذا: "يامشرع المـاء". والرواية الأُولىٰ هى الأصدق والأصوب، وإن كانت الثانية فيها شبهة من جهة المعنى. والسَّرحةُ شجرةٌ عظيمة بلا شـوك تنبت فى بلاد العَرَب وفى نجد خصوصًا، وورقها أخضر دائمًا، وهى جميلة المنظر. [ويسمّيها أهل شنقيط (آتيل). وفى أشعارهم "ذو السَّرح" وهو موضع يسمّى عندهم باللغة البربرية "إنواتيل" وهو تعريبٌ له كما ترى. اِستفدت ذلك من الأُستاذ الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطىّ.] ومثل ذلك فى بلاد العرب مواضع كثيرة مثل السرحة، وذات السرح، وذو السرح. (أُنظر ياقوت ج ٢ ص ٥٠٣، ج ٤ ص ٤٨٠؛ وج ٣ ص ٢٨٦؛ وج ١ ص ٥٣٦ و٥٨٠، ج ٣ ص ٧٨٢)

وأصل الكناية عن المرأة بالسرحة أن عمر بن الخطاب أنذر الشعراء بالجلد إذا هم شببوا بالنساء. فقال حُمَيد ابن ثَوْر فى ضمن قصيدة له:

تُرَانِى إنْ عَلَّلْتُ نفسى بسرحةٍ * من السَّرح موجودٌ علىَّ طريقُ
أَبَى اللّهُ إلّا أنّ سَرْحَةَ مالكٍ * علىٰ كلِّ سَرحاتِ العضاهِ تَرُوقُ

(وآنظر ياقوت ج ٣ ص ٧١).

هذا وقد أورد صاحب "لسان العرب" البيتين اللذين نحن بصددهما وقال كُنِى بالسرحة النابتة علىٰ المـاء عن المرأة، لأنها حينئذ أحسن ما تكون. (أُنظر مادة س رح)

(٢) فى صـ : "حيام" وكذلك فى الأغانى (ج ٩ ص ٦١)، وفيه "حوام"، (ج ٥ ص ١٠٦) وقد أورد هذه الحكاية باسم علويه بدلا من زرزر وأضاف بيانات أخرى. ولكنها هنا أوفى وأكمل.

(٣) ممنوع أى مطرود.

(٤) فى الأغانى فى الموضعين المذكورين: "طريق". وكذلك فى صـ. وفى لسان العرب: "طريق الورد".

(٥) اِستحسن الأصمعىّ هذا الشعر وقال: "غير أن هذه الحاآت لو آجتمعت فى آية الكرسىّ، لعابتها".

(عن الوسيط فى تراجم أُدباء شنقيط للأُستاذ أحمد بن الأمين الشنقيطىّ، طبع القاهرة سنة ١٩١١ — ص ٣١١)

قال: عبدُك المجفُوُّ المطَّرَح، ياسيِّدى، إسحاقُ. قال: يحضُر الساعةَ. فجاءه رسوله، وإسحاقُ مستعدٌّ، قد علِمَ أنه إنْ سمع الغناء من مُجيدٍ مؤدٍّ أنه سيبعث إليه. فجاءه الرسول. فحدَّثتُ[1] أنه لما دخل عليه ودنا منه، مدّ يده إليه ثم قال: آدنُ منى! فأكبَّ عليه وآحتضنه المأمونُ وأدناه وأقبل عليه بوجهه مُصْغِيًا إليه ومسرورا به.[2]

⁂

مباسطة الملك لندمائه

ومن أخلاق الملك السعيد تركُ القُطوب فى المنادمة، وقلّة التحفُّظ علىٰ ندمائه، و[لا][3] سِيَّما إذا غُلِبَ أحدُهم علىٰ عقله، وكان غيرُه أملكَ به منه بنفسه.

(٣٥)

وللسكْر حدّ إذا بلغه نديمُ المَلِكِ، فأجملُ الأُمور وأحراها بأخلاقه أنْ لا يؤاخذه بِزَلَّةٍ إنْ سبقته، ولا بلفظةٍ إنْ غلبتْ لسانه، ولا بهفوةٍ كانت إحدىٰ خواطره.

حد الإغضاء عن الزلات

والحدُّ فى ذلك أنْ لايعقل مايقول ولا مايقال له، و إنْ خُلِّيَ ونفسَه رمى بها فى مَهواة، و إن أراد أحدٌ أخْذ ثيابه لم يمانعه.

مواطن المعاقبة عليها

فأما إذا كان ممن يعرف ما يأتى وما يَذَرُ، وكان إذا رام أحدٌ أخْذَ مامعه قاتله دونه، وكان إذا شُتِم غَضِبَ وآنتصر،[4] وإذا تكلّم أفصح وقلَّ سَقَطُه: فإذا كانت هذه صفته ثم جاءت منه زَلَّةٌ، فعلىٰ عَمْدٍ أتاها و بقصدٍ فعلها. فالملك جديرٌ أن يعاقبه بقدر ذنبه. فإنّ ترك عقوبة هذا ومن أشبهه، قدحٌ فى عزّه وسلطانه.

---

(١) الضمير للجاحظ.

(٢) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه القصة بألفاظ الجاحظ مختصرةً. (ص ٦١)

(٣) لاشك أن أداة النفى (لا) قد سقطت من عبارة الجاحظ، وقد نصوا على وجوبها وآستشهدوا بقول آمرئ القيس * ولاسيَّما يوم بدارة جُلْجُلِ * وأكّد أئمة اللغة أن من أهملها فقد أخطأ. (أنظر التسهيل وشرحه وخاتمة الأشمونىّ فى باب الآستثناء، وآنظر البيان الوافى فى "تاج العروس" (مادة س و ى). [وانظر أيضا ص ١٥٧ من هذا الكتاب].

(٤) أى لنفسه.

الاقتصاد فى العقوبة

ومن الحقّ على الملك أنْ لايجُاوز بأهل الجرائم عقوبةَ جرائمهم. فإنَّ لكلّ ذَنْبٍ عقوبةً: إمَّا فى الشريعة والنواميس، وإمَّا فى الإجماع والاْصطلاح. فَمَنْ تَرَكَ العقوبة فى موضعها، فبالْحَرَى أن يعاقب مَن لاذنب له. وليس بين ترك العقوبة (إذا
(٣٦) وجبتْ) وعقوبة من لا ذنب له، فرقٌ. وإنما وضع الله الملوك بهذه المواضع الرفيعة لِيقوّموا كلَّ ميل ويَدْعَموا كلَّ إقامة.

* * *

تفرّد الملك بالتطيب والتجمل ونحوهما

ومن أخلاق الملك أنْ لايشارك بِطانته وندماءه فى مَسِّ طِيبٍ ولا مجْمَرٍ. فإنَّ هذا وما أشبهه يرتفع الملك فيه عن مساواة أحدٍ.

وكذا يجب على بِطانة الملك وقرابته[1] أنْ لا يَمَسُّوا طيبا إذا تطيَّبَ، لينفردَ المَلكُ بذلك دونهم.

وليس الطِّيب كالطعام والشراب اللذين لا بدّ من مشاركة الندماء فيهما.

فأما كلُّ ما أمكن الملكَ أن ينفرد به دون خاصّته وحامّته[2]، فمن أخلاقه أن لا يُشارِك أحدا فيه.

وكذا حُكِيَ عن أنوشروان ومعاوية بن أبى سُفيان. وبعض أهل العلم يحكى عن الرشيد مايقرب من هذا.

وأوْلى الأمور بأخلاق الملك ــ إن أمكنه التفرّد بالماء والهواء ــ أنْ لا يَشْرَك فيهما أحدًا. فإن البهاء والعز والأُبَّهَة فى التفرُّد.

---

(١) نهى صاحب القاموس عن آستعمال "القرابة" بمعنى الأقارب، ونسبه الجوهرىُّ إلى العامّة، ووافقهما الأكثرون ومنهم الحريرىّ فى "درّة الغوّاص". ومن رأيهم أن الواجب أن يقال "ذوو القرابة". ولكن هذا اللفظ ورد بهذا المعنى فى الحديث الشريف، وعليه جرى الجاحظ فى جميع هذا الكتاب. (وآنظر التفصيل فى تاج العروس فى مادة ق ر ب)

(٢) الحامّة هى العامة، وأيضا أخِصّاء الرجل من أهله وولده وذوى قرابته.

سنة ملوك الفرس فى ذلك

ألا ترىٰ أنّ الأُمم المـاضية من الملوك، لم يكن شئ أحبَّ إليهـم من أنْ يَفعلوا(١) شيأ تعجز عنه الرعيّـة، أو يتزيّوْا بزِىٍّ يَنْهَوْن الرعيّة عن مثله.

فمن ذلك أردشـير بن بابك، وكان أنبل(٢) ملوك بنى ساسان. كان إذا وَضَعَ التاجَ علىٰ رأسه، لم يضع أحدٌ فى المملكة علىٰ رأسـه قضيبَ رَيْحـانٍ متشبّهًا به. (٣٧)

وكان إذا ركب فى لِبْسـةٍ(٣)، لم يُرَ علىٰ أحدٍ مثلُها. وإذا تختّم بخاتمٍ، لحرامٌ علىٰ أهـل المملكة أن يتختّموا بمثل ذلك الفَصّ، وإن بَعُد فى التشابه.

سنة سادات العرب والخلفاء فى ذلك

وهـذه من فضائل الملوك. وطاعةُ أهل المملكة أنْ تتحَامىٰ أكثر زِىِّ الملك وأكثرَ أحواله وشِيَمِه، حتّى لا يأتى مالا بدّ لها منه.

وهـذا أبو أُحيحة سـعيد بن العاص. كان إذا اعتمّ بمكة لم يعتمَّ أحدٌ بعِمّةٍ مادامت علىٰ رأسه(٤).

وهذا الحجّـاج بن يوسف. كان إذا وضع علىٰ رأسه طويلةً(٥)، لم يجترِئْ أحدٌ من خلق الله أن يدخل وعلىٰ رأسه مثلُها.

وهذا عبـد الملك بن مَرْوَان. كان إذا لبس الخُفَّ الأصـفر، لم يلبَس أحدٌ من الخلق خُفا أصفر حتى ينزعه.

(١) فى س، ص: يفعل.
(٢) ص: أمثل.
(٣) حالةٌ من حالات اللبس.
(٤) أوّل من روى ذلك ابن الكلبىّ فى كتاب الأصنام الموجودة نسخته الوحيدة المعروفة فى العالَم بخزانة كتبى. قال (فى ص ٢٠ من الأصل و ٢٠ من طبعتنا): "وكان سعيد بن العاص أبو أحيحة يعتمُّ بمكة. فإذا اعتم لم يعتمّ أحدٌ بلون عمامته". وروى ذلك أيضا ابن دريد فى كتاب الاشتقاق (ص ٢٩) وقال إنه ذو العامة وإن "أُحَيحة تصغير أُحّة وهو مايجده الانسان فى قلبه من حرارة غيظ وحزن. والأُحّة والأُحاح واحد وقد استقصينا هذا فى كتاب الجمهرة".
(٥) أى قلنسوة طويلة عالية. وكان هذا النوع من القلانس خاصّا بالأُمراء، وبالقضاة أيضا (كما تدلّ على ذلك عبارة البيهقى فى "المحاسن والمساوى" ص ٢١٣).

وهذا إبراهيم بن المهـدىّ بالأمس (١). دخل علىٰ [أحمد] ٱبن أبى دُؤاد (٢) [بن علىّ] وعليه مُبَطَّنة مُلَوَّنة من أحسن ثوب فى الأرض، وقد ٱعتمّ علىٰ رأسه رُصافيّة (٣) بعمامةِ (٣٨) خزّ سوداء لها طرفان خلفه وأمامه، وعليه خُفٌّ أصفرُ، وفى يده عُكّازة آبنوس ملوّح بذهبٍ، وفى إصبعه فصّ ياقوت تضىء يده منه. فنظر إلىٰ هيئةٍ (٤) ملأَتْ قلبه، وكان جسيما، فقال: "يا إبراهيم! لقد جئتنى فى لِبْسةٍ وهيئةٍ ما تصلُحُ إلا لواحدٍ من الخلق (٥)." فٱنصرفَ فلم يأتِهِ حتّىٰ مات.

وحدّثنى أبو حسّان الزيادىّ (٦) (وذَكَرَ الفضلَ بن سَهْلٍ فترحَّمَ عليه) وقال: وجّهَ إلىّ فى ليـلة ـ وقد أَوَيْتُ إلىٰ فراشى ـ رسولاً فقال: يقول لك ذو الرياسـتين:

---

(١) أى من عهد قريب من المؤلف. [وٱنظر ص ١٠٤ و ١٠٧ و ١٠٨ و ١٢٦ من هذا الكتاب]

(٢) من أكابر رجالات بنى العباس وخصوصا فى دولة المأمون والمعتصم والواثق.

(٣) هذه العبارة توضّح لنا ما لم يتيسر للعلامة دوزى Dozy الوقوف عليه أثناء تأليفه لمعجم الثياب عند العرب Dictionnaire des Vêtements chez les Arabes. فيؤخذ من كلام الجـاحظ هنا وممـا يليه بأربعة عشر سطرا أن الرصافية هيئة عمّة على قلنسوة خاصة بالخليفة أو ولىّ عهده. ويؤخذ من كلام ٱبن خلكان (فى ترجمة جعفر البرمكى) أن أكابر بنى هاشم كان لهم هـذا الحق أيضا. ذكر ٱبن خلكان أن عبد الملك بن صالح دخل مجلس جعفر هذا، وقال إنه كان على رأسه رصافية. وقد روى صاحب الأغانى هذه الحكاية بحرفهـا تقريبا (جزء ٥ ص ١١٨) وقال إن عبد الملك نزع قلنسيته. فذلك دليل على أن الرصافية نوع مخصوص من القلانسُ المعممة.

(٤) صـ: فنظر إليه بهيبة.

(٥) يعنى الخليفـة.

(٦) من أكابر فقهاء بغداد الذين ٱمتحنهم المأمون بخلق القرآن. وهو من أهل الفتوىٰ والرواية. وقد ولّاه المتوكل قضاء مديريّة الشرقيّة بمصر سنة ٢٤١ (أبو المحاسن فى "النجوم الزاهرة" ج ١ ص ٦٣٩ و ٧٣٥)

لاتعتمّ غدًا علىٰ قلنسوة إذا حضرتَ الدارَ[١] . قال : فَبِتُّ واجمًا ،وأنا لا أعلم مايريد بذلك . وغَدَوْتُ ،وغدا الناس علىٰ طبقاتهم ومراتبهم .فجاء الحسين[٢] بن أبى سعيد إلىٰ مَن فى الدار ،فقال : إن أمير المؤمنين يقعد فى هذا اليوم ويعتمّ علىٰ قلنسُوة ،فانزِعوا عمائمكم !

وحدّثنى بعض أصحابنا عن الحسن بن قريش[٣] قال : لما مات القاسم بن الرشيد ، وجّه إلىّ المأمونُ رسولا فأتيتُه .فجعل يسألنى عن عياله وعن أمواله ،ويشكوه إلىّ ، ويقول : كان يفعل كذا ويفعل كذا .فكان فى تلك الشكاية أن قال : وكان إذا ركب بمَرْوَ[٤] ،ركب فى رُصَافيَّة[٥] .

***

عدل الملك فى مجلس الشراب

*ومن أخلاق الملك إذا علم أن بعض النُّدماء قد بلغ غايةَ مجهوده فى الشرب وأن الزيادة بعد ذلك تضر ببدنه وجوارحه أن يأمر بالكفّ عنه ،وأنْ لا يُكَلَّفَ فوق وسعه . فإنه مَن تجاوز حقَّ العدل عن الخاصّة ،لم تطمع العامة فى إنصافه .[٦] *

***

(٣٩) مكالمة الندماء للملوك

ومن حقّ الملك أنْ لايكلِّمَه أحدٌ من الندماء مبتدئاً ولا سائلاً لحاجةٍ ،حتّى يكون

(١) يعنى قصر الخلافة . والحكاية تدل على أن الواقعة حصلت بمرو ، لأن الفضل بن سهل قُتل فى بلده (سرخس) عند عودة المأمون إلى بغداد .

(٢) صـ : الحسن .

(٣) صـ : قريس . وأنظار الطبرى (سلسلة ٣ ص ٦٥٢) فقد ورد فيه اسم هذا الرجل . وكان من خاصّة المأمون ، وقد حدّثه الخليفة عن أخيه القاسم هذا . (المحاسن والمساوى ص ١٨٧)

(٤) متى أطلق الكُتّاب هذا الاسم ، فإنما يريدون به مرو الشاهجان ، لا مرو الرُّوذ . والأُولىٰ هى أكبر مدائن خُراسان ، وكان المأمون عاملا عليها لأبيه .

(٥) تأفّف المأمون لأن أخاه كان يتعمّد التشبه به ؛ ولم يراع الواجب فى تركه يتفرد بالرصافية فى عاصمة ملكه ؛ ولو أن للقاسم حقا فى لبسها لأنه هو أيضا ابن الخليفة .

(٦) هذه الجملة المحصورة بين النجمتين * * منقولة عن صـ .

هو المبتدئ بذلك[1]. فإنْ جهل أحدٌ ما يلزمه فى ذلك، تقدّم إليه فيما يجب عليه. فإنْ عاد، فعلى الموكَّل بأمر الدار أن يُحسن أدبه وأنْ لَا يأذَنَ له فى الدخول، حتّى يكون الملك يبتدئ ذكره. ثم يوعزإليه أنه إن عاد، أُسقِطتْ مرتبته فلم يطأْ بِساطَ الملك.

وكان شِيرَوَيْه بن أبرويز يقول: "إنمـا تُعْذَرُ البِطانة برفع حوائجها إلى الملوك عند ضِيقَةٍ تكون، أو عند جفوة تنالهم من ملوكهم[2]، أو عند موت يحدث لهم، أو عند تتابع أَزْمَةٍ. فإذا كان ذلك، فعلى الملك تعهُّدُ ذلك من خاصّـته حتّى يُصـلِحَ لهم أمورَهم ويَسُـدَّ خَلَّتهـم. فإذا كانوا من الكفاية فى أقصى حدودها، ومن خفض العيش فى أرفع خصائصه، ومن ذات اليد وإدرار العطايا فى أتم صـفاتها، ثم فتح أحدٌ فاهُ بطلبِ ما فوق هـذه الدرجة، فالذى حداه على ذلك الشَّرَهُ والمنافسة. ومَن ظهرت هاتان منه كان جديرا أن تُنْزَع كفايته من يده وتُصَيَّرَ فى يد غيره، ويُنقَل إلى الطبقة الخسيسة، فيُلْزَم أذناب البقر وحراثة الأرض."

⁂

منّ الملوك بنعمهم عند الضرورة فقط

ومن أخلاق الملك أنْ لا يَمُنَّ باحسان سَبَقَ منه، ما آستقامتْ له طاعةُ مَن أنعم عليه ودامت له ولايته، إلا أنْ يخرُجَ من طاعةٍ إلى معصيةٍ. فإذا فعل ذلك، فمن

(١) دخل الإمام الشافعىّ على الرشيد وسلَّم فردّ الخليفة عليه السلام ثم قال: "من العجب أن تتكلم فى مجلسى بغير أمرى!" (أنظر شرح القصة فى ص ٤٢ من كتاب "مناقب الشافعى" لفخر الدين الرازى، طبع حجر بمصر سنة ١٢٧٩). وأول خليفة منع الناس من الكلام عند الخلفاء وتقدم فيه وتوعد عليه عبد الملك بن مروان "البيان والتبيين ج٢ ص١٢" وعلى هذا النظام جرى خلفاء الإسلام، حتى جاء القاضى أحمد بن أبى دُؤاد المتوفى سنة ٢٤٠ هـ، فكان أوّل من بدأهم بالكلام؛ وكانوا لا يُكَلَّمون حتى يتكلموا. (أُنظر آبن خلّكان فى ترجمته. وآنظر "شذرات الذهب" ج ١ ص ٥١٦)

(٢) سـ: عقوبة.

أخلاقه أن يَمُنَّ عليه أوّلاً بإحسانه إليه، ويُذَكِّره بلاءَه عنده وقلّةَ شكره ووفائه، ثم يكون من وراء [ذلك] عقوبته بقدر مايستحقّ ذلك الذنب فى غِلَظه ولِينه.

وحدّثنى محمد بن الجَهْم[(١)] وداود بن أبى داود قالا: جلس الحسن بن سهل فى مُصَلَّى الجماعة لنُعيم بن خازم[(٢)]، فأقبل نُعيم حافياً حاسراً وهو يقول: "ذنبى أعظم من السماء! ذنبى أعظم من الهواء! ذنبى أعظم من الماء!" قالا: فقال له الحسن بن سهل: "على رِسْلك! تقدّمتْ منك طاعةٌ، وكان آخر أمرك إلىٰ توبة. وليس للذنب بينهما مكانٌ. وليس ذنبك فى الذنوب بأعظم من عفوِ أمير المؤمنين فى العفو."[(٣)]

***

عدم المعاقبة فى حال الغضب

ومن أخلاق الملك السعيد أنْ لَا يُعاقب وهو غضبانُ. لأنّ هذه حالٌ لا يُسْلَمُ معها من التعدّى والتجاوز لحدّ العقوبة. فإذا سَكَنَ غضبُه ورجع إلىٰ طبعه، أَمَرَ بعقوبته علىٰ الحدّ الذى سنّته الشريعة ونقلتْه الملة[(٤)]. فإنْ لم يكن فى الشريعة ذِكْرُ عقوبةِ ذنبه، فمن العدل أنْ يجعل عقوبة ذلك الذنب واسطةً بين غليظ الذنوب ولَيِّنها، وأن يجعل الحكم عليه فيه، ونفسُه طيّبةٌ وذِكْرُ القِصاص منه علىٰ بالٍ.

فأما العقوبة فلا تجوز إذا رُفِعَ أمرُها[(٥)] إلىٰ الملك.

---

(١) كثيرا مايروى الجاحظ عن هذا الإنسان فى كتاب "الحيوان" وفى كتاب "البيان والتبيين".

(٢) كان فى معية المأمون حينما أرسله إلى مرو أبوه هارون قبل وفاته بثلاث وعشرين ليلة. وصار من قواده ورجال دولته حينما أفضت إليه الخلافة. (طبرى سلسلة ٣ ص ٧٣٤ و ٨٤١ و ١٠٢٢)

(٣) هذه الجملة المحصورة بين النجمتين * * منقولة عن صـ. (وهى واردة فى "البيان والتبيين" ج١ ص٤٥)

(٤) سـ : الأئمة.

(٥) سـ : "فأما العفو فلا يجوز إذا رفع أمره إلى الملك". ولهذه الرواية أيضا وجه وجيه. والضمير راجع إلى الذنب. والمعنى أن الملك لا يجوز له تعطيل الشريعة بالعفو عن الجانى.

وليس الذنب بحضرة الملك كالذنب بحضرة السُّوقة، ولا الذنب بحضرة الحاكم[١] كالذنب بحضرة الجاهل. لأن الملك هو بين الله و بين عباده. فإذا وجب بحضرته الذنب، فمن حقه العقوبة عليه ليزدجر الرعايا عن العياثة والتتايع[٢] فى الفساد. (٤١)

***

آداب البطانة عند قيام الملك

ومن حقّ الملك ــ إذا همّ بالحركة للقيام ــ أن تسبقه بِطانته وخاصته بذلك. فإن أومأ إليهم أنْ لا يبرحوا، لا يقعُدْ واحدٌ منهم حتّى يتوارىٰ عن أعينهم.

فإذا خرج، فمن حقه أن تقع عينه عليهم وهم قِيَام.

فإذا قعد، كانوا علىٰ حالهم تلكَ.

فإن نظر إليهم ليقعدوا، لم يقعدوا جملةً. بل تقعد الطبقة الأُولىٰ أوّلا. فإذا قعدت عن آخرها، تبعتها الطبقة الثانية. فإذا قعدت عن آخرها، تبعتها الطبقة الثالثة.

وأيضًا فإن لكل طبقة رأْسا وذَنَبًا. فمن الواجب أن يقعد من كلِّ طبقةٍ رأْسُها ثم هَلُمَّ جَرًّا علىٰ مراتب الطبقة أوّلا أوّلا.

***

عدم الدنوّ من الملك، إلا بشروط

ومن حقِّ الملك أنْ لا يدنُوَ منه أحدٌ ــ صَغُر أو كبر ــ حتّى يَمَسّ ثوبُه ثوبَه إلّا وهو معروفُ الأبوين، فى مُرَكَّبٍ[٣] حسيبٍ، غيرُ خامل الذكر ولا مجهولٍ.

(١) هكذا فى س، ص. ولعل الصواب: "الحكيم" أو "الحليم"

(٢) التتايع بالمثناة التحتية: التهافت والإسراع فى الشرّ (قاموس).

(٣) المُرَكَّب كمعظم الأصل والمنبت (قاموس).

فإن ٱحتاج الملك إلىٰ مشافهة خاملٍ أو وضيعٍ وٱضطُرَّ إليها، إمَّا لنصيحةٍ يُسِرُّها إليه أو لأمرٍ يسأله عنه، فمن حقِّ الملك أنْ لا يُخَلِّيَ أحدًا يدنو منه حتَّى يُفَتِّشَ أوّلا، ثم يأخذَ بضَبُعَيْه ٱثنان، أحدُهما عن يمينه والآخر عن شِماله. فاذا أبدىٰ ماعنده وقبل منه الملك ماجاء به، فمن حقِّه علىٰ الملك الإحسانُ إليه والعائدةُ عليه والنظرُ في حاجته — إن كانت له — ليرغب ذوو النصائح في رفعها إلىٰ ملوكهم والتقرّب بها إليهم. (٤٢)

⁂

الآستماع لحديث الملك

ومن حق الملك، إذا حَدَّثَ بحديثٍ أنْ يصرِفَ مَن حضره فكره وذهنَه نحوه.

فإنْ كان يعرفُ الحديثَ الذى يُحَدِّثُ به الملكُ، ٱستمعه ٱستماعَ مَن لم يَدْرِ فى حاسَّة سَمعه قَطُّ ولم يعرفْهُ، وأظهرَ السرورَ بفائدةِ المَلِك والآستبشارَ بحديثه. فإنّ فى ذلك أمريْن: أحدهما مايظهر من حسن أدبه، والآخر أنه يُعطى الملك حقَّه بحسن الآستماع. و إن كان لم يعرفه، فالنفس[1] إلىٰ فوائد الملوك والحديث عنهم أقرم[2] وأشهىٰ منها إلىٰ فوائد السُّوقة ومن أشبههم.

*و إنما مدار الأمر والغاية التى إليها يُجرَى، الفهمُ والإفهامُ والطلبُ ثم التثبُّتُ. قال عمرو بن العاص: "ثلاثة لا أَمَلُّهنَّ: جليسى مافهم عنِّى، وثوبى ماسترنى، ودابّتى

(١) فى س : " الآستماع وان كان لم يعرفه فللنفس". وقد أكملتُ موضع البياض وصححت العبارة، بناء على ما فى ص وعلى ما أورده المسعودىّ. فانه نقل هذه الحكاية برُمَّتها مع تغيير قليل، و زيادة ونقصان، وٱضطراب فى التقسيم، وقال إنها مما قاله حكماء اليونان. فلعله نقلها هو والجاحظ عن كتاب آخر. (أُنظر مروج الذهب ج ٦ ص ١٢٨)

(٢) أى أشدّ حرصا. [حاشية فى ص]. ورواية س: "أقرب". [وهى بعيدة عن الصواب].

ماحملتْ رَحْلى[١] ." وذكر الشّعبيُّ ناسًا ، فقال : "ما رأيتُ مثلَهم أشدَّ تناقدًا فى مجلسٍ ولا أحسنَ فهمًا عن محدِّثٍ ."

وقال سعيد بن سَلْم [الباهلىّ] لأمير المؤمنين المأمون : "لو لم أشكرِ الله إلاّ على حُسن ما أبلانى أميرُ المؤمنين من قصْده إلىّ بالحديث و إشارته إلىّ بطَرْفه ، لقد كان ذلك من أعظم ما تفرضه الشريعة وتوجبه الحرّية ." قال المأمون : "لأن أمير المؤمنين ـــ والله يجد عندك من حُسن الإفهام إذا تحدّثتَ ، وحسن الفَهم إذا حُدِّثتَ ما لم يجِدْهُ عند أحدٍ فيما مضى ولا يظنُّ أنه يجدُه فيما بَقِى[٢] ."*

(ما حصل لرجل كان أنوشروان يسايره)

وفيما يُحكَى عن أنوشروان أنه بَيْنَا هو فى مسيرٍ له (وكان لا يسايره أحدٌ من الخلق مبتدئا وأهلُ المراتب العالية خَلْفَ ظهره على مراتبهم ، فإن ٱلتفت يمينا ، دنا منه صاحب الحَرَس ، وإن ٱلتفت شِمَالا ، دنا منه المُوبَذُ ، فأمره بإحضار مَن أراد مسايرته) ، قال : فٱلْتَفَتَ فى مسيره هذا [يمينا] ، فدنا منه صاحب الحرس ، فقال : فلانٌ . فأحضره . فقال : حدِّثنى عن أردشير بن بابك حين واقع ملك الخَزَر[٣] ، وكان الرجُل قد سمع من أنوشروان هذا الحديث مرّةً . فٱستعجم عليه وأوْهمه أنه لا يعرفه . فحدّثه أنوشروانُ بالحديث . فأصغى الرجُل إليه بجوارحه كلها ، وكان مسيرهما على شاطئ نهرٍ . وترك الرجُلُ ـ لإقباله على حديثه ـ النظرَ إلى مواطئ حافر دابّته . فزلّتْ إحدى قوائم الدابّة ، فمالت بالرجُل إلى النهر فوقع فى الماء ونَفَرَتْ دابّتُه . فٱبتدرها حاشيةُ الملك وغلمانُه ، فأزالوها عن الرجُل ، وجذبوه فحملوه على أيديهم حتّى أخرجوه . فٱغتمّ لذلك أنوشروان ونزل عن دابّته ، وبُسِط له هناك . فأقام حتّى

[٤٣]

(١) أُنظر رواية أخرى لهذه الكلمة فى "كامل" المبرِّد ، (ص ١٥٠)

(٢) هاتان الفقرتان المحصورتان بين نجمتين * * منقولتان عن ص .

(٣) هو بفتح الخاء والزاى إسم جيل (قاموس) . والمتعارف الآن عند الفرنج ضم الخاء . وٱنظر ياقوت .

تغذّى فى موضعه ذلك . ودعا بثيابٍ من خاصّ كُسوته ، فأُلقيتْ علىٰ الرجُل ، وأكل معه . وقال له : كيف أغفلتَ النظر إلىٰ موطىء حافر دابّتك؟ قال : "أيها الملك ! إنّ الله إذا أنعم على عبدٍ بنعمةٍ ، قابلها بمحنةٍ وعارضها ببليّــةٍ . وعلىٰ قدر النعم تكون المِحَنُ . وإنّ الله أنعم علىّ بنعمتين عظيمتين ، هُمــا (١) : إقبال الملك علىّ بوجهه من بين هــذا السواد الأعظم ؛ وهــذه (٢) الفائدةُ وتدبيرُ هــذه الحرب التى حدّث فيها عن أردشــير حتّى لو رحلتُ إلىٰ حيث تطلُع الشمس أوتغرب ، كنتُ فيه رابحًا . فلما اجتمعتْ نعمتان جليلتان فى وقتٍ [واحدٍ] (٣) ، قابلتْهما هذه المحنةُ . ولولا أساورة الملك وخَدَمُهُ [وحسن جِدِّه] (٣) ، كنتُ بمعرض هَلَكَةٍ . وعلىٰ ذلك ، فلو غرقتُ حتّى أذهب عن جَديد الأرض ، كان قد أبقىٰ لى الملكُ ذكرًا مُتَلَّدًا مُخَلَّدًا ، ما بَقِىَ الضياءُ والظلام .

[٤٤]

فسُرَّ الملكُ وقال : ماظننتُك بهذا المقدار الذى أنت فيه !

فحشا فَمَهُ جوهرًا ودُرًّا رائعا ثمينا ، واستبطنه حتّى غلب علىٰ أكثر أمره . (٤)

(ماوقع لأبى شجرة الرهاوىّ حينما حادثه معاوية)

وهكذا يُحكىٰ عن [أبى شجرة] يزيد بن شَجَــرَة الرَّهاوىّ (٥) ، أنه بينا هو يساير معاوية

---

(١) فى سـ ، صـ : "منها" تحريفا عن "منهما" . وقد صُححتْ بمعونة المسعودىّ .

(٢) فى سـ ، صـ : "ومنها هذه" تحريفا عن "منهما" . وقد صُححتْ بمعونة المسعودىّ .

(٣) الزيادة عن المسعودىّ .

(٤) نقل المسعودىّ هذه الحكاية بتمامها و بحرفها ؛ إلا فى كلمات قليلة . وقال إنه وجدها فى كتب سِيَر الملوك من الأعاجم . ونسبها إلى شيرويه بن أبرويز ؛ وقال إن الرجل هو بُندار بن خُرشيد (جزء ٦ ص ١٢٤ ــ ١٢٦) . ونقلها أيضا صاحب كتاب "تنبيه الملوك والمكايد" (ص ٢٧ ــ ٢٩) ؛ واختصرها صاحب "محاسن الملوك" (ص ٨١ ــ ٨٢) . ونقلها بالحرف الواحد فى "المحاسن والمساوى" ص ٤٩٤ ــ ٤٩٥ .

(٥) من أركان دولة معاوية . أرسله إلى مكة سنة ٣٩ ليقيم للناس الحج وليأخذ له البيعة ويطرد عامل علىّ عنها . ثم أرسله بعد ذلك لغزو الروم فى البحر مرة أو مرتين (سنة ٤٩ وسنة ٥٦) . وهو منسوب إلى قبيلة من العــرب (انظر تاج العروس فى مادّة ر هـ و) . وأما النســبة إلى المدينة المشهورة بآسيا الصغرىٰ فهى الرُّهاوىّ ؛ بضم الراء .

آبن أبى سفيان، ومعاوية يحدّثه عن يوم خزاعة وبنى مخزوم وقريش[(١)]. وكان هذا قبل الهجرة. وكان يومًا أشرف فيه الفريقان على الهَلَكَة حتّى جاءهم أبو سفيان فآرتفع ببعيره على رابية ثم أوْمَأَ بكُمِّه[(٢)] إلى الفريقين[(٣)]، فآنصرفوا.

قال: فبينا معاوية يحدّث يزيد بن شجرة بهذا الحديث، إذ صكّ وجهَ يزيدَ حَجَرٌ عائرٌ[(٤)] فأدماه، وجعلت الدماءُ تسيل من وجهه على ثوبه، [وهو] ما يمسح وجهه. [٤٥]

فقال له معاوية: لله أنت! ما ترى ما نزل بك؟ قال: وماذاك، ياأمير المؤمنين؟ قال: هذا دم وجهك يسيل على ثوبك! قال: أُعتِقُ ما أَمْلِكُ[(٥)]، إنْ لم يكن حديث

(١) فى المسعودىّ: "يحدّثه عن جرعان يوم كان لبنى مخزوم وغيرهم من قريش". وفى بعض نسخه: "جزعان". [والصواب خزاعة كما هو وارد فى سـ، صـ].

(٢) سـ: "بكمه" صـ: "بكفه". [والتصحيح عن "محاسن الملوك"].

(٣) هـذه القصة لم نجدها لغير الجاحظ والذين نقلوا عنـه مثل المسعودىّ وصاحب "تنبيه الملوك" وصاحب "محاسن الملوك". ولعلّ الواقعة التى يشير إليها هى المذكورة فى آخر ديوان حسان بن ثابت الصحابىّ، وفى السيرة الحلبية (ج ١ ص ١٤٣ طبع المرحوم الزبير رحمت باشا العباسىّ فى بولاق سنة ١٢٩٥ ﻫ، وج ١ ص ٢٧٣ طبع العلّامة وستنفلد فى مدينة ليبسك سنة ١٨٥٨ م)

(٤) فى سـ غاير. وفى صـ عابر. [وهذه الكلمة كثيرا مايصحفها النساخون والطابعون. فتارة يضعون "غابر" وأخرى "غاير" وأخرى "عابر". والصواب "عائر" بالعين المهملة والياء التحتية المثناة المهموزة. قال صاحب تاج العروس فى مادة (ع و ر): فالعائر من السهام مالايدرى راميه وكذا من الحجارة . . . والجمع العوائر].

(٥) فى المسعودىّ: أعتق ما أملك. ولكن سـ آنفرد بجعل الضمير للغائب على سبيل الحكاية لئلا تقع اليمين على المتكلم أو القارئ. فوردت فيه العبارة هكذا: "عتق ما يملك". وعلى ذلك جرى كثير من الكتّاب. وذلك من باب التشدد فى التأثم والتحرج. وإذا كان ناقل الكفر ليس بكافر، فكيف يقع فى اليمين من يروى مجرد كلام لغيره؟ ولعلهم أرادوا عدم جريان اللسان بمثل هذه الأيمان

أمير المؤمنين أَلْهَانِي حتّى غمر فكرى وغطّى علىٰ قلبي، فما شعرتُ بشئ حتّى نبّهني أمير المؤمنين. فقال له معاوية: لقد ظلمك مَن جعلك فى ألفٍ من العطاء، وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين، وكُمَاةِ أهل صِفّينَ! (١) فأمر له بخمسمائة ألف درهم، وزاده فى عطائه ألف درهم، وجعله بين جلده وثوبه. (٢)

فلئن كان يزيد بن شجرة خدع معاويةَ فى هذه، فمعاويةُ ممن لا يُخادَع ولا يُجارىٰ. (٣) ......ولئن كان بلغ من بلادة يزيد بن شجرة وقلة حِسِّه ماوصف به نفسه، ما كان بجدير بخمسمائة ألف وزيادة ألف فى عطائه. وما أظنّ ذلك خَفِيَ عن معاوية، ولكنه تغافل علىٰ معرفةٍ، لَمَّا وَفّاه حَقّ رياسته. (٤)

[ويروى عن معاوية أنه كان يقول: "السَّرْوُ التغافُلُ" (٥)]

---

(١) صـ : حماة.

(٢) روى هذه القصة فى "تنبيه الملوك" بألفاظ الجاحظ (ص ٢٩)، ورواها صاحب "محاسن الملوك" باختصار (ص ٢٠). وأوردها صاحب "المحاسن والمساوى" بالحرف الواحد (ص ٤٩٥ — ٤٩٦).

(٣) صـ : يحارى.

(٤) نقل المسعودى هذه الحكاية أيضا عن الجاحظ، ولم يسمّه كما جرت عادته. ولكنه حينما اضْطُرّ لنقل فكره وتقديره عند قوله "فلئن كان يزيد بن شجرة ...."، لم يجد بُدًّا من الإشارة اليه بطريق الوصف والتعميم، فقال: "قال بعض أهل المعرفة والأدب ممن صنف الكتب فى هذا المعنى وغيره" ثم نقل العبارة الثانية برمّتها أيضا، مع تغيير قليل فى الألفاظ أو فى مواضعها. (مروج الذهب جزء ٦ ص ١٢٨ — ١٣٠)

(٥) هذه الجملة من زيادات صـ. [ومعنى السَّرْو السخاءُ فى مروءة. فيكون المراد من هذه المقولة أن التظاهر بالغفلة هو من دلائل السخاء الممزوج بالمروءة. وسترد هذه المقولة أيضا فى صفحة ١٠٣ من هذا الكتاب].

(ماوقع لأبى بكر الهذلى حينما حادثه السفاح)

٤٦

وكذلك حُكِيَ عن أبى بكر الهُذَلِيِّ (١) أنه بينا هو يسامر أبا العباس إذ تحدّث أبوالعباس بحـديثٍ من أحاديث الفُرس. فعصـفتِ الريح، فأذرتْ طَسًّا (٢) من سطح إلىٰ مجلس أبى العباس، فٱرتاع ومَن حضره. ولم يتحرّك أبو بكر لذلك، ولم تزل عينه متطلعةً لعين أبى العباس. فقال له: ماأعجبَ شأنَك، ياهُذَلِىُّ! لم تُرَعْ مما راعنا! قال: يا أمير المؤْمنين، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: "مَاجَعَلَ ٱللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ". وإنمـا للمرء قلبٌ واحدٌ. فلما غمره السرور بفائدة (٣) أمير المؤْمنين، لم يكن فيه لحادثٍ مجَـالٌ. وإنّ الله، إذا ٱنفرد بكرامة أحدٍ وأحبَّ أنْ يبقىٰ له ذكرُها، جعـل تلك الكرامة علىٰ لسان نبيّه أو خليفتــه. وهــذه كرامةٌ خُصِصْتُ بها، مال إليها ذهنى وشُـغِلَ بها فكرى. فلو ٱنقلبت الخضراء علىٰ الغبراء (٤)، ماحَسَستُ بها ولا وَجَمْتُ (٥) لها إلّا بما يلزمنى فى نفسى

(١) اسمه سليمان بن عبـد الله (الأعلاق النفيسـة لٱبن رُسته ص ٢١٣). وهو من مشاهير أهل البصرة وكان من أخص جلساء أبى العباس السـفاح، وله بحضرته مناظرة بديعة فى تفضيل البصرة على الكوفة وأهلها وكان مناظره ٱبنَ عياش المتوف (الآتى ذكره فى متن الكتاب وحاشيته فى الصفحة التالية) أوردها ٱبن الفقيـه فى كتاب البُلدان (ص ١٦٧ ــ ١٧٣ وتكملتها فى ص ١٩٠). وهو من الضعفاء فى الحديث، ومات سنة ٦٧ (شذرات الذهب ج ١ ص ٢٩٣).

(٢) أى أوقعت الريح طستا. وفى صـ: "فأوردت طستا"، وقد رواها صاحب "مطالع البدور" (ج ١ ص ١٩٢). والذى فى المسعودىّ: "فأذرتْ ترابا وقطعا من الآجُرّ من أعلى السطح إلى المجلس". وٱنظر "شـذرات الذهب" (ج ١ ص ٢١٧). وقد روى الراغب الاصفهانى فى "محاضراته" (ج ١ ص ١١٧) واقعة أخرى شبيهة بهذه من كل الوجوه، فقال: كان أبوالقاسم الكعبي المتكلم فى مجلس أمير خراسان فسقط من السـطح طستٌ فتزلزلت منه عَرْصة الدار. فلم يلتفت أبو القاسم عن الأمير. فقال الأمير لا يصلح لوزارتى إلا هو.

(٣) فى المسعودى: "بمحادثة".

(٤) صـ: البيضاء.

(٥) صـ: توجهت.

لأمير المؤمنين . فقال أبو العباس : لئن بقيتُ لك ، لأرفعنّ منك ضَبُعًا(١) لا تطيف به السباع ولا تحطُّ عليه العِقْبان(٢) .

(كلمة ابن عياش المتوف)

وكان [عبد الله] بن عَيّاش المنتوف(٣) يقول : لم يتقرّب العامّة إلى الملوك بمثل الطاعة ، ولا العبيد بمثل الخدمة ، ولا البِطانة بمثل حُسن الاستماع(٤) .

---

(١) الضَّبُع (بضم الباء) العضد . والجملة هنا كناية ، بمعنى لا نوهنّ بٱسمك . (أُنظر القاموس وأساس البلاغة) . وفي المسعوديّ : "صعبا" . [وهو تحريف ظاهر] .

(٢) أورد المسعوديّ هذه القصة بتبديل في الألفاظ وزيادة ونقصان (مروج الذهب ج ٦ ص ١٢٢ — ١٢٣) . وأوردها صاحب "محاسن الملوك" بٱختصار (ص ٢٠) . ونقلها بتحريف يسير صاحب "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٦) .

(٣) هو من رجالات المنصور العبّاسيّ ، وكان من النسّابين . و يعرف بالمنتوف لأنه كان ينتف لحيته . (ابن قتيبة في كتاب "المعارف" ص ٦٨) . ذكره ابن الأثير في حوادث سنتي ١٤٧ و ١٥٨ . ركب المنصور معه يوما ، فقال له : تعرف ثلاثة خلفاء أسماؤهم على العين ، قتلتْ ثلاثةَ خوارجَ مبدأُ أسمائهم على العين ؟ قال : لا أعرف إلا ما يقول العامّة إن عليًّا قتل عثمان (وكذبوا) ، وعبد الملك قتل عبد الرحمن بن الأشعث ، وعبد الله بن عليّ سقط عليه البيت . [وكان المنصور ، وٱسمه عبد الله بن محمد ، سجن عبد الله بن عليّ هذا في بيت أساسه ملح ، وأجرى الماء في أساسه فسقط عليه فمات .] فقال المنصور : إذا سقط عليه ، فما ذنبي ، أنا ؟ قال : ما قلتُ إنّ لك ذنبا . وقد روى المسعوديّ هذه المحادثة بتفصيل أوفى (ج ٦ ص ٢١٧ — ٢١٨) ، وساقها الراغب الإصفهاني في محاضراته بألطف سياق (ج ٢ ص ٢٠٥) .

وفي صبح الأعشى (ج ١ ص ٢٦٥) : ملكان إسلاميّان أوّل ٱسم كلّ واحد منهما عينٌ ، قتل كلّ واحد منهما ثلاثة ملوك أوّل ٱسم كل واحد منهم عينٌ . أحدهما عبد الملك بن مروان ، قتل عمرو بن سعيد ، وعبد الله ٱبن الزُّبَير ، وعبد الرحمن بن محمد الأشعث . والثاني أبو جعفر المنصور (وٱسمه عبد الله) قتل أبا مسلم الخراسانيّ (وٱسمه عبد الرحمن) ، وعمّه عبد الرحمن بن عليّ ، وعبد الجبار بن عبد الرحمن والي خُراسان . [وٱنظر ص ١١٤ من هذا الكتاب] .

(٤) نقلها المسعوديّ (ج ٦ ص ١٢٣ — ١٢٤) .

(كلمة روح بن زنباع)

وكان [أبو زُرْعة] رَوْح بن زِنْبَاع[1] [بن رَوح بن سلامة الجُذَامىّ] يقول: إن أردتَ أن يُمكِّنَك المَلك من أُذُنه، فأَمْكِنْ أُذُنَك من الإصغاء إليه إذا حدّث.[2]

(٤٧)

(كلمة أسماء بن خارجة الفزارى)

وكان أسمـاء بن خارجة [الفَزَارىُّ][3] يقول: ما غلبنى أحدٌ قطُّ غلبةَ رجُلٍ يصغى إلىٰ حديثى.[2]

(كلمة معاوية)

وكان معاوية يقول: يُغْلَبُ المَلكُ حتّٰى يُركَب بشيئين: بالحلم عنـد سَوْرته، والإصغاء إلىٰ حديثه.[2]

---

(١) قال فى "تاج العروس" إن كل من سمى "رَوْح" من المحدّثين فهو بالفتح، إلا رُوح بن القاسم، فانه بالضم. ورَوْح بن زنباع الجُذَامىّ من رجالات بنى أُمية. كان فى سنة ٦٤ واليا على فلسطين للخليفة مرْوان بن الحَكَم، فوثب عليه نابل بن قيس الجُذَامى فأخرجه، وبايع لآبن الزبير حين قيامه بالخلافة فى الحجاز. ثم عاد رَوْح واليا عليها، بعد أن ألقىٰ خطابة جذب بها النـاس لبيعة مرْوان بن الحَكَم دون عبـدالله بن عمـر بن الخطاب ودون عبدالله بن الزبير. (أُنظرها فى آبن الاثير فى حوادث سنة ٦٤). ولذلك صار من أجلّ الناس عنده وعند آبنه عبد الملك بن مرْوان. وكان جليســه وأنيسه ونديمه وسميره ومشـيره حتى قال الخليفة فيه إنه جمع ثلاث خصال لم تجتمع فى غيره: فقه الحجاز، فى دهاء أهل العراق، فى طاعة أهل الشأم. (العقد الفريد ج ١ ص ٩ و ٢٠٧ وأسد الغابة). وقد وقعت له مع هـذا الخليفة ومع زوجته الأعرابيـة حكاية ظريفة أوردها فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤١٩). [وآنظر صفحة ١١٣ و ١١٧ و ١٣٠ من هذا الكتاب].

ثم صار مشـيرًا للوليد بن عبد الملك. ومع ما كان عليه من الفضـل والدهاء والذكاء، فقد وقعت له حكاية ظريفة مضحكة أثناء وجوده بالكوفة مع بِشْر أخى عبدالملك بن مرْوان واليها. أوردها فى "مروج الذهب" (ج ٥ ص ٢٥٤ – ٢٥٨ – وفى المستطرف ج ٢ ص ١١٢)

(٢) نقلها المسعودىّ (ج ٦ ص ١٢٣ – ١٢٤).

(٣) أسماء بن خارجة هو آبن حصن بن حُذيفة بن بدر. كان سيد بنى فزارة، وكان من أسخياء الكوفة. مات سنة ٩٦. وله ترجمة فى "فوات الوفيات" (ج ١ ص ١٤). ولم يل أسمـاء بن خارجة شيأ للسلطان (العقد الفريد ج ١ ص ٥١)

✤

آداب أهل الرتب بعد المضاحكة

ومن أخلاق الملك، إذا قرّب إنسانا أو أَنِسَ به حتّى يهازله ويضاحكه ثم دخل عليه بعدُ، أنْ يدخل دخولَ مَن لم يجرِ بينهما أُنْسٌ قطُّ وأن يُظهر من الإجلال له والتعظيم والاستخذاء (١) أكثر مما كان عليه قبلُ. فإنّ أخلاق الملوك ليست على نظامٍ.

✤

تنكر أخلاق الملوك

ومن أخلاقهم أن لا تكون أخلاقهم معروفة فيُتَمَثَّلُ عليها ويُعاملون بها.

ألا ترى أنّ الملك قد يغضب على الرجُل من حُماته، والرجُل من حامّته وبطانته: إما لجنايةٍ في صُلب مالٍ، أو لخيانةِ حُرمةِ المَلِك، فيؤخّر عقوبته دهرا طويلا، ثم لا يُظهِر له ما يُوحِشُه حتى يَتّقِيَ ذلك في اللحظة والكلمة والإشارة وما أشبه ذلك.

وليست هذه أخلاق سائر الناس، إذ كنا نعلم أن طبائعَ الناس الانتصارُ في أول أوقات الجنايات وعند أوّل بوادر الغضب.

(٤٨)

صبر الملوك على مضض الحقد حتى تحين الفرصة

فأما الملوك وأبناؤهم، فليست تُقاس أخلاقهم ولا يُعايَرُ (٢) عليها. إذ كان أحدهم يضع أعدى خَلق الله له بين أُذُنه وعاتقه، وبين سَحْرِه (٣) ونَحْرِه. فتطول بذلك المدّة وتمرّ به الأزمنة، وهو (٤) لو قتله في أوّل حادثة تكون وعند أوّل عثرة يعثُرُ لم يكن

(١) الخضوع والانقياد. وفي "الأغاني": أنت تخضع لهذا، هذا الخضوع وتستخذي له؟ (ج٧ ص١٨٣)

(٢) صـ : تعامل.

(٣) السَّحْر (بالفتح) هو الرئة. والمراد به هنا ما يحاذيه، وهو الصدر. قالت عائشة (رضي الله عنها): "مات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بين سحري ونحري." تعني بين صدرها ونحرها. والمقصود شدّة الاقتراب والالتزاق، كما تقول أيضا: بين سمعه وبصره. (عن تاج العروس)

(٤) صـ : وهو له. سـ : ويقولون.

بين هذه القِتلة وبين الأُخرىٰ بعدها بعشرين سنة فرقٌ. إذ كان لا يخاف ثأرا، ولا فى المُلك وَهْنًا.

(معاقبة أنوشروان لمن خانه فى حريمه)

وفيما يُذكَر عن سيرة أنوشِرْوان أنّ رجُلا من خاصّ خَدَمه جنىٰ جناية ٱطّلع عليها أنوشروان، والرجُل غافلٌ عنه. وكانت عقوبة تلك الجناية توجب القتل فى الشريعة. فلم يدرِ كيف يقتله: لا هو وَجَدَ أمرًا ظاهرًا يَقْتُلُ بمثله الحُكّامُ فيسفِك به دَمَه، ولا قدر علىٰ كشف ذَنْبه لما فى ذلك من الوَهْن علىٰ المَلِك والمملكة، ولا وجد لنفسه عذرا فى قتله غِيلةً، إذ لم يكن ذلك فى شرائع دينهم ووِراثة سَلَفهم. فدعا به بعد جنايته بسنَةٍ فٱستخلاه وقال: قد حزبَنى أمرٌ (١) من أسرار مَلِك الروم، وبى حاجة إلىٰ أن أعلمها، وما أجِدُنى أسكُنُ إلىٰ أحد سُكونى إليك، إذ حللتَ من قلبى المحلَّ الذى أنت به. وقد رأيتُ أن أدفع إليك مالاً لتحمِل إلىٰ هناك تجارةً وتدخلَ بلاد الرُّوم فتقيم بها لتجارتك. فإذا بِعتَ ما معك، حملتَ ممّا فى بلادهم من تجاراتهم وأقبلتَ إلىّ. وفى خِلال ذلك تُصْغِى إلىٰ أخبارهم وتطّلِع طِلْعَ (٢) مابنا حاجةٌ إليه من أُمورهم وأسرارهم.

٤٩

فقال الرجُل: أفْعَلُ أيها الملك، وأرجو أن أبلُغَ فى ذلك محبة المَلِك ورضاه.

فأمر له بمالٍ، وتجهز الرجُل وخرج بتجارة. فأقام ببلاد الروم حتّى باع وٱشترىٰ ولَقِنَ (٣) من كلامهم ولغتهم ماعرف به مخاطبتهم وبعض أسرار مَلِكهم (٤). ثم ٱنصرف إلىٰ

(١) حَزَبَه الأمر ٱشتدَّ عليه وأصابه منه غمٌّ.

(٢) أى: وتعلم سرّ أمرهم الذى نحن فى حاجة إلى معرفته.

(٣) أى فَهِمَ وحَفِظَ بسرعة.

(٤) صـ: أسرارهم.

أنوشروان بذلك . فآستبشر بقدومه وزاد فى برّه، وردّه إلىٰ بلادهم وأمره بطول المُقام بها والتربُّص بتجارته . ففعل حتّى عُرف وآستفاض ذِكره . فلم تزل تلك حاله ستَّ سنين . حتّى إذا كان فى السنة السابعة، أمر الملك أن تُصوَّر صورةُ الرجُل فى جامٍ من جاماته التى يَشْرَبُ فيها، وتُجعلَ صورتُهُ بإزاء صورة المَلك، ويُجعل حاطبًّا (٥٠) لِلملك ومشيرًا إليه من بين أهل مملكته، ويُدنى رأسَه من رأس المَلك فى الصورة كأنه يُسِرُّ إليه[1] . ثم وَهَبَ ذلك الجام لبعض خدمه، وقال له : "إن الملوك ترغب فى هذا الجام، فإنْ أردتَ بيعه، فآدفعه إلىٰ فلان إذا خرج نحو بلاد الروم بتجارته . فإنه إن باعه من المَلك نفسه، نفعك؛ وإنْ لم يُمكنْه بيعه من الملك باعه من وزيره أو من بعض حاشيته ." فجاء غلام الملك بالجام ليلاً، وقد وضع الرجُل رِجْله فى غَرْزِ[2] ركابه، فسأله أن يبيع جامه من الملك، وأن يَتَّخِذَ بذلك عنده يدًا . وكان الملك يقدّم ذلك الغلام، وكان من خاصّ غلمانه وصاحبَ شرابه . فأجابه إلىٰ ذلك، وأمره بدفع الجام إلىٰ صاحب خزانته، وقال : "احفظْه ! فإذا صرتُ إلىٰ باب الملك، فليكن فيما أعرضه عليه ." فلما صار إلىٰ ملك الروم، دفع صاحب الخزانة إليه الجامَ فعزله فيما يَعرض على الملك . فلما وقع الجام فى يَدَى الملك، نظر إليه ونظر إلىٰ صورة أنوشروان فيه وإلىٰ صورة الرجل وتركيبه : عُضوًا عُضوًا وجارحةً جارحةً . فقال : "أخبرْنى، هل يُصوَّر مع الملك صورةُ رجُلٍ خسيس الأصل؟ قال : لا . قال : فهل يُصوَّر فى آنية الملك صورةٌ لا أصلَ لها ولا علّة؟ قال : لا . قال : فهل فى دار الملك آثنان يتشابهان (٥١)

---

(١) صـ : يسارّه .

(٢) الغرز هو الركاب من جلد مخروز .

فى صورةٍ واحدةٍ حتّى يكون هذا كأنّه هذا فى الصورة، وكلاهما نديمَا المَلك؟ قال: لا أعرفه. فقال: قم! فقام. فتأمّله قائما، فوجد صورته قائما فى الجام. ثم قال: أَدْبِرْ! فأَدْبَرَ، فتأمّل صورته فى الجام مُدْبِرًا. ثم قال: أَقْبِلْ! فأَقْبَلَ. فتأمّل صورته فى الجام مقبلاً. فوجدها بحكاية واحدة وتخطيط واحد. فضحك الملك ولم يجترئ الرجُل أنْ يسأله عن سبب ضحكه، إجلالاً له وإعظامًا. فقال ملك الروم: الشاةُ أعقل من الإنسان إذ كانت تأخذ بِمُدْيتها(١) فتدفنها(٢)، وأنت أهديْتَ إلينا مُديتك بيدك! ثم قال له: تغدّيتَ؟ قال: لا. قال: قرّبوا له طعاما. فقال الرجُل: أيها الملك! أنا عبد ذليل، والعبد لا يأْكل بحضرة الملك. فقال: أنت عبدٌ ما كنتَ عند ملك الروم متطلّعا على أموره [٥٢] متتبعا لأسراره؛ بل أنت مَلِكٌ ونديمُ ملكٍ إذا قدِمتَ بلاد فارس. أطعِموه! فأُطْعِمَ وسُقِيَ الخمرَ حتّى إذا ثَمِل، قال: إنّ من سُنن ملوكنا أنْ تقتل الجواسيس فى أعلى موضع تقدر عليه، وأنْ لا تقتله جائعًا ولا عطشانَ. فأمر أنْ يُصعد به إلى صَرْحٍ كان يُشْرِف منه على كلّ مَن فى المدينة، إذا صَعِد. فضُربتْ عنقُه هناك، وأُلقِيَتْ جُثّته من ذلك الصَّرح، ونُصِبَ رأْسه للناس.

فلمّا بلغ ذلك كسرى، أمر صاحب الحرس أن يأْمر المغرِّد(٣) بصوت الحراسة — إذا ضَرَبَ بأجراس الذهب — أنْ يقول، إذا مرّ على دور نساء المَلك وجواريه:

---

(١) سـ : تجىء.

(٢) روى المقريزىّ عن ابن عبد الظاهر "أن خادما رأى من مَشْرف عال ذبّاحا، وقد أخذ رأسين من الغنم فذبح أحدهما ورمى سكينته ومضى ليقضى حاجته. فأتى رأسُ الغنم الآخرُ وأخذ السِّكّينَ بفمه ورماها فى البالوعة. فجاء الجزّار يطوف على السِّكّين، فلم يجدها. وأما الخادم، فانه استصرخ وخلّصه منه. وطولع بهذه القضية أهل القصر، فأمروا بعمله جامعا" (الخطط ج ٢ ص ٢٩٣). وهذا الجامع هو المعروف اليوم بجامع الفاكهانى.

(٣) صـ : يأمر بالعود يضرب.

"وكلُّ نفسٍ وجب عليها القتلُ ففى الأرض تُقتل، إلّا من تعرّض لحُرَمِ المَلِك فإنه يُقتل فى السماء."

فلم يدرِ أحدٌ من أهل مملكته ماذا أراد بذلك حتّى مات.[1]

فليس فى الأرض نفسٌ تصبر على مَضَض الحِقد ومطاولة الأيام بها[2] صبرَ الملوك.

ولذلك بطل القياس على أخلاقهم، ووُجِّهَتْ آراء ذوى الحِجا والتمييز فى العمل عليها والمقابلة بها حتّى تخرج على وزنٍ واحدٍ وبنظمٍ مؤتلفٍ.

(٥٣) (نكبة عبد الملك بن مروان بمن نازعه الملك)

وكذلك يُحكى عن عبد الملك بن مَرْوَان وعمرو بن سعيد الأشدق[3]، أنه أقام

(١) روى صاحب "تنبيه الملوك" هذه القصة عن الجاحظ (ص ٣٠ ـ ٣٤)، وهى واردة بالحرف فى "المحاسن والأضداد" (ص ٢٧٧ ـ ٢٨٠)

(٢) الضمير يعود إلى النفس.

(٣) فى "الاشتقاق" لابن دُرَيْد (ص ٤٩) مانصه: عمرو بن سعيد بن العاص يعرف بالأشدق، وهو الذى يلقب بلطيم الشيطان. لما بلغ خبره إلى ابن الزبير (وهو مطالب بالخلافة فى مكة) صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن أبا ذِبّان قتل لطيم الشيطان "وكذلك نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ".

قتله عبد الملك بن مروان فى خطب طويل ذكره المؤرّخون بالتفصيل، مثل المسعودى (ج ٥ ص ١٩٨ و ٣٣٤ـ٣٣٩)، وابن الأثير (فى حوادث سنة ٦٩). لكن حكاية ابن الأثير لاتدل على تردّد عبد الملك فى شأنه بضع سنين كما يصرّح به الجاحظ، وهو الحق. كان الرجل ذا شهامة وفصاحة وبلاغة وإقدام، وكبرياء وعظمة لا نهاية لها. سعى فى حمل الناس على مبايعة مروان، بعد أن اتفق معه على أن يجعله ولىّ عهده بعد خالد بن يزيد. فلما تم الأمر لمروان، نقض الشرط وجعل الخلافة لابنه عبد الملك، على أن يكون خالد وعمرو وليَّى عهده بعده. ولكن عبد الملك تخلص من خالد بأيسر سبب، وحزبه أمر عمرو وهو يصابره. وكان بينه وبين عبد الملك مكاتبات ومحادثات بشأن الخلافة. كتب إليه عبد الملك: "إنك لتُطمع نفسك بالخلافة، ولستَ لها بأهلٍ"! فأجابه عمرو: "إستدراج النعم إياك أفادك البغىَ، ورائحة القدرة أورثتك الغفلة. زجرتَ عما وافقت عليه، وندبتَ الى ماتركتَ سبيله. ولو كان ضعف الإنسان يؤيس الطالب، ما انتقل سلطان ولاذلّ عزيز. وعن قريب يتبيّنَ من صريعُ بغيٍ وأسيرُ غفلةٍ". قال فى المستطرف =

بضع سنين يُزاول قتله . فمرّةً يُزجئه، وأُخرىٰ يَهُمّ به، ومرّةً يُحجِم، وأُخرىٰ يُقدِم، حتّى قتله، على أخبث حالاته.

(نكبة الرشيد بالبرامكة)

وحدّثني قُثَمُ بن جعفر بن سليمان،⁽²⁾ قال: حدّثني مسرور⁽³⁾ الخادم: قال: أشهدُ بالله! لكُنتُ⁽⁴⁾ من الرشيد وهو متعلِّقٌ بأستار الكعبة بحيث يَمَسُّ ثوبي ثوبَه، وهو يقول في مناجاته ربَّه: "اللهم! إني أستخيرك في قتل جعفر بن يحيىٰ." ثم قتله بعد ذلك بخمس سنين أو ستٍّ.⁽⁵⁾

⁂

(مراعاة حرم الملك)

ومن حقّ الملك أن لا يَرفعَ أحدٌ من خاصّته وبطانته رأسَه إلىٰ حُرْمَةٍ له، صَغُرت أم كَبُرت، فكم من فيلٍ قد وطئ هامةَ عظيم وبطنَه حتى بدت أمعاؤه، وكم من

=(ج ٢ ص ٤٤) إنه سُمّي بالأشدق لأنه كان مائل الشدق. وانظر التفاصيل في المواطن التي نبهنا عليها. [وانظر الأقوال الأخرى التي رواها الجاحظ في سبب تسميته بالأشدق وأنه كان خطيبا مفوّها "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٢١ — ١٢٢ وانظر أيضا ص ١٨٤ — ١٨٥ منه].

(١) س: يراود.

(٢) هو قُثَم بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس. كان عاملاً على المدينة، وأميراً على البصرة. وله فيها مجالسُ علمٍ وأدب. (انظر البلاذريّ والأغاني في فهارسهما)

(٣) في الأصل: "حسين". ولا نعلم أن للرشيد خادما خاصا بهذا الاسم. ولذلك أبدلناه بخادمه المشهور وهو: "مسرور". يؤيد ذلك أيضا رواية "تنبيه الملوك والمكايد" الواردة في الحاشية رقم ٥ من هذه الصفحة.

(٤) س: نعم.

(٥) في "تنبيه الملوك والمكايد" ما نصه: "كان الرشيد أدهىٰ الناس وأكتمهم لسرّه. ومما يدلّ علىٰ ذلك ما حدَّث به مسرورٌ خادمُه، قال: كنتُ مع الرشيد في بعض سِنِي حجّه، فسمعته وقد التزم المُستجار من الكعبة وهو يلتفت يمينًا وشمالاً، وكنتُ بين أستار الكعبة لم يرني وهو يقول: "اللّهم إني أستخيرك في قتل جعفر بن يحيى!" مرارًا كثيرةً. فلما سمعته، طار عقلي وخشيتُ أن يفطن بي، فيكون ذلك سبب هلاكي. فأقبلتُ أتعوّذ، ولم أزل أحتالُ حتى استللتُ من الأستار. قال أبو هاشم مسرورٌ الخادمُ: فكان بين الوقت الذي استخار الله فيه في قتل جعفر بن يحيىٰ وبين قتله سبعُ سنين". (صفحة ١٩٧ — ١٩٨)

شريف وعزيزِ قومٍ قد مزَّقته السباع وتمشَّشته (١)، وكم من جاريةٍ كانت كريمةً على قومها عزيزةً في ناديها قد أكلتها حيتان البحر وطير الماء، وكم من جُمْجُمَة كانت تُصان وتُعلُّ (٢) بالمسك والبان (٣) قد أُلقِيتْ (٤) بالعَرَاء، وغُيِّبتْ جُثَّتُها في الثرى بسبب الحُرَم والنساء، والخَدَم، والأولياء! ولم يأتِ الشيطان أحدًا من بابٍ قطُّ حتَّى يرامٍ بحيث (٥٤) يَهْوِى (٥) منقسم اللحم والأعضاء، هو أبلغ في مكيدته وأحرى أن يَرىٰ فيه أُمنِيَّتَه من هذا الباب، إذ كان من ألطف مكايده وأدقّ وساوسه وأحلىٰ تزيينه (٦)!

---

(١) أى مَصَّتْ عظمه . وفى سـ : "تمزقته السباع وتمشمشته" . وفى صـ : "تمزقته السباع وتمششته" . وفى "المحاسن والأضداد" : ونهشته .

(٢) أى تُطيَّب مرة بعد أُخرىٰ بالمسك الخ ، علّه بالحناء يَعِله و يعُله "الكامل للبرد" . والعليلة المرأة المطيبة طيبا بعد طيب "قاموس" . وفى صـ : تعلى . وفى نسخ "المحاسن والأضداد" : تغل ، تعل ، تغذا . [وآنظر صفحة ١٥٥ من هذا الكتاب والحاشية ١ و ٢ منها]

(٣) يطلق العرب آسم البان على شجرتين مختلفتين . فالأُولىٰ هى المسماة أيضا بشجرة الخِلاف ، وهى التى يهيم بها الشعراء ويشبهون قوام المحبوب بقضبانها . وهى كثيرة بمصر . والخلاف نوع من الصفصاف (Saule) أو هو غيره . و يطلقون آسم الخلاف فى مصر على زهرة مما يُشَمّ رَطبا ويُستقطَر مثل الورد والنسرين والنيلوفر (نهاية الأرب ، فى الباب الأوّل من القسم الأوّل من الفنّ الرابع ؛ وحسن المحاضرة) .

وفى "صبح الأعشى ج ١ ص ٣٩٣" أن البان والخلاف من الفواكه المشمومة وأنهما نوعان .

أما آسم هذا البان عند علماء النبات فهو Salix Egyptiaca . والشجرة الثانية هى التى عناها الجاحظ . تشبه الأَثْل ولها ثمر كأنه الجوز فيه حبٌّ كالفستق ، ومنه يستخرجون الدهن المشهور بدهن البان أو بالبان فقط . وهذا الثمر يسمى بالشُّوع أيضا . ودهنه يدخل فى تركيب نفائس الطيب والأعطار والغوالي . وتوجد شجرته ببلاد العرب . واسمه العلمى (Guilandina moringa) واسمه العامىّ المشهور عند الفرنج (Ben) مأخوذ عن العربية . (راجع آبن البيطار وترجمته إلى الفرنسية فى الكلمات التى ذكرناها)

(٤) صـ : نبذت ،

(٥) من باب ضرب بمعنىٰ يسقط .

(٦) فى نسخ "المحاسن والأضداد" (ص ٢٧٣ – ٢٧٤) أجلّ تزايينه ، أجلّ بوائقه .

فعلى الحكيم المحبِّ لبقاء هذا النسيم الدقيق، وهذا الماء الرقيق[1]، أنْ يطلب دوامَهما لنفسه بكل حيلة يجد إليها سبيلا، ويدفَع مقارفتهما[2] لكل شئ يقع فيه التأويلُ بين أمرين من سلامة تُنْجِي أو عَطَبٍ[3] يُتْلف، ولا يَتَّكِلَ على خيانة خَفِيَتْ أو بَخْرَةٍ حَظِىَ بها أحدٌ من أهل السَّفَه والبَطالة. فإنَّ تلك لا تُسَمَّى[4] سلامة، بل إنما هى حسرة وندامة، يومَ القيامة. وكم من فَعْلة قد ظُهِرَ عليها بعد مرور الأيام وطول الأزمنة بها، فَرَدَّتْ[5] من كان قد أحسنَ بها الظنَّ حتّى تركتْه كأمس الذاهب[6]، كأنْ لم يكن فى العالَمَ!

* * *

إغضاء البصر بحضرة الملك

ومن حقِّ الملك ــ إذا أَنِسَ بإنسانٍ حتّى يُضاحكه ويُهازله ويُفْضِىَ إليه بسرّه ويَخُصَّه دون أهله، ثم دخل على الملك داخلٌ أو زاره زائرٌ ــ أنْ لا يرفعَ إليه طَرْفه، إعظاما وإكراما، وتبجيلا وتوقيرا، ولا يضحَكَ لضَحِك الملك ولا يعجَب لعَجَبه. وليكنْ غرضُه الإطراقَ والصمتَ وقلّةَ الحركة.

(١) يُكنَّى بالنسيم الدقيق عن النَّفَس، وبالماء الرقيق عن الدم.

(٢) س : مفارقتهما بكل. ص : مفارقتها بكل. [وربما كان الأصوب ما وضعناه فى متن الكتاب: "ويدفع مقارفتهما لكل شئ الخ". أى يحول دون ارتكابهما لأىّ أمرٍ تكون عاقبته مشكوكا فيها بين السلامة والهلاك]. قال فى تاج العروس: "قارفه مقارفة وقرافا: قاربه. ولا تكون المقارفة إلا فى الأشياء الدنيئة."

(٣) ص : غضب.

(٤) س : تسمى.

(٥) الفعل هنا هو ردَّى مثل أردى، بمعنى أهلك. وفى ص : فأوردت.

(٦) أمس الذاهب، وأمس الدابر، وخبر كان: كلُّها بمعنى واحد. (أُنظر لسان العرب فى د ب ر)

***

غض الصوت بحضرة الملك

ومن حق المَلك أنْ لا يرفع أحدٌ صوتَه بحضرته. لأن من تعظيم المَلك وتبجيله خَفْضَ الأصوات بحضرته، إذ كان ذلك أكثرَ في بهائه وعزّه وسلطانه.

تأديب الله للصحابة

وبهذا أدّب الله أصحاب رسوله (صلى الله عليه وسلم)، فقال عزّ من قائل: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ." فأَخْبَرَ أنَّ مَن رفع صوته فوق صوت النبيّ فقد آذاه، ومَن آذاه فقد آذى الله، ومَن آذى الله فقد حَبِط عمله.

وكان قومٌ من سفهاء بني تميم أَتَوُا النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالوا: يامحمد! أُخْرُجْ إلينا نُكَلِّمْكَ. فَغَمَّ ذلك رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) وساءه ما ظهر من سُوء أدبهم، فأنزل الله عز وجل: "إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ."(1)

ثم أثنى على مَن غضّ صوته بحضرة رسوله، فقال جل اسمه: "إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى."(2)

(٥٦)

فمن تعظيم المَلك وتبجيله خفضُ الأصوات بحضرته، وإذا قام عن مجلسه: حتّى لايدخُل المُلْكَ وَهْنٌ ولا خَلَلٌ ولا تقصيرٌ، في صغيرِ أمرٍ ولا جليله.

***

حرمة مجلس الملك في غيبته

وكانت ملوك الأعاجم تقول: إنَّ حُرْمَةَ مجلس الملك إذا غاب كَحُرْمته إذا حضر.

(١) أُنظر قصة هذا الوفد في كتب السيرة النبوية، وفي "صبح الأعشى" (ج ١ ص ٢٢٤ – ٢٢٦). وفي "البيان والتبين" (ج ٢ ص ٣٩).

(٢) أُنظر "محاضرات الراغب" (ج ١ ص ١١٧).

الرقباء على مجالس ملوك العجم عند غيابهم

وكان لها عيون[1] على مجالسها، إذا غابت عنها . فمَن حضرها، فكان فى كلامه وإشارته وقلّة حركته وحُسن ألفاظه وأدبه ـ حتّى أنفاسه ـ على مثل ما يكون إذا حضر الملك، سُمِّيَ ذا وجهٍ . ومَن خالف أخلاقه وشِيَمَه وظهر منه خلاف ما يظهره بحضرة المَلك، سُمِّيَ ذا وجهين، وكان عند الملك منقوصا مُتَصَنِّعًا[2] .

* * *

مواطن المكافآت

ومن أخلاق الملك أن يخلع على مَن أدخل عليه سرورًا، إمّا فى خاصّة نفسه وإمّا فى توكيد مُلكه . فإنْ كان السرور لنفسه فى نفسه، فمن حقّه على الملك أن يخلع عليه خِلعة فى قرار داره، وبحضرة بِطانته وخاصّته . وإن كان فى توكيد مُلكه، فمن حقّه أن يخلع عليه بحضرة العامّة، ليَنشُر له بذلك الذكر ويُحسِنَ به الأُحدوثةَ وتَصْلُحَ عليه النيّات، ويَستدعى بذلك الرغبة إلى توكيد المُلك وتسديد أركانه . (٥٧)

بيان المكافآت وخصوصها وعمومها

وليس من العدل أن يُفْرَدَ المُحْسِنُ بخِلعة فقط، إلّا أن تكون الخلعة على شُرب أو لَهْوٍ . فأما إذا كانت لأَحدِ المَعْنَيَيْنِ اللذيْن قدّمنا ذكرهما، فمن العدل أن يكون معها جائزةٌ وصِلَةٌ وترتيبٌ، أو ولاية أو إقطاع أو إجراء أرزاق أو فكّ أسير أو حمل حَمالات أو قضاء دَيْن أو إحسان، كائنًا ما كان، مضافًا إليها وموصولًا بها .

---

(١) أى رقباء .

(٢) صـ : مقصيا . [وعلى فرض صحة هذا الحرف فالواجب أن تكون صيغته هنا "مُقْصًى" إذ لا يقال "مقصيا" فى اسم المفعول . وانظر القاموس وشرحه فى مادة ق ص و]

باب

فى صفة ندماء الملك

صفة خلق النديم

ينبغى أن يكون نديم الملك معتدل الطبيعة، معتدل الأخلاط، سليم الجوارح والأخلاق، لا الصفراء تقلقه وتكثر حركته، ولا الرطوبة والبلغم يَقْهَره ويُكثر بَوْلَه وبزقه وتثاؤُبه ويطيل نومه، ولا السوداء تضجره وتطيل فكره وتكثر أمانيّه وتفسد مزاجه. فأمّا الدموىّ[1]، فليس يدخل فى هذه الأقسام المذمومة، إذ كان بالبدن إليه[2] حاجة كحاجته إلى تركيبه وسلامته.

***

(٨ب)

آداب النديم فى المزاملة، وعلومه.

ومن حقّ الملك — إذا زامله بعض بِطانتـه — أن يكون عارفا بمنازل الطريق وقطع المسافة، دليلا بهدايته وأعلامه ومياهه[3]، قليلَ التثاؤُب والنُّعاس، قليلَ السُّعال والعُطاس، معتدلَ المِزاج، صحيح البِنْيَة، طيِّبَ المُفاكهة والمُحادثة، قصير المياومة والملايلة[4]، عالما بأيّام النـاس ومكارم أخلاقهم، عالما بالنادر من الشعر والسائر من المثل، متطرّفا[5] من كلّ فنّ، آخذًا من الخير والشر بنصيب. إنْ ذَكَرَ الآخرة ونعيمَ أهل الجنّة، حدّثه بما أعدّ الله تعالىٰ لأهل طاعتـه من الثواب، فرغّبه فيما عنده؛ وإنْ ذكر النار، حذّره ماقرّب إليها. فزهّده مَرّةً، ورغّبـه أُخْرىٰ. فإنّ بالملك أعظم

(١) صـ : الدين.

(٢) الضمير يعود إلى "الدم" المفهوم من قوله "الدموى"

(٣) صـ : ومناره.

(٤) صـ : قصير الملالة.

(٥) صـ : متصرفا.

الحاجة إلىٰ مَن كانت هذه صفاته و بالْحَرَا[(١)] إذا أصاب هذا، أنْ لايفارقه إلّا عن أمرٍ تنقطع به العصمة وتجب به النقمة[(٢)].

عدّة الملك فى خروجه لسفر أو نزهة

ومن حقّ الملك، إذا خرج لســفرٍ أو نُزْهةٍ، أنْ لايفارقه خِلَعٌ للكساء، وأمــوالٌ للصِّلات، وسِياطٌ للأدب، وقيودٌ للعُصاة، وسلاحٌ للأعداء، وحُماةٌ يكونون من ورائه و بين يديه، ومُؤْنِسٌ يُفضى إليه بسرّه، وعالمٌ يسأله عن حوادث أمره وسُنّة شريعته، ومُلْهٍ يُقَصِّر ليلَه ويُكْثِرُ فوائده. (٥٩)

وعلىٰ هذا كانت ملوك الأعاجم، أوّلُها وآخِرُها.

وأيضا فإنّ ملوك العرب، لم تزل تمتثل هذا وتفعله.

خلال الندماء

ولنــدماء الملك و بطانته خِلالٌ يُساوُون فيها المَلك ضرورةً. ليس فيهــا نقص علىٰ المَلك، ولا ضَــعَةٌ فى المُلك. منها: اللّعِبُ بالكُرَة، وطلب الصيْد، والرَّمْىُ فى الأغراض، واللّعب بالشِّطْرَنْج، وما أشبه ذلك.

مساواة الملك للاعبــه

ومن الحقّ علىٰ الملك أنْ لا يمنع ملاعبــه ما يجب له من طلب النَّصَفَة فى هــذه الأقسام التى عَدَدْنَا.

حق الملاعب على الملك

ومن حقّ المُلاعِب له المُشَاحّةُ والمُكَالَبة والمُساواة والممانعة[(٣)] وتركُ الإغضاء والأخذُ

(١) فى "القاموس": "الحَرَا الخليق. ومنه: بالحَرَا أن يكون ذلك." وفى "الصحاح": ويحدّث الرجُلُ الرجل فيقول: بالحرىٰ أن يكون. [والمعنىٰ هنا أن الملك اذا أصاب رجلا توفّرت فيــه هذه الصفات فالأحرى والأجدر والاخلق به أن لايفارقه إلا فى الحالة التى نص عليها المؤلف.]

(٢) س : "التيمة".

(٣) ص : المانقة.

من الحقِّ بأقصىٰ حدوده. غير أنّ ذلك لا يكون معه بَذَاءٌ ولا كلامٌ رَفَثٍ ولا معارضةٌ بما يُزيل حقَّ المَلك ولا صياحٌ يعلو كلامه ولا نَخيرٌ[1] ولا قذفٌ ولا ماهو خارج عن ميزان العدل.

(٦٠) ملاعبة سابور على أمر مجهول

وفيما يُحكىٰ عن سابور أنه لاعب تِرْبا، كان له بالشِّطْرَنْج إمْرَةٌ مُطاعَةٌ[2]. فقَمَرَه تِرْبُه. فقال له سابور: ما إمْرَتُك؟ فقال: أركبك حتّى أخرج بك إلىٰ باب العامّة. فقال له سابور: بئس موضع الدالّة وضعتُك، فَرِدْ غيرَ هذا. فقال: بهذا جرىٰ لفظى. فأسِف لذلك سابور وقام فدعا ببرقع، فتبرقع. ثم جثا لتِربه، فامتنع أن يعلو ظهر الملك، إجلالًا له وإعظاما. فنادىٰ سابور بعد ذلك بسَنَةٍ فى الرعيّة: لا يلعبَنّ أحدٌ لُعْبَةً علىٰ حُكْمٍ غائبٍ، فمن فعل فَدَمُه هَدَرٌ[3].

فأما إذا كانت المُشَاحَّة علىٰ طلب الحق فى هذه الأقسام التى ذكرنا بمعارضة شعرٍ، وتوبيخ فى مَثَلٍ ونادرٍ من الكلام، وإخبارٍ عن سوء لَعِبِ اللاعب وتأنيبٍ له، فهذا مما يُخاطَب به المَلك ويُعَارض فيه. فأما إذا خرج عن هذا، فدخل فى باب الجُرْأَة كما فعل تِرْبُ سابور، فإنّه خطأٌ من فاعله وجهلٌ من قائله وجُرْأَةٌ علىٰ ملكه. وليس للرعية الجُرْأَة علىٰ الراعى.

⁂

(٦١) آداب الملاعبة بالكرة وغيرها

ومن حق الرجُل علىٰ المَلك، إذا ضرب معه بالكرة، أن يتقدّم بدابّته علىٰ دابّة

(١) النخير: مدُّ الصوت فى الخياشيم. (قاموس)

(٢) أى أنّ هذا التِّرْبَ كانت عادته وديدنه أنْ لا يلعب الشطرنج إلا على إمرة مطاعة. والإمرة المطاعة هى الاحتكام.

(٣) روىٰ صاحب "محاسن الملوك" هذه القصة باختصار. (ص ٧٨)

الملك، وصَوْلَجَانه على صولجان الملك، وأن يعمَل جُهده فى أن لا يُبْخَس حظَّه ولا يُفْتَر[(١)] فى مسابقةٍ ولا مراكضةٍ ولا ٱلتقافِ كرةٍ ولا سبقٍ إلىٰ حدٍّ ونهاية وما أشبه ذلك.

وكذلك القول فى الرِّماية فى الأغراض وطلب الصيد ولعب الشِّطْرَنْج.

لعبة الشطرنج بحضرة عبدالله ابن طاهر

سمعت محمد بن الحسن بن مُصْعَب[(٢)] يقول: "كان لى صـديق من بنى مَخْزُوم، وكان لاعبا بالشِّـطرنج. فذكرتُه لأبى العباس عبـد الله بن طاهر، فقال: أحضِرْه. فقلت للمخزوميّ: تهيَّأْ للقاء أبى العبـاس. وكان متصرِّفًا كثيرَ الأدب. فغدوتُ به، فدخل. فلما وقعت عين أبى العباس عليه، وقف. فرآه من بعيد، ثم ٱنصرف من غير أن يُكلِّمه. فقال: هذا رجُلٌ من أهل الأدب، فٱغْدُ به ولاعِبْـه الشِّطْرَنْجَ بحضرتى

(١) صـ: ولا يعبن.

(٢) اِضطرب ٱسمُ الأب فى كثير من كتب التاريخ والأدب. فورد فى سـ: "الحسين" وكذلك فى كامل ٱبن الأثير طبع أوربة ومصر وفى "المحاسن والمساوى" ص ٢١٧. وورد فى صـ: "الحسن" وكذلك فى الأغانى وفى سـ فى موضع آخر [أى فى صفحة ١٥٠ من هذا الكتاب]. أما الطبرىّ فأورد الأسمين، وفرّق بينهما صاحبُ فهرسته بجعل "محمد بن الحسين" راويا. ولا أدرى من أين له هـذه التفرقة، فإن متن الطبرىّ لا يفيدها. والظاهر عندى أنهما شخص واحد.

أوّلا ـــ لأن محمد بن الحسين بن مصعب لم يرد فى الأغانى مطلقا، ولو كان راويا ـــ كما يزعم صاحب فهرست الطبرىّ ـــ لكان من الراجح وقوع ٱسمه فى كتاب الأغانى؛

ثانيا ـــ لأن ٱبن الأثير ذكر محمد بن الحسين بن مصعب (فى حوادث سنة ١٩٨) ثم وصفه بأنه ابن عمّ طاهر ذى اليمينين الذى فتح بغداد بٱسم المأمون. ومعلومٌ أن طاهرًا هذا هو ٱبن الحسين بن مصعب بلا خلاف. فيكون صاحبنا الذى أشار إليه الجاحظ هو محمد بن الحسن بن مصعب، وإلا لكان عمّه. ومحمد بن الحسن بن مصعب هذا هو الذى أرسله طاهر إلى المأمون بخراسان برأس الأمين بعد قتله ببغداد. فهو من عصبة عبد الله بن طاهر الذى وقعت الحكاية فى مجلسه. وقد كان بصيرا بالغِناء والنَّغَم، وكان من المُلَحِّنين. وذلك لأن أبا الفرج الإصـفهانى يقول إن الرجل نشأ بخراسان، وينعته بلقب الأمير. (ٱبن الأثير ج ٦ ص ٢٠١ و ٢٥٦) و(الأغانى ج ٥ ص ٣٨ و ٥٣ و ١٠٢ وج ٩ ص ٦٢ وج ١٤ ص ٩١)

حتّى أَبُورَه[1] وعابه حتّى يخرج إلى باب الهزل والشتيمة[2]. فلما قعدنا، دارت لى عليه ضربةٌ، فقلتُ: خذها، وأنا الغلام البُوشَنْجى[3]! وهو ساكتٌ. ثم دارتْ لى عليه ضربةٌ أُخرى، فقلتُ: خذها، وأنا مَوْلى مَخْزُوم! فسكتَ. ثم دارت عليه ضربةٌ، فقلتُ: خذها يا ٱبن مخزوم، فى حِرِمِّ[4] مخزوم! فسكت. وٱستُؤْذِن لرجلٍ من آل عبد الملك (٦٣) ٱبن صالح، وكان خاصًّا بأبى العباس، فأمر بالإذن له. فلما دخل الهاشمىّ وقعد، قال[لى]المخزومىّ: ليس فيك موضع شرف ولاعزّ، فأُفاخِرُك! أنت بوشنجىٌّ ثمنُ دانق! ولكنْ قُلْ لهذا الهاشمىّ يفاخرنى حتّى ينظر ما يكون حاله. فأمّا أنت، فَمَنْ أنت حتّى أُفاخرك؟ فضحك أبو العباس حتّى فَحَصَ برجْلَيْه[5]، وأمر له بخمسمائة دينار وقرّبه وآنسه.

* * *

آداب الندماء اذا أخذت الملك سنة من النوم

ومن أخلاق الملك، إذا غَلَبَتْه عيناه، أن ينهض مَن حضره من صغيرٍ أو كبيرٍ، بحركةٍ لَيِّنَةٍ خفيفة، حتّى يتوارى عن قرار مجلسه، ويكون بحيث يقرُب منه إذا ٱنتبه. ولا يقولَنَّ إنسانٌ فى نفسه: لعلَّ الملك إنْ هبّ من سِنَتِه لا يسألُ عنّى، أو لعلَّه أن يمتدّ به النوم أو يعرِضَ له شُغْلٌ. فإنَّ هذا من أكبر الخطإ.

وقد قَتَل بعضُ الملوك رجُلا فى هذه الصفة.

(١) البَوْر الاختبار والامتحان كالابتيار. قال فى نقائض جرير والفرزدق (ص ٢٥٤): "وهذا كلُّه ابتيارٌ منه للناس ليدعوهم إلى خلعه".

(٢) يظن بعض الجهلة أن هذا اللفظ ليس بعربىّ، لأن بعض المتحذلقين مالوا إلى الشتم لفظا ومعنى، دون أن يتفطنوا إلى الفرق بين الاسم والمصدر. والقاموس وشرحه وكل متون اللغة والجاحظ وأمثاله شهودٌ عدولٌ. وٱنظر أيضا شرح القاموس فى مادة ه ز ل فقد صرح بأنهم اشتقوا الشتيمة من الشتم [وٱنظر البيان والتبيين ج ٢ ص ٦]

(٣) إشارة إلى نشأته بمدينة بُوشَنْج من خراسان.

(٤) كلمة مركبة تركيبا إضافيا من كلمتين. وحُذف حرف الألف من الثانية. والمعنى ظاهر. وهو شتيمة. و يضارع ذلك فى حذف الألف، قول العرب: "لَابَ لك" أى لا أب لك، وقولهم: "وَيْلُمِّه" (ٱنظر تاج العروس فى مادة و ى ل). [وٱنظر صفحة ١٣٥ من هذا الكتاب].

(٥) أى ضرب الأرض برجليه كثيرا حتى كأنه يبحث فيها.

وليس من الحزم أن يجعل الحكيم للملك على نفسه طريقا، وهو وإنْ سَلِمَ من عَذْل الملك ولائمته لكَرَم المَلِك وشِيمَته، قَدَحَ ذلك فى نفس المَلِك واَضطغن عليه. وبالحَرِىّ أنْ لا يَسْلَمَ من عَذْلٍ وتأنيبٍ[1].

✥

إمامة الملك للصلاة

(٦٣) ومن حقّ الملك ــ إذا حضرتِ الصَّلاة ــ فالملك أَوْلىٰ بالإمامة[2]، لخصالٍ: منها ــ أنه الإمامُ، والرعيَّــةُ مأمومةٌ؛ ومنها ــ أنه المولىٰ، وهم العبيد؛ ومنها ــ أنه أولىٰ بالصلاة فى قرار داره وموطئ بِساطه، ولو حضر مجلسَه أزهدُ الخلق وأعلمُهم.

فإذا قام للصــلاة، فمن حقّه أنْ يكون بينه وبين من يصلّى خلفه عشرةُ أذرع، وأنْ لا يتقدَّمَه أحدٌ بتكبيرٍ ولا بركوعٍ ولا سجودٍ ولا قيامٍ.

وهذا، وإن كان يجب لكلّ مَن أَمَّ قوما من صغيرٍ أوكبيرٍ أوشريفٍ أو وضيعٍ، فهو للملك أوجبُ.

فإذا سلَّم الملك، فمن حقّه أنْ يقوم كلُّ مَن صلّى خلفه قائمـا. فإنهم لا يدرون أيريد تنفُّلا[3] أودخولا أوقعودًا فى مجلسه.

فإن قام لنافلة، فليس من حقّه أن يتنفَّلوا. لأنهم لايدرون لَعَلَّه أنْ يسبِقَهم أو يقطَعَ صَلاتَهُ لِحَدَثٍ، فيكون يحتاج إلىٰ أن يسبقهم، وهم قِيامٌ يُصَــلُّون بإزائه، وهو قاعدٌ. ولكن من حقّه أن يكونوا بحالهم حتّى يعلَموا ما الذى يفعل. فإنْ قعــد، انحرفوا إلى حيثُ لا يراهم، فصَلَّوْا نوافلهم. وإن دخل فى الصلاة، صلَّوْا علىٰ مكاناتهم[4].

---

(١) أنبه تأنيبا: عنفه ولامه. (حاشية فى صـ)

(٢) صـ: بالإقامة.

(٣) فى صـ: "تنقلا" بالقاف، ولكن بقية السياق تدل على أنه بالفاء.

(٤) المكانة المنزلة عند مَلِكٍ. (قاموس). وقد وردت هــذه الآداب بزيادة واختصار فى "محاسن الملوك" (ص ٧٨)

***

آداب مسايرة الملك (٦٤)

وقد قلنا إنّ من حقّ المَلك أنْ لا يبتدئَهُ أحدٌ بمُسايرةٍ. وإنْ طلب ذلك منه مَن يستحِقّ المُسايرة، فالذى يُجزئُهُ من ذلك أن يقف بحيث يراه ويتصدّى له. فإنْ أَوْمأَ إليه، سايره؛ وإنْ أَمْسَكَ عن الإيماء، عَلِمَ أن إمساكه هو تركُ الإذْن له فى مسايرته.

ومن حقّه، إذا سايره أن لا يَمَسّ ثوبُه ثوبَ الملك، ولا يُدْنِىَ دابَّتَه من دابّتِه، ويتوخّى أنْ يكون رأْسُ دابّته بإزاء سَرْج المَلك، غيرَ أنّه لا يُكلفه أن يلتفت إليه. ولا ينبغى له أن يبتدئه بكلام.

وإنْ كان لا يثق بِلِينِ عِنان دابّته حتّى يصرفه كيف شاء ومتى شاء، فالرأْىُ له أنْ لا يسايره. فإنّ فى مسايرته وَصْمَةً عليه وعلى المَلك. أمّا عليه، فإنه يحتاج إلى حركة متواترة يُتعِب بها نفسه ودابّته، ويَخْرُج بها عن حدّ أهل الأدب والمُروءة والشرف. ولعلّه فى خلال ذلك أيضا أنْ لا يبلُغ ما يريد. وأمّا على المَلك، فإنه وَهْنٌ فى المملكة. لأنّ المَلك، إنْ طلب الصبر عليه وعلى سير دابّته، كان إنما يسير عند ذلك بسيره. وليس فى آيين[1] المملكة أن يسير الأعظم بسيْرِ مَن هو دونه.

سنة أكابر العجم عند تهيئتهم للمسايرة (٦٥)

ولذلك كانت رؤساء الأكاسرة والأساورة والدَّبِيرَبَذ[2] ومُوبَذان مُوبَذ[3] ومن أشبه هؤلاء من خاصّة الملك، إذا هَمَّ الملك بالمسير فى نُزْهَةٍ أو لبعض أُموره، عرضوا دوابَّهم

(١) أنظر الحاشية رقم ٢ ص ١٩ و٢٣ و٣٠ و٧٧ من هذا الكتاب.

(٢) كلمة فارسية تفسيرها حافظ الكتّاب (التنبيه والإشراف للمسعودى ص ١٠٤). والمقصود من الكتاب الكتاب المقدّس عند المجوس. وربما كان الصواب فى هذا المقام: "دبير يد" من كلمتين الأولى فارسية والثانية عربية بمعنى "كاتب اليد". ذلك لأنى لم أعثر فى معجمات اللغة الفارسية على تفسير يوافق ما ذهب إليه المسعودى. اللهم إلا أن تكون الكلمة محرفة وتحتاج إلى التثقيف. [وأنظر صفحة ١٦٠ و١٧٣ من هذا الكتاب].

(٣) أما الموبذ فهو القاضى؛ وموبذان موبذ هو قاضى القضاة. وموبذ من ألفاظ الفهلوية، وهى اللغة الفارسية القديمة ومعناها القاضى (مروج الذهب جزء ٦ ص ٣٧٥).

علىٰ راضة المَلِك وصاحب دوابِّه . وكان كلُّ واحدٍ منهم لا يأمَنُ أن يدعُوَ به المَلك للسايرة والمحادثة ، فيحتاج إلىٰ معاناة دابّته لبلادةٍ أو كثرةِ نفورٍ أو عِثار أو جِماح . فيكون علىٰ الملك من ذلك بعضُ مايكره . وكان الرائض يمتحِنُ دابَّةً دابَّةً من دوابِّ هؤلاء العظماء : فما آختار منها رُكِبَ ، وما نَفىٰ أُرْجِئَ .

وأيضا إنّ من حقِّ الملك ، إذا سايره واحدٌ ، أنْ لا تَرُوثَ دابَّتُه ولا تَبُول ولا تحصَّن[1] ولا تتشغَّب ، ولا يطلب المحاذاةَ[2] لسير دابّة الملك ، وإن أراد ذلك منعه راكبه .

ما حصل للموبذ أثناء مسايرته لقباذ.

وفيما يُحكىٰ عن ملوك الأعاجم أن قُبـاذ[2] ، بينَا هو يسير والمُوبذ يسايره ، إذ راثت دابة المُوبذ وفطِن لذلك قباذ . فآغتمَّ المُوبذ بذلك ، فقال له فى كلام بينهما : ما أوّل ما يُستدلّ به علىٰ سُخْف الرجل ، أيها الموبذ؟ فقال : أنْ يعلِف دابّته فى الليلة التى يركب فى صبيحتها الملكُ . فضحك قُباذ حتّى آفترّ عن نواجذه . وقال : لله أنتَ ! ما أحسنَ ماضمَّنتَ كلامك بفعل دابّتك ! وبحقٍّ ماقدّمك الملوك وجعلوا أزِمّة أحكامهم فى يدك ! ووقف ثم دعا بدابّة من خاصّ مراكبه ، فقال له : تحوّل عن ظهر هذا الجانى عليك إلىٰ ظهر هذا الطائع لك[3] . (٦٦)

---

(١) تحصَّنَ الفَرَسُ صار حصانا أى إذا تكلّف ذلك . ولعلّ المعنىٰ أنّ الفَرَس تثب على الدابّة التى تكون قُدّامها كما يفعل الفحل . لئلا يحدث مثل ماوقع لسلطان مصر قايتباى إذ ركب فى محرم سنة ٨٧٦ ومعه الأتابكىّ أزبك (منشئ الأزبكية) متوجهيْن من القاهرة إلى شبين القناطر . ففى أثناء الطريق شبّ فرس الأتابكىّ على فرس السلطان ورفسه . فجاءت الرفسة فى قصبة ساق السلطان فآنكسرت ، فنزل بشبين وهو فى غاية الألم . واستحضر السلطان محفّة من القاهرة ليعود عليها . (وآنظر التفصيل فى آبن إياس ج ٢ ص ١٢٨)

(٢) معرّب قباد . وفى كتاب ''برهان قاطع'' أنه بنىٰ مدينتى حُلوان وكازرون . وأقول إن حُلوان هذه هى غير التى بالقرب من القاهرة . وعن ياقوت أنها كانت أكبر مدينة فى العراق بعد الكوفة والبصرة وبغداد وسُرَّ مَنْ رأى . [وآنظر صفحة ١٠٥ من هذا الكتاب] .

(٣) رواها فى ''محاسن الملوك'' بآختصار . (ص ٨٢ ــ ٨٣) ، ورواها بالحرف فى ''المحاسن والمساوى'' (ص ٤٩٦ ــ ٤٩٧) .

ما حصل لشرحبيل أثناء مسايرته لمعاوية

وهكذا يُحكىٰ عن معاويةَ بن أبي سفيان أنه بينَا هو يسير وشُرَحْبِيل بن السِّمْط[١] يسايره، إذْ راثت دابّة شُرَحْبِيل، وكان عظيم الهامَة بسيط القامَة. ففطن معاوية بروْث الدابّة، وساء ذلك شُرَحْبِيل. فقال معاوية: يا أبا يزيد! إنه يقال إن الهامة إذا عظُمتْ، دلّتْ علىٰ وُفور الدماغ وصحّة العقل. قال: نعم يا أمير المؤمنين، إلّا هامتي فإنها عظيمة، وعقلي ضعيفٌ ناقصٌ. فتبسّم معاوية، وقال: كيف ذلك، ولله أنت! قال: لإطعامي هذا النائل أُمّه[٢] البارحة مَكُّوكَيْ شعير. فضحك معاوية، وقال: أَفْحَشْتَ[٣]، وما كنتَ فاحشًا! وحمله علىٰ دابّة من مراكبه.

---

(١) هو أبو السمح الكندي. كان من رجالات معاوية وأركان دولته، وكان يستشيره في جلائل الأمور ويعوّل عليه في حلّ المشكلات الجسام. وقد أرسله مع عمرو بن العاص لملاقاة أبي موسىٰ الأشعريّ في قضية التحكيم. وكان من قوّاد الجيوش ومن صناديد الفرسان المعدودين، واشترك في رياسة الجيوش التي فتحت العراق والقادسية وبيسان وأجنادين. وقد طلب من عليّ عليه السلام أن يدفع إليهم قَتَلة عثمان بن عفّان إن لم يكن هو القاتل. وهو الذي فتح حِمْص ثم تولّاها لمعاوية، وهو الذي قسم منازلها بين أهلها. ومما يحسن ذكره للتعريف بجلالته في نفسه وقومه أنه اعتزل مع ولده بني معاوية حينما أطبقوا على منع الصدقة، وقالا لهم: "إنه لقبيح بالحرار [الأحرار] التنقل. إن الكرام ليُلزَمون الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا الى أوضح منها، مخافة العار. فكيف الانتقال من الأمر الحسن الجميل والحق، إلى الباطل والقبيح؟ اللهم إنا لا نمالئ قومنا على ذلك!" توفي سنة ٤٠ أو سنة ٤٢. (ابن الأثير ج ٢ ص ٢٩١ و ٣٠٤٨ و ٣٧٤ و ٣٨٧ و ٣٨٩ و ٣٩٠ و ٤٩٤ وج ٣ ص ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣٧ و ٢٤٠ و ٢٩٧ و ٣٣٨، والاشتقاق لابن دُرَيْد ص ٢١٨، وتاج العروس في باب الباء وفي باب اللام)

(٢) اقتديتُ في هذا الموضع بما فعله في صفحة ٧٩ طابع كتاب طراز المجالس للشهاب الخفاجيّ في المطبعة الوهبية بالقاهرة. [وانظر صفحة ١٣١ من هذا الكتاب].

(٣) رواها باختصار في "محاسن الملوك". (ص ٨٣)، وفي "المحاسن والمساوي" (ص ٤٩٧).

تحذير

(٦٧) فليتنكّبْ مَن يساير الملوك ما يَقذِى أعينهم بكلّ جُهده . فإنّ لمسايرتهم شروطا يجب علىٰ مَن طلبها أن يستعملها و يتحفّظ فيها . وقلّما حظِىَ أحدٌ بمسايرة مَلك حتّى يكون قبلها مقدّماتٌ يجب بها الحُظْوَة .

تطير العجم من مسايرة الملك المتصلة

فأمّا نفس المسايرة للملك المُتّصِلة ، فإن الأعاجم كلها كانت تتطيّرُ منها وتكرهها . وأيضا فإن المَلِك لم يكن يثابر علىٰ مسايرةِ أحدٍ من بِطانته بعينه ، لمَا كان يعلم من طِيرَتهم من ذلك وكراهتهم له .

ما حصل من صاحب الشرطة وهو يسير بين يدى الهادى

ويقال إن سعيد بن سَلْم [1] ، بينَا هو يساير موسىٰ أمير المؤمنين ، وعبدُ الله بن

---

(١) هو سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلىّ . كان بمنزلة عظيمة من الهادى ومن الرشيد بعده ، وكان يركب معه فى قبة واحدة . وقد استعمله الرشيد على الموصل ، ثم على الجزيرة ، ثم على أرمينية . فخرج الخزر عليه فهزموه وفعلوا الأفاعيل المنكرة التى لم يسمع بمثلها الناس . فأرسل الرشيد رجلين فأصلحا ما أفسده . ثم ولاه مَرْعَش فأغارت الروم عليها وأصابوا من المسلمين وانصرفوا ، ولم يتحرك سعيد من موضعه . وكان ذلك سنة ١٩١ .

قال سعيد إن أعرابيا مدحه ببيتين لم يسمع أحسن منهما :

أيا ساريًا بالليل ، لا تخشَ ضِلّةً ! * سعيدُ بن سَلْم ضوءُ كلِّ بلادِ .
لنا مُقْرَمٌ أربىٰ علىٰ كلِّ مُقْرَمٍ ، * جوادٌ حَثَا فى وجه كل جواد .

فأغفل صلته فهجاه ببيتين لم يسمع أهجىٰ منهما :

لكلِّ أخى مدحٍ ثوابٌ علمتُه ، * وليس لمدح الباهلىّ ثوابُ .
مدحتُ ابنَ سَلْم ، والمديحُ مَهَزّةٌ ، * فكان كصَفْوانٍ عليه ترابُ .

(ابن الأثير ج ٦ ص ٧١ و ٨١ و ١٠٥ و ١١١ و ١١٢ و ١٤١ ؛ و "الأغانى" ج ١٧ ص ٣٢ وج ٢١ ص ٢٣٤ ؛ و "عيون الأنباء" ج ١ ص ١٥٤ ؛ و "أمالى القالى" ج ٢ ص ٢٧)

مالك [الخزاعىّ][1] أمامه، والحربة[2] فى يده، فكانت الريح تسفى التراب الذى تثيره دابّة عبد الله فى وجه موسى، وعبدُ الله لا يشعُر بذلك، وموسى يحيد عن سَنَن التراب. وعبد الله فى خلال ذلك يلحظ موسى وموضعَه، فيطلب أن يحاذيَه. فإذا حاذاه، ناله من ذلك التراب ما يؤذيه. حتّى إذا كثر ذلك من عبد الله، ونال موسى أذى ذلك التراب، قال لسعيد: أما ترى ما نلقى من هذا الحائن[3] فى مسيرنا هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين! والله ما قصّر[4] فى الاجتهاد، ولكنه حُرِم حظّ التوفيق.

ما قاله عبد الله بن الحسن للسفاح

وفيما يُذكر عن عبد الله بن حسن أنه بينا هو يساير أبا العباس [السفاح][5] بظاهر مدينة

(١) كان صاحب الشُّرطة فى أيام المهدىّ فالهادى فالرشيد. وكان من أكابر القوّاد وتولّى أرمينية وأذربيجان. له مع الهادى حكاية ظريفة ذكرها ابن الأثير (ج ٦ ص ٧٠ و ٧١). وكان بينه وبين يحيى بن خالد البرمكى عداوة وتحاسد، وانتهت بتصالحهما على يد أحد المزوّرين من حيث لا يعلمان ولا يعلم (ساقها فى المحاسن والمساوى ص ٤١٥ — ٤١٦). وفيه يقول أحد الشعراء فى شكاة اشتكاها:

ظلّت عـلى الأرض مظلمـة * إذ قيل: عبدُ الله قد وُعِكا.
يا ليت ما بك بى، وإن تلفت * نفسى لذاك! وقلّ ذاك لكا!

(انظر ابن الأثير ج ٦ ص ٦٥ و ٦٨ و ١٢٥ و ١٣٤ و ١٤١ و ١٤٢ و ١٤٥ و ١٥٣ و ١٥٤ وانظر الأغانى ج ٥ ص ٥ وج ٨ ص ١٠٥ وج ١٦ ص ١٦٧). [وانظر صفحة ٩٢ من هذا الكتاب].

(٢) يستفاد من كلام الجاحظ هنا مضافاً إليه كلام ابن الأثير (فى ج ٦ ص ٦٥ وفى ج ٧ ص ٧٦) أن من شعار الخليفة وولىّ عهده أن يسير قائد بحربة بين يدى كلّ منهما.

(٣) كذا فى س، ص، وفى العقد الفريد وفى المحاسن والمساوى. ولعلّ الأصل: "المائق".

(٤) نقل ابن عبد ربه هذه الحكاية باختصار فى مقدّمتها ولم يُشر إلى مصدرها. (العقد الفريد ج ١ ص ٢٧٦) ونقلها بالحرف فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٧)

(٥) هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب. وله أخبار ووقائع كثيرة مع السفّاح والمنصور. لأن السفّاح اجتهد فى ترضّيه حتى لا يطالب بالخلافة. وكذلك فعل المنصور. ولكنّ ولديه محمدًا النفس الزكية وإبراهيم خرجا على المنصور. (انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣٤ والأغانى ج ١٨ ص ٢٠٣ — ٢٠٩ والطبرى والكامل للمبرّد بمقتضى فهارسهما).

(٦٨) الأنبار وهو ينظر إلىٰ بناء قد بناه، فقال أبو العباس له : هاتِ ماعندك ، ياأبا محمد! (وهو يستطعمه الحديثَ بالأُنْس منه)[١] فأنشده :

أَلَمْ تَرَ مالِكًا لمّا تَبَنّىٰ * بناءً نفعُه لبنى بُقَيْلَهْ ؟
يُرَجّى أَنْ يُعَمَّرَ عُمْرَ نوحٍ ، * وأَمْرُ الله يَحْدُثُ كُلَّ لَيْلَهْ !

فتبسّم أبو العباس كالمُغْضَب ، وقال : لو علمنا ، لاشترطنا حقَّ المسايرة ! فقال عبد الله : ياأمير المؤمنين ، بوادرُ الخواطر وإغفالُ المشايخ ! قال : صدقتَ ، خُذْ فى غير هذا[٢].

ما قاله الهاشمىّ لأبى مسلم الخراسانىّ

وذكر المدائنىّ أن عيسىٰ بن موسىٰ[٣] ، بينا هو يساير أبا مُسلِم[٤] عند مُنصَرَفه

(١) س : يستفهمه .

(٢) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه القصة (ص ٨٣ و ٨٤)؛ ورواها أيضا صاحب الأغانى (جزء ١٨ ص ٢٠٦) باختصار، وأورد البيت الأوّل هكذا :

ألم تر حوشبا أمسى يبنى * بناء نفعه لبنى نفيله

ونفيلة تصحيف فى المحاسن وفى الأغانى ، إذ لم يرد فى أسمائهم ؛ والذى ورد من هذه المادة إنما هو نُفَيْل . وأما بقيلة فهو الاسم الصحيح الوارد فى متون اللغة وكتب التاريخ . قال ابن دُريد : "ومنهم (أى من العرب) بنو سُنَيْن وهم بالحيرة منهم بُقَيْلة صاحب القصر الذى يقال له قصر بنى بُقَيْلة بالحيرة . منهم عبد المسيح بن عمرو بن حيّان ابن بُقيلة الذى صالح خالد بن الوليد على الحيرة ، وكان من المعمَّرين وهو الذى بعث به كسرى أبرويز إلى سطيح بالشام فى رؤيا الموبذان ، وله حديث ." وفى حاشيته مانصه : "فى معجم الشعراء للمرزبانى رحمه الله : عبد المسيح بن بُقَيْلة الغسّانىّ هو عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيّان بن بقيلة . وبُقَيْلة اسمه ثعلبة بن سُنَيْن ويُقال الحارث . وسمى بقيلة لأنه خرج فى بُرْدَيْن أخضرين ، فقيل له : ياحارث ! ما أنت إلا بقيلة خضراء . فغلبتْ عليه . (الاشتقاق ص ٢٨٥ ؛ وراجع الطبرىّ وابن الأثير فى فهارسهما ؛ وتاج العروس فى ب ق ل . ون ف ل ؛ والمسعودىّ ج ١ ص ٢١٧ — ٢٢٢ وج ٢ ص ٢٢٨ ؛ وكتاب البُلدان لليعقوبىّ ص ٣٠٩) . وقد أورد هذه الحكاية صاحب العقد الفريد (ج ٣ ص ٣٤) وجاء فى النسخة المطبوعة : "نفيلة" بالنون والفاء . وهو غلط أيضا من الناسخ أو الطابع . وأوردها أيضاً فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٨) ، ولم يغلط طابعه فى "بقيلة" .

(٣) هو عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد الله الهاشمى (راجع فهارس ابن الأثير والأغانى) .

(٤) هو أبو مُسلم الخراسانىّ صاحب الدعوة العباسية بخراسان . [وانظر ص ١٧٦ من هذا الكتاب وحاشية ٣ منها] .

إلى أبى جعفر فى اليوم الذى قُتل فيه، إذ أنشد عيسى :

سيأتيك ما أفنى القرونَ التى مضتْ، * وما حلَّ فى أكناف عادٍ وجُرْهُمِ،

ومَن كان أنأى[1] منك عِزًّا ومَفْخَرًا، * وأَنْهَدَ[2] بالجيش اللَّهَامِ الْعَرَمْرَمِ .

فقال أبو مسلم : هــذا مع الأمان الذى أُعْطِيتُ؟ قال عيسى : أَعتِقُ ما أملِكُ إنْ كان هذا لشئ من أمرِك! وما هو إلَّا خاطرٌ أبداه لسـانى . قال : فبئس الخـاطرُ والله إذَنْ[3]! (٦٩)

* * *

عدم تسمية الملك أو تكنيته

ومن حقِّ المَلِك أنْ لا يُسَمَّى ولا يُكَنَّى فى جدٍّ ولا هَزْلٍ ولا أُنْسٍ ولا غَيْرِه . ولولا أنّ القدماء من الشـعراء كَنَّتِ المُلوكَ وسَمَّتْهم فى أشـعارها وأجازتْ ذلك واصطلحتْ عليه، ما كان جَزاءُ مَن كَنَّى مَلِكًا أو خليفةً إلا العقوبةَ . على أن ملوك آل ساسان لم يُكَنِّهَا أحدٌ من رعاياها قَطُّ ولا سَمَّاها فى شِعرٍ ولا خُطبةٍ ولا تقريظٍ ولا غيرِه . وإنمـا حدث هذا فى ملوك الحِيرَة[4].

---

(١) صـ : أدنى .

(٢) كثير النهود أو النهوض بأمر الجيش والقيام بأعبائه .

(٣) نقلها فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٨) .

(٤) أطنب ياقوت فى وصف هذه المدينة وأحوالها وأساطيرها فى الجاهلية، ولم يذكر لنا شيئاً عنها فى أيام عظمتها على عهد الإسـلام . وإنمـا استفدنا منـه أنها بقرب النَّجَف . ولذلك رأينا أن نثبت هنا ما جاء عنها فى الأغانى (ج ٨ ص ١٢٥) ليعرف القارئ مكانتها التى دخلت الآن فى خبر كان . قال :

« كان بعض ولاة الكوفة يذم الحيرة فى أيام بنى أُمية . فقال له رجل من أهلها، وكان عاقلا ظريفا :

ـــ أتعيب بلدة بها يُضرب المثل فى الجاهلية والإسلام؟

ـــ وبمـا ذا تُمدَح؟ =

والدليـــل على ذلك أنه لو سمّى أحدٌ من الخطباء والشعراء فى كلامه المنثور مَلِكًا

— بصحة هوائها، وطيب مائها، ونزهة ظاهرها . تصلح للخفّ والظلف ، سهل وجبل ، و بادية وبستان ، وبرّ و بحر، محلّ الملوك ومزارهم، ومسكنهم ومثواهم . وقد قدمتَها — أصلحك الله — مُخِفًّا فرجعت مثقَلًا ، ووردتَها مُقِلًّا فأصارتك مُكثِرًا .

— فكيف نعرف ماوصفتَها به من الفضل؟

— بأن تصير إلىّ ، ثم آدع ماشئت من لذّات العيش ، فوالله لا أجوز بك الحيرة فيه !

— فآصنع لنا صنيعا [Une partie de plaisir]، وأَخْرُجْ من قولك .

— أفعـــلُ !

فصنع لهم طعاما ، وأطعمهم من خبزها وسمكها وما صِـيد من وحشها : من ظباء ونعام وأرانب وحُبارَى . وسقاهم ماءَها فى قلالها ، و خمرَها فى آنيتها . وأجلسهم على رُقُمها ، وكان يُتَّخذ بها من الفراش أشـياء ظريفة . ولم يستخدم لهم حُرًّا ولا عبدًا إلّا من مولَّديها ومولَّداتها ، من خَدَم ووصائف كأنّهم اللؤلؤ، لغتهم لغة أهلها . ثم غناهم حُنَيْنٌ وأصحابه فى شعر عَدِىّ بن زيد، شاعرهم، وأعشى هَمْدان لم يجاوزهما . وحيّاهم برياحينها . ونقَّلهم على خمرها — وقد شربوا — بفواكهها . ثم قال :

— هل رأيتنى آستعنتُ على شىء مما رأيتَ وأكلتَ وشربتَ وآفترشتَ وشممتَ وسمعتَ ، بغيرمافى الحيرة؟

— لا ، والله ! ولقد أحسنتَ صفة بلدك ، ونَصَرْتَهُ فأحسنتَ نُصرتَهُ والخروجَ مما تضمَّنتَه . فبارك الله لكم فى بلدكم ! »

وكان آبن شُبْرُمَة يقول : "يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنتين" . (كتاب البلدان للهمدانى ص ٢٦٢) . وعن أهلها أخذت قريش الزندقة فى الجاهلية ، والكتابةَ فى فجر الإسـلام (الأعلاق النفيسـة لآبن رُسْـتَه ص ١٩٢ و٢١٧) .

وكانت عمارة الكوفة سببا لخراب الحيرة . وقد أتى على الكوفة الزمان ، وكذلك الأمر فى واسط وسُرَّ مَنْ رأى . وأنت عليم بما صارت إليــه البصرة و بغداد . وهذه الستّة هى أكبر أمصار العراق فى عهد الخلافتين . وناهيك بها من أمصار رفعت للحضارة أعلى منار ! فســبحان من بيــده ملكوت الأرض والسماء ! يتصرف بالبـلاد والعباد كما يشاء !

أو خليفـةً وهو يُخاطبـه بآسمه ، كان جاهلا ضـعيفا خارجا من باب الأدب . ولو لا أن الآصطلاح(١) منعنا إيجـابَ المنع من ذلك(٢) ، كان من أوّل ما يجب .

ولا أدرى لِمَ فعل القـدماء ذلك ، كما أنى لا أدرى لِمَ أجازته ملوكُها ورضِيَتْ به ، إذ كانت صفة الملوك ترتفع عن كل شئ وترقى عنه(٣) .

وكانت الجفاة من العرب بسوء أدبها وغِلَظ تركيبها ـ إذا أَتَوُا النبي (صلّى الله عليه وسلم) ـ خاطبوه ودَعَوْهُ بآسمه وكُنْيَتِه . فأمّا أصحابه ، فكانت مخاطبتهم إياه : "يارسول (٧٠) الله !" و"يانبيَّ الله !"

---

(١) صـ : "الاضطلاع" وبجانبها "الاصطلاح" . وفى سـ : الاصلاح .

(٢) سبق الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى إلى تقرير هذه القاعدة . فهو أوّل من منع الناس أن ينادوه بآسمه . (محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر) . ولكن يظهر أن ذلك الأمر تراخى بتطاول العهد ، فعاد القوم إلى ما كانوا عليه .

(٣) على أن أهل الأدب ورواة الأشعار كانوا يتحرّون عند إنشاد القصائد على أحد الخلفاء والأمراء ، فيتخيرونها من التى لا يكون فيها آسم معشوقة يشابه آسمَ أُمٍّ له أو آبنة أو أخت أو زوجة (الأغانى ج ٥ ص ١٧٤) . وفى "محاسن الملوك" (ص ٢٩) أن إبراهيم بن المهدىّ قال : كنت عند الرشيد ، فأُهْدِيَتْ له أطباقٌ ومعها رُقعةٌ . فلمّا قرأها ، آستفزّه الطرب . فقلت : ياأمير المؤمنين ، ما الذى أطربك؟ فقال : هذه هديّة عبد الملك بن صالح . ثم نبذ إلىّ الرقعة ، فإذا فيها بعد البسملة : "دخلتُ ، ياأمير المؤمنين ، بستانا عَمَرْتُه بنعمتك ، وقد أينعتْ أثمـاره وفاكهته . فأخذتُ من كلّ شيء (وعدّدَ أنواعا من الفاكهة) وصيّرتُه فى أطباق القُضبان ووجّهتُه لأمير المؤمنين ، ليصل إلىّ من بَركة دعائه ، ما وصل إلىّ من برّه ونَعْمائه" . قلتُ : ياأمير المؤمنين ، وما فى هذا يقتضى هـذا السرور؟ فقـال : ألا ترى إلى ظَرْفه ، كيف قال : "القضبان"؟ فكنّى به عن الخيزران ، إذ كان يجرى به آسمُ أُمّنا .

وهكذا يجب للملوك أن يقال فى مخاطبتهم : ياخليفـة الله! (١) و ياأمين الله! (٢) و ياأمير المؤمنين! (٣)

(١) لم يرض أبو بكر الصِّدِّيق بأن يُسمّى خليفة رسول الله (كما فى لسان العرب ج ١٠ ص ٤٣٧) فضلا عن أن يُسمّى خليفة الله . ولكن الكُتّاب والشعراء جرى اصطلاحهم على خلاف ذلك . قال الزجّاج : جاز أن يقال للأئمّة "خلفاء الله فى أرضه" بقوله تعالى : "يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ" (لسان العرب ج ١٠ ص ٤٣١) . وقال جرير : "خليفةَ الله ماذا تأمُرَنَّ بنا؟" وقال أيضا : "خليفةُ الله يُستسقَى به المطرُ" . وقال بشّار (و إن كان من باب التهكّم) :

ضاعتْ خلافتكم ، ياقومِ ، فالتمِسُوا * خليفةَ الله بين الزِّقِّ والعُود!

وقد قال صاحب محاضرة الأوائل إن المعتصم بن الرشيد هو أوّل من تلقب بخليفة الله . فلعلّ ذلك كان بصفة رسمية فى المكاتبات الصادرة عن ديوانه . و إلّا فقد رأينا من الأشعار السابقة أن هذا اللقب كان موجودا فعلًا .

(٢) قال حسّان بن ثابت يرثى عثمان بن عفّان .

إنّى رأيتُ أمينَ الله مضطَهَدًا * عثمانَ رهنًا لدى الاجداث والكفن .

(٣) قال فى "محاسن الملوك" بهذه المناسبة (ص ٢٥ – ٢٧) ما نصّه :

«و إنما يُتسامح بذلك للشعراء . وما زالت الشعراء يمدحون الملوك بأسمائهم ، ولا يُنكَر ذلك عليهم . كقول الشاعر ، وهو حسّان :

هَجَــوْتَ محمدًا فأجبتُ عنـه * وعنـد الله فى ذاك الجـزاءُ .

وكقول المرأة تخاطبه :

أمحمدٌ ، ولَدَتْكَ ضِنءُ كريمةٍ * فى قومها والفَحْلُ فحلٌ مُعْرِقُ!

رُوِىَ أنه قدم رجل من الأعراب على عُمر رضى الله عنه ومعه صِبْيَةٌ له وأهلُه ، فقال يخاطبه :

ياعُمرَ الخيرِ جُزِيتَ الجنّهْ * اُكسُ بُنَيّاتى وأُمّهُنّهْ
أقسم بالله لتفعلنّهْ

فقال عُمر : يكون ماذا؟ فقال :

يكون عن حالى لتسألنّهْ =

***

الأدب فى حالة مشابهة الاسم لإحدى صفات الملك أو لاسمه

ومن حقِّ الملك، إذا دخل عليه رجُلٌ، وكان ٱسمُ ذلك الرجُل الداخل أحدَ صفات المَلك، فسأله المَلك عن ٱسمه، أن يَكَنِّيَ عنه ويُجيبَ بٱسم أبيه. كما فعل سعيدُ

= فقال عُمر: متى؟ قال:

يومَ تكون الأعطيَاتُ جُنَّهْ * والواقفُ المَسؤُولُ بَيْنَهُنَّـهْ

إمّا إلى نارٍ وإمّا جَنّـهْ.

فنبذ عمر رضى الله عنه قَيصهُ، وقال: هـذا جُنّةُ ذلك اليوم!

ورُوى أن الرشـيدَ جَلَس يومًا للمَظالم فرأى فى الناس شيخًا حَسَن الهَيئة. فلمّا تقوَّض المجلس، قام الشيخ وبيده قصّته، فأمر بأخذها. فقال: إنْ رأى أمير المؤمنين أنْ يأذنَ لى فى قراءتها، فإنى أحسَنُ تعبيرًا لخطّى. قال: ٱقرأ! قال: ياأمير المؤمنين، إنى شيخٌ كبيرٌ ضعيفٌ، والمَقامُ عظيمٌ. فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يأذَنَ لى فى الجلوس؟ فقال: ٱجلس! فجلس. ثم قال:

ياخيرَ مَن جَدَّتْ لرِحلتـهِ * نُجُبُ الركابِ بِهَمّه جَلْسِ!

يقول فيها:

لما رأَتك الشمسُ طالعـةً، * سجدتْ لوجهك طلعةُ الشَّمْسِ.

خيرُ البـريّةِ أنت كلِّهـم * فى يومك الغادى وفى أمسِ،

وكـذاكَ لم تنفكَّ خيرَهمُ * تُمسى، وتُصبح فوق ما تُمسى.

لله يا هٰرُونُ مِن مَلِكٍ * عفِّ السريرة طاهرِ النَّفْسِ!

نَمّتْ عليـه لربِّهِ نِعَـمٌ * تَزدادُ جِـدَّتُها على اللُّبْسِ.

(أردتُ قوله "لله ياهارون")

وبقية الشعر:

من عِتْرَةٍ طابت أُرومتُها، * أهلِ العفافِ ومنتهى القُدْسِ.

مُتَهَلّلينَ على أسِرَّتهـمْ * ولَدَى الهِيَاجِ مَصاعِبٍ شُمْسٍ =

ابن مُرّة الكِندىّ، حين أتى مُعاوية فقال له: أنت سعيدٌ؟ فقال: أميرُ المؤمنين السعيدُ، وأنا ابن مُرّة! [1]

وكما قال السَّيّدُ بن أنَس الأزْدِىّ [2] — وقد سأله المأمون عن اسمه — فقال: أنت السيّد؟ قال: أميرُ المؤمنين السَّيّدُ، وأنا ابن أنَس! [3]

وهكذا جاءنا الخبر عن العبّاس بن عبد المُطَّلِب، عمّ رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) وصِنْوِ أبيه. قيل له: أنت أكبرُ أم رسول الله؟ فقال: هو أكبر منّى، ووُلِدْتُ أنا قبلَه! [3]

= إنى لجأتُ إليك من فَزَعٍ * قد كان شَرَّدَنى من الأُنُسِ.
لمّا استخرتُ الله مجتهدًا، * يمّمتُ نحوك رحلةَ العَنَسِ.
واخترتُ حلمك لا أُجاوزه * حتى أُغيَّبَ فى ثرى الرَّمْسِ.

فلما أتى على آخرها، قال: مَن يكون الشيخ؟ قال: على بن الخليل الذى يقال إنه زنديق. قال: أنت آمنٌ! وأمر له بخمسمائة ألف درهم.

وأما مَنْ سوى الشعراء، فليَقُلْ: أيُّها الخليفة! أو ياأمير المؤمنين! أو ياسلطان العالَم! أو ياأمينَ الله أو ياأمير المسلمين!

قال المُغيرة لعُمر رضى الله عنهما: ياخليفة الله! فقال له عمر: ذاك نبىّ الله داود! قال: ياخليفة رسول الله! قال: ذاك صاحبكم المفقود! قال: ياخليفة خليفة رسول الله! قال: ذاك أمرٌ يطول! قال: ياعمر! قال: لاتَبْخَسْ مقامى شرفه! أنتم المؤمنون، وأنا أميركم. فقال المغيرة: ياأمير المؤمنين! »

(١) روى ذلك صاحب "محاسن الملوك" (ص ٢٨)، ورواها فى "المحاسن والأضداد" (ص ٢١) وفى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٠).

(٢) أنظر المحادثة بعبارة أخرى فى محاضرات الراغب (ج ١ ص ١١٧).

(٣) أنظر رواية أخرى فى محاضرات الراغب (ج ١ ص ١١٧)؛ وانظر "المحاسن والأضداد" (ص ٢١) و "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٠).

ألا تراه (رحمه الله) كيف تخلَّص إلىٰ أحسن الأحوال فى الأدب، فٱستعمله؟(١)

(٧١) وعلىٰ هذا المثال يجب أن تكون مخاطبة الملوك، إذ كانت صيغتهم غير صيغ العامّة،(٢) كما قال أردشير بن بابك فى عهده إلىٰ الملوك.

* * *

الأمور التى يتفرد بها الملك فى عاصمته

ومن حقّ المَلِك أن يتفرّد فى قرار داره بثلاثة أشياء، فلا يطمَع طامعٌ فى أنْ يَشْرَكَهُ فيها.

---

(١) ومما يدخل فى هذا الباب ماحكاه ياقوت الحموىّ فى معجم الأدباء (ج ١ ص ١٤٩ طبع الأستاذ مرجوليوث) أن "أبا زيد البلخىّ لما دخل علىٰ أحمد بن سَهْل — أوّل دخوله عليه — سأله عن ٱسمه. فقال: أبو زيد. فعجب أحمد بن سهل من ذلك حين سأله عن ٱسمه فأجاب عن كنيته، وعدّ ذلك من سَقَطاته. فلما خرج، ترك خاتمه فى مجلسه عنده. فأبصره أحمد بن سهل، فٱزداد تعجبًا من غفلته. فأخذه بيده ونظر فى نقش فصّه، فإذا عليه: أحمد بن سهل. فعلم حينئذ أنه إنما أجاب عن كنيته للموافقة الواقعة بينه وبين ٱسمه، وأنه أخذ بحسن الأدب وراعىٰ حدّ الاحتشام، وٱختار وصمة ٱلتزام الخطإ فى الوقت والحال، على أنْ يتعاطىٰ ٱسم الأمير بالاستعمال والابتذال."

وروى ٱبن عبد ربه (ج ١ ص ٢٧٣) فى هـذا المعنىٰ أيضا أنه قيل لأبى وائل: أيكما أكبر، أنت أم الربيع بن خثيم؟ قال: أنا أكبر منه سنًّا، وهو أكبر منى عقلا.

وقال معاوية لأبى الجهم العدوىّ: أنا أكبر أم أنت؟ فقال: لقد أكلتُ فى عرس أمك، ياأمير المؤمنين. قال: عند أىّ أزواجها؟ قال: عند حفص بن المغيرة. قال: ياأبا الجهم، إياك والسلطان! فانه يغضب غضب الصبىّ ويأخذ أخذ الأسد. (ٱبن عبد ربه ج ١ ص ١٢). قال الحجاج للمهلّب: أنا أطولُ أم أنت؟ فقال: الأمير أطول، وأنا أبسَطُ قامةً منه. (المحاسن والأضداد ص ٢٢، والمحاسن والمساوى ص ٤٩٠)

وكان الأولىٰ به أن يقتدىَ بطويس المغنّى المشهور فقد سأله سعيد بن عثمان بن عفان: أينا أسنُّ؟ فقال: "بأبى وأمّى أنت! لقد شهدتُ زفاف أمّك المباركة إلى أبيك الطيِّب." لئلا يوهم أمرًا. (ٱبن عبد ربه ج ١ ص ٢٧٣؛ ومحاضرات الراغب ج ١ ص ١١٧). أورد الجاحظ قبل غيره هذه الحكاية وعلّق عليها تعليقا لطيفا، فقال: فٱنظر الى حذقه وإلى معرفته بمخارج الكلام! كيف لم يقل "بزفاف أمّك الطيّبة إلى أبيك المبارك" (ٱنظر البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٤)

(٢) ص: "كانت صنيعهم غير صنيع العامة."

فمنها الحِجَامة، والفَصْد، وشُرب الدواء. فليس لأحدٍ من الخاصّة والعامّة ممن في قصبة دار المملكة أن يشركه في ذلك.

وكانت ملوك الأعاجم تمنع من هـذا وتعاقب عليـه وتقول: "إذا أراق المَلك دمه، فليس لأحد أنْ يُريق دمه في ذلك اليوم حتّى يساوىَ المَلك في فعله؛ بل علىٰ الخاصة والعامّة الفحصُ عن أمر المَلك، والتشاغُلُ بطلب سلامته، وظهور عافيته، وكيف وجد عاقبة ما يُعالَجُ به."

وليس الاقتفاء بفعل الملك في هـذا وما أشبهه من فِعلِ مَنْ تمّتْ طاعتُه وصحّتْ نيّتُه وحسُنتْ معونته، لأن في ذلك استهانةً بأمر الملك والمملكة.

ومَن قصـد إلىٰ أن يَشْرَكَ الملكَ في شئ يجد عنـه مندوحةً ومنـه بُدًّا، بالمُهَل المبسوطة والأيام الممدودة، فهو عاصٍ مفارقٌ للشريعة.

(٧٣) ويقال إن كسرىٰ أنوشروان كان أكثر ما يحتجم في يوم السبت. وكان المنادى – إذا أصبح في كل يوم سبت – نادىٰ: "ياأهل الطاعة! ليكن منكم تركُ الحجامة في هذا اليوم على ذِكْرٍ! وياحجامون! اجعلوا هذا اليوم لنسائكم وغَسْل ثيابكم!" وكذا كان يفعل في يوم فصد العرق وأخذ الدواء.

***

عدم تشميت الملك وعدم التأمين على دعائه.

ومن حقّ الملك – إذا عَطَس – أنْ لا يُشَمَّت، وإذا دعا، لم يُؤَمَّنْ على دُعائه.

وكانت ملوك الأعاجم تقول: "حقيقٌ علىٰ المَلك الصالح أن يدعو للرعيّة الصالحة، وليس بحقيقٍ للرعيّة الصالحة أن تدعُوَ للمَلك الصالح: لأن أقربَ الدعاء إلىٰ الله دعاءُ المَلك الصالح."

٭٭٭

عدم تعزية الملك

ومن حقّ الملك أن لا يُعَزِّيه أحدٌ من حاشيته وحامّته وأهل بيته وقرابته. وإنما جُعلت التعزيَة لمن غاب عن المصيبة، أو لمن قارَبَ المَلِك فى العزّ والسلطان والبهاء والقدرة. فأما مَن دون هؤلاء، فيُنْهَوْن عن التعزيَة أشدّ النَّهْي.(١)

وفيما يُذكَر عن عبد الملك بن مَرْوَانَ أنه مات بعض بنيه وهو صغير، فجاءه الوليد فعزّاه، فقال: يا بُنَيَّ! مصيبتى فيك أقدح فى بدنى من مصيبتى بأخيك! ومتى رأيتَ ابنًا عزّى أباه؟ قال: ياأمير المؤمنين! أمّى أمَرَتْنى بذلك. قال: ذاك يا بُنَيَّ أهونُ علىّ! وهذا لَعَمْرِى من مَشُورَة النساء!(٢) (٧٣)

٭٭٭

سرعة الغضب وبطء الرضا

ومن أخلاق الملك سرعة الغضب، وليس من أخلاقه سرعة الرضا.

فأما سرعة الغضب، فإنما تأتى الملك من جهة دوام الطاعة. وذلك لأنه لا يدور فى سمعه ما يكره فى طُولِ عمره. فاذا أَلِفَت النفسُ هذا العزَّ الدائم، صار أحدَ صفاتها. فمتى قرع حسَّ النفس ما لا تعرفه فى خُلُقها، نَفَرَتْ منه نُفورا سريعا، فظهر الغضب، أَنَفَةً وحَمِيَّةً.

وأما رضا الملك فبطيءٌ جدّا. لأنه شيءٌ تُمانعه النفس أنْ يفعله، وتدفَعُه عن نفسها. إذ كان فى ذلك جنسٌ من أجناس الاستخذاء، وخُلُقٌ من أخلاق العامّة.

(١) صـ: والقرابة.

(٢) روى صاحب "المحاسن والمساوى" هذه القصة (ص ٥٨٥ — ٥٨٦) ورواها صاحب "محاسن الملوك" (ص ٣٤) وختمها بأن عبد الملك قال لابنه: "والله لتعزيتك إيّاى أهون علىّ من قبولك مَشُورة النساء!" [وهى أحسن من روايتنا.] ثم أضاف على ذلك أن "يزيد بن معاوية وعمر بن عبد العزيز وغيرهما من ملوك الإسلام لا يرون بذلك بأسًا."

غضب السفاح على أحد رجاله

وهكذا يُحكى عن أبى العباس أنه غَضِبَ على رجُل ذهب عنّى آسمه، فذكره ليلةً من الليالى. فقال له بعض سُمَّاره: ياأمير المؤمنين! فلانٌ لو رآه أعدىٰ خَلْق الله له، لرحمه وآنعصر له قلبه[(١)]. قال: ولِمَ ذاك؟ قال: لغضب أمير المؤمنين عليه. قال: ما له من الذّنْب ما يبلغ به من العقوبة هذا الموضع. قال: فَمُنَّ عليه، يا أمير المؤمنين، برضاك. قال: ماهذا وقت ذاك! قال: قلتُ إنك ياأمير المؤمنين لما صغَّرتَ ذنبه، طمعتُ فى رضاك عنه. قال: إنه مَن لم يكن بين غضبه ورضاه مدّة طويلة، لم يُحسِن أن يغضب ولا يرضىٰ.

(٧٤)

وعلىٰ هذا أخلاقُ الملوك وصنيعُهم.

غضب الرشيد على أحد قوّاده

وكذا جرىٰ لعبد الله بن مالك الخُزاعىّ[(٢)] مع الرشيد، حين غضب عليه. أَمَرَ أهله وحَشَمَه وجميعَ قرابته أن يجتنبوا كلامه وخدمته ومعاطاته حتّى أثّر ذلك فى نفسه وبدنه. فتحاماه أقرب الناس منه من ولد وأهل، فلم يَدْنُ منه أحدٌ ولم يَطُف به. فجاءه محمد بن إبراهيم الهاشمىّ — وهو كان أحد أوِدّائه — فى جوف الليل، فقال له: يا أبا العبّاس! إنّ لك عندى يدًا لا أنساها ومعروفا ما أكفُرُه. وقد علمتُ ماتقدّم به أمير المؤمنين فى أمرك. وها أنا ذا بين يديك ونُصْب[(٣)] عينيك! فَمُرْنى بأمرك! فو الله

(١) يقال فى اللغة عَصَرَ العنب ونحوه فآنعصر. وفى المفضليات:

وَهِيَ لَوْ يُعْصَرُ مِنْ أَرْدَانِهَا ❊ عَبَقُ المِسْكِ، لَكَانَتْ تَنْعَصِرْ.

ومن شواهد النحاة:

خَوْدٌ يُغَطِّى الفَرْعُ مِنهَا الْمُؤْتَزَرْ ❊ لَوْعُصِرَ مِنها الْبَانُ والمِسْكُ، آنْعَصَرْ.

وكنّى الجاحظ بآنعصار القلب عن شدّة الألم لحال الرجل. ومن مجاز الأساس: "أنا معصور اللسان" أى يابسه عطشا.

(٢) [أنظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٨١ من هذا الكتاب].

(٣) أكثر العرب على ضم النون، كما فى شفاء الغليل.

لأجعلنّ نفسى وِقايةَ نفسِك، أوأسُوقَها فى كلِّ ما نَكَّاها[١] أو جَرَحَها[٢]. فقال له عبد الله (٧٥)
خيرا، وأثنىٰ عليه، وأخبره بعذره فى مَوْجِدَة أمير المؤمنين عليه. فوعده محمدٌ أن يُكَلِّمَ
أمير المؤمنين ويخبره بٱعتذاره. فلما أصبح محمدٌ وافاه رسول أمير المؤمنين، فركب.
فلما دخل عليه، قال: مَن أتيتَ فى هذه الليلة؟ قال: عبدَك يا أمير المؤمنين،
عبدَ الله بن مالك، وهو يحلف بطلاق نسائه وعِتْق مماليكه وصَدَقة ماله مع عشرين
نَذْرًا يُهديها إلىٰ بيت الله الحرام حافيًا راجلًا، والبراءة من ولاية أمير المؤمنين إنْ كان
ما بلغ أمير المؤمنين سمِعَه اللهُ من عبد الله بن مالك، أو ٱطّلع عليه أو همّ به أو أضمره
أو أظهره. قال: فأطْرق الرشيد مَلِيًّا مُفَكِّرًا. وجعل محمدٌ يلحظه، ووجهه يُسفِرُ
ويُشْرِق حتّىٰ زال ما وجده. وكان قد حال لونُه حين دخل عليه. ثم رفع رأسه
فقال: أحْسَبُه صادقا، يا محمدُ. فَمُرْهُ بالرَّواح إلىٰ الباب. قال: وأكون معه يا أمير المؤمنين؟
قال: نعم. فٱنصرف محمدٌ إلىٰ عبد الله، فبشَّره بجميل أمره، وأمره بالركوب رواحًا.
فدخلا جميعا. فلما بَصُر عبد الله بالرشيد ٱنحرف نحو القِبلة فخرّ ساجدا، ثم رفع (٧٦)
رأسه. فٱستدناه الرشيد. فدنا وعيناه تهملان. فأكبَّ عليه فقبَّل رِجله وبِساطه
وموطئ قدميه، ثم طلب أن يُأذن له فى الاعتذار. فقال: مابك حاجةٌ إلىٰ أن تعتذر،
إذ عرَفتُ عُذرَك. قال: فكان عبد الله بعدُ، إذا دخل علىٰ الرشيد، رأىٰ فيه بعض
الإعراض والانقباض. فشكا ذلك إلىٰ محمد بن إبراهيم. فقال محمدٌ: يا أمير المؤمنين! إن
عبد الله يشكو أثرًا باقيًا من تلك النَّبْوَة التى كانت من أمير المؤمنين، ويسأل الزيادة

(١) أوجب وقوع النكاية بها.

(٢) أصابها بجراحة.

فى بَسطه له. فقال الرشيد: يا محمد! إنا معشر الملوك، إذا غضبنا على أحد من بِطانتنا ثم رضينا عنه بعد ذلك، بَقِىَ لتلك الغَضْبة أثرٌ لا يُخرجه ليلٌ ولا نهارٌ.(١)

⁂

كتم الملك أسراره

ومن حقّ المَلك أن يكتُمَ أسراره عن الأب والأُمّ والأَخ والزوجة والصَّدِيق. فإنّ المَلك يَحتمِل كلَّ منقوص ومأنوف،(٢) ولا يحتمل ثلاثةً: صفة أحدهم أنْ يطعن فى مُلكه، وصفة الآخر أن يُذيع أسراره، وصفة الآخر أن يخُونه فى حُرَمه.(٣)

(٧٧)

فأما من وراء ذلك، فمن أخلاق الملوك أن تَلبَس خاصَّتها ومَن قربَ منها على مافيهم، وأن تستمتع منهم إذا سَلِمُوا من هذه الصفات الثلاث.

وكان كسرى أبرويز يقول: "يجب على الملك السعيد أن يجعل همَّه كلَّه فى آمتحان أهل هذه الصفات، إذ كانت أركانَ الملك ودعائمَه".(٤)

امتحان أبرويز رجاله فى حفظ السرّ

فكانت مِحنته فى إذاعة السرّ عجيبةً. وللقائل أن يقول فيها إنها خارجة من باب العدل، داخلة فى باب الظلم والجَوْر؛ وللآخر أن يقول إنها مِحَن الحكماء من الملوك.

وكان إذا عرف من رجُلين من بطانته وخاصّته التحابَّ والأُلفة والآتفاق فى كلّ شئ وعلى كلّ شئ، خلا بأحدهما فأفضى إليه بسرٍّ فى الآخر، وأعلمه أنه عازمٌ على قتله، وأمَرَه بكتمان ذلك عن نفسه، فضلا عن غيره. وتقدّم إليه فى ذلك بوعيده.

(١) نقل هذه القصة فى "المحاسن والمساوى" (ص ٥٤٢ — ٥٤٣).

(٢) أى الرجل المكروه. وهذه الكلمة ساقطة فى صـ.

(٣) قارن ذلك بما فى محاضرات الراغب. (ج ١ ص ١١٨). وهذه المقولة منسوبةٌ بلفظ آخر لأبى جعفر المنصور العباسى. (أنظرها فى المحاسن والأضداد ص ٢٨، والمحاسن والمساوى ص ٤٠٢).

(٤) فى "محاسن الملوك" (ص ٥٤) ما نصه: وأما كتمان سرّ السلطان فهو مِلاك الأمر ونظام المملكة وسبب بقاء الدولة. كان أبرويز إذا دخل إليه وزيرهُ وصاحب سرِّه، لم يفاوضه فى شيء حتّى لا يبقىٰ عنده أحدٌ. فاذا لم يبقَ أحدٌ، أمر أنْ تُرفع الستائر عمن لعلّه يكون وراءها. فإذا علم أنه ليس أحدٌ وراءها، فاوضه بسرِّه.

ثم جعل مِحنته فى إذاعة سرّه ملاحظة صديقه فى دخوله عليه وخروجه من عنده، وفى إسفار وجهه ولقائه للملك. فإن وجد آخرَ أمرِه كأوّله فى أحواله، علم أن الآخَر لم يُفْضِ إليه بسرّه ولم يُظهِرْه عليه، فقرّبه واَجتباه ورفع مرتبته وحباه، ثم خلا به، فقال: "إنى كنتُ أردتُ قتلَ فلان لشىءٍ بلغنى عنه. فبحثتُ عن أمره فوجدته باطلاً." (١) (٧٨)

وإنْ رأى من صاحبه نفور نفس واَزْوِرارَ جانبٍ وإعراضَ وجهٍ، علم أنه قد أذاع سرَّه، فأقصاه واَطَّرحه وجفاه، وأخبر صاحبه أنه أراد مِحْنته بما أَوْدعه من سرِّه. فإن كان هذا من أهل المراتب، وضع مرتبته؛ وإن كان من الندماء، أمر أن يُحْجَب عنه؛ وإن كان من أصحاب الأعمال، أمر أن [لا] يُستعان به؛ وإن كان من سَدَنَة بيوت النيران، أمر بعزله وإسقاط أرزاقه. ويقول: "مَن لَمْ يصلُحْ لَمِلكه، لا يصلُحُ لنفسه؛ ومَن لَمْ يصلُحْ لنفسه، فلا خَيْرَ عنده." ويقول: "إنّ القلب أعدل على القلب شهادةً من اللسان؛ وقلّ شىءٌ يكون فى القلب إلا ظهر فى العينين (٢): إذ كانت الأعضاء مشترِكة يتعلّق بعضُها ببعضٍ."

امتحانه لرجاله فى حفظ الحرم (٧٩)

فأما مِحنته فى الحُرَم، فكان إذا خفّ الرجُل على قلبه وقَرُب من نفسه، وكان عالماً يُظهر التألُّه، وكان عنده ممن يصلح للأمانة فى الدماء والفروج والأموال على ظاهره، أحبَّ أن يمتحنه بمِحْنةٍ باطنة. فيأمُرُ به أن يُحوَّل إلى قصره ويُفْرَغَ له بعضُ الحُجَر التى تقرب منه، ولا يُحَوِّل إليها اَمرأةً ولا جاريةً ولا حُرْمة ويقول له: "إنى أُحبُّ الأُنْس بك فى ليلى ونهارى. ومتى كان معك بعض حُرَمِك، قطعك عنّى وقطعنى عنك.

(١) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه العبارة باَختصار. (ص ٥٤ — ٥٥)

(٢) س : إن القلب ليظهر ما فيه فى العينين.

فاجعلْ مُنْصَرَفَك إلىٰ منزل نسائك فى كلِّ خمسِ ليالٍ ليلةً." فإذا تحوّل الرجُل وخلا به وآنسه وكان آخِرَ مَن ينصرف من عنده، فيتركه علىٰ هذه الحال أشهراً .

فامتحن رجُلا من خاصّته بهذه المحنة فى الحُرَم، ثم دسّ إليه جارية من خواصّ جواريه ووجّه معها إليه بألطافٍ وهدايا. وأمرها أنْ لاتقعد عنده فى أوّل ماتأتيه. فلما أتته بألطافِ الملك، قامتْ. فلم تَلْبَثْ أنِ انصرفتْ. حتّى إذا كانت المرّةُ الثانية، أمرها أن تقعُد هُنَيْهَةً. وأن تُبْدِىَ بعض محاسنها، حتّى يتأمّلَها. ففعلتْ ولاحظها الرجُل وتأمّلها ثم انصرفت. فلما كانت المرة الثالثة، أمرها أن تقعد عنده وتطيل [80] القعود وتحادثه، وإن أرادها علىٰ الزيادة من المحادثة أجابته. ففعلتْ. وجعل الرجُل يُحِدُّ النظر إليها ويُسَرُّ بحديثها. ومن شأْن النفس أنِ تطلُبَ بعد ذلك الغرضَ مِن هذه المطايبة. فلما أبدىٰ ماعنده، قالت: "إنى أخاف أن يُعْثَرَ علينا، ولكن دعنى أُدَبِّرُ فى هذا مايَتِمّ به أَمْرُنا." ثم انصرفت. فأخبرتِ المَلِك بكلِّ مادار بينهما. فوجّه أُخرىٰ من خاصّ جواريه وثقاتهن بألطافه وهداياه. فلما جاءته، قال لها: ما فعلتْ فلانةُ؟ قالت: اعتلّتْ. فاربدّ لون الرجُل[1]. ثم لم تُطِل القعود عنده كما فعلت الأُولىٰ فى المرّة الأُولىٰ. ثم عاودته بعد ذلك، فقعدت أكثر من المقدار الأوّل، وأبدت بعض محاسنها حتّى تأملها. وعاودته فى المرّة الثالثة، فأطالت عنده القعود والمضاحكة والمهازلة. فدعاها إلىٰ ما فى تركيب النفس من الشهْوَة. فقالت: "إنّا من الملك علىٰ خُطًى يسيرة، ومعه فى دار واحدة، ولكنّ المَلِك يمضى بعد ثلاثٍ إلىٰ بستانه الذى [81] بموضع كذا، فيقيم هناك. فإن أرادك علىٰ الذهاب معه، فأظهِرْ أنك عليلٌ، وتمارضْ. فإن

(١) أى علَت الغُبرةُ لونَه.

خيّرك بين الآنصراف إلىٰ دور نسائك أو المُقام هٰهنا إلىٰ رجوعه، فآختَرِ المُقام وأخبِرْهُ أنّ الحركة تصعُب عليك. فاذا أجابك إلىٰ ذلك، جئتُ فى أوّل الليل ولبثتُ عندك إلىٰ آخره.» فسَكَنَ الرقيع إلىٰ هذه الأَنَسَة (١)، وآنصرفتِ الجارية إلىٰ الملك فأخبرَته بكلّ مادار بينها و بينه. فلما كان الوقت الذى وعدته أن يخرج المَلك فيه، دعاه المَلك. فقال للرسول: أَخْبِرْهُ أَنّى عليلٌ. فلما جاءه الرسول وأخبرهُ، تبسّم أبرويز، وقال: هذا أوّل الشرّ. فوجّه إليه بِمِحَفّةٍ، فَحُمِل فيها حتّى أتاه، وهو مُعصَّبُ الرأس. فلما بَصُرَ به من بعيد، قال: والعِصَابةُ الشرُّ الثانى. وتبسّم. فلما دنا من الملك، سجد. فقال له أبرويز: متى حَدَثَتْ بك هذه العلّة؟ قال: فى هذه الليلة. قال: فأىُّ الأمرَيْن أحبُّ إليك؟ ألآنصرافُ إلىٰ منزلك ونسائك ليمرّضْنَك أو المُقام هٰهنا إلىٰ وقت رجوعى؟ قال: هٰهنا (٨٢) أيها الملك أرفَقُ بى، لقلة الحركة. فتبسّم أبرويز، وقال: ما صدقتَ! حركتُك هٰهنا، إنْ خلّفْتُك، أكثر من حركتك فى منزلك.

ثم أمر أن تُخْرَجَ له عصا الزُّناة التى كان يُوسَمُ بها مَن زَنىٰ. فأيقن الرجُل بالشرّ. وأمر أن يُكتب ما كان من أمره حرفًا حرفًا، فيُقرأ علىٰ الناس إذا حضروا، وأنْ يُنفىٰ إلىٰ أقصىٰ حدّ المملكة، ويُجعل العصا فى رأس رُمْحٍ تكون معه حيث كان، ليَحْذَرَ منه مَن لا يعرفه. فلما أُخرِج بالرجُل عن المداين، مُتوجّهًا به نحو فارِس أخذ مُدْيَةً كانت مع بعض الأعوان الذين وُكّلُوا به، بجَبَّ بها ذكره، وقال: مَن أطاع عُضوًا من أعضائه صغيرًا، أفسد عليه أعضاءه كلها، صغارَها وكبارَها. فمات من ساعته (٢).

(١) الرقيع والمرقعان الأحمق وهو الذى فى عقله مَرَمَّةٌ (صحاح) | حاشية فى ص ١. والمرمة معناها هنا الآحتياج إلى الترقيع والترميم. (أنظر لسان العرب ج ٩ ص ٤٩١)

(٢) روىٰ هذه القصة فى "المحاسن والأضداد" (ص ٢٧٥ — ٢٧٧).

امتحانه فيمن يطعن فى المملكة

وكان قد نَصَبَ رجُلا يمتحِن به مَن فَسَدَتْ نِيَّته وطَعَن فى المملكة. فكان الرجُل يُظهر التَّأَلُّهَ والدعاء إلىٰ التخلِّى من الدنيا والرغبة فى الآخرة وترك أبواب الملوك. وكان يُقُصُّ علىٰ الناس ويُبْكيهم ويشوبُ فى خلال ذلك كلامَه بالتعريض
(٨٣) بذمِّ المَلك وتركه شرائعَ ملَّته وسُنن دينه ونواميس آبائه. وكان هذا الرجُل الذى نصبه لهذا أخاه من الرضاعة وتِرْبَه فى الصِّبا. فكان إذا تكلَّم هذا الرجُل بهذا الذى قد مثَّله له أبرويز وأمره به ليمتحن بذلك خاصَّته، أُخْبِرَ به. فيضحك لذلك أبرويز، ويقول: "فلانٌ فى عقله ضَعْفٌ، وأنا أعلم به. وإن كان كذلك فإنه لا يقصدنى بسوءٍ، ولا المملكةَ بما يُوهِنُها". فيُظهر الاستهانة بأمره والثقة من الطُّمَأْنينة إليه. ثم يوجِّه إليه فى خلال ذلك مَن يدعوه إليه، فيأبىٰ أن يُجيبه، ويقول: لا ينبغى لمن يخاف الله أن يخاف أحدًا سواه. فكان الطاعن علىٰ الملك والمملكة يُكْثِرُ الخَلْوَة بهذا الرجُل فى الزيارة له والأُنْس به. فإذا خَلَوْا، تذاكروا أمر الملك، وٱبتدأ الناسكُ يطعَنُ علىٰ المَلك وفى صُلْب المملكة. فأعانه الخائنُ وطابقهُ علىٰ ذلك وشايَعهُ عليه، فيقول له الناسك: "إياك أن تُظهر هذا الجبَّار(١) علىٰ كلامك! فإنه لا يَحتمِل لك
(٨٤) ما يَحتمِله لى. فحَصِّنْ منه دَمَكَ!" فيزداد الآخر إليه ٱستنامةً وبه ثقةً. فإذا علم الناسك أنه قد بلغ من الطعن علىٰ الملك مايستوجب به القتل فى الشريعة، قال له: إنى عاقدٌ غدًا مجلسا للناس أقُصُّ عليهم، فٱحْضُرْهُ! فإنك رجُلٌ رقيقُ القلبِ عند الذكر، حَسَنُ النية، ساكنُ الريح، بعيدُ الصوت. وإن الناس إذا رأوْك قد حَضَرْتَ مجلسى، زادتْ نيَّاتهم خيراً، وسارعوا إلىٰ ٱستجابتى. فيقول له الرجُل: إنى أخاف هذا الجبَّار، فلا تذكُرْه إنْ حضرتُ مجلسَك.

(١) صـ: الخائن.

وكانت العلامة فيما بينه وبين أبرويز أن ينصرف الرجُل عن مجلس الناسك، إذا ٱبتدأ فى قصّة الملك. وكان أبرويز قد وضع عُيونا تحضر مجلس الناسك، متى جلس. فبكّر الناسكُ وقَصَّ علىٰ العامّة وزَهّدَ فى الدنيا ورغَّبَ فى الآخرة. وحضَرَهُ الرجُل الخائن. فلما فرغ من قَصَصِه وأخذ فى ذكر الملك، نهضَ الرجُل وجاءت عيون أبرويز فأخبرته بما كان. فإذ زال عنه الشكُّ فى أمره، وجّهه إلىٰ بعض البُلدان وكتب إلىٰ عامله: "قد وجهتُ اليك رجُلا وهو قادمٌ عليك بعد كتابى هذا فى كذا وكذا. فأظهِرْ بِرَّهُ والأُنْسَ به والثقةَ بناحيته. فإذا ٱطمأنّتْ به الدار، فٱقْتُلْهُ قِتلةً تُحْيى بها بيتَ (٨٥) النار، وتصلُ بها حُرمة النُّوبَهار[1]. فإنه مَن فَسَدَتْ نيّتُه لغير علّةٍ فى الخاصّة والعامّة، لم يُصْلَح بعلّةٍ[2]."

***

تغافل الملك عن الصغائر

ومن أخلاق المَلك التغافل عمّا لا يقدَحُ فى المُلك ولا يُحرِجُ[3] المال ولا يَضَع من العِزّ، ويزيد فى الأُبّهة.

وعلىٰ ذلك كانت شِيَمُ ملوك آل ساسان.

---

(١) هو بيت من بيوت النار: Pyrée. بناه الفُرس بمدينة بلخ على مثال البيت الحرام بمكة. وعنه شرح واف فى ياقوت (فى حرف النون) وفى المسعودى (جزء ٤ ص ٤٧ — ٤٩ طبع باريس) وفى "مراصد الأطلاع" (فى حرف النون) وفى القزوينى (ص ٢٢١) وفى "كتاب البلدان" للهمدانى (ص ١٥٧ و ٣٢٢ — ٣٢٤) "وشفاء الغليل" (ص ٢٠٣). وآنظر Dictionnaire géographique de la Perse, par Barbier de Meynard, p.p. 122,569.

(٢) صـ: "لغير علة صلحت بخلافها". وقد أورد هذه الحكاية صاحب "تنبيه الملوك" (ص ٤١ — ٤٢)، ولخصها جدّا صاحب "محاسن الملوك" (ص ٤٥)؛ وأوردها بالحرف تقريبا فى "المحاسن والمساوى" (ص ١٥٥ — ١٥٧).

(٣) صـ: فى القلب ولا يخرج.

تغافل بهرام جور عن سرقة اللجام

وفيما يُحكىٰ عن بَهْرامَ جور أنه خرج يوما لطلب الصيْد فعار[(١)] به فرسه حتّى وقع إلىٰ راعٍ تحت شجرة، وهو حاقِنٌ[(٢)]. فقال للراعى: اِحفظ عَلَيَّ عِنان دابّتى، حتّى أبول. فأخذ بركابه حتّى نزل، وأمسك عنانَ الفَرَس. وكان لجامه مُلَبَّسًا ذَهَبًا، فوجد الراعى غَفلةً من بَهْرامَ فأخرج من خُفِّه سِكِّينًا[(٣)] فقطع بعض أطراف اللجام. فرفع بَهْرَامُ رأْسه فنظر إليه فٱستحيا، ورمىٰ بطرفه إلىٰ الأرض وأطال الاستبراء ليأْخذ الراعى حاجته من اللجام. وجعل الراعى يفرح بإبطائه عنه، حتّى إذا ظنّ أنه قد أخذ حاجته من اللجام، قام فقال: ياراعى! قدِّمْ إلىَّ فَرَسى، فإنه قد دخل فى عَيْنَىَّ مما فى هذه الريح، فما أقدِر على فتحهما. وغمض عينيه لئلّا يُوهِمَه[(٤)] أنه يتفقّد حلية اللجام. فقرّب الراعى فَرَسه فركبه. فلما ولّى، قال له الراعى: أيها العظيم! كيف آخذ إلىٰ موضع كذا وكذا؟ (لموضعٍ بعيدٍ). قال بَهْرَامُ: وماسؤالك عن هذا الموضع؟ قال: هنالك منزلى، وما وطِئْتُ هذه الناحيةَ قطُّ غيرَ يومى هذا، ولا أُرانى أعود إليه ثانيةً. فضحك بهرام، وفَطِن لما أراد. فقال: أنا رجُلٌ مسافرٌ، وأنا أحقُّ بأنْ لا أعودَ إلىٰ هاهُنا أبدا. ثم مضىٰ. فلما نزل عن فرسه قال لصاحب دوابِّه ومراكبه: إنّ معاليق اللجام قد وَهَبْتُها لسائلٍ مرَّ بى، فلا تَتَّهِمَنَّ بها أحدًا[(٥)].

(١) عارَ الفرس أى ذهب هاهنا وهاهنا، وذهب على وجهه كأنه منفلتٌ. وفى س: فعارته فرسه. [وفى هامشه: صح: عاره يعوره ويعيره أى أخذه وذهب به]. وأنت ترى أن رواية ص عارية عن الصواب، وأن حاشيته فى الهامش لامحلّ لها فى هذا المقام.

(٢) أى اجتمع البول فيه، فهو فى حاجة شديدة إلى تصريفه. ومنه الحديث: «لارأْى لحاقب ولا لحاقن» أى لمن تشتد به الحاجة للإخراج من أحد السبيلين ويكون مضطرا لحبسهما.

(٣) [انظر حاشية ١ صفحة ١٢٣ من هذا الكتاب]

(٤) س: عليه.

(٥) روى هذه الحكاية بحرفها فى "المحاسن والمساوى" (ص ٥٠٥ – ٥٠٦).

٨٦

تغافل أنو شروان عن سرقة الجام

وهكذا يُحكىٰ عن أنو شروانَ أنه قعد ذات يومٍ فى نيروزٍ أو مَهْرَجانٍ(١)، ووُضِعتْ الموائد، ودخل وجوه النـاس الإيوانَ علىٰ طبقاتهم ومراتبهم. وقام المُوَكَّلون بالموائد علىٰ رؤوس النـاس، وكسْرىٰ بحيثُ يراهم. فلما فرغ الناس من الطعام، جاؤوا بالشراب فى آنيةِ الفضة وجاماتِ الذهب. فشرب الأساورة وأهـل الطبقة العالية فى آنية الذهب. فلما ٱنصرف الناس ورُفِعَتِ الموائد، أخذ بعض القوم جامَ ذهبٍ فأخفاه فى قَبَائه(٢)، وأنو شروانُ يَلْحَظُهُ. فصرف وجهَه عنه. وٱفتقد صاحبُ الشرابِ الجامَ، فصاح: لايَخْرُجَنَّ أحدٌ من الدار حتّىٰ يُفَتَّشَ. فقال كسرىٰ: لاتتعرّضْ لأحدٍ! وأذِنَ للناس فٱنصرفوا. فقال صاحب الشراب: أيها المَلك! إنّاقد فقدنا بعض آنيـةِ الذهب. فقال الملك: صَـدَقْتَ! قد أخذها مَن لا يردُّها عليك، وقد رآه مَن لا يَنِمُّ عليـه. فٱنصرف الرجُل بٱلجام(٣).

[٨٧]

تغافل معاوية عن كيس الدنانير

وهكذا فعل معاويةَ بن أبى سُفْيان فى يومِ عيدٍ، وقد قعد للناس، ووُضِعت الموائد، وبِذر(٤) الدراهم والدنانير للجوائز والصِّلات. فجاء رجلٌ من الجماعة، والناسُ يأكلون، فقعد علىٰ كيس فيه دنانير. فصاح به الخَدَمُ: تَنَحَّ، فليس هذا بموضعٍ لك! فسمِع معاويةُ،

(١) هذه الكلمة بفتح الميم وبكسرها، والفتح أشهر، كما يدلُّ عليه المعجم الفارسى الإنكليزى لرِتشاردصُن. وضبطها ياقوت بالكسر (ج ٤ ص ٦٦٨) واخترنا الفتح لجريانه على ألسنة المصريين.

(٢) أُنظر الفصل الطويل المفيد المشحون بالأسانيد الذى أورده العلامة دوزى الهولندىّ على هـذه الكلمة فى معجم الثياب عنـد العرب (ص ٣٥٢ ـ ٣٦٤) وقد قال فى آخره إن الهولنديين أخذوا هذا اللفظ عن (قباى) فى اللسان الفارسى فنقلوه إلى لغتهم وقالوا (Kabaai) للدلالة على الثوب الذى يسميه الفرنسيون Robe de chambre.

(٣) رواها بٱختصار يسير جدًّا صاحب "المحاسن والمساوى" (ص ٥٠٦).

(٤) [راجع الحاشية رقم ١ ص ٣٧]. وفى صـ: وبذر.

فقال: دَعُوا الرَّجُلَ يقعدُ حيث ٱنتهىٰ به المجلس. فأخذ كيسا فوضعه بين بطنه وحُجْزة[١] سراويله، وقام. فلم يجسُر أحدٌ أن يدنُوَ منه. فقال الخادم: أصلحَ اللهُ أميرَ المؤْمنين! إنّه قد نقص من المال كِيسُ دنانيرَ. فقال: أناصاحبُه، وهومحسوبٌ لك.[٢]

(٨٨) وهذه أخلاق الملوك معروفةٌ فى سِيَرِهم وكتبهم.

وإنما يَتَفَقَّدُ مثلَ هذا مَن هو دون الملك. فأمّا المَلِك، فيجِلُّ عن كلِّ شئ ويصغُر عنده كلُّ شئ.

الردّ على قولهم: المغبون لا محمود ولا مأجور

والعامّة تضع هذا وما أشبهه فى غير موضعه. وإنما هو شئ ألقاه الشيطان فى قلوبهم وأجراه علىٰ ألسنتهم، حتّى قالوا فى نحوٍ من هذا فى البائع والمشترى: "المغبونُ لا محمودٌ ولا مأجورٌ". فحَمَلوا الجَهَلَة علىٰ المنازعة للباعة، والمشاتمة للسَّفَلَة والسُّوقة، والمقاذفة للرعاع والوُضَعاء[٣]، والنظر فى قيمة حَبَّةٍ، والاطّلاع فى لسان الميزان، وأخذ المعايير[٤] بالأيدى.

وبِالْحَرَى أن يكون المغبون محمودًا ومأجورًا. اللهمَّ إلّا أن يكون قال له: اغْبِنِّى. بل لو قالها، كانت أُكرومة[٥] وفضيلة، وفَعْلة جميلة تدلُّ علىٰ كرمِ عُنصرِ القائل وطِيبِ مُرَكَّبِه.

(١) موضع التِّكّة من السراويل.

(٢) رواها بٱختصار صاحب "المحاسن والمساوى" (ص ٥٠٦)

(٣) صـ: "والمفارقة للزعازع والوضعاء".

(٤) جمع معيار.

(٥) سـ: "مكرمة". [وهما بمعنى واحد].

ولذلك قالت العرب: "السَّرْوُ التغافُلُ!"(١)

وأنت لا تجد أَبدًا أحدًا يتغافل عن ماله إذا خرج، وعن(٢) مبايعته إذا غُبِنَ، وعن التقصِّي إذا بُخِس، إلَّا وجدْتَ له فى قلبك فضيلةً وجلالةً ماتقدر علىٰ دفعها.

(٨٩) وكذا أدّبنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) فقال: "يَرْحَمُ الله سَهْلَ الشراء، سَهْل البيع، سَهْل القضاء، سَهْل التقاضى!"(٣)

وهذا الأدب خارجٌ من قولهم: "المغبونُ لامحمودٌ ولا مأْجورٌ."

كلمة معاوية

وقال معاوية فى نحوٍ من هذا: "إنِّى لأُجُرُّ ذيلى علىٰ الخدائع."

كلمة الحسن

وقال الحسَن (عليه السلام): "المؤمن لايكون مكَّاسًا."

سليمان بن عبد الملك والأعرابى الذى أخذ رداءه

وفيما يُحكىٰ عن سليمان بن عبد الملك أنه خرج فى حياة أبيه لِمُتَنَزَّهه(٤)، فبُسِطَ له فى صَحْراء، فتغدّىٰ مع أصحابه. فلما حان آنصرافه، تشاغل غلمانه بالتَّرْحال، وجاءَ أعرابىٌّ فوجد منهم غَفْلَةً، فأخذ دُوَّاجَ(٥) سليمان فرمىٰ به علىٰ عاتقه، وسليمانُ ينظر

(١) فى س: "السر والتغافل". [وآنظر الحاشية ٥ من صفحة ٥٧ من هذا الكتاب]. ومن المأثور عن السفاح قوله: "التغافل من سجايا الكرام". (شذرات الذهب ج ١ ص ٢١٥).

ولشاعرهم:

ليس الغبىُّ بسيِّدٍ فى قومه * لكنّ سيِّدَ قومه المتغابى.

(٢) فى الأصل: ولا عن.

(٣) ص: "رحم الله من سَهَّل الشراء وسهّل البيع". والذى رأيتُه فى صحيح البخارىّ: "رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا آشترى وإذا آقتضى". (ج ٣ ص ٥٧، طبع بولاق سنة ١٣١١)

(٤) ص: لمتزهه.

(٥) الدُّوّاج هو اللحاف الذى يُلبَس. ولعله شبيه بالملحفة المسماة الآن بالمُضَرَّبيَّة. وآنظر ما كتبه عليه دوزى فى قاموس الثياب (ص ١٨٦) وليس فيه تفصيلٌ يشرح المعنى. قال فى مطالع البدور: وُجِد لأمّ المعتزّ ثلاثة دواويج كانت تستعملهن، فقُوِّم الدُّوّاج بأكثر من ألف دينار (ج ١ ص ٦٠).

إليه. فبصر به بعض حشمه، فصاح به: أَلْقِ ما عليك! فقال الأعرابىّ: "لا لعَمْرى! لا أُلقيه ولا كرامةَ! هـذا كُسْوَة الأمير وخِلْعته". فضحك سليمان وقال: صدق أنا كَسَوْتُه. فمرّ كأنّه إعصارُ الريح.

جعفر بن سليمان وسارق الدرّة
٩٠

وأحسنُ من هـذا ما فعله جعفر بن سليمان بن علىّ بالأمس، وقد عُثِرَ برجل سرق دُرّةً رائعة، أخذها من بين يديه. فطُلبتْ بعد أيامٍ فلم توجد. فباعها الرجل ببغداد، وقد كانت وُصِفتْ لأصحاب الجوهر. فأُخِذ وحُمِل إلىٰ جعفر فلما بَصُرَ به، آستحيا منه وقال: ألم تكن طلبتَ هذه الدرّة منى، فوهبتُها لك؟ قال: بلىٰ. قال: لا تعرَّضوا له! فباعها بمائتَىْ(1) ألف درهم.

✲

إكرام أهل الوفاء وشكرهم

ومن أخلاق المَلِك إكرامُ أهل الوفاء وبِرُّهم والآستنامة إليهم والثقة بهم والتقدمة لهم علىٰ الخاصّ والعامّ والحاضر والبادى.

وذلك أنه لا يوجد فى الإنسان فضيلة أكبر ولا أعظم قدرًا ولا أنبلُ فعلا من الوفاء. وليس الوفاءُ شكرَ اللسان فقط، لأن شكر اللسان ليس علىٰ أحدٍ منه مؤونة.

وآسمُ الوفاء مشتملٌ علىٰ خِلالٍ:

فمنها — أنْ يذْكُرَ الرجُلُ مَن أنْعمَ عليه، بحضرة المَلِك فَمَنْ دونه. فإنْ(2) كان المَلِك

(١) رواها فى "المحاسن والمساوى" (ص ٦٠٥).

(٢) س: "إن" ص: "وإن". [ووضعتُ حرف الفاء لمنع التشويش فى الجملة، والآضطراب فى السياق.]

فيه سيّئَ الرأْى، فليس من الوفاء أن يُعينه على سوء رأْيه. فإنْ خاف سَوْط المَلك وسيفه، فأحسنُ صفاته أن يُمسِكَ عن ذكره بخيرٍ أوشرٍّ.

ومنها ــ المؤاساة للصاحب فى المال حتّى يقاسمه الدرهم بالدرهم والنعل بالنعل والثوب بالثوب.

ومنها ــ الحفظ له فى خَلَفه وعياله، ما كان فى الدنيا، حتّى يجعلهم إسوةَ عياله فى الجَدْب والخِصْب. (٩١)

ومنها ــ الشكر له باللسان والجوارح.

وكانت ملوك الأعاجم كلُّها، أوّلُها وآخرُها، لا تمنع أحدًا من خاصّتها وعامّتها شُكْرَ مَن أنعم عليها أو على أحدٍ منها وتقريظَه وذكرَ نعمه وإحسانه، وإن كانت الشريعة قد قتلته والمَلك قد سَخِط عليه. بل كانوا يعرفون فضيلةَ مَن ظَهرَ ذلك منه ويأْمرون بصلته وتعهُّده.

قباذ ومادح الجانى على الملكة

ويقال إن قُباذَ[1] أمر بقتل رجُلٍ كان من الطاعنين على المملكة. فقُتِل. فوقف على رأْسه رجُلٌ كان من جيرانه فقال: "رَحِمَكَ الله! إنْ كنتَ ــ ماعلمتُ ــ لَتُكْرِمُ الجارَ وتصبر على أذاه، وتُواسى أهل الحاجة، وتقوم بالنائبة! والعَجَبُ كيف وجد الشيطان فيك مَساغا حتّى حَمَلك على عصيان مَلكك، فخرجتَ من طاعته المفروضة إلى معصيته! وقديمًا ماتمكّن ممن هو أشدُّ منك قوةً وأثبت عَزْمًا." فأخذ الرجُلَ

(١) [أُنظر حاشية (٢) صفحة (٧٨) من هذا الكتاب].

صاحبُ الشُّرْطة لحبسه . وٱنتهى كلامه إلىٰ قُباذَ ، فوقَّع قُباذُ : يُحْسَــنُ إلىٰ هذا الذى
(٩٢) شكر إحسانًا فُعِلَ به ، وتُرفَعُ مرتبتُه ، و يُزاد فى عطائه .(١)

* وهكذا فعل ســعيد بن عمرو بن جَعْدة بن هُبَيرة(٢) [المخزومىّ] ، حين حُمِل رأْس مَرْوان [الجعدىّ](٣) إلى أبى العبّاس [السـفاح] بالكوفة ، فعقد له مجلسا وجاءُوا بالرأْس . فقام سعيد بن عمرو بن جَعْدة فأكبَّ عليه قياما طويلا ، ثم قال : هذا رأْس

---

(١) رواها فى "المحاسن والمساوى" (ص ١١٤) .

(٢) كان من رجالات مروان الجعدىّ ، وٱشترك معه فى وقعة الزاب . (الطبرىّ سلسلة ٣ ص ٤٠ و ٢٢٤ ؛ والأغانى ج ١١ ص ٧٥ ؛ وابن الأثير فى حوادث سنة ١٤٥) .

(٣) هو آخر خلفاء بنى أُميّة بالمشرق . وُلد سنة ٧٢ وقيل سـنة ٧٦ . تولّى لهشام ومَن بعده من الخلفاء الجزيرة وأرمينية وأذربيجان لغاية سنة ١٢٦ . وفى هذه السنة الأخيرة أظهر الخلاف على يزيد بن الوليد . ثم سار فى سنة ١٢٧ إلى الشام وحارب سليمان بن هشام ودعا الناس إلى مبايعته . وتمّت له البَيْعةُ بدمشق فى تلك السنة . وهو الذى سمّى يزيد ٱبن الوليد بالناقص . وكانت وفاته بأرض مصر فى سنة ١٣٢ هجرية . [وٱنظر صفحة ١٧٥ من هذا الكتاب] .

وهو المعروف فى كتب التواريخ بمروان الفَـرَس ، ومروان الحـمار ، ومروان الجعدىّ . سماه العباسيون الذين خرجوا عليه وقلبوا دولته بالحمار فى نظير تسميته بالفَرَس . وقيل إنه لُقِّبَ بالحمار لأنه كان لا يجف له لبد فى محاربة الخارجين عليه . (كان يصل السير بالسير و يصبر على مكاره الحروب . و يقال فى المثل . "فلان أصبر من حمار فى الحروب" فلذلك لقب به) . وقيل إن العرب تُسَمِّى كُلَّ مائة سنة حمارا . (فلما قارب مُلك بنى أُميَّة مائة سنة لقبوا مروان بالحمار لذلك) . و ربما كان ذلك لفراره على حمار (يدلُّ على ذلك قول رُؤْبة ٱبن العجاج فى مدح السفّاح :

مازال يأتى الأمر من أقطاره * عن اليمين وعلىٰ يساره ،
مُشَمِّرًا لايُصْـطَلىٰ بناره * حتّى أقرَّ المُلك فى قَـراره
وفرَّ مَرْوانُ علىٰ حمـاره .) =

أبى عبد الملك (١)، خليفتنا بالامس، رحمه الله! فوثب أبو العبّاس فطعن فى حَجْره (٢). وآنصرف آبن جعدة إلى منزله، وتحدّث الناس بكلامه. فلامه بنوه وأهله، وقالوا :

= وأما تسميته بالجعدىّ فنسبة إلى أخذه (حين كان واليا على الجزيرة) بتعاليم مؤدّبه الجعد بن درهم مولى سُوَيد بن غَفَلة. وقع هذا الرجل إلى الجزيرة فأخذ برأيه جماعةٌ من أهلها. فلما حارب الخراسانيون مَرْوان نسبوا إلى الجعد ما رأوه من سعة علمه. وكان الناس يذمّون مروان بنسبته إلى الجعد. وكان الجعد من شيوخ المعتزلة وأظهر مقالته بخلق القرآن والقدر والاستطاعة وغير ذلك أيام هشام. ومن أقواله: "إذا كان الجماع يتولّد منه الولد، فأنا صانع ولدى ومدبّره وفاعله، لا فاعلَ له غيرى، وإنما يقال إن الله خلقه مجازاً لا حقيقةً". ومن قوله: "إن كان النظر الذى يوجب المعرفة، تكون تلك المعرفة فعلا لا فاعل لها". وقيل إنه كان زنديقا. وعظه ميمون بن مهران، فقال: "لَشَاةُ قُبَاذ أحبُّ إلىَّ مما تَدِينُ به! فقال له مهران: قتلكَ اللهُ، وهو قاتِلك!" وشهد عليه مهران. فطلبه الخليفة هشام حتى ظفر به. فأرسله إلى خالد القسرىّ، وهو أمير العراق، وأمره بقتله. فحبسه خالد ولم يقتله. فبلغ الخبر هشاما فكتب إلى خالد يلومه و يعزم عليه أن يقتله. فأخرجه خالد من الحبس فى وَثاقه. فلما صلى العيد يوم الاضحى قال فى آخر خطبته: "انصرفوا وضحّوا يَقْبَل الله منكم، فإنى أريد أن أُضَحِّىَ اليومَ بالجعد بن درهم فإنه يقول: ما كلّم الله موسى ولا آتّخذ إبراهيم خليلاً! تعالى الله عما يقول الجعد علوّا كبيرا!" ثم نزل وذبحه.

أنظر الطبرىّ سلسلة ٢ (ص ٩٤٠ و ١٥٦٢ و ١٨٢٥ و ١٨٧٠ و ١٨٧٦)؛ وآنظر الأغانى (ج ١٨ ص ١٢٣ وج ٢١ ص ٨٧)؛ وآنظر "المحاسن والمساوى" (ص ٢٣٩)؛ والفِصَل فى الملل والأهواء والنحل (ج ٤ ص ٢٠٢)؛ وأنساب السمعانى (ص ١٣١)؛ وآبن الأثير (ج ٥ ص ١٩٦ و ١٩٧ و ٣٢٩)؛ وسبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب (ص ٨١)؛ والفَرْق بين الفِرَق لعبد القاهر البغدادىّ، طبع القاهرة سنة ١٩١٠ (ص ١٤ و ٢٦٢).

(١) هو كنية مروان الجعدىّ، باسم آبنه.

(٢) أى فى حضنه.

عرَّضْتنا ونفسَك للبوار ! فقال: ٱسكتوا، قبَّحكم الله ! ألستم الذين أشاروا عليّ بالأمس بحرّان بالتخلُّف عن مَرْوان، ففعلتُ فى ذلك غيرَ فعل أهل الوفاء والشكر؟ وما كان ليغسِل عنى عار تلك الفَعلة إلّا هذه . فإنما أنا شيخٌ هـامَةٌ[1]، فإنْ نجوتُ يومى هذا من القتل، مُتُّ غدًا . قال: فجعل بنوه يتوقَّعون رُسُل أبى العبّاس أنْ تطرُقه فى جوف الليل. فأصبحوا ولم يأْتِه أحدٌ. وغدا الشيخُ فإذا هو بسليم بن مُجالد. فلما بصُر به، قال: يا ٱبن جعدة ! أَلَا أُبشِّرك بجميل رأْى أمير المؤْمنين؟ إنه ذكر فى هذه الليلة ما كان منك، فقال: "والله ! ما أخرج ذلك الكلامَ من الشيخ إلا الوفاءُ. ولَهُوَ[2] أقربُ منا قرابةً، وأَمسُّ بنا رَحِماً منه بمرْوان، إنْ أحسنَّا إليه !" قال: أجَلْ، والله ! *

(١) تقول العرب : فلان هامَةٌ، أى يصير فى قبره . ومنه قول كُثيِّر :

فإنْ تَسْلُ عنكِ النفسُ أو تَدَعِ الهوى، * فباليأْس تَسْلُو عنكِ، لا بالتجلُّدِ .
وكُلُّ خليلٍ راءَنى فهْوَ قائلٌ : * مِنَ ٱجْلِكِ هذا هامَةُ اليوم أو غدِ .

يقال : فلان هامة اليوم أو غد، أى يموت فى يومه أو غده . و يقال ذلك للشيخ إذا أسَنَّ، والمريض إذا طالت عِلَّته، والمحتقر لمدة الآجال . وفى الحديث أن أبا حذيفة بن اليمان قال لثابت بن وقش الأنصارى وقد تخلف معه فى غزوة أُحُدٍ : " إنهضْ بنا ننصُرْ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنما نحن هامة اليوم أو غدٍ " . (وكانا قد أسَنَّا) . ومرجع ذلك لاعتقاد العرب فى مسألة الهامة . (راجع "الكامل" للبرد ص ٢١١ و ٣٨٧ ؛ وآنظر "الأغانى" ج ١٣ ص ١٦٥)

(٢) هـذه الفقرة المحصورة بين نجمتين ** منقولة عن صنـ . وقد رواها فى " المحاسن والمساوى" (ص ١١٩ و ١٢٠)

كتاب قيس بن سعد ابن عبادة إلى معاوية

وهكذا فَعَلَ قَيْس بن سعد بن عُبادة [الأنصاريّ] بِمُعاوية بن أبى سُفيان، حين دعاه إلىٰ مُفارقة علىّ بن أبى طالب والدخولِ فى طاعته. فكتب إليه قيس بن سعد: " يا وثن ٱبن وثن! تكتُبُ إلىَّ تدعونى إلىٰ مُفارقة علىّ بن أبى طالب والدخول فى طاعتك وتخوِّفنى بتفرُّق أصحابه عنه وإقبال الناس عليك وإجفالهم إليك! فوالله الذى لا إله غيره! لو لم يبقَ له غيرى ولم يبقَ لى غيره، ماسالمتُك[(١)] أبدا، وأنت حَرْبه، ولا دخلتُ فى طاعتك وأنت عدوُّه، ولا ٱخترتُ عدوّ الله علىٰ وليِّه، ولا حزبَ الشيطان علىٰ حزبِ الله. والسلام! "

الإسكندر والمتقربون إليه بقتل ملكهم

وفى سيرة الإسكندر ذى القرنين أنه لما قصد نحو فارِس، تلقّاه جماعة من أساورتِهم برأس ملكهم، يتقرّبون إليه به. فأمر بقتلهم لسُوء رعْيِهم وقلّة شكرهم لملكهم ومَن أنعم عليهم. وقال: مَن غدر بملكه كان بغيره أغْدَر.

شيرويه ومادحه على قتل أبرويز

٩٣

وفيما يُحكىٰ عن شيرويه أن رجلا من الرعيّة وقف له يوما، وقد رَجَعَ من الميدان، فقال: "الحمد لله الذى قتل أبرويز[(٢)] علىٰ يديك، وملَّكك ما كنتَ أحقَّ به منه وأراح آل ساسان من جبريّته[(٣)] وعُتُوّه وبُخله ونَكَدِه. فإنّه كان ممن يأخذ بالحُجّة[(٤)]،

(١) أنظر فى المسعودىّ مكاتبات أُخرى جرت بينهما (ج ٥ ص ٤٥).

(٢) [أُنظر حاشية ١ صفحة ٩ من هذا الكتاب.]

(٣) صـ : «جبرؤته». والجَبَرِيّة القهر والغلبة. وفيها لغات كثيرة ذكرها فى القاموس وفى كامل المبرد. وفى خطبة عُتْبَة بن غَزْوان: "وإنه لم تكن نُبوّةٌ إلا تناسختها جَبَرِيّة". أى مُلك غالب وعضوض. [أنظر "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٧٢]

(٤) صـ : بالإحنة.

ويقتل بالظنّ، ويُخيف البرىءَ، ويَعمَل بالهوى". فقال شيرويه للحاجب: اِحْمِلْهُ إلىّ. فحُمِل. فقال له: —

— كم كانت أرزاقك فى حياة أبرويز؟

— كنتُ فى كفاية من العيش.

— فكم زِيدَ فى أرزاقك اليومَ؟

— ما زِيدَ فى رزقى شىءٌ.

— فهل وتَرَكَ[1] أبرويز، فانتصرتَ منه بما سمِعتُ من كلامك؟

— لا.

قال — فما دعاك إلى الوقوع فيه، ولم يقطع عنك مادّة رزقك ولا وَتَرَك فى نفسك؟ وما للعامّة والوقوعَ فى الملوك، وهم رعيّة؟

فأمر أن يُنزَع لسانُه من قفاه، وقال: "بحقٍّ ما يقال إن الخَرَس خَيرٌ من البيان فيما لا يَجِبُ."[2]

المنصور والضارب رأس الخارج عليه بعد قتله

وحدّثنى صَباح بن خاقان[3]، قال: حدّثنى أبى أنّ أباجعفر [المنصور] لما أُتِىَ برأس

(١) وَتَرَه حَقَّه أى نقصه. (صحاح) [حاشية فى ص م]

(٢) روى هذه الحكاية بالحرف فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤١١).

(٣) هو صَباح بن خاقان المِنْقَرِىّ، كان نديما لمصعب الزبيرى، وكان من مشايخ المروءة والعلم والأدب. وكان متعصبا للفرزدق وجرير يفضلهما على الأخطل (أغانى ج ٧ ص ١٧٤ وج ١٥ ص ١٥٩ و ١٦٠). وكان هو ومصعب جليسين لا يكادان يفترقان وصديقين متواصلين لا يكادان يتصارمان (كامل المبرد ص ٤٦٠). وقد امتدحه إسحاق النديم (المشتبه فى أسماء الرجال للذهبى ص ٣١٠).

إبراهيم بن عبدالله فوُضع بين يديْه ،(١) جاء بعض أولئك الرُّوَيْديَّة(٢) فضرب الرأْس بعمودٍ كان فى يده . فقال المنصور للمُسَيَّب(٣) : دُقَّ(٤) وجهه ! فدقّ المُسَيَّب أنفَهُ . ثم قال [المنصور] له : يا ٱبن اللخناء ! تجيء إلىٰ رأس ٱبن عَمِّى (وقد صار إلىٰ حالٍ لا يدفع ولا ينفع) تضرِبه بعمودك ، كأنك رأيتَه وهو يُرِيدُ نفسى فدفعتَه عَنِّى . أُخْرُجْ إلىٰ لعنة الله وأليم عذابه ! (٩٤)

المنصور ومادح هشام الأموى

ويقال إن أبا جعفر وجَّه إلىٰ شيخ من أهل الشأم ، كان من بِطانة هشام ، فسأله عن تدبير هشام فى بعض حروبِهِ الخوارجَ . فوصف له الشـيخ مادبَّر ، فقال : "فعل (رحمَه الله) كذا وصنع (رحمه الله) كذا ." فقال المنصور : قُمْ ، عليك لعنة الله ! تَطَأُ بِساطى ، وتترحَّمُ علىٰ عدوّى ؟ فقام الرجُل ، فقال وهو مُوَلٍّ : إنَّ نعمةَ عدوّك لَقِلَادَةٌ فى عُنُقٍ لا ينزعُها إلَّا غاسِلى . فقال له المنصور : اِرجِعْ ياشيخُ ! فرجَعَ . فقال له : أشهَدُ

(١) هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب .

(٢) هكذا فى سـ ، صـ . ولا يمكن أن تكون الكلمة محرّفة عن الراوندية لأنهم قاموا على المنصور فى سنة ١٤٠ ، وإبراهيم بن عبد الله كان قتله فى سنة ١٤٥ . ولم أتمكن بعد شدّة البحث وكثرة التنقيب فى كتب التواريخ واللغة من الوقوف على معناها أو تقويمها . ولعلها تكون "الدورية" بمعنى أصحاب الدور من العساكر وأرباب الحرس ، أو الزردية بمعنى لابسى الزرد . ولكننى لست على ثقة من ذلك . والذى فى ٱبن الأثير : رجل من الحرس (ج ٥ ص ٤٣٧) . وروى الطبرىّ هذه الحكاية على وجه آخر ووصف الرجل بأنه من السيّافة (سلسلة ٣ ص ٤١٦) .

(٣) هو المُسَيَّب بن زهير الضبّىّ وهو من ولد ضرار بن عمرو (وبنو ضرار من سادة ضبة) . كان على شرطة أبى جعفر ، وولاه المهدىّ خراسان . وولِىَ شرطة موسى الهادى . وكانت هذه الوظيفة فى أبنائه لهارون والأمين والمأمون . (معارف ٱبن قتيبة ص ٢٠٠)

(٤) صـ : سَوِّ .

أنك نهيضُ حُرَّةٍ وغِراسُ شريفٍ! عُدْ إلىٰ حديثك! فعاد الشيخ إلىٰ حديثه حتّى إذا فَرَغ، دعا له بمالٍ ليأخذه فقال: "والله ياأمير المؤمنين، مابى من حاجةٍ إليه! ولقد مات عنّى مَن كنتُ فى ذكره آنفا، فما أحْوَجَنى إلىٰ وقوفٍ علىٰ باب أحدٍ بعدَه. ولولا جلالةُ عزِّ أمير المؤمنين وإيثارُ طاعته مالَبِسْتُ لأحدٍ بعده نعمةً." فقال المنصور: "مُتْ إذا شئْتَ، فلله أنت! فلو لم يكن لقومك غيرك، لكنتَ قد أبقيتَ (٩٥) لهم مجْدًا مُخَلَّدًا". ويقال إن الرجُل كان من شَيْبانَ(١).

⁂

الأدب عندما يتكلم الملك

ومن حقّ الملك — إذا حضره سُمَّارُه أو مُحَدِّثوه — أنْ لايُحَرِّكَ أحدٌ منهم شَفَتَيْه مبتدئًا، ولا يقطَعَ حديثَه بالاعتراض فيه، وإن كان نادرًا شهيًّا، وأنْ يكون غرضُهم حُسْنَ الاستماع، وإشغالَ الجوارح بحديثه. فإذا فرغ من الحديث فنظر إلىٰ بعضهم، فقد أذِنَ له أنْ يُحدِّثَه بنظير ذلك الجنس من الحديث. وليس له أن يأخذ فى غير جنس حديثه.

الأدب فى تحديث الملك

وليس لمن حدّث المَلِكَ أن يُفسِدَ ألفاظَه وكلامَه، بأنْ يقولَ فى حديثه: "فاسْمعْ منى" أو "اِفهمْ عنى" أو "ياهذا" أو "ألا ترى". فإنّ هذا وماأشبهَه عِيٌّ من قائله وحَشْوٌ فى كلامه وخروجٌ من بَسْطِ اللسان(٢) ودليلٌ على الفَدَامة(٣) والغثاثة(٤). وليكنْ كلامُه

(١) نقل المسعودىّ هذه الحكاية بتصرف يسير (ج ٦ ص ٦٧ و ١٦٨). ونقلها بالحرف الواحد فى "المحاسن والمساوى" (ص ١٢٠). وكان المنصور فى أكثر أموره وتدبيره وسياسته متّبعا لهشام فى أفعاله، لكثرة مايستحسنه من أخبار هشام وسيرته. (شذرات الذهب ج ١ ص ١٨١)

(٢) س: وخروج من بسط الزمان، ص: وخروج يربط اللسان.

(٣) الفَدَامة العِىُّ عن الحجة، والكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم.

(٤) هى سوء الخلق. ويعبِّر عنها العامّةُ فى أيامنا هذه بقولهم: الغتاتة. ومنها فلان غتوت.

كلامًا سهلًا، وألفاظُه عذْبةً مُتَّصِلةً، وسَقَطُ كلامِه قليلًا. فإذا فرغ من الحديث، فليس له أنْ يَصِلَهُ بحديثٍ آخَرَ، وإنْ كان شبيهًا بالحديث الأوّل، حتّى يرىٰ أنّ المَلِك قد أقبَلَ عليه بوجهه وأصغىٰ إلىٰ حديثه. [فإن أعرض] لشغل يعرض له، (٩٦) [فليس له] أن يمرّ فى حديثه وأن يَصِلَ كلامه، فيحتاج الملك إلىٰ الإصغاء إليه ويحتاج إلىٰ التشاغل بما عرض له، فيجمَعَ عليه أمرين. فإنّ هذا سُخْفٌ من فاعله وخروجٌ من الأدب. ولكن لِيُنْصِتْ مُطْرِقًا: فإنِ اتّصل شُغل المَلِك، تَرَكَ الحديث، وإن انقطع فنظر إليه، فقد أَذِنَ له فى إتمامه وإعادته.

***

عدم الضحك من حديث الملك

ومن حقّ المَلِك أن لا يُضْحَكَ من حديثه إذا حَدَّثَ، لأن الضَّحِك بحضرة الملك جُرْأةٌ عليه، ولا يُظْهِرَ التعجُّب بفائدة حديثه. وإنما هذا إلىٰ المَلِك. فإنْ ضَحِكَ المَلِك من الحديث وأظهر السرور به، فذاك غرضُ حديثِه، وإليه قَصَدَ. وإن سكتَ، فلم يكن فى الحديث ما يُلهيه ويُطربُهُ أو يستفيدُ منه فائدةً، كان قد سَلِمَ من العيب، إذ لم يضحك ولم يعجب.

***

عدم إعادة الحديث مرتين على الملك

ومن حقّ المَلِك أنْ لا يُعاد عليه الحديث مرّتين، وإن طال بينهما الدهر وغَبَرَتْ بينهما الأيام، إلا أن يَذْكُرَه المَلِك. فإن ذَكَرَهُ، فهو إذْنٌ منه فى إعادته.

(٩٧) كلمة روح بن زنباع فى المعنى

وكان رَوْحُ بنُ زِنْباعٍ[1] يقول: أقمتُ مع عبد الملك سبعَ عشرة سنةً من أيامه، ما أعَدْتُ عليه حديثًا.

(١) أنظر الحاشية ١ صفحة ٦٠ و١١٧ و١٣٠ من هذا الكتاب.

كلمة الشعبي في المعنى

وكان الشَّعبيُّ[1] يقول: ما حدّثتُ بحديثٍ مرّتين لرجلٍ بعينه قطُّ.

كلمة السفاح

وكان أبو العباس[2] يقول: ما رأيتُ أحدا أغزر علمًا من أبي بكر الهُذَليّ، لم يُعِدْ عليّ حديثا قطُّ.

كلمة آبن عياش في المعنى

وكان آبن عيّاش[3] يقول: حدّثتُ المنصور أكثر من عشرة آلاف حديثٍ. فقال لي ليلةً، وقد حدّثتُه عن يومِ ذي قارٍ[4]: قد آضطُرِرْتَ إلى التَّكرار، يا آبن عياش! قلتُ: ما هـذا منها، يا أمير المؤمنين. قال: أَمَا تذكر ليلة الرعد والأمطار، وأنت تحدّث عن يوم ذي قار، فقلتُ لك: ما يومُ ذي قارٍ[5] بأصعبَ من هذه الليلة؟

(١) هو فقيه العراق وأشهر من أن يذكر.

(٢) يعني السفاح رأس الدولة العباسية.

(٣) أنظر حاشية ٣ صفحة ٥٩ من هذا الكتاب.

(٤) ذو قار هو آسم ماء لبني بكر بن وائل، بالقرب من الكوفة. حدثت فيه معركة هائلة بين العرب والعجم قبل البعثة النبوية، وقيل بين غزوتي بدر وأُحد. إنتصر فيها العرب على العجم آنتصارا باهرا تغنّى به شعراؤهم وتحدّث به أخباريّوهم. ويُسمّى هـذا اليوم أيضا بيوم الحِنْو، ويوم حِنْو ذي قار، ويوم حنو القراقر، ويوم بطحاء ذي قار، ويوم قراقر، ويوم الجبابات، ويوم ذات العجروم. وكلهن مواضع حول ذي قار. ولكنه الأشهر والأكثر في الآستعمال.

(٥) القار (بتخفيف الراء) هو في لغة العرب هذا الأسود (الزفت) الذي تُطْلَى به السُّفُن، وهو شجر مرٌّ أيضا (عن تاج العروس). وفي لغة الفرس يدل على البياض وعلى السواد (لأنه عندهم من أسماء الأضداد)؛ وقد أطلقوه من باب التوسع على الثلج وعلى الزفت بسبب لونيهما. وليس يستفاد من الحكاية التي أوردها الجاحظ (مع ملاحظة المنصور على جليسه) أن المعركة وقعت في أيام الشتاء، ولا أنه ربما كان لتسميتها بيوم ذي قار علاقة بنزول الثلج وأن الموضع ربما سُمي بهذا الآسم لهذه المناسبة. والحقيقة أن اللفظ عربيّ صميم لأنه آسم ماء ==

مواطن إعادة الحديث على الملوك

وكان الشَّرْقِيُّ بنُ القُطَامِيِّ (١) يُعيد الحديث مرارًا . وذلك أنَّ أكثر أحاديثه مضاحيكُ ، وكانت تُعجب المهديّ فيستعيده .

= لبنى بكر بن وائل كما ذكرنا فى الحاشية السابقة ، ولأن من نظر إلى الخريطة الجغرافية يتبين له أن عرض هذا المكان مما لا يقع فيه الثلج . وفوق ذلك فالمعلومات التاريخيــة تدل على أن هذه الحرب وقعت فى أيام القيظ . يدل على ذلك قول التغلبيّ الذى يريد هلاك بكر بن وائل ، حينما آستشاره كسرى أبرويز فى أمرهم : "أمهلهم حتى يقيظوا ويتساقطوا على ذى قار، تساقُطَ الفَرَاش فى النار. فتأخذهم كيف شئتَ" (ابن الأثير ج ١ ص ٣٥٧) . ويؤيد ذلك ويوضحه مارواه صاحب العقد الفريد (ج ٣ ص ١١٣) فقــد أورد حديث التغلبيّ مع كسرى هكذا :

" ــ ياخير الملوك ! ألَا أدُلُّك على غِرَّة بكر ؟

ــ بَلَى !

ــ أقِرَّها ، وأظهر الإضراب عنها حتى يُجلِّيها القيظُ ويُدنِيَها منك . فإنهم لو قاظوا ، تساقطوا عليك بمـا لهم فى واد يقــال له ذو قار، تَساقُطَ الفَرَاش فى النار. "

وإنمـا الذى أشار إليه المنصور هو آشــتداد الأمر وحرج الحال وآصطلام الحرب ، كما كانت ليلته شديدة برعدها ومطرها .

(أُنظر التفصيل عن تلك الواقعة وسببها فى معجم البلدان ج ٤ ص ١٠ ــ ١٢ ؛ "والأغانى" ج ٢٠ ص ١٣١ ــ ١٤٠ ؛ "والعقد الفريد" ج ٣ ص ١١٣ ــ ١١٦ ؛ "وآبن الأثير" ج ١ ص ٣٥٢ ــ ٣٥٨ ؛ وآنظر "صبح الأعشى" ج ١ ص ٢٣٦ ؛ "وتاج العروس" فى ق ور .)

(١) سماه فى القاموس شرقى بن القطامىّ . وفى شرحه عن بعض أهل اللغة أنه بفتح الراء . والقطامىّ بفتح القاف فى لغة قيس وعند سائر العرب بالضم .

وهو الوليد بن الحُصَيْن الكلبى . والشرقيُّ لقبه ، كما أن القَطَامىّ لقب أبيــه . كوفيٌّ وافر العــلم والأدب ، وآشتهر بمعرفة الأنساب ورواية الأخبـار والدواوين . ولكنه فى الحــديث معدود من الضعفاء ، كان =

وكان ٱبن دَأْبٍ[(1)] إذا حدّث موسى أمير المؤمنين بالحديث، أعاده عليه فى القابلة حتّى يحفظه.

(٩٨) ويقال إنه لم يُسامِر الخلفاءَ أحدٌ كان أنبل من عيسى بن دَأْبٍ، ولا أتمّ صنعةً ولا أحسنَ ألفاظا ولا أفكَهَ مجلسا ولا أعظَمَ أُبَّهَةً وقدْرًا منه. وكان عيسى بن دأْب يتّكِئُ فى مجلس أمير المؤمنين.

= صاحب سَمَر. أقدمه أبو جعفر المنصور ليعلّم ولده المهدىّ. وقد سأله: "عَلَامَ يؤتى المرء؟ فقال: أصلح الله الخليفة! على معروف قدسلف، أو مثله يؤتنف، أو قديم شرف، أو علم مُطَّرَف." ضمّه المنصور إلى المهدىّ حين خلّفه بالرىّ، وله معه هناك حديث ظريف عن الغربيْن (ساقه فى "مروج الذهب" ج ٦ ص ٢٥١ — ٢٥٦، وأورده ياقوت برواية أخرى فى "معجم البلدان" ج ٣ ص ٧٩١ — ٧٩٢). وله كتب فى التاريخ والأنساب. روى عنها المسعودىّ و ياقوت والبلاذرىّ. وله قصيدة فى الغريب. سأله رجل ذات يوم عمّا كانت تقرؤه العرب فى صلاتها على موتاها. فقال: لا أدرى. فقال له الرجل: كانوا يقرؤن:

ما كنتَ وكوا كا ولا بزَوَنَّك * رُوَيدك حتى يبعث الخلق باعثُهْ

فحدّث بذلك فى المقصورة يوم الجمعة. (انظر "كتاب الفهرست" ص ٩٠ و ١٧٠ و ٣٠٦؛ و "نزهة الألباء" ص ٤٢ — ٤٣ وٱبن قتيبة فى "المعارف" ص ٢٦٨. وقد صحّحتُ البيت عن "لسان العرب" فى مادتى زنك، ولك).

(١) هو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب، ويكنى أبا الوليد. (ودأب مأخوذ من قولهم: مازال هـذا دأبه وديدنه وعادته ودينه أى فعله الذى لا يفارقه). كان هو وأبوه وأخوه من العلماء بأخبار العرب وأشعارهم. وكان عيسى شاعرا فوق ذلك. وكان يضع بالمدينة الشعر وأحاديث السَّمَر وكلامًا يُنْسب إلى العرب. وكان أكثر أهل الحجاز بل ومعاصريه أدبا وعلما وعذوبة لفظ ومعرفة بأخبار الناس وأيامهم؛ وكان لذيذ المفاكهة، طيّب المسامرة، كثير النادرة، جيّد الشعر، حَسَن الانتزاع له. وهو من نقلة الأخبار ونُقّاد الأشعار. حظِىَ عند الهادى حظوة لم تكن لأحد قبله. وبلغ من تيهه على الخليفة أنه كان ينادمه ولا يتغدّى معه. فقيل له فى ذلك، فقال: أنا لا أتغدّى فى مكان لا أغسل يدىّ فيه. فقال له الهادى: فتغدّ! فكان الناس إذا تغدّوْا تنحَّوْا لغسل أيديهم، وٱبنُ دأْب يغسل يديه بحضرة الخليفة. وبلغ من تيهه ودالّته عليه أيضا أن الخليفة كان يدعو له بما يتّكئ عليه فى مجلسه (وما كان يفعل ذلك بغيره ولم يكن عنده أحدٌ يطمع منه بذلك). =

ولم يكن هـذا لأحد. غير أنه يُحكىٰ أن رَوْح بن زِنْبَـاع مَرِض فكان يدعو له عبدُ الملك بن مرْوان بمُتَّكَإ.(١)

⁂

الأدب فى تحديث الملك

وعلىٰ المحـدِّث للَمَلك أنْ لا يعجَلَ فى كلامه، وأن يُدمِج(٢) ألفاظه، ولا يُشـير بيده،

= وكان يقول له : "ما آستطلت بك يوما ولا ليلا، ولا غِبتَ عن عينى إلا تمنَّيتُ أن لا أرىٰ غيرك" . أمر له مرة بثلاثين ألف دينار . فعاكسه الحاجب فى قبضها، فتركها . ثم رآه الهادى، وليس معه إلّا غلام واحد، فأخذ عليه عدم ظهور النعمة فيه . فلما دخل إليه عرَّض له بذلك وقال له : "أرى ثوبك غسيلا، وهذا شتاء يحتاج إلى الجديد ." فقال : باعى قصير . فقال : وكيف، وقد صرفنا إليك مافيه صلاح شأنك؟ فقال : ماوصل إلىّ . فدعا صاحب بيت المـال وآستحضر الثلاثين ألف دينار وحملها بين يديه .

وكان كثيرا مايدعوه ويسأله إنشاد الأبيات من أشعر ماقالت العرب . وكان يروى له الأخبار (منها حديث عن غلام سِـندىّ مع مولاه، ساقه المسعودىّ فى ج ٦ ص ٢٦٤ ــ ٢٦٥ وصاحب "المحاسن والمساوى" (ص ٦١٣ ــ ٦١٤)، والأبشيهىّ فى "المستطرف" (ج ٢ ص ٦٥)، وصاحب "تنبيه الملوك والمكايد" (ص ١١٦ ــ ١١٧) . ومنها حديث عن عيوب مصر وفضائل البصرة والكوفة، ساقه المسعودىّ أيضا فى الجزء السادس (ص ٢٧٠ إلى ٢٧٧) . وقد أخذ عليـه خلف الأحمر هفوة فقال فيـه : "العجب من آبن دأب ! والله لقد طمع فى الخلافة حين ظن أن هذا يُقبل منه ." وقد هجاه آبن مناذر الشاعر الفصيح المقدّم فى العلم باللغة، لأنه قال فيه قولا قبيحا . وكان خَلَف الأحمر ينسب إليه الكذب . وقالوا إنه كان يتشيّع ويضع أخبارا لبنى هاشم . (أُنظر "كتاب الفهرست" (ص ٩١)؛ و"الأغانى" (ج ٥ ص ١٥٨ وج ٨ ص ١٠٤ و ١٠٦ وج ١١ ص ٦٩ وج ١٧ ص ٢٤ وج ١٩ ص ٤٨)؛ وآنظر آبن الأثير ج ٦ (ص ٧٢ ــ ٧٣)؛ وآنظر أيضا "مروج الذهب" (ج ٥ ص ١١٨ وج ٦ ص ١٢٨ و ٢٦٣)؛ وآنظر "المعارف" لآبن قتيبة (ص ٢٦٧)؛ و"كتاب الأشتقاق" لآبن دريد (ص ١٠٦)؛ و"كامل المبرّد" (ص ١٨٦ و ٢١٢)؛ و"المحاسن والمساوى" (ص ٢٠٧ ــ ٢٠٨)؛ والطبرىّ سلسلة ٣ (ص ٥٨٩)؛ و"شرح الحماسة" (ص ٢٠٠)؛ "والبيان والتبيين" ج ١ ص ٢٤ "وتاج العروس" فى دأب . وله ترجمة وافية فى "معجم الأدباء" لياقوت روىٰ هذه الأحوال صاحب "محاسن الملوك" بالحرف الواحد عن الجاحظ دون أن يسميه (ص ٢٤) .

(١) دخل محمد بن عمران على المأمون ذات ليلة، فجعل يأمره وينهاه، ثم دعا له بمُتَّكإ، فقـال : أُعيذك بالله، ياأمير المؤمنين ! ما كنتُ لأتَّكِئَ فى مجلسك ! فقال له : إن على قلبك من ذلك ثِقْلا ومؤونة، فأردنا أنْ يستريح بدنك ليفرُغ لنا قلبك . ("مطالع البدور" ج ١ ص ١٠)

(٢) من قولهم : أُدمِج الحبل أجاد فتله، وقيل : أحكِم فتله فى رقّة . (عن تاج العروس)

ولا يُحرِّك رأْسـه، ولا يزحَف من مجلسه، ولا يُراوح بين قَعْدته، ولا يرفع صوتَه، ولا يلتفت يمينًا ولا شِمـالًا، ولا يُقبِـل علىٰ غير المَلك بملاحظته، ولا يكون غرضُـه أنْ يسمَعَ حديثَه أو يفهَم عنه سِواهُ.

✣

أمارات الملوك الجلساء بالانصراف

ومن حقِّ الملك ــ إذا تثاءب أو ألقى المِرْوحة أو مدّ رجليْه أو تمطّى أو آتّكأ أو كان فى حالٍ فصار إلىٰ غيرها مما يدلُّ علىٰ كسله(١) أو وقت قيامه ــ أن يقوم كلُّ من حضره.

وكان أردشير بن بابك اذا تمطّى، قام سُمّاره.

وكان الأَرْدَوَان الأحمر(٢) له وقت من الليل وساعات تُحصىٰ. فإذا مضت، جاء الغلام بنعله، فقام من حَضَرَهُ.

*وكان يُسْتاسِف إذا دلك عينيه، قام من حضره.

وكان يزدجرد الأثيم إذا قال: "شَبْ بِشُدْ"(٣)، قام سُمّاره.

وكان بهرام جور إذا قال: "خُرَّمْ خُفْتار"(٤)، قام سُمّاره.

وكان قُباذ إذا رفع رأْسه إلىٰ السماء، قام سُمّاره.*(٥)

وكان سابور إذا قال: "حسبك يا إنسان!" قام سُمّـاره. (٩٩)

---

(١) صـ: كلّه. (بمعنى كلاله)

(٢) لعل الصواب: "الأصفر". [وآنظر الحاشية ٦ من صفحة ٢٩ وصفحة ١٥١ من هذا الكتاب]

(٣) جملة فارسية معناها: صار الليل. وفى هامش صـ: يقول ذهب الليل.

(٤) جملة فارسية معناها: نام مسرورًا (؟)

(٥) هذه الفقرات الأربع المحصورة بين النجمتين * * منقولة عن صـ.

وكان أنوشروان إذا قال: "قرّت أعينكم!" قام سُمّاره.[1]

وكان عمر بن الخطّاب إذا قال: "الصلاة!"[2] قام سُمّاره. وكان ينهىٰ عن السَّمَر بعد صلاة العشاء.

وكان عثمان إذا قال: "العزة لله!" قام سُمّاره.

وكان معاوية إذا قال: "ذهب الليل!" قام سُمّاره ومَن حضره.[3]

وكان عبد الملك إذا ألقى المِخْصَرة،[4] قام مَن حضره.[5]

وكان الوليد اذا قال: "أستودعكم الله!" قام مَن حضره.[6]

وكان الهادى إذا قال: "سلام عليكم!" قام مَن حضره.

وكان الرشيد إذا قال: "سبحانك اللهم وبحمدك!"[7] قام سُمّاره.

---

(١) وكان كيشاسف يدلك عينه؛ ويزدجرد يقول: شب بشدّ (أى مضى الليل)؛ وبهرام يقول: خُرّم خوش باد (أى كُنْ مسرورًا)؛ وأبرويز يمدّ رجليه؛ وقباذ يرفع رأسه إلى السماء. (عن "محاضرات الراغب" ج ١ ص ١٢١. والتفسير العربىّ الأوّل عن المرحوم محمد عارف باشا فى حاشية "المحاضرات")

(٢) إذا قال قامت الصلاة. (فى "محاضرات الراغب" ج ١ ص ١٢١)

(٣) قال أصحاب معاوية له: إنا ربّما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك، فنُريد أن تجعل لنا علامة نعرف بها ذلك. قال: علامة ذلك أن أقول "إذا شئتم!". وقيل ذلك ليزيد، فقال: إذا قلت "على بركة الله!" وقيل ذلك لعبد الملك بن مروان فقال: إذا وضعتُ الخيزرانة. ("العقد الفريد" ج ١ ص ١٦٦ و ٢٨٨)

(٤) قضيب كالسوط، وكل ما اختصر الإنسان بيده فأمسكه من عصا ونحوها. وذلك من شعار الملوك.

(٥) فى المسعودىّ (ج ٥ ص ٢٥٧) وفى الراغب فى الموضع السابق بيانه، أنه كان يقول: "إذا شئتم" وكان سادات العرب يقولون لجليسهم: "إذا شئت فقم!" وهذه الجملة استعملها مصعب بن الزبير، كما فى الأغانى. (ج ٢ ص ١٣٨)

(٦) هذه العبارة المحصورة بين نجمتين منقولة عن ص.

(٧) سبحان الله (الراغب ج ١ ص ١٢١)

وكان المعتصم إذا نظر إلى صاحب النعل، قام مَن حضره.

وكان الواثق إذا مسّ عارضَيْه وتثاءب، قام سُمّاره.

وكان المأمون إذا استلقى على فراشه (١)، قام مَن حضره.

غير أن بعض مَن ذكرنا كان ربما قام بجنسٍ آخرَ من الإشارة والكلام، وإنما أضفنا إلى كلِّ واحد منهم أغلبَ أفعاله كانت عليه (٢).

* * *

عدم ذكر أحد بالعيب في حضرة الملك

ومن حقِّ الملك أن لا يُعابَ عنده أحدٌ، صَغُرَ أو كَبُرَ.

تحريش الملك بين رجاله

غير أن من أخلاقها التحريشَ بين اثنين، والإغراءَ بينهما.

(١٠٠) فمن الملوك مَن يُدبِّر في هذا تدبيراً يجب في السياسة. وذاك أنه يقال: قلّ اثنان استويا في منزلة عند الملك والجاه والتَّبَع والعزِّ والحُظْوة عند السلطان فاتفقا، إلّا كان ذلك الاتفاق وَهْناً على المملكة والمَلِك، وفساداً في تدبيره. وذلك أنهما إذا اتفقا، وهما وزيرا الملك، كانا ـ متى شاءآ أنْ ينقضا ماأبرم الملك ويَحُلَّا ماعقد ويُوهِيَا ماأكّد ـ قَدَرَا على ذلك للاتفاق والمُجامعة. ومتى انفصلا حتّى يتباينا أو يتحاربا كان تباينُهما

---

(١) هذه العبارة غير واردة في صـ . وإذا كانت صحيحة فكأنها بعد الكلام عن الرشيد، أي قبل هذا الموضع بسطرين.

(٢) في "مطالع البدور في منازل السرور" (ج ١ ص ١٨٤) أن أوّل من جعل لندمائه أمارة ينصرفون بها من مجلسه إذا أراد، كسرى. وهو أن يمدّ رجله، فيعرفون أنه يريد قيامهم، فينصرفون. وتبعه الملوك. فكان فيروز الأصغر يدلك عينيه، وكان بهرام يرفع رأسه إلى السماء. وكان في ملوك الإسلام معاوية يقول: العزة لله!، وعبد الملك يلق المروحة من يده. وحُدِّث بهذا الحديث عند بعض البخلاء وسُئل ماأمارته، فقال: إذا قلت "ياغلام، هات الطعام!" وانظر أيضا "محاضرات الراغب" (ج ١ ص ١٢١)

أثبتَ في نظـام المُلك وأوكد في عزّ المملكة. وكان متىٰ أراد هـذا شيئا، أراد الآخَر خلافه. فإذا تباينا في ذات أنفسهما، اجتمعا علىٰ نصيحة الملك، شاآ أم أبيَا. وآثرها كلُّ واحد منهما علىٰ هوىٰ نفسه، وانتظم للملك تدبيره وتمَّ له أمرُه.(١)

ومن الملوك مَن لا يقصد إلىٰ هذا ولا يكون غرضه الإغراء بين وزرائه وبطانته لهذه العلّة، بل ليعرِف معايبَ كلٍّ واحدٍ منهما. فإن معرفة ذلك تقطع الوزير عن الانبساط في حوائجه والتسحُّب علىٰ مَلِكه.

⁂

(١٠١) آداب السفير

ومن الحقّ علىٰ الملك أن يكون رسولُه صحيحَ الفِطرة والمِزاج، ذا بيانٍ وعِبـارةٍ، بصيرًا بمخارج الكلام وأجوبته، مؤدّيا لألفاظ الملك ومعانيها، صدوقَ اللهْجَة، لا يميل إلىٰ طمع ولا طَبَع(٢)، حافظًا لما حُمِّلَ.

وعلىٰ الملك أن يمتحن رسوله مِحْنَةً طويلةً، قبل أن يجعله رسولا.

---

(١) كان السفّاح، إذا تعادى رجلان من أصحابه وبطانته، لم يسمع من أحدهما في الآخر شيئا ولم يقبله، وإن كان القائل عنده عدلا في شهادته. وإذا اصطلح الرجلان لم يقبل شهادة واحدٍ منهما لصاحبه ولا عليه. ويقول إن الضغينة القديمة تولّد العـداوة المحضة وتحمل على إظهار المسالمة وتحتها الأفعىٰ التي إذا استمكنتْ لم تُبقِ. (شذرات الذهب ج ١ ص ٢١٦)

(٢) الطَّبَعُ: الشيْن والعيْب. ومنه الحديث: "استعيذوا بالله من طَمَعٍ يَهْدِي إلى طمع." أخذه عُروة بن أُذينة شاعر قريش فقال:

لا خيرَ في طَمَعٍ يَهْدِي إلىٰ طَبَعٍ * وغُفّةٌ من قِوام العيش تكفيني.

(عن تاج العروس)

والغُفَّةُ البُلْغَةُ من العيش.

سنّة ملوك العجم في آختيار السفير

وكانت ملوك الأعاجم ـ إذا آثرت أن تختار من رعيتها مَن تجعله رسولا إلىٰ بعض ملوك الأمم ـ تمتحنه أوّلا، بأن توجّهه رسولا إلىٰ بعض خاصّة المَلك ومَن في قرار داره في رسائلها. ثم تقدّم عينًا عليه يحضر رسالته و يكتُبُ كلامه. فإذا رجع الرسول بالرسالة، جاء العين بمـا كتب من ألفاظه وأجوبته. فقابل بها الملكُ ألفاظَ الرسول. فإن آتفقت أو آتفقت معانيها، عرف الملك صحّة عقله وصدق لهجته. ثم جعله المَلك رسولا إلىٰ عدوّه، وجعل عليــه عينا يحفظ ألفــاظه و يكتبها، ثم يرفعها إلىٰ المَلك. فإن آتفق كلام الرسول وكلام عين المَلك وعلم أن رسوله قد صــدقه عن عدوّه ولم يتزيّد عليه للعداوة بينهما، جعله رسوله إلىٰ ملوك الأُمم، ووَثِق به. ثم كان بعد ذلك يقيم خَبَرَه مَقامَ الحُجّة.

(١٠٢) كلمة أردشير في حق السفير

وكان أردشير بن بابك يقول: ''كَمْ من دَمٍ قد سفَكَهُ الرسول بغير حِلّه! وكم من جيوشٍ قد قُتِلَتْ وعساكرَ قد هُزِمَتْ وحُرْمَةٍ قد آنْتُهِكَتْ ومالٍ قد آنْتُهِبَ وعهــد قد نُقِضَ بخيانة الرسول وأكاذيبه!''

كلمة ثانية له

وكان يقول: على المَلك، إذا وجّه رسولا إلىٰ مَلك آخر، أن يردفه بآخر. وإن وجه رسولين، أتبعهما بآثنــين. وإن أمكنه أنْ لا يجمع بين رسولين في طريقٍ ولا ملاقاةٍ ولا يتعارفان فيتواطآ، [فَعَلَ]. ثُمّ عليه، إن أتاه رسوله بكتاب أو رسالة من ملك في خير أو شرّ، أنْ لا يُحدِثَ في ذلك خيرًا أو شرًّا، حتّى يكتُبَ إليه مع رسول آخر يحكي له ما في كتابه الأوّل حرفًا حرفًا، ومعنًى معنًى. فإنّ الرســول ربمـا حُرِمَ بعضَ ما أمّلَ، فآفتعلَ الكتب وحرّض المُرْسَلَ على المُرْسِلِ إليه، فأغراه به وكذَب عليه.(1)

(١) أورد القلقشندي هــذه الجملة في الجزء الأوّل (ص ٧٣) من ''صبح الأعشى'' ببعض تصرف في الألفاظ. وقد أورد هــذه الحكاية صاحب ''تنبيه الملوك'' (ص ٨٩). وكذلك صاحب ''المحاسن والمساوي'' (ص ١٦٨ ــ ١٦٩).

ما فعله الإسكندر بسفير كذب عليه

ويقال إن الإسكندر وجَّه رسولا إلىٰ بعض ملوك الشرق . فجاءه برسالة شكَّ في حرف منها . فقال له الإسكندر: ويلك ! إن الملوك لا تخلو من مقوِّم ومسدِّد، إذا مالت . وقد جئتنى برسالة صحيحة الألفاظ بيِّنة العبارة، غير أن فيها حرفًا (١٠٣) ينقضها . أفعلىٰ يقين أنت من هذا الحرف أم شاكٌّ فيه؟ فقال الرسول: بل علىٰ يقين أنه قاله . فأمر الإسكندر أن تُكتَب ألفاظُه حرفا حرفًا ويُعاد إلىٰ المَلك مع رسولٍ آخَر، فيُقرأ عليه ويُترجَم له . فلما قُرِئَ الكتاب علىٰ المَلك فمرّ بذلك الحرف، أنكره . فقال للترجم: ضَعْ يَدى علىٰ هذا الحرف . فوضعها . فأمر أن يُقطَع ذلك الحرف بسكِّينة(١)، فقُطِع من الكتاب . وكتب إلىٰ الإسكندر: إن رأْس(٢) المملكة صحَّةُ فطرةِ المَلك، ورأْس(٢) المَلك صدقُ لهجةِ رسوله، إذ كان عن لسانه ينطِقُ وإلىٰ أُذُنه يؤدِّى . وقد قطعتُ بسكِّينتى مالم يكن من كلامى، إذ لم أجدْ إلىٰ قطع لسان رسولك سبيلاً . فلما جاء الرسول بهذا إلىٰ الإسكندر، دعا الرسول الأوّل، فقال: ما حَمَلَك علىٰ كلمةٍ أردتَ بها فساد مُلْكين؟ فأقرّ الرسول أن ذلك كان لتقصير رآه من المُوجَّه إليه . فقال الإسكندر: فأراك لنفسك سعيت، لا لنا! فلمّا فاتك بعضُ ما أمّلتَ، جعلتَ ذلك ثأْرًا فى الأنُفس الخطيرة الرفيعة! فأمر بلسانه فنزع من قفاه(٣). (١٠٤)

---

(١) المُدْيَة يسميها العرب سكِّينا وسكِّينة . والاسم الأوّل أشهر وأكثر شيوعا ، والسكِّين يذكَّر ويؤنث ؛ وقال بعضهم إن السكِّينة خطأٌ ، وليس كذلك . فقد جاء فى شرح الفصيح أنها لغة قوم من بنى ربيعة ، وأوردها الفرّاء وآبن سيده . قال الشاعر : سِكِّينةٌ من طبع سيفِ عَمْرِو ❊ نصابُها من قَرْنِ تَيْسٍ بَرِّى .

وفى الحديث : قال المَلَك لماشقّ بطنه : إئتنى بالسكينة (أنظر "تاج العروس" فى س ك ن ، "وشفاء الغليل" صفحة ١٢٣) . وقد آستعمل الجاحظ كلا من اللفظين أحدهما هنا والثانى فى صفحة ١٠٠ من هذا الكتاب .

(٢) سـ : أس .

(٣) انظُر الحاشية ١ من الصفحة السابقة . وقد أورد هذه الحكاية صاحب "محاسن الملوك" (ص ٦١) وآستعمل ألفاظ الجاحظ نفسها .

إحتياط الملك في منامه ومقيله

ومن أخلاق الملك أن لا يكون لمنامه في ليل ولا نهارٍ موضعٌ يُعرف به، ولا حاوٍ[1] يُقْصَد إليه. إذ كانت أنفس الملوك هي المطلوب غِرّتها[2]، والموكَّل برعاية سِنَتِها[3] وساعة غفلتها.

ويقال إن ملوك آل ساسان لم يُعرَف مَبيت أحد منهم قطُّ ولا مَقِيلُه.

سنة ملوك الفرس في النوم

فأما أردشير بن بابك وسابور وبَهرام ويزدجرد وكسرى أبرويز وكسرى أنوشروان، فكان يفرش للملك منهم أربعون فِرَاشا [في أربعين موضعا][4]. ليس منها فِرَاش إلا ومَن رآه من بعيدٍ على الانفراد لا يَشُكُّ[5] أنه فِرَاش المَلك خاصَّةً [وأنه نائم فيه][4]. ولعلّه أنْ لا يكون على واحد منها. بل لعلَّه ينام على مجلس رقيق. وربما توسَّد ذِرَاعه، فنام.

السنّة النبوية في النوم

ولو لم يجب على ملوكنا حفظُ منامِهم وصيانتُه عن كل عينٍ تطرِفُ وأُذُنٍ تسمَعُ إلاّ أن النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) فعله ـ وهو من الله بمكانه المخصوص من كَلاءَته إيّاه وحِرَاسَة الرُّوح الأمين له ـ لقد كان يحق عليهم أن يقتدوا به ويمتثلوا فعله. وقد كان المُشركون همُّوا بقتله، فأخبره جبريل (صلى الله عليهما) عن الله (جل ثناؤه) بذلك، فدعا عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) فأنامه على فِرَاشه، ونام هو (صلى الله عليه

١٠٥ وسلم) بمكان آخَر. فلمَّا جاء المشركون إلى فِرَاشه، فنهض منه عليّ، انصرفوا عنه.

---

(١) في صـ، سـ: "حوى" [واخترتُ الحاوِيَ لأنه من اصطلاحات الفلسفة بمعنى الحيّز]

(٢) صـ: عزتها.

(٣) ضبطه في سـ: "سُنَّتها" وهو سبق قلم.

(٤) الزيادة عن "محاسن الملوك".

(٥) سـ: إلا ومن ورائه من بعيد على الانفراد فراش لايشك الخ.

ففى هذا أكبر الأدلة وأوضح الحُجة على ما ذكرنا. إذ كانت أنفُسُ الملوك هى الأنفس الخطيرة الرفيعة التى توزن بنفوس كلّ من أظلّتِ الخضراء[١] وأقلّتِ الغبراء[٢].

إطلاع الوالدين فقط على منام الملك

وكانت الأعاجم تقول: لا ينبغى للمَلك أن يَطّلعَ على موضع منامه إلّا الوالدان فقط[٣]، فأما مَن دُونَهما، فالوحشةُ منه وتركُ الثقة به أبلغُ فى باب الحزم، وأوْكد فى سياسة المَلك، وأوجبُ فى الشريعة، وأوقع[٤] فى الهُوَيْنا[٥].

* * *

معاملة الابن للملك

ومن حق المَلك أن يُعامِلَه ٱبنُه كما يُعامِلُه عَبْدُه، وأنْ لا يَدخل مَداخِله إلّا عن إذْنه، وأنْ يكون الحِجاب عليه أغلظَ منه على مَن هو دُونه من بِطانة الملك وخَدَمه، لِئلّا تَحمِله الدالّة على غير ميزان[٦] الحقّ.

مافعله يزدجرد مع ابنه بهرام

فإنه يُقال إنَّ يَزْدَجِرْد رأى بَهْرامَ ٱبنَه بموضع لم يكن له، فقال: مَرَرْتَ بالحاجب؟ قال: نعم. قال: وعَلِم بدخولك؟ قال: نعم. قال: فٱخْرُجْ إليه وٱضرِبْه ثلاثين سَوْطًا، ونَحِّه عن السِّتْر، ووَكِّلْ بالحِجابة أَرَادَمَرْد[٧]. ففعل ذلك بَهرام وهو إذ ذاك ٱبنُ ثلاث عشرة، ولم يَعلمِ الحاجبُ فيمَ غضب الملك عليه. فلما جاء بَهْرام بعد ذلك ليدخل، (١٠٦)

---

(١) السماء.

(٢) الأرض.

(٣) نقل هذه الأحكام صاحب "محاسن الملوك" بٱختصار مع ٱستعمال ألفاظ الجاحظ (ص ٩٣)

(٤) س: وأرفع.

(٥) التُّؤدة والرفق.

(٦) ص: مراد.

(٧) لم أعثر على شئ يتعلق بهذا الحاجب، ولم أجد هذه الحكاية فى غير الجاحظ. وفى "محاسن الملوك" سماه "فلانا".

دفع أَزَادَمَرْدُ فى صدره دَفعةً وَقَذَه منها (١)، وقال: إنْ رأيتُك بهذا الموضع ثانيةً، ضربتُك ستين سوطا، ثلاثين منها لجنايتك على الحاجب بالأمس، وثلاثين لئلا تطمع فى الجناية علىَّ (٢). فبلغ ذلك يَزْدَجِرْدَ، فدعا أَزَادَمَرْدَ، فخلع عليه وأحسن إليه (٣).

مافعله معاوية مع ابنه يزيد

ويقال إن يزيد بن معاوية كان بينه وبين أبيه بابٌ. فكان إذا أراد الدخول عليه قال: ياجاريةُ! انظرى هل تحرّك أمير المؤمنين؟ فجاءت الجارية [مرّة] حتّى فتحت الباب. فإذا معاوية قاعدٌ، وفى حِجره مُصْحَفٌ، وبين يديه جارية تصفَحُ عليه. فأخبرت يزيدَ بذلك. فجاء يزيد فدخل على معاوية. فقال له: أى بُنَىَّ! إنى إنما جَعلتُ بينى وبينك بابا، كما بينى وبين العامّة. فهل ترى أحدا يدخل من الباب إلّا بإذنٍ؟ قال: لا. قال: فكذلك فليكن بابك! فإذا قُرِعَ عليك فهو إذْنُك (٣).

مافعله المهدى مع ابنه الهادى

وهكذا ذُكِرَ لنا أن موسى الهادى دخل على أمير المؤمنين المهدىّ فزبره (٤) وقال: إيّاك أن تعود إلى مثلها إلّا أن يُفتح بابُك (٥)!

مافعله الحاجب بولد المأمون

وذُكر لنا أن المأمون لما استعر به الوجع (٦)، سأل بعضُ بنيه الحاجبَ أن يُدخلَه عليه ليراه. فقال: لا والله! ما إلى ذلك سبيل، ولكن إنْ شئتَ أن تراه من

(١٠٧)

(١) أى أوجعته وآلمته كثيرا. والوقذ شدّة الضرب. وفى "محاسن الملوك": فدعّه دفعةً أوقعه بها

(٢) فى "محاسن الملوك": وثلاثين على استمرار جنايتك.

(٣) روى هذه الحكاية بتلخيص خفيف صاحب "محاسن الملوك" (ص ٨٦ — ٨٧)

(٤) انتهره.

(٥) نقلها فى "محاسن الملوك" (ص ٨٧).

(٦) أى اشتدّ عليه، تشبيها باستعار النار. وفى صـ: استغرقه. [ولعل صواب الرواية: استمرّ] وفى "المحاسن والمساوى": اشتد.

حيثُ لا يراك ، فأطَّلِعْ عليه من ثُقبٍ فى ذلك البـاب . فجاء حتى ٱطَّلعَ عليه وتأمَّلَه ثم ٱنصرف .

مافعله الحاجب بولد المعتصم

وذكر لنا أن إيتاخ (١) بَصُرَ بالواثق فى حياة المعتصم واقفًا فى موضعٍ لم يكن له أن يقف فيه ، فَزَبرَه وقال : تَنَحَّ ! فوالله لولا أنى لم أتقدَّم (٢) إليك فى ذلك ، لضربتُك مائة عَصًا . (٣)

واجبات ٱبن الملك

وليس لٱبن المَلك من المَلك إلّا ما لعبده من الٱستكانة والخضوع والخشوع (٤) ، ولا له أن يُظهِر دالَّة الأُبُوَّة وموضع الوراثة . فإن هذا إنمـا يجوز فى النَّمَط الأَوْسط من الناس ثم الذين يَلُونَهم . فأما الملوك فَتَرْقَى عن كلِّ شئٍ يُمَتُّ (٥) به .

وليس لٱبن المَلك أن يسفِك دمًا ، و إن أوجبت الشريعة سَفْكَه وجاءت المِلَّة

---

(١) قد يرد هذا الٱسم بتقديم التاء على الياء (إتياخ) كما فى سـ وكما فى بعض نسخ "كتاب الفهرست" . ولكن الصواب تقديم الياء التحتية . ومعناه فى اللغة الفارسية الغازى والفاضل ، كما فى "برهان قاطع" . كان أصل هذا الرجل طبّاخا ثم ترقّت به الأحوال إلى أن صار مقدَّم الجيوش وكبير الدولة وصاحب مصر فى أيام المعتصم . ولذلك قال بابك إن المعتصم لم يبق لديه أحدا إلا وجّه به إليه ، حتى طباخه . وبعث بذلك المعنى إلى ملك الروم ، يُغريه بالخليفة حينا ضايقه وأخذ بخناقه ، وكتب له : "فإن أردتَ الخروج إليه ، فليس فى وجهك أحد يمنعك" . وقد تولَّى إيتاخ أمر اليمن والكوفة والحجاز وتهامة ومكة والمدينة ودُعى له على المنابر . وٱنتهى أمره بأن خافه المتوكل وأعمل الحيلة فى القبض عليه وإماتته عطشا . وأخذ له من الذهب ألف ألف دينار . كانت وفاته سـنة ٢٣٤ . (أنظر "النجوم الزاهرة" وٱبن الأثير فى فهارسهما ، و "شـذرات الذهب" ج ١ ص ٥٠٠)

(٢) سـ : أنى أتقدّم .

(٣) الآداب والحكايات الواردة فى هذه الصفحة وفى التى قبلها منقولة بالحرف الواحد وبهذا الترتيب فى "المحاسن والمساوى" (ص ١٧٠ – ١٧٢) .

(٤) صـ : الجنوح .

(٥) فى سـ : "تمت" . والمَتّ هو التوسُّل والتوصل بقرابة أو حُرمة أو دالَّة أو نحو ذلك . وفى صـ : فترق عن كل شىء يمُتّ إليه .

به ، إلّا عن إذْن المَلك ورأْيه . لأنه ــ متىٰ تفرّد بذلك ــ كان هو الحاكم دون المَلك . وفى هذا وَهْنٌ علىٰ المَلك وضَعْفٌ[١] فى المملكة .

وكذلك أيضا ليس له أن يحكُمَ فى الحلال والحرام والفُرُوج والأحكام ، وإنْ كان ولىَّ عهدِ المَلك والمُقَلَّدَ إرْثَ أبيه والمحكومَ له بالطاعة ، إلا عن أمره ورأْيه .

(١٠٨) وليس له ــ إذا جمعته والمَلكَ دارٌ واحدةٌ[٢] ــ أنْ يأْكلَ إلّا بأَكل المَلك ولا [أن] يشرَبَ إلّا بُشربه ولا [أن] ينامَ إلّا بمنامه .

وكذا يجب عليه فى كلّ شئ من أُموره السارّة والضارّة أنْ يكون له تابعًا ولحركته تاليـًا .

وليس هذا علىٰ [مَن] دون ٱبن المَلك من بطانته وسائر رعيته . لأن ٱبن الملك عُضوٌ من أعضائه وجزء من أجزائه ، والمَلك أصلٌ والآبنُ فرعٌ ؛ والفرع تابعٌ للأَصــل ؛ والأصلُ مُستغْنٍ عن الفرع .

وليس لٱبن المَلك أن يرضىٰ عمن سخِط عليــه الملك ، وإن كان المســخوطُ عليه لاذنبَ له عنــده . لأنّ من العــدل والحقّ عليه أنْ يوالِىَ مَن والىٰ المَلك ، ويعادِىَ مَن عاداه . ولا ينظرُ فى هذا إلىٰ حظِّ نفسه وإرادة طبعه ، حتّى يبلغ من حقِّ الملك ماإنْ وَجَدَ إلىٰ غِيلَتِه[٣] سبيلا أنْ يقتُلَه . وعلىٰ هذا ينبغى أن يكون نظام العامّة لمَلكها .

(١) صـ : وضعة .

(٢) الواو هنا واو المعية .

(٣) الضمير هنا يعود على المسخوط عليه . وفى صـ : حيلته .

✤

شهوة الأستبدال

وقد تحدثُ فى أخلاق المَلك مَلالةٌ لشهْوَةِ الاستبدال[١] فقط. فليس لصاحبِ المَلك، إذا أحدث الملكُ خُلُقًا، أنْ يعارضه بمثله؛ ولا إذا رأىٰ نَبْوَةً وآزورارةً، أنْ يُحدِثَ مثله. فإنّه متىٰ فعل ذلك فَسَدتْ نيَّتُه. ومَن فسدت نيّته، عادت طاعته معصيةً وولايتُهُ عداوةً. ومَن عادىٰ الملك، فنفسَه عادىٰ وإياها أهانَ.

(١٠٩)

الحيلة فى معالجتها

ولكن عليه، إذا أحْدَثَ المَلك الخُلُقَ الذى عليه بِنْيَةُ أكثر الملوك، أن يَحتالَ فى صرف قلبه إليه. والحِيلةُ فى ذلك يسيرةٌ: إنما هو أن يطلب خَلْوَتَه فيُلْهِيه بنادرةٍ مُضحِكة أو ضربِ مَثَلٍ نادرٍ أو خبرٍ كان عنه مُغَطًّى، فيكشفُهُ له.

ما صنعه مازيار المضحك مع أحد ملوك العجم

كما فعل بعض سُمَّار ملوك الأعاجم. أظهر الملك له جَفْوَةَ المَلالَة فقط، فلما رأىٰ ذلك، تعلَّم نُبَاح الكلاب وعُوَاء الذئاب ونَهِيق الحمير وصِياح الديوك[٢] وشَحِيجَ البغال وصَهِيل الخيل. ثم آحتال حتّى دخل موضعا يقرُبُ من مجلس المَلك وفراشه يُخفى أمره[٣]. فنبح نُباح الكلاب، فلم يشكَّ المَلِك أنه كلبٌ وآبنُ كلب، فقال: آنظروا ماهذا! فعوىٰ عُواء الذئاب، فنزل المَلك عن سريره. فنهق نهيق الحمار، ومرَّ الملك هاربًا. وجاء غِلمانه يَتْبَعُون الصوتَ. فكلما دَنَوْا منه، أحدثَ معنًى آخَرَ، فأحجموا عنه. ثم آجتمعوا فآقتحموا عليه، فأخرجوه وهو عُرْيَانٌ مختبئٌ. فلمّا نظروا إليه، قالوا للملك

(١) سـ: الأستبداد.

(٢) فى المسعودىّ طبع باريس: "رقاء"؛ وفى طبعة بولاق: "زقاء". وهذا هو الصواب، ومعناه صياح الديك. (أنظر القاموس وشرحه)

(٣) فى المسعودىّ: "وأخفى أثره" ولعل الأقرب للصواب "وأخفى أمره". وفى صـ: من مجلس الملكُ وموضع منامه.

هذا مازِيار[١] المضحك! فضحك الملك حتّى تبسّط وقال: ويلك![٢] ماحملك على هذا؟ قال: إن الله مسخني كلبا وذئبا وحِمارا، لمّا غضب عليَّ المَلِك. فأمر أن يُخلَع عليه (١١٠) ويُرَدّ إلىٰ موضعه.[٣]

وهـذا لايفعله إلا أهلُ الطبقة السُّفلىٰ. فأما الأشرافُ، فلهم حيل غير هـذه، ممـا يُشْبِه أقدارَهم.

*كما فعل رَوْح بن زِنباع، وكان أحد دُهاة العرب. رأىٰ من عبدالملك بن مرْوان نَبْوَة وإعراضًا. فقال للوليد: ألا ترىٰ ما أنا فيه من إعراض أمير المؤمنين عني بوجهه، حتّى لقد فغرت السباع أفواهها نحوى. وأهوت بمخالبها إلىٰ وجهى؟ فقال له الوليـد: اِحْتَلْ فى حديثٍ يُضحكه! فقال رَوْح: إذا ٱطمأنّ بنا المجلس، فسلْنى عن عبد الله بن عمر، هل كان يمزح أو يسمع مِزاحًا؟ فقال الوليد: أفعلُ.

وتقدّم فسبقه بالدخول وتبعه رَوْحٌ. فلمّا ٱطمأنّ بهـم المجلس، قال الوليد لرَوْح: هل كان ٱبن عمر[٤] يسمع المزاح؟ قال: حدثنى ٱبن أبى عَتيق[٥] أن ٱمرأته عاتكة بنت عبد الرحمن هجته، فقالت:

(١) سماه فى المسعودىّ: "مرزبان" وكره.

(٢) صـ: ويحك.

(٣) نقل المسعودىّ هذه الحكاية. (مروج الذهب ج ٥ ص ٢٨٣)

(٤) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب. وورعه وتقواه أشهر من نار على عَلَم. (وترجمتـه فى "الطبقات الكبرىٰ" لآبن سعد. وفى "أسد الغابة" وغيرهما من الكتب الكثيرة الخاصة بالصحابة)

(٥) هو عبدالله بن أبى عتيق بن عبدالرحمن بن أبى بكر الصّدّيق بن أبى قحافة. كان من نُسّاك قريش وظرفائهم بل قد بذّهم ظرفا. وله أخبار كثيرة. فى الخلاعة بغير رَفَث وفى المجون بغـير فسوق. وقد غلبت عليـه الدُعابة وٱشـتهر بها. (أنظر "العـقد الفريد" ج ٣ ص ٢٣٨؛ وراجع "كامل" المبرد و"الأغانى" و"الكامل" لآبن الأثير بمقتضى فهارسها)

ذهب الإلٰه بمـا تعيشُ به * وقمرتَ ليلَك أيَّمـا قَمْـــرِ

أنفقتَ مالَكَ غــير محتشِمٍ * فى كل زانيــةٍ وفى الخمرِ

قال: وكان ٱبن أبى عتيق صاحب غَزَل وفُكاهة، فأخذ هذين البيتين – وهما فى رقعة – فخرج بهما، فإذا هو بعبد الله بن عمر، فقال: يا أبا عبدالرحمن! أُنظر فى هذه الرقعة، وأَشِرْ علىَّ برأْيك فيها. فلمّا قرأها، ٱسترجع عبدُ الله. فقال: ما ترىٰ فيمن هجانى بهذا؟ قال عبدالله: أرىٰ أنْ تَعْفُوَ وتصفَحَ! قال: والله يا أبا عبدالرحمن، لئن لقيتُ قائلها لأنيلنَّه نيلـاً[1] جيّـداً! فأخذ ٱبنَ عمر أَفْكَلٌ[2]، وٱرْبَدَّ لونُه وقال: ويلك! أما تستحى أن تعصِىَ الله؟ قال: هو والله ما قلتُ لك.

وٱفترقا. فلما كان بعد ذلك بأيام، لقيه. فأعرض ٱبن عمر بوجهه، فقال: بالقبر ومَن فيه[3]، إلّا ما سمعتَ كلامى! فتحوّبَ عبد الله، فوقف وأعرض عنه بوجهه. فقال: علمتَ يا أبا عبدالرحمن أنى لقيتُ قائل ذلك الشعر فنلته[1]؟ فصَعِق ٱبن عمر ولُبِطَ به. فلما رأىٰ ما حلَّ به، دنا من أُذُنه فقال: إنها ٱمرأتى! فقام ٱبن عمر فقبّل ما بين عينيه.

فضحك عبدُ الملك حتّى فحص برجله وقال: قاتلك الله يا رَوْحُ! ما أطيبَ حديثَك! ومدّ إليه يديه فقام رَوْحٌ فأكبَّ عليه وقبّل أطرافه وقال: يا أمير المؤْمنين، ألِذَنبٍ فأعتذرُ

(١) أنظر الحاشية ٢ ص ٧٩ من هذا الكتاب.

(٢) الأفكل الرعدة. وفى المسعودىّ: "أفكلٌ ورِعدة"، من باب عطف التفسير.

(٣) أقسم عليه بالروضة الشريفة وبالمدفون فيها وهو النبىّ صلى الله عليه وسلم. فتحوّب أى وجد فى عدم الوقوف إثماً، فوقف ولكن معرضا عنه بوجهه.

أم لملالةٍ فأرجو عاقبتها. قال: لا والله! ماذاك من شئ نكرهه. ثم عاد له أحسن حالًا(١)*

ونحو هــذا يُحكى عن جرير بن الخَطَفى(٢)، حين دخل على عبــد الملك، وقد أوفده إليه الحجّاج بن يوسف. فدخل محمد بن الحجّاج وقال لجرير: كنْ فى آخر مَن يدخل. فلمّا دخل جرير، قال محمد: ياأمير المؤمنين هذا جريرُبن الخطفى، مادحُك وشاعرُك! قال: بل مادحُ الحجّــاج وشاعرُه. قال جرير: فقلتُ: إنْ رأىٰ أميرُ المؤمنين أن يأذَنَ لى فى إنشاد مديحه؟ قال هاتِ بالحجاج! قال: فقلت: بل بك ياأمير المؤمنين! قال: هاتِ فى الحجاج! فأنشدته قولى فى الحجاج:

صَبَرْتَ النفسَ ياآبن أبى عُقَيْلٍ * مُحافَظَةً، فكيف ترى الثوابا؟
ولو لم تُرْضِ ربَّك، لم يُــنَزِّلْ * مع النصرِ الملائكةَ الغِضابا.
إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حَرْبٍ، * رأى الحجّــاج أثقبَها شِهابا.

فقال: صدقتَ، هو كذلك! ثم قال للأخْطَل(٣)، وهو خلفى وأنا لا أراه: قُمْ فهاتِ

(١) هذه الفقرات الخمس المحصورة بين نجمتين ** منقولة عن صـ . وقد نقل صاحب "محاسن الملوك" هذه الحكاية بالحرف الواحد تقريبا (ص ٧٦ ـــ ٧٧). أما المسعودىّ فقد أوردها بألفاظ أخرى و زيادة ونقص فى المعنى (ج ٥ ص ٢٨٤ ـــ ٢٨٦)، وكذلك النويرىّ فى "نهاية الأرب فى فنون الأدب" (فى الباب الثالث من القسم الثالث من الفنّ الثانى فى المجون والنوادر والفكاهات والمُلَح). ولكن عبارتهم كلهم فيها خالية من حسن الديباجة و جمال الترصيف الذى تراه فى عبارة الجاحظ.

(٢) سماه فى "الصحاح" الخَيْطَفى. واللفظان معناهما واحد، وهو السريع. وهما مأخوذان من الخطف وهو الاستلاب. وهو لقب جدّه، لبيت قاله فى شعره. ولكن الاسم المخفف الذى استعمله الجاحظ هو الأكثر شيوعا، وقد ورد فى شعر الأخطل. (أنظر "تاج العروس"، "كتاب الاشتقاق" لابن دُرَيْد (ص ١٤١)، "ديوان الأخطل" الذى نشره الأب الفاضل أنطون صالحانى (ص ٢٢٤)؛ وغيرها من دواوين الأدب)

(٣) سبب تسمية الأخطل أن اثنين تحا كما إليه فأقسم أنهما لئيمان، هما وأمهما وهو نفسه أيضا. فقيل له إن هذا لخَطَلٌ من قولك. فسمّىَ الأخطل. (أمالى القالى ج ٢ ص ٢٣٤)

مديحنا! فقام فأنشده فأجاد وأبلغ. فقال: أنت شاعرنا وأنت مادحنا؛ قم فاركبه! قال: (١١١)
فألقى النصرانى ثوبه، وقال: جَبِّ[(١)]! يا ابن المراغة[(٢)]. قال: وساء ذلك من حضر من المضرية، وقالوا: يا أمير المؤمنين، لا يركب الحنيف المسلم، ولا يظهر عليه. فاستحيا عبد الملك، وقال: دعه! قال: فانصرفت أخزى خلق الله حالًا، لما رأيت من إعراض أمير المؤمنين عنى، وإقباله على عدوى. حتى إذا كان يوم الرواح للوداع، دخلت لأودعه، فكنت آخر من دخل عليه. فقال له محمد بن الحجاج: يا أمير المؤمنين، هذا جرير، وله مديح فى أمير المؤمنين. فقال: لا، هذا شاعر الحجاج! قلت: وشاعرك يا أمير المؤمنين! قال: لا. فلما رأيت سوء رأيه، أنشأت أقول:

أتصحو أم فؤادك غير صاحٍ؟ ...

فقال: ذاك فؤادك!

ثم أنشدته حتى بلغت البيت الذى سره، وهو قولى:

ألستم خير من ركب المطايا * وأندى العالمين بطون راح؟

فاستوى جالسًا، وكان متكئًا، فقال: بلى نحن كذلك، أعد! فأعدت. فأسفر لونه

---

(١) أمره بوضع يديه على ركبتيه أو على الأرض ليتمكن من ركوبه. و"جبِّ" فعل أمر من التجبية بمعنى الانحناء. قال فى "لسان العرب" فى مادة ج ب ى ما نصه: وجبّى الرجل وضع يديه على ركبتيه فى الصلاة أو على الارض. "وهو أيضا انكبابه على وجهه." والعامة فى مصر تقول الآن فى مثل هذا المقام: "طاطى البصلة" ويعنون بالبصلة الرأس. وذلك فى حال ما يريد أحدهم ركوب الآخر.

(٢) هذا هو اسم أم جرير. وقيل إن الفرزدق والأخطل سمياها كذلك فى هجاء كل منهما له. وقيل إن ذلك تعيير له ببنى كليب لأنهم أصحاب حمير. ووفود جرير على عبد الملك مذكور فى كثير من كتب الأدب مثل "الأغانى" و"العقد الفريد" (ج ١ ص ١٥١). ولكن رواية الجاحظ هى أوفى وأحسن ما رأيت.

(١١٢) وذهب ما كان في قلبه، ثم ٱلتفتَ إلى محمد [بن الحجاج] فقال: تُرَى أُمَّ حَزْرَة[(١)] تُرْوِيها مائةٌ من الإبل؟ قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين! إن كانت من فرائض كَلْبٍ[(٢)] فلم تُروِها، فلا أرواها[(٣)] الله! قال: فأمر لى بمائة فريضة. ومددتُ يدى - وبين يديه صِحَافٌ أربعٌ من فضة قد أُهْدِيَتْ إليه - فقلتُ: المِحْلَب، يا أمير المؤمنين! فأخذتُ منها واحدةً، فقال: خذها، لا بُورِك لك فيها! قلتُ: كلُّ ما أخذتُ من أمير المؤمنين مباركٌ لى فيه[(٤)].

* وهكذا فعل بالأمس عبد الملك بن مهلهل الهَمْدانى[(٥)]، وكان سليمان بن أبى جعفر[(٦)] قد جفاه. فأتاه يوما فى قائم الظهيرة، والهجيرةُ تَقِدُ[(٧)]. فٱستأذن، فقال له الحاجب: ليس هذا بوقت إذنٍ على الأمير. فقال له: أَعْلِمْهُ بمكانى[(٨)]. فدخل عليه فأعلمه، فقال له: مُرْهُ يُسَلِّمْ قائمًا ويخفِّفْ! فخرج الحاجب فأذِن له وأمره بالتخفيف. فدخل فسلَّم قائما ثم قال: أصلح الله الأمير! إنى ٱنصرفتُ بالأمس نحو منزلى، و[قد]

(١) حزرة هى بنت جرير. وكان يُكْنَى بها. قال فى "تاج العروس" ما نصّه: "وأبو حزرة كنية سيدنا جرير رضى الله عنه". ولا أدرى لماذا لقّبه بالسيادة ثم ترضّى عنه (؟ !) ويظهر أنه فهم أنها كنية جرير بن عبد الله البجلى الصحابى، وليس كذلك.

(٢) صـ: كلاب.

(٣) صـ: رواها.

(٤) روى صاحب "الأغانى" هذه القصة بٱختلاف فيه زيادة وفيه نقصٌ (جزء ٧ ص ٦٦ و ٦٧). وٱنظر القصة بعينها مروية بتفاصيل وافية فى "ذيل أمالى القالى" (ص ٤٣ — ٤٦) ورواها بٱختصار ألفاظ الجاحظ فى "المحاسن والمساوى" (ص ٢٣٠ — ٢٣١).

(٥) صـ: عبد الملك بن هلال الهاى، وقد صحّحتُ حسبما فى المسعودىّ طبع باريس و بولاق

(٦) هو سليمان بن أبى جعفر المنصور، وكان من قوّاد موسى الهادى. (مروج الذهب ج ٦ ص ٢٦٦)

(٧) أى كانت شدة الحرّ تتوقّد. وفى مروج الذهب: وٱحتدام الهجير.

(٨) صـ: "أعلمه موضعى". وقد ٱخترتُ رواية المسعودىّ.

أنسيتُ، فبينا أنا فى الطريق، إذا بمؤذِّن قد ثوّب(١) بصلاة المغرب علىٰ مسجد معلّق(٢). فصعدتُ ثم صعدتُ ثم صعدتُ... قال سليمان: فبلغتَ السماءَ، فكان ماذا؟ قال: فتقدّم إنسانٌ، إما كُرَيْجيٌّ وإما سَنَبْذيٌّ وإما طُمطانيٌّ(٣). فأمَّ القوم فقرأ بكلام لم أفهمْهُ [ولغةٍ ما أعرفها]، فقال: "ويلٌ لكلى هىره زَمّاً مالا وعدّده" يريد "ويلٌ لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ الذى جَمَعَ مالًا وعَدَّده". قال: وإذا خلفه رجلٌ سكرانُ مايعقِلُ سُكْرًا، فلمّا سمع قراءته ضرب بيديْه ورِجليْه وجعل يقول "إيرعكى! إيرعكى دركلى! إيرعكى دركلى فى حِرِّم قاريك!"(٤) فضحك سليمان ثم تمرَّغ علىٰ فراشه، وقال: أُدنُ منى يا [أبا] محمد، فأنت أطيب أُمّة محمد! ثم دعا له بخلعة وقال: "الزَم البابَ وٱغدُ فى كل يوم." وعاد إلىٰ أحسن حالاته عنده(٥) *

وهذه أخلاق الملوك لمن فهمها(٦). وليس بعَجَب أن تتلوّن أخلاقُهم، إذ كنا نرىٰ أخلاق القَرينِ المساوى والشريكِ والإلف تتلوّن ولا تَسْتَوِى، ولعلّه يجد عن إلفه

(١ – ٢) ثوّب: دعا إلى الصلاة. [وفى المسعودىّ طبع باريس وبولاق: "فدنوتُ ثم صعد إلى مسجد معلق". وظاهرٌ أن رواية صـ أوقعُ وأقعدُ وأتمُّ].

(٣) فى المسعودىّ طبع باريس "إما كردى وإما طمطانى" وفى طبع بولاق: "إما كردى أو طمطانى"

(٤) أنظر الروايات الأخرى فى المسعودىّ طبع باريس وبولاق. وكلها محرّفة من الناسخين كما هو ظاهر وقد نبه على ذلك مترجم المسعودىّ. [وأنظر حاشية ٤ صفحة ٧٥ من هذا الكتاب]

(٥) هذه الفقرة المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن صـ. والحكاية أوردها المسعودىّ بالحرف الواحد تقريبا عن الجاحظ دون أن يشير إليه. (راجع "مروج الذهب" طبع باريس ج ٥ ص ٢٨٦ – ٢٨٨، وطبع بولاق ج ٢ ص ١٠٣)

(٦) صـ: إن فهمها.

وقرينه وشكله مَنْدوحَةً . فكيف بِمَن مَلَكَ الشرق والغرب ، والأسود والأبيض،[١] والحرّ والعبد،والشريف والوضيع ،والعزيز والذليل؟

⁂

ثمرات التأديب بالجفوة

وعلىٰ أنه ربما كانت جَفْوَةُ المَلك أصلَحَ فى تأديب الصاحب من ٱتّصاله بالأُنس، وإن كان ذلك لايقع بموافقة المجفُوِّ . لأن فيها فراغَ المجفُوِّ لنفسه وتخلُّصه لامره[٢] ولِمَا كان لا يمكنه الفَراغ له من مُهِمِّ أمره . وفيها أيضا أنه إن كان المجفُوُّ من (١١٣) أهل السَّمَر وأصحاب الفُكاهات ، فبالحَرَى أن يستفيد بتلك الجفوة علما طريفا مُحْدَثاً له بالكتب ودراستها أو بالمشاهدة والملاقاة ، ورُبَّما كان لا يمكنه قبل ذلك ، وهو فى شغله . ومنها أن جفْوة المَلك ربما أدّبتِ الصاحب الأدبَ الكبيرَ . وذاك انه كلُّ مَن أَنْفَسَ[٣] الملكُ مجلسَه وطال معه قعودُه وبه أُنسه ، تمنّى الفراغ وطلبت منه نفسُه التخلُّص والراحةَ والخَلْوَةَ لإرادة نفسه . كما أنه مَن كثُر فَراغُه وقلّ أُناسه ، جُفِيَ وٱطُّرِحَ ، وطَلَبَ الشغلَ والأُنسَ وما أشبه ذلك .

فبهذه الأخلاق رُكِّبَتْ الفِطَرُ وجُبِلَتْ النفوس .

فإذا جاءه الفراغ الذى كان يطلبه ويتمناه من الجهة التى لم يقدِّرها ، طلبت نفسه الموضع الذى يملُّه والشُّغل الذى كان يَهْرُبُ منه .

---

(١) س : الأحمر .

(٢) س : وتخلص أمره عليه . ص : وخاص أمرد عليه . وقد صححتُ بحسب السياق .

(٣) بمعنى أن الملك يجد مجالسه وجلوسه معه نفيسا . وفى س ، ص : "نفس" . [ولامعنى لها . ولذلك صححتُ المتن بما وصل اليه ٱجتهادى .

ومنها أنه كان فى عزٍّ ومَنَعةٍ وأمرٍ ونهيٍ، وكان مرغوبا إليه مرهوبا منه، ثم [لما] حدثتْ جفوة الملك، أنكر ما كان يعرف، وعصاه مَن كان له مطيعا، وجفاه مَن كان به برًّا.

(١١٤) ومنها أن جفوة الملك تُحدِثُ رقة[(١)] على العامّة ورأفة بهم، وتُحدِثُ للجفوّ حُسْنَ نيّةٍ.

ومنها أن الرضا، إذا كان يعقب الجفوة، وَجَبَ على المجفوّ شكر الله تعالى على ما ألْهَمَ الملك فيه فتصدّق وأعطى وصام وصلّى.

فكلُّ شئ من أمر المَلك حَسَنٌ فى الرضا والسُّخط، والأخذ والمنع، والبذل والإعطاء، والسرّاء والضرّاء. غير أنه يجب على الحكيم المميِّز أن يَجْهَدَ بكلّ وُسع طاقته أن يكون من المَلك بالمنزلة بين المنزلتَيْن. فإنها أحرى المنازل بدوام النعمة، وآستقامة الحال، وقلة التنافس ومصارعة[(٢)] أهل الحسد والوُشاة.

***

صفات المقربين

وليس[(٣)] من أخلاق الملك أن يُدْنِيَ مَن عَظُم قدرُه وآتّسع عِلْمُه وطاب مُرَكَّبه، أو ظهرتْ أمانته أو كَمُلَتْ آدابه.

---

(١) أى رحمة.

(٢) فى س: "مسارعة". وفى ص: "مشاغبة".

(٣) كذا فى س، ص. نعم إن بقية الكلام ربما تنفى النفى، ولكن قوله بعد ذلك إن الملك يحتاج إلى هذه الطبقة ضرورةً يدلُّ على أن تقريبهم ليس من طباع الملوك ولكن من حاجتهم إليهم. ويؤكد ذلك ختام كلامه بأن التقريب للقرناء والمحدّثين كائنا من كانوا ومن حيث كانوا.

وهذه الصفاتُ هى جنسٌ آخَرُ يحتاج المَلِك إلىٰ أصحابه ضرورةً: لحاجته من القضاة إلىٰ الفقه والأمانة، وحاجته من الطبيب إلىٰ الحِذْق بالصناعة والرَّكانة[(١)]، وحاجته من الكاتب إلىٰ تحبير الألفاظ ومعرفة مخارج الكلام والإيجاز فى الكتب، وما أشبه ذلك. فأما القُرَناء والمحدِّثون[(٢)] وأصحاب الملاهى ومَن أشبههم، فكلُّ مَن دنا (١١٥) منهم من المَلِك وعَلِقَ به: كائنًا مَن كان ومِن حيثُ كان.

وكذا وجدنا فى كُتب الأعاجم وملوكها.

كلمة أنوشروان، وأمثولة كليلة ودمنة

وفيما يُذكر عن أَنُوشِرْوان أنه قال: "صاحِبُك مَن علق بثوبك."

وكذا وجدنا فى أمثال "كَلِيلَةَ ودِمْنَةَ" أنّ الملك "مثل الكَرْم الذى لايتعلّق بأكرم الشجر، إنما يتعلق بما دنا منه"[(٣)]. وقد نجد مِصداقَ ذلك عِيانًا فى كلِّ دهرٍ وأخبارِ كلِّ زمانٍ.

(١) الركانة، على ما فى "تاج العروس" هى السكون إلى الشئ والاطمئنان به. وربما كان الأصوب "الزكانة" وهى الظنّ الذى يكون بمنزلة اليقين.

(٢) صـ: فأما الغرباء والمحدّثون.

(٣) نقلتُ هذه العبارة عن أقدم نسخة معروفة للآن من كتاب "كليلة ودمنة" وهى التى طبعها الاب الفاضل لويس شيخو اليسوعى سنة ١٩٠٥ (صفحة ٥٧) وأصلحتُ لفظة "بمن" بلفظة "بما". وقد وردت هذه العبارة فى النسخة التى طبعها العلامة البارون دوساسى الفرنسىّ سنة ١٨١٦ هكذا: "مثل شجر الكرم الذى لايعلق إلا بأكرم الشجر" (ص ٨٥). وهى كذلك فى النسخة المطبوعة فى بولاق عنها سنة ١٢٨٥ هـ. وهذه الرواية مبتورة وسخيفة جدا، ورواية النسخة القديمة متينة ومعقولة، تؤيدها رواية الجاحظ وإن كان الذى نسخها قد مسخها. فهى فى سـ: "كالشجرة ليس يتعلق بأكبر الأشجار، ولكن بالأقرب منها." وفى صـ: "كالشجرة ليس يتعلق بأكرم الاشجار، إنما يتعلق بما قرب منها"

سخاء الملك ورحمته

ومن أخلاق المَلِك السخاءُ والحياءُ[١].

فهما قرينا كلّ مَلِك كان على وجه الأرض. ولو قال قائل إنهما رُكِّبَا فى الملوك كتركيب الأعضاء والجوارح، كان له أن يقولَ. إذ كنا لم نشاهد ولم يبلُغْنا عمن مضى من الملوك، ملوك العجم ومَن كان قبلهم، وملوكِ الطوائف وغيرِهم، القِحَةُ والبُخْلُ.

فأما السخاء فلو لم يكن أحدَ طبائع الملوك، كان يجب أن يكون باكتسابٍ، إن كان الملك من أهل التمييز. وذلك أنه يُفيد[٢] أكثر مما يُنفِق. فإذا كانت هذه صفةَ كلّ مَلك، فمـا عليه من اتّخاذ الصنائع وعَمِّ[٣] المِنَنِ والإحسان إلى مَن تأَى عنه أو دنا منه من أوليائه، والرحمةِ للفقير والمسكين، والعائدةِ على أهل الحاجة.

وأما الحياء فهو من أجناس الرحمة[٤].

وحقيق للملك (إذ كان الراعى) أَنْ يرحَمَ رعيته، (وإذ كان الإمام) أَنْ يرقَّ على المؤتَمِّ به، (وإذ كان المولى) أَنْ يَرْحَمَ عبده. (١١٦)

فقد تخطِئُ العامّة وكثيرٌ من الخاصّة فى الملوك حتّى يُسَمُّونَهم بغير أسمائهم ويَصِفُونَهم بغير صفاتهم ويَنْحَلونهم البخل والإمساك[٥]، إذا رأَوا المَلِك على سَنَنٍ من

(١) صـ : الملك الكرم والسخاء. ورواية سـ أصح. لان الكلام التالى منقسم إلى موضوع السخاء وإلى موضوع الحياء. ولذلك اعتمدتُها فى المتن.

(٢) أفاده واستفاده وتفيّده بمعنًى واحد. (عن القاموس)

(٣) صـ : وتعميم.

(٤) زاد فى سـ هنا : "الفقير والمسكين والعائدة على أهل الحاجة". وقد سبقت هذه الجملة فى الموضع المناسب لها فى السطر السابق، فلا حاجة لتكرارها.

(٥) صـ : الا بخال.

القصد وعَدْلٍ من حدّ الإنفاق، ويَغْفُلُون عمّا أدّبَ اللهُ تعالى به نبيه (صلى الله عليه وسلم) بقوله عزّ وجلّ: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ"، وبمدحه الصالحين من عباده بالقصْد فى ذات أيديهم، بعلمهم أن أرضى الأحوال عنده ما دَخَل فى باب الاقتصاد، بقوله: "وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا."

الردّ على من وصف المنصور بالبخل

وقد ذكر بعضُ مَن لا يعلَم (فى كتابٍ ألّفَه فى البخلاء من الملوك)(١) أن هشام بن عبد الملك بن مرْوان ومرْوان بن محمد وأبا جعفر المنصور وغيرَه(٢)، منهم. ولولا أنا

(١) هو غير الكتاب الذى ألفه الجاحظ فى البخلاء عامّةً، وقد طبعه فى ليدن سنة ١٩٠٠ المستشرق الهولندى فان فولتن Van Volten، ثم قلده المتهافتون على سرقة المطبوعات فى مصر. وقد روى الجاحظ فيه (ص ١٦٣) أن هشاما هذا "دخل حائطا [بستانا] له فيه فاكهة وأشجار وثمار ومعه أصحابه. فجعلوا يأكلون ويدعون بالبركة. فقال هشام: ياغلام! اِقلع هذا، واغرس مكانه الزيتون". فذلك يدلّ على أنه أراد تحقيق دعوة أصحابه، لأن الزيتون هو الشجرة المباركة. ويدلّ أيضا على بخله، حتى إذا جاء حائطه مرّةً أخرى لم يجد أصحابه سبيلا إلى الإتيان على فاكهته وثمراته. روى صاحب "شذرات الذهب" (ج ١ ص ١٨١) هذه الحكاية بما يدل على بخل هشام، وختمها بقول هشام لقيّم البستان: "اِقلع شجره واغرس فيه زيتونا حتى لا يأكل أحد منه شيأ". ولم يذكر الجاحظ شيئا من هذا القبيل عن المنصور فى كتابه فى البخلاء.

(٢) من الغريب أن صاحب "محاسن الملوك" نقل كثيرا عن الجاحظ بالحرف الواحد أو بالاختصار ولكنه لم يسمّه ولم يشر الى كتابه، فكان مثله كمثل المسعوديّ ونفر كثير من المؤرّخين والمتأدّبين. ولكنه حينما جاء إلى ذكر المنصور وتبخيله ذكر اسم الجاحظ، فقال فى صفحة ١٠٢ ما نصه: "قال الجاحظ: ربما وصف الأغبياء المنصور بالبخل، وليس الأمر كذلك. فإنه لم يسمع عن أحد من الخلفاء والملوك أنه وهب لرجل واحد ألف ألف غيره. وفرّق على أهل بيته فى ليلة واحدة ألف ألف." ثم روى القصة الآتية عن زيد مولى عيسى بن نهيك باختصار وختمها بهذه العبارة: "قال الجاحظ: فهل يجوز أنْ يعدّ مَن فعل هذا الفعل بخيلا؟"

آحتجنا[1] إلى الإخبار عن جَهل هذا، لم يكُنْ لذِكره معنًى ولا للتشاغُل بالرّد عليه . وكيف يكون المنصور ممن دخل فى جملة هذا القول، ولا يُعلم أن أحدا من خُلفاء الإسلام (١١٧) ولا ملوك الأُمم وصَلَ بألف ألفٍ لرجلٍ واحدٍ غيرَهُ[2]! ولقد فرّق على جماعةٍ من أهلِ بيته عشرة آلافِ ألفِ درهم . ذكر ذلك الْهَيْثَمُ بن عَدِيٍّ والمدائنيُّ . وحدّثنى بعض أصحابنا عن أبيه عن زيد[3] مولى عيسى بن نَهِيك[4] قال : دعانى المنصور بعد موت مولاى

---

(١) صـ : ولو احتجنا .

(٢) المنصور هو أوّل خليفة أعطى ألف ألف لكل رجل من عمومته الأربعة (طبرى سلسلة ٣ ص ٤٢١) ومما يدخل فى مكارم المنصور أن الشعراء دخلوا عليه فأنشدوه من وراء حجاب ، فآستحسن أقوال بعضهم ، فأمر برفع الحجاب وظهر لهم وأمر لأحدهم بعشرة آلاف دينار وأعطى الباقين ألفين ألفين (ذيل الأمالى للقالى ص ٤١) .

ودخل عليه رجل من أهل الشام فأعجبه كلامه فقال : يا ربيع لا ينصرف من مقامه إلا بمائة ألف درهم ، خُلعتْ معه (ذيل الأمالى للقالى ص ٢٢٨) .

ودخل عليه فتى من بنى حزم فذكر له مافعله بنو أمية بقومه وأنشده شعرا للأحوص كان سببا فى حرمانهم من أموالهم منذ ستين سنة . فأمر له بعشرة آلاف درهم ، ثم كتب إلى عماله بردّ ضياع آل حزم عليهم وإعطائهم غلاّتها فى كل سنة من ضياع بنى أمية ، وتقسيم أموالهم بينهم على كتاب الله على التناسخ ، ومن مات منهم وُفّر على ورثته . فآنصرف الفتى بما لم ينصرف به أحد من الناس . (طبرى سلسلة ٣ ص ٤٢١)

(٣) سماه فى محاسن الملوك "يزيد" .

(٤) كان الأمير عثمان بن نهيك على حرس المنصور . فلما مات سنة ١٤٠ فى فتنة الراوندية ، آستعمل الخليفة أخاه عيسى هذا على حرسه . وكان ذلك بالهاشمية . وهنالك آبن نهيك آخر آستعمله المهدى وأمره بضرب بشار بن برد حتى قتله . وأما إبراهيم بن عثمان بن نهيك فقد قتله الرشيد لأنه كان يبكى على قتل جعفر البرمكى =

فقال: يا زيد! قلتُ: لَبَّيْكَ يا أميرَ المؤمنين! قال: كم خلَّف أبو يزيدَ من المال؟ قلتُ: ألفَ دينار أو نحوَها. قال: فأين هي؟ قلتُ: أنفقتها الحُرَّة(١) في مأتمه. قال: فآستعظم ذلك، وقال: أنفقتْ في مأتمه ألف دينـار! ماأَعْجَبَ هذا! ثم قال: كم خلَّف من البنات؟ قلتُ: ستًّا. فأطرق مَلِيًّا ثم رفع رأسه وقال: أُغْدُ إلى باب المَهديّ. فغدوتُ فقيل لي: معك بغال؟ فقلتُ: لم أُومَرْ بإحضار بغلٍ ولا غيره، ولا أدْرى لِمَ دُعِيتُ. قال: فأُعْطِيتُ ثمـانين ومائةَ ألفِ دينارٍ، وأُمِرْتُ أن أدفع لكلِّ واحدةٍ من بناتِ عيسى ثلاثين ألف دينار. ففعلتُ. ثم دعاني المنصور فقـال: قَبَضْتَ ما أمرنا به لبنات أبي يزيدَ؟ قلتُ: نعم يا أميرَ المؤمنين! قال: أُغْدُ عليَّ بأكفائهنَّ حتى أُزَوِّجَهن (١١٨)

= وعلى ما وقع للبرامكة. فكان إذا أخذ منه الشراب، يقول لغلامه: هاتِ سيفي! فيسلُّه ويصيح: واجعفراه! ثم يقول: لآخُذَنَّ ثأرك، ولأَقْتُلَنَّ قاتلك! فنَمَّ عليه آبنه عثمان للفضل بن الربيع فأخبر الرشيد، فكان ذلك سبب قتله. (ابن الأثير ج ٥ ص ٣٨٤ و"شذرات الذهب" ج ١ ص ٢٣٠ و"النجوم الزاهرة" ج ١ ص ٥٢٤) وروى صاحب "المحاسن والمساوى" رواية أخرى في وشاية الولد بأبيه للرشيد (ص ٥٩٢).

وأما لفظ "نهيك" فهو " مشتق من النباكة وهي الجُرْأة والإقدام يقال: إنْتَهَكَ فلان فلانا إذا نال من عِرضه وشتمه. ومنه: آنتهـاك المحارم، ونَهَكَتْهُ الحُمَّى إذا أضَرَّتْ به، وأنهكه عقوبةً إذا أوجعه ضربا." (الآشـتقاق لآبن دُرَيد ص ١٢٨)

(١) هذا اللقب كان يُعطى عادة في أيام الدولة الأموية والعباسية لنساء الأُمراء والأشراف والسادات والأكابر. فلما تغلبت الدولة التركيـة في العراق، وفي مصر خصوصا، صار لقب نساء المـلوك "خونده" "خاتون"، "آدر (جمع دار)"، وهذا اللقب الأخير كان خاصًّا بمصر في زمان الممـاليك. وفي عصرنا هذا نقول: "حَرَم." و"هانم" وهما لقبان يطلقان على نساء الأكابر. (أُنظر ص ١٢١ من كتاب "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" المطبوع في باريس)

منهم. قال: فغدوتُ عليه بثلاثة من وَلَد العَكّيّ[1] وثلاثة من آل نَهيك من بني عمّهنّ. فزوّج كلَّ واحدة منهنّ على ثلاثين ألف درهم، وأمر أن يُجعل صداقُهنّ من ماله. وأمرني أن أشتريَ بما أمر لهنّ ضياعًا[2] يكون معاشهنّ منها.

فهل سَمِع هذا الجاهلُ الخائنُ[3] بمثل هذه المكارم لعربيّ أو عجميّ[4]؟ ولو أردنا أن نذكر محاسن المنصور على التفصيل والتقصّي لطال بها الكتابُ وكثُرَتْ فيه الأخبار.

وقلّما استعملتِ العامّةُ وكثيرٌ من الخاصّة التمييزَ، إيثارًا للتقليد. إذ كان أقلَّ في الشُّغْل وأدلَّ على الجهل وأخفَّ في المَؤُونة. وحسبُك من جهل العامّة أنها تُفضّل السمين على النحيف، وإن كان السمينُ مأفونًا[5] والنحيفُ ذا فضائل، وتُفضّل الطويل على القصير، لا للطُّول ولكن لشئ آخرَ لا ندري ما هو، وتُفضّل راكبَ الدابّة على راكب البغل وراكبَ البَغْل على راكب الحِمار، اقتصارًا على التقليد إذ كان أسهلَ في المأتى وأهونَ في الاختيار.

* * *

(١١٩) الأدب في اعتزال الملك ونظام التشريفات

ومن حقّ الملك ــ إذا اعتلَّ ــ أن لا تَطّلِبَ خاصّته الدخولَ عليه في ليلٍ ولا نهارٍ، حتّى يكونَ هو الذي يأمر بالإذن لِمَن حَضَر، وأنْ لا يَرْفَعَ إليه الحاجبُ أسماءهم

---

(١) الظاهر أن العكّيّ المذكور هنا هو مقاتل بن حكيم العكّيّ الذي استخلفه المنصور على حرّان، وقد حاصره بها عبدالله بن عليّ عم المنصور ثم قتله. فهو إذن من أولياء المنصور. (انظر الطبريّ سلسلة ٣ ص ٩٣، ٩٤)

(٢) روى الطبريّ هذه الحكاية حرفا حرفا. (سلسلة ٣ ص ٤٢٠)

(٣) لعل الصواب: المائن، بمعنى الكاذب.

(٤) صـ: آثرنا.

(٥) المأفون الضعيف الرأي والعقل. وفي صـ: مؤوفا. [أي ذا آفة وعاهة].

مبتدئا حتّى يأْذَنَ له . فإذا أَذِنَ له بالدخول ، فمن حقّه أنْ لاتدخُلَ عليه الطبقةُ العاليةُ مع التى دونها ، ولا يدخُلُ عليه من هذه الطبقة جماعةٌ ، ومن غيرها جماعةٌ . ولكنْ على الحاجب أن يُحضِرَ الطبقاتِ الثلاثَ كلَّها أو مَن حضر منها ، ثم يأْذَنُ للعُلْيا جُمْلةً . فإذا دخلتْ ، قامت بحيثُ مراتبُها(١) ، فلم تسلِّمْ عليه فتُحْوِجَهُ إلىٰ ردّ السلام ؛ فإذا علِمتْ أنه قد لاحظها ، دعتْ له دُعاءً يسيرًا مُوجَزًا ، ثم خرجتْ . ودخلتْ التى تليها ، فقامت على مراتبها أقلَّ من قيام الأُولىٰ ، ودعت دعاءً أقلَّ من دعاء الأُولىٰ . ثم دخلتْ بعدهما الثالثة ، فكان حظُّها أن يراها فقط . وليس من عادة الملوك وُقُوفُ هذه الطبقة الثالثة لتأمُّلِ الملك وتدعو له وتنظر إليه . وإنّما مراتبها أنْ يراها فقط .

ومن حقّ المَلك أنْ لا ينصرف أحدٌ من هذه الطبقات إلىٰ رَحْلِه إلاّ فى اليوم (١٢٠) الذى كان فيه ينصرف فى صحة المَلك . وبِٱلْحَرىٰ ينبغى أنْ لايبرحَ(٢) فِناء سيِّده ومالكه ، ٱنتظاراً لإفاقته من عِلّته وفَحْصًا(٣) عن ساعات مرضه .

* * *

جوائز البطانة وصلاتهم

ومن الحقّ علىٰ المَلك تعهُّدُ بِطانته وخاصّته بجوائزهم وصِلاتهم . إن كان ذلك يكون مُشاهرةً أو مُساناةً .

ومن أخلاق المَلك أن يُوكِّلَ بٱدّكاره صِلاتِهم ، ولايُحْوِجَ أحدًا منهم إلىٰ رفع رُقعةٍ أو إذْكار أو تعريضٍ . فإن هذا ليس من أخلاق المتيقِّظ من الملوك .

---

(١) صـ : بجنب .

(٢) راجع الحاشية ١ صفحة ٢٢ من هذا الكتاب عن لفظ "برح" .

(٣) صـ : وتحصى .

سنة ملوك ساسان فى الجوائز

وكانت ملوك آل ساسان يفعلون فى هذا فعلا بَقِيَ لهم ذِكْرُهُ إلىٰ هذه الغاية وإلىٰ انقضاء مدّة العالَم.

فكان الملك منهم يُقـدّر للرجُل من خاصّته وبِطانته تقديرًا وَسَطًا بين الإسراف والاقتصاد فى مُؤَنِهِ كُلِّها، وحوائجه خاصّها وعامّها. فإذا كان التقـديرـ علىٰ الجهة التى وصفنا ـ عشرةَ آلاف درهم فى الشهر، وكانت للرجُل ضيعةٌ، أمر أن يُدفَعَ إليه فى كل ثلاثين ليلة عشرةُ آلاف درهم، لأَنْزاله(١) ونفقاته وحوائجه. ويقول له المَلِكُ: "قد عَلِمنا أنّ الضيعة التى أفدتَها(٢) هى ممـا تقدّم من صِلاتنا لك وقد تسلّفنا شكرَ تلك النعمة منك؛ وليس من العدل أن تكونَ فى خدمتنا، وتكونُ نفقتك من شئ أَفَدْتَهُ(٣) (١٢١) بشكرٍ قد تقـدّم وحُرْمة قد تأكّدتْ. فليكن ما أثمرتْ لك ضيعتُـك ظِهْرِيًّا لنوائب الزمان وتحرُّم الأيّام وانقلاب الدُّوَل وحوادث الموت(٤). ولتكن مُؤَنُك وكُلَفُك(٥) على خاصّ أموالنـا."

وكذلك الطبقات على هذا النظام والإحكام. فيمضى علىٰ أحدهم عشرون سنة لايفتح فاه بطلب درهم ولا غيره، منبسطا(٦) لزمانه مبتهجا بِنِعَم مَلِكه مسرورا بما يكفى عن التّذكار وشكوىٰ الحال(٧).

---

(١) الأَنْزال (جمع نُزُل): القوم النازلون على الإنسان، أو ماهُيِّئ للضيف أن ينزل عليه، كما فى تاج العروس.

(٢) صـ: أخذتها.

(٣) صـ: أخذته.

(٤) سـ: وحوادث الأيام والموت. صـ: وحوادث المؤن.

(٥) صـ: وكُلَّكَ.

(٦) فى صـ: "مستنشطا". وليس لها معنى فى اللغة يوافق هـذا المقام، فلذلك أصلحناها بما اقتضاه الحال. وهى من الكلمات التى تفرّد بها صـ.

(٧) صـ: بمـا كفى من التذكار وشكو الحال.

هدايا المهرجان والنيروز من الملك وله

ومن حقّ الملك هدايا المَهْرجان[١] والنَّيْرُوز[٢].

والعلّة فى ذلك أنّهما فَصْلَا السنَةِ.

فالمهرجان دخولُ الشتاء وفصلِ البرْد، والنيروز إذْنٌ بدخول فصل الحرّ. إلا أن فى النيروز أحوالًا ليستْ فى المهرجان. فمنها آستقبال السنة وآفتتاح الخراج وتولِيَةُ العمّال والآستبدال وضرب الدراهم والدنانير وتذكية بيوت النيران وصبّ الماء وتقريب القربان[٣] وإشادة البنيان[٤] وما أشبه ذلك.

فهذه فضيلة النيروز على المهرجان.

(١٢٢) ومن حقّ الملك أن يُهدَى إليه الخاصَّةُ والعامَّةُ.

والسُّنَّةُ فى ذلك عندهم[٥] أن يهدى الرجُل ما يُحِبُّ من مِلكه، إذا كان فى الطبقة العالية. فإن كان يُحبُّ المِسك، أهدىٰ مسكًا لاغيرَه، وإن كان يحب العنبر،

(١) كلمتان فارسيتان معناهما محبة الروح.

(٢) كلمتان فارسيتان معناهما اليوم الجديد أى رأس السنة.

(٣) صـ : والأخذ بالاسفند. [والذى فى المعجم الفارسى العربى الإنكليزى لرتشاردصن أن الإسْفَنْد هو آسم اليوم الثالث من الخمسة الأيام التى يضيفها الفرس لآخر الشهر الثانى عشر من السنة. ولما كان الشهر عندهم ثلاثين يوما فهم يضمّون خمسة أيام على آخر الشهر من السنة ليجعلوها معادلة للسنة الشمسية. وربما كان الجاحظ يشير إلى حفلة خاصة بالفُرس فى ذلك اليوم بتقريب القربان].

(٤) كل هذه رسوم فارسية نقلها الجاحظ عن آيينهم، بغير ملاحظة لما أخذ المسلمون أو تركوا منها.

(٥) هذا وما يليه يؤيد ما أشرنا إليه فى الحاشية السابقة.

أهدى عنبرا ، وإن كان صاحب بِزّةٍ ولِبْسةٍ (١) ، أهدى كُسْوةً وثيابا ، وإن كان الرجُل من الشُّجَعاء والفُرسان ، فالسُّنّةُ أنْ يُهدَى فَرَسا أو رمحا أو سيفا ، وإن كان راميا ، فالسُّنّة أن يُهدَى نُشّابا ، وإن كان من أصحاب الأموال (٢) ، فالسُّنّةُ أن يُهْدِىَ ذهبًا أو فضة ، وإن كان من عُمّال المَلك ، وكانت عليه موانيذ (٣) للسنة الماضية ، جمعها وجعلها فى بِدْرِ (٤) حريرٍ صينىٍّ وشريحات فضة وخيوط إبْرِيسَم وخواتيم عنبر ثم وجَّهها .

---

(١) صـ : صاحب كسوة وثياب .

(٢) صـ : "أصحاب العمال" . [ولعلها أصحاب الأعمال] .

(٣) وردت هذه الكلمة مهملة فى سـ ، صـ هكذا (مواسذ) ، فوجدناها فى شفاء الغليل (بعد مراجعة غيره من كتب اللغة) هكذا : "مواتيد" وفسرها بقوله "بقايا فى شعر الفرزدق . معرّبٌ ." (ص ٢٠٨) ولكن الناسخ أو الطابع جعلها بالتاء المثناة الفوقية بدلا من النون . وهى واردة على صحتها فى كتاب "المُعرّب من الكلام الأعجمى" للإمام الجواليقى (طبع العلامة الألمانى سخاو بمدينة ليبسك سنة ١٨٦٧ فى صفحة ١٤٣) وقد استشهد عليها ، بقول الفرزدق .

"خَرَاجُ مَوَانِيذِ عَلَيهِمْ كثيرةِ * تُشَدُّ لها أيدِيهِمُ بالعوائقِ" .

وقد رأيتُ هذا البيت فى قصيدة طويلة فى مدح عمر بن هُبَيْرَةَ الفزارىّ ، ضمنَ ديوان الفرزدق الذى طبعه باللغة العربية وترجمه إلى الفرنسيّة العلامة المستشرق المسيو بوشيه (R. Boucher) فى باريس سنة ١٨٧٠ . (أُنظر صفحة ٢٣٨ من القسم العربى و ٧١٧ من القسم الفرنسى) . وقد ظنّ هذا العالم أن الكلمة ربما كان الأصحّ فى كتابتها الدال المهملة بدلا من المعجمة ، وظنّ أنها تعريب كلمة "مانده" الفارسيّة . وأقول إن العرب يجعلون الدال ذالا عند التعريب (مثل أُستاذ ، تلميذ ، فالوذج ، فولاذ ، بغداذ ، كلواذ ، مروالروذ الخ) . وأما الاصل الفارسىّ فهو "مانده" من مصدر "مانيدن" بمعنى البقاء ، وجمعوا الكلمة بعد تعريبها على "موانيذ" بجعل الدال ذالا جريًا على عادتهم فى التعريب .

(٤) صـ : بيت .

وكذلك، إنما كان يفعل من العمّال مَن أراد أن يتزيّن بفضل نفقاته أو بفضل عُمالته أو أداء أمانتـه.

وكان يُهدى الشاعرُ الشعرَ، والخطيبُ الخُطْبَةَ، والنديم التُّحفة والطُّرفة والباكورةَ من الخَضْرَاوات.

(١٢٣) وعلىٰ خاصّة نساء المَلك وجواريه أن يهدين إلىٰ الملك ما يُؤْثِرْنَهُ ويُفَضِّلْنَهُ[(١)] كما قدّمنا فى الرجال. غير أنه يجب علىٰ المرأة من نساء الملك ــ إن كانت عنـدها جاريةٌ تَعْلَمُ أن الملك يَهواها ويُسَرُّ بها ــ أن تُهديَها إليه بأكمل حالاتها وأفضل زِينتها وأحسن هيآتها. فإذا فعلتْ ذلك، فمن حقّها علىٰ المَلك أن يُقَدِّمَها علىٰ نسائه ويَخُصَّها بالمنزلة ويَزيدَها فى الكرامة، ويَعْلَمَ أنها قد آثرته علىٰ نفسها وبذلتْ له ما لا تجود النفس به وخصّته بما ليس فى وُسع النساء ــ إلّا القليل منهنّ ــ الجودُ به.

ومن حق البِطانة والخاصّـة علىٰ المَلك فى هذه الهدايا أنْ تُعْرَض عليه وتقوَّم قيمةَ عَدْلٍ.

فإذا كانت قيمة الهدية عشرةَ آلافٍ، أُثْبِتَتْ فى ديوان الخاصّة. فإن كان صاحبها ممن يرعبْ فى الفصل ويذهب إلى الربح ثم نابته نائبة من مُصيبة يُصاب بها أو بناء يتخذه[(٢)] أو مأدبة يأْدِبها[(٣)] أوعُرس يكون من تزويج ٱبنٍ أو إهداءِ ٱبنةٍ إلىٰ بَعْلها، نُظِرَ إلىٰ ما له فى الديوان (وقـد وُكِّلَ بذلك رجُلٌ يرعىٰ هذا وما أشبهَهُ ويتعهّدُه)، فإذا كانت قيمة الهديّة عشرةَ آلافٍ، أُضْعِفَتْ له ليستعينَ بها علىٰ نائبته.

---

(١) سـ : يؤثر به و بفضيلته.

(٢) سـ : يجدّده.

(٣) فى سـ : يجدّدها. وليست فى صـ.

(١٢٤) وإن كان الرجُلُ ممن أهدىٰ نُشَّابةً أو درهما أو تُفَّاحة أو أُتْرُجَّة، فإن تلك الهديّة إنما قدّمها لتُثْبَتَ له فى الديوان، ويُخْبَرَ الملكُ إنْ نابتْه نائبةٌ. فعلىٰ الملك إعانته عليها، إذا كان من أساورته وبِطانته أو محدِّثيه. فإذا رُفع للملك أن له فى الديوان نُشَّابةً أو درهمًا أو أُتْرُجَّةً أو تُفَّاحةً، أَمَرَ المَلِك أن تؤخذ أُتْرُجَّةٌ فتُملأَ دنانيرَ منظومةً ويوجَّهَ بها إليه. وكان لا يُعْطى صاحبَ التُّفَّاحة إلا كما يُعطى صاحبَ الأُتْرُجّة. وأما صاحب النُّشَّابة فكانت تخرج نُشَّابتُه من الخزانة وعليها ٱسمه، فتُنْصَبُ ويوضعُ بإزائها من كِسوةِ المَلِك ومن سائر الكِساء. فإذا ٱرتفعتْ حتّىٰ توازِىَ نَصْلَ النُّشَّابة، دُعِىَ صاحِبُها فدُفِعتْ إليه تلك الكِسوة.

وكان من تقـدّمتْ له هديّةٌ فى النيروز والمهرجان (صَـغُرَتْ أم كَبُرَتْ، كَثُرَتْ أم قلَّتْ)، ثم لم يَخْرُجْ له من الملك صِلةٌ عند نائبةٍ تنوبه أو حقٍّ يلزمه، فعليه أن يأتىَ ديوان الملك ويُذَكِّرَ بنفسه، وأنْ لا يغفلَ عن إحياء السُّنَّة ولزوم الشريعة. وإن غَفَلَ عن أمره بعارِض يحدُثُ، فإن تَرَكَ ذلك علىٰ عَمْدٍ، فمن سُـنَّةِ الملك أن يحرِمَه أرزاقه لستَّةِ أشهرٍ، وأن يدفعها إلىٰ عَدُوٍّ، إن كان له. إذ أتىٰ شيأً فيه شينٌ علىٰ المَلِك وضَعَةٌ فى المملكة.

(١٢٥) وكان أردشـير بن بابك وبَهْرام جور وأنوشروان يأمرون بإخراج ما فى خزائنهم فى المهرجان والنيروز من الكُسَى فتُفرَّقُ كلُّها علىٰ بِطَانة الملك وخاصَّته، ثم علىٰ بِطَانة البِطَانة، ثم علىٰ سائر الناس، علىٰ مراتبهم.

وكانوا يقولون: إن المَلِك يَستغنى عن كِسوة الصيف فى الشتاء، وعن كِسوة الشتاء فى الصـيف؛ وليس من أخلاق الملوك أن تُخَبِّأَ كِسوتَها فى خَزَائنها، فتُساوِى العامّة فى فعلهـا.

فكان يلبس فى يوم المهرجان الجديد من الخزّ والوشْيِ والمُلْحَم. ثم تفرّق كسوة الصيف علىٰ ماذكرنا.

فإذا كان يوم النيروز، لبس خفيف الثياب (١) ورقيقها، وأمر بكسوة الشتاء كلها ففُرِّقت.

أمير مسلم اقتدى بالفرس فى تفريق كسوته

ولا نعلم أنّ أحدًا بعدَهم اقتفىٰ آثارهم، إلّا عبدَ الله بن طاهرٍ، فإنى سمعت من محمد آبن الحسن بن مُصْعَبٍ (٢) يذكر أنه كان يفعل ذلك فى النيروز والمهرجان، حتّٰى لا يترك فى خزائنه ثوبًا واحدًا إلّا كساه. وهذا من أحسن ماحُكِيَ لنا من فضائله.

* * *

ومن أخلاق الملوك اللّهْوُ.

لهو الملوك

غير أنّ أسعدهم مَن جعل للهوه وقتًا واحدًا، وأخذ نفسه بذلك. فإنه إذا فعل ذلك، آستطاب اللهوَ والهزلَ والمفاكهةَ. وإذا أدْمَنَ ذلك، خرج به اللهوُ من بابه حتّٰى يجعله جِدًّا لا هَزْلَ فيه، وحقًّا لا باطلَ معه، وخُلُقًا لا يمكنه الآنصرافُ عنه.

(١٣٦)

وليس هذا صفة الملك السعيد.

ترك الإدمان فى اللذة

وَمَن أدمَنَ شيأً من ملاذّ الدنيا، لم يَجِدْ له من اللذة (٣) وُجُودَ القَرِمِ النَّهِم المُشتاق.

وهذا قد نراه عِيانًا. وذلك أن ألذّ الطعام وأطْيَبهُ ما كان علىٰ جوعٍ شديدٍ؛ وألذّ الجماع وأطيبه، إذا آشتدّ الشَّبَقُ وطالت العُزْبةُ (٤)؛ وألذّ النوم وأهنأه ما كان بِعقب التعَب والسهر.

---

(١) صـ : ثياب سابور.

(٢) راجع حاشية ٢ من ص ٧٤ من هذا الكتاب وقد أورد آسم الأب هنا بلفظ "الحسن" على صحته.

(٣) صـ : اللذة وجودة الطعم وجودة النوم.

(٤) صـ : الغربة.

وعلىٰ هذا جميعُ ملاذِّ الدنيا .

فالملوك الماضية إنما جعلتْ للملاذِّ وقتاً واحدًا من اليوم والليلة ، لهذه الفضيلة التى فيها .

فعلىٰ الملك السعيد أن يقسم يومه أقساما . فأوّلُه لذكر الله تعالىٰ وتعظيمه وتهليله ، وصدرُهُ لرعاياه وإصلاح أمرها ، ووَسَطُه لأكله ومنامه ، وطَرَفُهُ لِلَهْوِهِ وشغله . وأنْ لا يُثابر علىٰ إدمان الشغل فى كلِّ يوم . وإن طالت هذه الأقسام بمواضعها ، فلا يجد للهو لذته ، ولا للنعيم موضعه الذى هو به .

⁂

(١٢٧) سيرة الملوك والخلفاء فى الشرب

وكانت الملوك الماضية من الأكاسرة تشرب فى كلِّ ثلاثة أيامٍ يومًا ، إلّا بَهْرام جور والأَرْدَوان الأحمر[1] وسابور . فإنهم كانوا يُدْمِنون الشُّرْب فى كلِّ يوم .

وكان ملوك العرب (كالنُّعمان) وملوك الحِيرة وملوك الطوائف ، أكثرُها يشْرَبُ فى كلِّ يومٍ وليلةٍ مرّةً[2] .

وكان من ملوك الإسلام ، مَن يُدْمِنُ علىٰ شُربه ، يزيد بن معاوية . وكان لا يُمْسى إلّا سكرانَ ، ولا يُصبح إلّا مخموراً .

وكان عبد الملك بن مَرْوان[3] يسكَر فى كلِّ شهر مرّةً حتّى لا يَعْقِل فى السماء هو

(١) لعلّ الصواب : الاصغر . (أُنظر حاشية ٦ صفحة ٢٩ ، وصفحة ١١٨ من هذا الكتاب) .

(٢) صـ : فى كل جمعة يوما وليلة .

(٣) صـ : عبد الله .

أو فى المــاء(١)، ويقول: "إنمــا أقصد فى هذا إلىٰ إشراق العقل، وتقوية مُنَّة الحفظ، وتصفية(٢) موضع الفكر." غير أنه كان إذا بلغ آخِر هذا السُّكْر(٣)، أفرغَ ما كان فى بدنه حتّى لا يبقىٰ فى أعضائه منــه شئ. فيُصْبِحُ خفيفَ البَــدَن، ذَكِىَّ العقل والذهن، نشيطَ النفس، قوىَّ المُنَّة.

وكان الوليد بن عبد الملك يشرَبُ يومًا ويدَعُ يومًا

وكان سليمان [بن عبد الملك] يشرب فى كلّ ثلاثِ ليالٍ ليلةً.

ولم يشرَبْ عمر بن عبد العزيز منــذُ أفضتْ إليه الخلافةُ إلىٰ أن فارق الدنيا، ولا سَمِــع غِناءً.

*(٤)وكان هشام يسكر فى كلّ جمعة.

وكان يزيد بن الوليد والوليد بن يزيد يُدمنان اللهو والشرب.*(٤) فأما يزيد بن الوليد، (١٢٨)
فكان دهرَه بين حالَيْن، بين سُكْرٍ وخُمَارٍ، ولا يُوجَد أبدًا إلّا ومعه إحدىٰ هاتَيْنِ.

وكان مرْوان بن محمد يشرَب ليلةَ الثلاثاء وليلة السبت.

وكان أبو العباس [السفّاح] يشرَب عَشِيَّةَ الثلاثاء وحدَها(٥)، دون السبت.

---

(١) صـــ: الأرض.

(٢) صـــ: وتقوية وتصفية.

(٣) صـــ: آخر حدّ السكر.

(٤) هاتان الجملتان المحصورتان بين نجمتين * * منقولتان عن صـــ.

(٥) صـــ: وحدها فى كل جمعة.

*(١) وكان المهدىّ والهادى يشربان يومًا، ويدَعان يومًا.

وكان الرشيد يشرب فى كل جمعة مرتين. وربما قدّم أيامه وأخّرها. على أنه لم يَرَه أحدٌ قطُّ يشرب ظاهرًا، إلّا أنه كان يقعد هذين اليومين لندمائه.(٢)

وكان المأمون فى أوّل أيامه يشرب الثلاثاء والجمعة. ثم أدمن الشرب عند خروجه إلى الشام فى سنة خمس عشرة [ومائتين] إلى أن تُوُفِّىَ.

وكان المعتصم لايشرب يوم الخميس ولا يوم الجمعة.

وكان الواثق ربما أدمن الشرب وتابَعَه. غير أنه لم يكن يشرب فى ليلة الجمعة ولا يومها.*

* * *

لبس الملوك

وأخلاق الملوك تختلف فى اللِّبْسة والطِّيب.

فمن الملوك مَن كان لا يَلْبَسُ القميص إلّا يومًا واحدًا أو ساعةً واحدةً. فإذا نزعه لم يَعُدْ إلى لُبْسه.

ومنهم مَن كان يَلْبَسُ القميص والجُبَّة أيامًا، فإذا ذهب رَوْنَقُه(٣) رمى به فلم يلبَسْه بعدُ.

فأما أردشير بن بابك ويَزْدَجِرْد وبَهْرام وكسرى أَبْرَوِيز وكسرى أَنُوشِرْوان

(١) هذه الفقرات الخمس المحصورة بين نجمتين ** منقولة عن صـ.

(٢) وانظر حاشية ٥ ص ٣٧ من هذا الكتاب.

(٣) صـ : رونقه و بعض مائه رمى. [ولعله : و بعض بهائه رمى]

وقُبَاذ، فإنهم كانوا يَلْبَسُون القميص ويُغسَل لهم ثم يَلْبَسونه ويُغسَل لهم . فإذا غُسِل ثلاث عَرَكاتٍ[١] لم يُغسَلْ بعدَها، وجُعِل في الخِلَع التي تُخْلَعُ على الوَلَد والقرابات والعمّ وابن العمّ والأخ وابن الأخ . ولم يكونوا يخلعون ما قد لَبِسوه إلّا على القرابات من أهل بيتِ المملكة خاصّةً، لا يُجاوزونهم إلى غيرهم . فأما الخِلَع التي تُقطَع وتُتَّخذ للطبقات وسائر الناس، فتيك صِنْفٌ آخَرُ.

(١٢٩) وكان ملوك العرب منهم مَن يَلْبَسُ القميص مرارًا ويُغسل له غَسَلاتٍ: معاويةُ وعبدُ الملك وسليمانُ وعمرُ بن عبد العزيز وهشامٌ ومروانُ بن محمدٍ وأبو العباس وأبو جعفر والمأمونُ.

فأما يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد والمهديّ والهادي والرشيد والمعتصم والواثق فإنهم كانوا لا يَلْبَسون القميص إلا لَبْسَةً واحدةً، إلا أن يكون الثوب نادرا مُعْجَبًا غريبًا.

فأما الجِباب والأرديَة، فلم تزل الملوك تلبَسُها السَّنةَ أو أكثرَ أيَّام السَّنة. ومنهم مَن كان يَلْبَس الجُبَّة والمِطْرَف[٢] السنينَ الكثيرةَ . وليس الجباب والأردية كالقميص والسراويل. لأن القميصَ والسراويل هما الشِّعَار، وسائرَ الثياب الدِّثارُ. ولذلك كره من كره إعادة[٣] لُبْسها

(١) أي مرّات. والعركة المرة الواحدة. وفي صـ : مرات.

(٢) هو رداء من خز مربّع له أعلامٌ. ولم يذكره دوزي Dozy في "معجم أسماء الثياب عند العرب".

(٣) سـ : إتادة.

* * *

تطيب الملوك

وأخلاق الملوك فى العطر ومسّ الطّيب وتغلّل الغالية(١) تختلف.

فمن الملوك مَن إذا مَسَّ الطِّيبَ وتغلّل(٢) بالغالية لم يَعُدْ إلىٰ مَسّ طيبٍ ما دام عَبَقُها فى ثوبه.

ومن الملوك مَن كان إذا مَسَّ الطِّيبَ وتغلل(٢) بالغالية فتضوّعتْ منه وعَلِقَتْ بثيابه، أمر بصبِّ ماء الورد(٣) علىٰ رأسه حتّى يسيل. فإذا كان من غَدٍ، فعل مثلَ ذلك. (١٣٠)

فأما مَن كان لا يَمَسُّ طِيبا مادام يجد عَبَقَ الطِّيب فى ثيابه: فأردشير بن بابك وقباذُ [بن فيروز] بن يزدجرد وكسرىٰ أبرويز وكسرىٰ أنوشروان؛ ومن ملوك العرب: معاويةُ وعبدُالملك والوليدُ وسليمانُ وعمرُ بن عبد العزيز وهشامٌ ومروانُ [بن محمد]؛ ومن خلفاء بنى العباس: أبو العباس وأبو جعفر والمأمونُ.

وكان المعتصم قلّما يَمَسُّ الطِّيبَ. وكان يذهب فى ذلك إلىٰ تقوية بَدَنِه وإعانته علىٰ شدّة البطش والأَيْد. وأما فى أيام حروبه، فكان مَن دنا منه وجد رائحة صدإ السلاح والحديد من جسمه.

(١) فى حاشية صـ: "أبو نصر: سألتُ الأصمعىّ هل يجوز تغلّلتُ من الغالية؟ قال: إن أردتَ أنك أدخلتَها فى لحيتك أو شاربك، فجائز. وكذلك غلّلتُ بها لحيتى؛ شُدِّد للكثرة. صحاح.

(٢) فى تاج العروس: غلّ الدُّهْنَ فى رأسه أدخله فى أصول شعره، وغلّ شعره بالطيب أدخله فيه". [وانظر صفحة ٦٧ من هذا الكتاب والحاشية ٢ منها].

(٣) صـ: الماورد. [وقد استعمل الكُتّاب هذا التركيب المزجىّ ونسبوا إليه فقالوا: الماوردىّ].

***

زيارة الملوك تكرماً لرجالهم، وأنواعها

ومن أخلاق الملوك الزيارةُ لمن خُصَّ بالتكرمة منهم وآثروه المنزلة ورفع المرتبة.

وزيارة الملك على أربعة أقسام: فمنها الزيارة للطاعمة والمنادمة، ومنها الزيارة للعيادة، ومنها الزيارة للتعزية في المصيبة(١)، ومنها الزيارة للتعظيم فقط.

وأكبر هذه الأقسام وأرفعها ذكراً الزيارةُ للتعظيم.

(١٣١) لأن هذه الأقسام الثلاثة أكثر ما تقع وتتفق بسؤال المزور المَلِكَ وتَلَطُّفِه(٢) في ذلك.

---

(١) من هذا القبيل ما تفضّل به مولانا الخديو المعظَّم الحاجّ عبّاس حلمي الثاني على المأسوف عليه بطرس غالي باشا رئيس مجلس النظار وناظر الخارجية سابقا، بعد أن آغتالته يدٌ أثيمة في ١٠ صفر سنة ١٣٢٨ (٢٠ فبراير سنة ١٩١٠). فقد يمّم المستشفى (حفظه الله) بموكبه الجليل في يوم إصابته، ثم تنازل بالتوجه إلى دار الفقيد بالفجّالة في القاهرة، عقب مماته في ١٢ صفر (٢٢ فبراير) وواسى بنفسه أولاد القتيل وقرابته. فخفف بذلك مُصابهم الجَلَل، وأعرب عن جميل عنايته بجميع صنوف رعيته.

ولقد آتّفق مثل هذا الصنيع الجميل، في حادث من هذا القبيل، لأحد السابقين من ملوك النيل، وهو السلطان الملك الناصر حسن صاحب الجامع الأشهر القريب من القلعة. وذلك أنه في يوم الاثنين ١١ شعبان سنة ٧٥٨ ﻫ حاول أحد المماليك آغتيال رئيس الحكومة وصاحب الحلّ والعقد في ديار مصر، وأعني به الأتابكيّ سيفَ الدين شيخو العُمريّ (وهو أوّل من تلقّب بآسم أمير كبير، وكانت وظيفته إذ ذاك تعادل رياسة مجلس النظار في أيامنا هذه)، فضربه وهو في الإيوان في يوم الموكب بالسيف في وجهه ثلاث ضربات. فوقع الأتابكيّ إلى الأرض مغشيًّا عليه. فحملوه إلى بيته وبه بعض رمق. وهنالك ضمّدوا جراحاته. فنزل السلطان من القلعة في اليوم التالي وذهب بموكبه إلى داره وترجّل عن فرسه وواسى رئيس حكومته. ولكنّ الأتابكيّ مات في يوم الجمعة ١٦ ذي القعدة من السنة المذكورة. فآحتفل السلطان بجنازته وحضرها بنفسه وصلّى عليه قبل دفنه. (راجع ابن إياس ج ١ ص ٢٠٤ — ٢٠٥)

(٢) في س، ص: تلففه.

وربما رَفع الملكُ مرتبةَ الوزير وخصّه وقدّمه علىٰ سائر بطانته (١)، فيكون من حِيَل الوزير أن يتعالل فيعودهُ الملك، فيُظْهِرَ للعامّة منزلته عنده وتكرمته إيّاه وإيثاره له.

وأيضا، فقلَّ مَلِكٌ سأله وزيرهُ أو صاحبُ جيشه أو أحدُ عظمائه زيارتَه إلّا أجابه إلىٰ ذلك، و[لا] سِيَّمَا (٢) إذا علم أنّ غرضَه فى ذلك الزيادةُ فى المرتبة والتنويهُ بالذكر.

فإذا كانت الزيارةُ من المَلِك علىٰ أحد هـذه الأقسام الثلاثة، فهى منزلةٌ كان صاحبُها يحاولها فبلغها، وأُمْنِيَّةٌ (٣) طلبها فأدركها.

فأما الزيارة للتعظيم، فإنها لاتقع بسؤالٍ ولا بإرادةِ المزور. إذ كان ليس من أخلاق وزيرٍ ولا شريفٍ أن يقول للملك: زُرْنى لتعظِّمَنى، ولترفعَ فى الناس من ذِكرِى وقدْرى.

فإذا كان ذلك من المَلِك آبتداءً، فقد علمنا أن تلك أرفعُ مراتب الوزراء، وأفضلُ درجات الأشراف (٤).

---

(١) سـ: وقرّبه.

(٢) [أُنظر الحاشية ٣ ص ٤٥ من هذا الكتاب].

(٣) صـ: يأملها.

(٤) يدخل فى هذا الباب ماتكرم به أيضا الخديو المعظم الحاجّ عبّاس حلمى الثانى على عبده وصنيعته، وغرس نعمته، وخادم دولته، محمد سعيد باشا رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية الحالىّ. فقد زاره بمنزله فى رمل الإسكندرية فى ١٥ رمضان سنة ١٣٢٩ (٨ سبتمبر سنة ١٩١١). وقد جمعتْ هذه الزيارة مزيّتَيْن فى آنٍ واحدٍ: مزية التكريم ومزيّة العيـادة اللتين أشار إليهما الجاحظ. ولقد كانت هذه الزيارة على غيرِ آنتظار ألْبَتّةَ.

وكنتُ حاضرًا ليلتها فى دار الوزير، وهو لا يعلم بذلك. لأنه قبل تشريف المليك بهنيهة، كان بملابس نومه. فما هو إلا أن فاجأنا الخبر بالتلفون، مبشرا بهذه الزيارة الجليلة. وقد كانت بعد ذلك بدقائق.

وذلك لعمرى يشابه كثيرا من الأيادى البيضاء التى أسداها الخلفاء والسلاطين فى مصر إلى رجالات دولتهم. أكتفى بذكر مثال واحد يضارع هذه الأُكرومة. وذلك أن السلطان قايتباى الشهير بمآثره الجليلة فى خدمة العلم والأدب والفنون الجميلة نزل من قصره بالقلعة فى شهر رمضان سنة ٨٧٣ هـ لزيارة الأمير يشبك الدوادار الكبير، بمناسبة التوعك الذى حصل فى جسده. وكان هذا الأمير قد جمع فى يده أكبر وظائف الدولة على ذلك العهد، وهى: الاستادارية، والدوادارية، والوزارة، وكشوفية الكشاف. وقد عظم أمره جدًا حتى قال فيه آبن إياس: "ما أظنّ أن هذه الوظائف قد جُمعت لأحد من الأمراء قبله." (أُنظر "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" ج ٢ ص ١٠٧–١٠٨)

وكان أردشير وأنوشروان إذا زارا وزيراً من وزرائهما أوعظيما من عظمائهما للتعظيم لالغيره، أرّخت الفرس تلك الزيارة، وخرجت بذلك التاريخ كُتُبهم إلى الآفاق والأطراف.

وكانت سُنّة مَن زاره المَلك للتعظيم أن تُوغَر(١) ضياعهُ وتُوسَم خيلُه ودوابُّه لئلا تُسخَّر، ولا تُمتَهَن.(٢) ويأتيه خليفةُ صاحب الشُّرْطَة فى كلِّ يوم مع ثلاثمائة راكبٍ ومائة راجلٍ، يكون ببابه إلى غروب الشمس. فإن ركبَ كانت الرجّالة(٣) مُشاةً أمامَهُ، والركبان من خلفه؛ ولا يُحبس أحدٌ من حامّته وخاصّته(٤) لجناية جناها؛ ولا يُحكَم على أحدٍ من عبيده بحُكمٍ؛ وإن وجب على أحدٍ من بطانته حدٌّ، وُجِّهَ به إليه ليرى فيه رأيه؛ ويُؤخَّر عليه وظيفةُ ماعليه من خراج أرضه حتّى يكون هو الحامل له؛ وتُقدَّم هداياه فى النيروز والمهرجان على كلِّ هديّة وتُعرَض على المَلك؛ ويكون أوّلَ مَن يأذَنُ له الحاجبُ؛ ويكون من المَلك إذا ركبَ عن يمينه منزويًّا؛ وتكون مرتبتُه إذا قعد عن يمينه؛ وإذا خرج من دار المملكة، لم يقعُدْ بعدَه أحدٌ. (١٣٢)

---

(١) فى س: "توعر" وفى ص: "يوغر". يقال أوغر المَلكُ الرجُلَ الأرضَ: جعلهاله من غير خراجٍ، أو هو أن يُؤدِّىَ الخراج إلى السلطان الأكبر فراراً من العُمّال (قاموس). وهذا المعنى الثانى هو الذى أراده الجاحظ، لقوله بعد ذلك بخمسة أسطر: "ويؤخر عليه وظيفة ماعليه من خراج أرضه حتى يكون هو الحامل له".

(٢) ص: ولا تهون.

(٣) ص: الرجال.

(٤) س: وعامته.

* وكانت ملوك آل ساسان لاتزور أحدًا لعلّةٍ من هذه العلل التى قدّمنا ذكرها، فينصرف بخِلعة[1] أو طِيبٍ أو تحفةٍ أو هديّةٍ من جاريةٍ أو غلام. غير أنه كان إذا نزل الملك، وطّأ لرِجْله[2] فرسًا رائعا بسرجٍ مُذْهَبٍ وأداةٍ تامّةٍ، فقُدِّم إليه إذا أراد الآنصراف. فكان الأمر كذلك، حتّى ملك بهرام بن يَزْدجِرد. فكان ينادم الأساورة من أبناء أهل الشرف، فيخلع عليـه[3] فى كلّ ساعةٍ خِلعة مجدَّدة، ويشتهى الزامرةَ والمغنّية والرقاصةَ فيأخذُها. وكان أوّلَ مَن أطلق يدَه فى ذلك، لغَلَبَة اللهْو عليه وإيثارِه هواه.

فأما مَن كان من ملوكهم قَبْلَه، فعلى الأمر الذى ذكرنا والحكاية التى أدّيْنا.[4] *

⁂

استقبال الناس فى الأعياد

ومن أخلاق الملك القعود للعامّة يومًا فى المهرجان، ويومًا فى النيروز. ولا يُحْجَبُ عنه أحدٌ فى هذيْن اليوميْن من صغيرٍ ولا كبيرٍ، ولا جاهلٍ ولا شريفٍ.[5]

وكان المَلك يأمر بالنـداء قبل قعوده بأيامٍ، ليتأهّبَ النـاس لذلك. فيُهيِّئُ الرجُلُ القِصّة، ويهيّئُ الآخَر الحُجّة فى مظلمته، ويصالحُ الآخَر صاحبَه إذا علم أن خَصمه (١٣٣)

(١) لعلّه: فتنصرف. وبقية الكلام يدلّ على أن الضمير هنا يرجع للملوك ولعل الفاعل مقـدّر ويكون المعنى: فينصرف الملك منهم.

(٢) أى: وطأ المزور لرِجْل الملك الزائر.

(٣) أى الأُسوار المزور.

(٤) هذه الفقرة المحصورة بين نجمتين ** منقولة عن ص.

(٥) وهذا أيضا من منقولات الجاحظ عن آيين الفرس.

يتظلَّم منه إلىٰ المَلك. فيأمُرُ الموبَذَ أن يُوكِّل رجالا من ثقات أصحابه فيقفون بباب العامّة، فلا يُمْنَع أحدٌ من الدخول علىٰ المَلك. وينادى مُناديه: "مَن حَبَس رجُلاً عن رفع مظلمته، فقد عصىٰ الله وخالف سُنَّة الملك؛ ومَن عصىٰ الله، فقد أَذِنَ بحربٍ منه ومن الملك."

التظلم من الملك إلى القاضي

ثم يُؤْذَنُ للناس وتُؤْخَذُ رِقاعُهم، فينظرُ فيها. فإن كان فيها شئٌ يُتَظَلَّمُ فيه من المَلك، بُدِئَ به أوّلاً، وقُدِّم علىٰ كلِّ مظلمة. ويُحضِرُ المَلكُ الموبَذَ الكبير والدَّبيربذ[1] ورأس سَدَنة بيوت النار، ثم يقوم المنادى فينادى: "ليعتزلْ كلُّ مَن تظلَّمَ من الملك!" فيمتازون. ويقوم المَلك مع خصومه حتّى يجثُوَ بين يدَى الموبَذ فيقول له: "أيها المُوبَذُ، إنه ما من ذنب أعظمَ عند الله من ذنب الملوك! وإنما خوّلها الله تعالىٰ رعاياها لتدفع عنها الظلم وتَذُبَّ عن بيضة المُلْك جَوْرَ الجائرين وظُلْمَ الظالمين. فإذا كانت هى الظالمة الجائرة، فَحُقَّ لِمَنْ دونها هدمُ بيوت النيران، وسلْبُ ما فى النواويس من الأكفان. (١٣٤) ومجلسى هذا منك — وأنا عبدٌ ذليلٌ — يشبه مجلسك من الله غدًا. فإنْ آثرتَ الله آثرك، وإن آثرت الملك عذّبك."[2] فيقول له المُوبَذ: "إن الله إذا أراد سعادة عباده، آختار لهم خير أهل أرضه. فإذا أراد أن يعرِّفهم قدْره عنده، أجرىٰ علىٰ لسانه ما أجرىٰ علىٰ لسانك." ثم ينظر فى أمره وأمر خَصمه بالحقّ والعدل. فإن صَحّ علىٰ الملك،

(١) شـ، صـ: الدمربذ. [وآنظر صفحة ٧٧ من هذا الكتاب وحاشية ٢ منها، وصفحة ١٧٣ منه أيضا].

(٢) فى "محاسن الملوك" أن الخصم هو الذى يقول ذلك الكلام للقاضى، لا الملك. (ص ٣٩)

شيءٌ أخذه به، وإلّا حبس[1] مَن آدّعى عليه باطلًا، ونكّل به. ونُودي عليه: "هذا جزاء

(١) في تواريخ الإسلام غرر كثيرة من هذا القبيل. فالخلفاء وآل بيتهم والملوك ووزراؤهم كانوا يساوون أقلّ الخصوم في مجلس القاضي ويجري عليهم الحكم الشرعيّ كما يجري على سائر الناس. فقد تحاكم عليّ بن أبي طالب أمامَ عُمر بن الخطاب (مستطرف ج ١ ص ١١٨)، ثم تحاكم وهو خليفة مع ذميّ أمام القاضي شريح (ابن خلكان في ترجمة شريح)؛ وتحاكم هشام الأمويّ مع صاحب حرسه أمام القاضي في دار الخلافة (ابن عبد ربه ج ٢ ص ٣٣٩)؛ وخاصم رجل من حلوان مصر الخليفة عمر بن عبد العزيز وتوجها معا الى مجلس القاضي فساوى بينهما في كل شيء وقضى للرجل عليه (المحاسن والمساوى ص ٥٢٥، وفيها وفيما يليها وقائع أخرى من هذا القبيل لعمر بن الخطاب)؛ وتحاكم المأمون بين يدي القاضي يحيى بن أكثم "محاضرات" الراغب ج ١ ص ١٢٤ و"المحاسن والمساوى" ص ٥٣٢ "والمستطرف" ج ١ ص ١١٩؛ وتحاكم إبراهيم بن المهديّ مع بختيشوع الطبيب عند القاضي أحمد بن أبي دؤاد "العقد الفريد" ج ١ ص ٣٣؛ وتحاكم الوزير آبن الزيات في مجلس القضاء، وفي دار الوزارة "محاضرات" الراغب ج ١ ص ١٢٣ و ١٢٤؛ وتحاكم الأشعث عند شريح القاضي "العقد الفريد" ج ١ ص ٣٤. والأمر أشهر من أن يذكر، والوقائع أكثر من أن تحصر.

وأبدع من ذلك كله ما جرى بالقاهرة في أيام الأيوبيين فقد روى السيوطيّ أنه في سنة ٦٣٩ للهجرة تولى عبد العزيز المعروف بعز الدين بن عبد السلام المشهور بسلطان العلماء قضاء مصر والوجه القبليّ. وكان قدم في هذه السنة من دمشق بسبب أن سلطانها الصالح إسماعيل آستعان بالفرنج وأعطاهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف، فأنكر عليه الشيخ عز الدين وترك الدعاء له في الخطبة، وساعده في ذلك الشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكيّ. فغضب السلطان منهما، فخرجا إلى الديار المصرية، فأرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين (وهو في الطريق) قاصدًا يتلطف به في العود إلى دمشق. فآجتمع به ولاينه، وقال له: ما نريد منك شيأً إلا أن تنكسر للسلطان وتقبّل يده لا غير. فقال الشيخ له: يامسكين! "ما أرضاه يقبل يدي فضلا عن أن أُقبل يده! ياقوم، أنتم في واد وأنا في واد! والحمد لله الذي عافانا مما آبتلاكم به!" فلما وصل إلى مصر، تلقاه سلطانها الصالح نجم الدين أيوب وأكرمه وولّاه قضاء مصر. فآتفق أن أُستاذ داره فخر الدين عثمان بن شيخ الشيوخ (وهو الذي كان إليه أمر المملكة) عمد إلى مسجد بمصر، فعمل على ظهره =

مَن أراد شَيْن المَلك، وقَدَح فى المملكة!"(١)

= بناء طبلخاناه، و بقيتْ تضرب هنالك. فلما ثبت هذا عند الشيخ عزالدين، حكم بهدم ذلك البناء وأسقط فخر الدين، وعزل نفسه من القضاء. ولم تسقط بذلك منزلة الشيخ عند السلطان. وظن فخر الدين وغيره أن هذا الحكم لا يُتأثَّر به فى الخارج. فاتفق أنْ جهز السلطان رسولا من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد. فلما وصل الرسول إلى الديوان، ووقف بين يَدَيِ الخليفة وأدّى الرسالة له، خرج إليه وسأله: هلْ سمعتَ هذه الرسالة من السلطان؟ فقال: لا، ولكن حَمَّلَنيها عن السلطان فخرُ الدين ابن شيخ الشيوخ، أستاذ داره. فقال الخليفة: إن المذكورَ أسقطه ابن عبد السلام، فنحن لا نقبل روايته. فرجع الرسول إلى السلطان حتّى شافهه بالرسالة، ثم عاد إلى بغداد وأدّاها. ولما تولّى الشيخ عز الدين القضاء تصدّى لبيع أُمراء الدولة من الأتراك، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار، وأن حكم الرِّق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين. فبلغهم ذلك، فعظم الخطب عندهم، واحتدم الأمر، والشيخُ مصمِّمٌ لا يُصحح لهم بيعًا ولا شراءً ولا نكاحًا. وتعطّلت مصالحهم لذلك وكان من جملتهم نائبُ السلطنة، فاستشاط غضباً. فاجتمعوا وأرسلوا إليه. فقال: نعقد لكم مجلساً، وننادى عليكم لبيت مال المسلمين! فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه، فلم يرجع. فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة، فلم يفد فيه. فانزعج النائب، وقال: كيف ينادى علينا هذا الشيخ، ويبيعنا ونحن ملوك الأرض! والله لأضربنَّه بسيفى هذا! فركب بنفسه فى جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ، والسيفُ مسلولٌ فى يده. فطرق الباب. فخرج ولد الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى، وشرح له الحال. فما اكترث لذلك. وقال: يا ولدى أبوك أقلّ من أنْ يُقتل فى سبيل الله!. ثم خرج. فحين وقع بصره على النائب، يبست يد النائب وسقط السيف منها، وأُرعدت مفاصله. فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: ياسيّدى، إيش تعمل! قال: أُنادى عليكم وأبيعكم! قال: ففيمَ تصرف ثمننا؟ قال: فى مصالح المسلمين! قال: مَن يقبضه؟ قال: أنا! فتمَّ ما أراد ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا، وغالى فى ثمنهم ولم يبعهم إلا بالثمن الوافى، وقبضه وصرفه فى وجوه الخير. ("حسن المحاضرة" ج ٢ ص ٩٨ و ٩٩ من النسخة المطبوعة على الحجر بالقاهرة). وقد روى السبكى هذه الحكاية بتفصيل فى ترجمة الشيخ عبد العزيز فى "طبقات الشافعية" (ج ٥ ص ٨٠ — ١٠٧)

(١) صحـ: أراد شرّ المملكة والقدح فيها بالباطل. [اقتطع صاحب "محاسن الملوك" هنا سياق الكلام، وأضاف حاشية نبه على أنها ليست من الخبر، وهذا نصها: "وذكر أن أحد خلفاء العلو يين الفاطميين فعل مثل فعل هذا وجلس بين يدى قاضى القضاة مُحاكمًا لخصم ولم يتحرك له القاضى عند حركته للقعود بين يديه وحكم القاضى بالحق بينه وبين خصمه فلما بتّ الحكم وقضى به، وثب مقبِّلًا للأرض، جالسا دون مجلس الخليفة. فقال: والله! لو تحرك لى أوّلًا وخرج عن حكم الحقّ، لضربتُ عنقه".]

فإذا فرغ الملك من مظالمه فى نفسه، قام فحمد الله ومجّده طويلا، ثم وضع التاج على رأسه وجلس على سرير المُلْك، والتفت إلى قرابته وحامّته وخاصّته وقال: "إنى لم أبدأ بنفسى فأُنصِفُ منها إلّا لئلّا يطمع طامعٌ فى حَيْفى. فمَن كان قِبَلَه حقٌّ فليخرُجْ إلى خصمه منه، إمّا بصلحٍ وإمّا بغيره."

فكان أقربُ الناس إلى المَلِك [فى الحقّ] [1] كأبعدهم، وأقواهم كأضعفهم.

فلم يَزَل الناس على هذا من عهد أردشير بن بابك ثم هلُمَّ جرّا حتى ملكهم يزدجرد الأثيم، وهو المحسن البارنكر[2]. فغيّر سنن آل ساسان وعاث فى الأرض وظلم الرعايا وأظهر (١٣٥) الجَبَرِيّة والفساد، وقال: "ليس للرعيّة أن تنتصف من الراعى، ولا للسُّوقة أن تتظلّم من الملوك، ولا للوضيع أن يساوى[3] الرفيع فى حقٍّ ولا باطلٍ."

العقوبة الربانية للملك الظالم

فذكرت الأعاجم فى كُتُبها وسِيَر ملوكها أنه بينا هو قاعد فى الإيوان — والناسُ على طبقاتهم ومراتبهم — إذ دخل من باب الإيوان فرسٌ بسرجٍ مُلْجَمٌ، لم يُرَ قطُّ شئٌ أحسنَ منه منظرا، ولا أكملَ أداةً. فأهوى نحو يزدجرد البارنكر[4]. فقامت إليه الأساورة

(١) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه الآداب كلها فى تظلم الناس من الملك إلى القاضى وبالحرف الواحد تقريبا عن الجاحظ. (ص ٣٩ — ٤١)

(٢) هكذا فى سـ. والمشهور أنه يسمّى يزدجرد المليم الأثيم، ويزدجرد الأثيم كما هو فى صفحة ١١٨ من هذا الكتاب. (أنظر غرر أخبار الفرس وسيرهم للثعالبى صفحة ٥٣٩ — ٥٤٩). ولم ترد هذه الكلمات الثلاث فى صـ.

(٣) سـ : يتأدى.

(٤) صـ : يزدجرد الأثيم

لتدفعه عنه . فجعل لايدنو منـــه أحدٌ إلّا رَمَحَه[1] فأرداه[2] . وهو فى خلال ذلك يقصد إلىٰ المَلك . فقام إليه يَزْدَجِرْدُ وقال للأساورة : دَعُوهُ ، فإنه إلىّ يقصد .

فدنا منه حتّى أخذ بمَعْرَفَتِهِ[3] ، فذَلّ له الفَرَسُ وتطَامَنَ حتّى ركبه . فلما جال[4] فى متنه ، خَطَا به خُطًا ، ثم ردّه إلىٰ قرار مجلسه ، فنزل عنه وجعل يمسحه بيده[5] ، مُقبِلاً ومُدبِراً . حتّى إذا وجد الفَرَسُ منـه مُمْكَنًا وغَفْـلةً ، رَمَحَـهُ فأصاب حبّة قلبِـه ، فقتله . فقالت الفُرْسُ : هـذا مَلَكٌ من الملائكة ، جعـله الله فى صورة فَرَس ، فبعثه لقتل يزدجرد ، لمّـا ظلم الرعيّة وعاث فى الأرض[6] .

(١٣٦)

ماصنعه بهرام جور لأخذ ملك أبيه

وكان بَهْرام جُور بن يزدجرد فى حِجر النُّعمان بن المُنذِر ، مَلك الحِيرة . وضعه أبوه عنده ليتأدّب بآداب العرب و يعرف أيامَها وأخبارَها ولغاتِها . فبلغه خبرُ أبيه ، وأنّ الفُرْسَ ملّكتْ عليها رجُلاً ليس من أبنـاء ملوكها . فآستنهضَ النُّعمانَ بن المُنذِر وآستنجده . وقال : " إنّ لى عليك حقًّا ، إذ كنتُ أحَدَ أولادك . وإنّ أبى قد مات وملّكتِ

---

(١) أى رفســه برجله أو برجليه . يقال ذلك للفرس والبغل والحمار وكل ذى حافر ، وربمـا آستعير لذى الخف . (تاج العروس)

(٢) أى فأهلكه . وفى صـ : فأداره .

(٣) صـ : بعرفه .

(٤) صـ : حال .

(٥) صـ : بثوبه .

(٦) قارن ذلك بمـا أورده الثعالبىّ (فى غُرر أخبار الفُرس) عن هـذه القضية وتفاصيلها مع آختلاف . (صفحة ٥٥١ ـ ٥٥٣)

الفُـرْس رَجُلًا من غير بيت المُلْك. فإنْ أنت خَذَلْتَنى، ذهبَ مُلك آل ساسان.»

فقـال له النُّعمان: «ما أنا وآل ساسان، وهُمُ الملوكُ وأنا رعيةٌ؟ ولكنّى أَخْرُجُ معك فى جيشى لتقوىٰ نِيَّتُك[(١)] وتصِحَّ عَزْمَتُك. ثم أنت أولىٰ بقومك، وهم أولىٰ بك.» قال: فهذا أُريد.

فخرج النعمان مع بَهْرام حتّٰى صار بالمـداين، و بلغ الفُرْسَ قدومُهما[(٢)]. فخرجوا إلىٰ بَهرام، فقـالوا: ما تريد؟ فقال: مُلْكَ أبى و إرْثَ آل ساسان. قالوا: إن أباك سامنا العـذابَ أيّامَ مدّته، فأنفرد الله بقتله. فلا حاجة لنا فى أحدٍ من عَقِبِه. فقال بَهْرام: إنّ جَوْرَ أبى وظلْمَه لا يُلْزِمُنى لائمةً[(٣)]، ولا يُكْسِبُنى ذمًّا[(٤)]. وأنتم لم تَخْبُرونى، فيجب علىّ حَمْدٌ أوذمٌّ. قالوا: فإنّا قد أقمنا رجلًا نرضاه. فقال: إنّ هـذا فسادٌ فى صُلب المملكة أَنْ تُمَلِّكوا مَن ليس من أهلها. فإذ فعلتم، فامتحنونى وهذا الرجُلَ مِحْنَةً توجب المملكة. قالوا: وما هى؟ قال: تعمِدون إلىٰ أسدَيْن ضارِيَيْن فتجمعونَهما فى موضعٍ واحدٍ، وتضعون تاج المملكة بينهما، وتقولون لهذا الذى ملَّكتموه أمرَكم يأخُذُهُ من بينهما. فإنْ فعل فهو أحقُّ بالملك وأَوْلىٰ. و إن أبىٰ أن يفعل، وفعلتُ أنا ذلك، كنتُ أحقَّ بالملك منه. قالوا: نعرِضُ عليه هذا. ١٣٧

(١) صـ: منّتك.

(٢) زوىٰ الثعالبىّ هذه القصة بعبارة أكثر اختصارًا من الجاحظ. (غرر أخبار الفرس ص ٥٤٨)

(٣) صـ: لا يلزمنى لائمته.

(٤) صـ: مذمته.

فقالوا ذلك له ، فقال : ما أقدِرُ علىٰ هـذا ، ولكنْ قولوا له فلْيفعلْ . فإن أخذ التاج من بين الأسدَيْن فهو أحقُّ بالملك وأَوْلىٰ .

فأخذوا التاج وعمدوا(١) إلىٰ أسدَيْن فأجاعوهما ثم وضعوا التاج بينهما وقالوا لبَهرام : شأنُك ! فنزلَ بهرام عن فرسه وأخذ الطَّبَرْزِينَ(٢) ومضىٰ نحوهما . ثم بدا له فجعل الطبرزين فى مِنْطَقَتِه . ودنا من الأســدَيْن فأهويا نحوَه ، فأخذ برأس أحدهما فأدناه من رأس الآخر ثم نطحه به حتّى قتلهما جميعا . وشدّ علىٰ التاج فأخذه من موضعه فجعله (١٣٨) علىٰ رأسه .

فملّكته الفُرْسُ أمرهم ، وآنصرف النعمان إلى الحِـيرة . وسار بَهْرَام سِيرَةً حَسَـنَةً

(١) صـ : وغدوا .

(٢) جمعه طبرزينات [أُنظر البيان والتبيين ج ٢ ص ٧٦] . وهـذا اللفظ مأخوذ من كلمة فارسـية (تبر ، تبر) ومعناها الفأس . وهى آلة للقتال عبارة عن عمود له حدّان ، وكانوا يعلّقونها فى السرج ليستخدمها الفارس فى وقت النزال والبراز . وقد عرّب المشارقة وأهل الأندلس هـذا اللفظ الفارسىّ فيما بعدُ فجعلوه "طبرزين" . قال فى "المُعجب فى تلخيص أخبار المغرب" للرّاكشىّ (ص ٩٠) مانصه "فخرج المعتمد وبيـده الطبرزين ... فعَلاه بالطبرزين الذى فى يده ولم يزل يضربهُ بهِ حتى بَرَدَ" . وقال فى "المحاسن والمساوى" (ص ٥٩٣) . "وكان معه طبرزين فضرب به كسرىٰ ... ثم ضربه بالطبرزين حتى مات" . (وآنظر أيضا تاج العروس ، وبرهانِ قاطع ، وشفاء الغليل ، وتكلة المعجمات العربية لدوزى .)

كذلك كان الشأن عند كتّاب المشارقة . ولكنهم عادوا فآقتصروا على التعبـير بالطبر . قال فى صبح الأعشىٰ (ج ١ ص ٣٦٥) مانصه : "الطبر . وهو باللغـة الفارسية الفَأس . ولذلك يسمى السُّكَّر الصُّلْب بالطَّبَرْزَذ يعنى الذى يُكسر بالفأس . وإلىٰ الطبر تنسب الطبردارية . وهم الذين يحملون الأطبار حول السلطان . . " .

وقد بقيت هذه الآلة مستعملة إلىٰ مابعـد اختراع المدافع ثم آنعدمت بالكلية . وكانت مستعملة بمصر إلى زمن الفتح العثمانى . وقد رأيتُ منها رواميز كثيرة محفوظة بدار التحف العسكرية بالقسطنطينية . وأشار إليها آبن إياس فى "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" مرات عديدة منها قوله : "وضربه بطبر كان معه على وجهه فسقط إلى الأرض مغشيًّا عليه" (ج ١ ص ٢٤٧) ؛ وقوله : "خرج عليهم التركمان بالقسىّ والنُّشاب والسيوف والاطبار" (ج ٢ ص ١١٠) ؛ وقوله : "فلمـا خرجوا بهم قطعوهم بالاطبار قطعا قطعا ." (ج ٣ ص ٢٦٩)

وعَدَلَ فيهم، حتّى كان أحبَّ إليهم من جميع ملوك آل ساسان.(١)

إلا أن اللهو واللعب كان أغلبَ أحواله عليه.

*
* *

استقصاء الملك لأحوال رعيته

ومن أخلاق الملك السعيد البحثُ عن سرائر خاصّته وحامّته، وإذكاءُ العيون عليهم خاصَّةً وعلى الرعيّة عامَّةً.

وإنما سُمِّيَ المَلِك راعياً ليفحص عن دقائق أمور الرعيّة وخَفِيِّ نيّاتهم. ومتى غَفَل المَلِك عن فحص أسرار رعيّته والبحثِ عن أخبارها، فليس له من ٱسم الراعي إلا رَسْمُه، ومن المُلك إلا ذِكْرُه.

فأما الملك السعيد، فمن أخلاقه البحثُ عن كل خَفِيٍّ ودَفِينٍ(٢) حتّى يعرفَه مَعْرِفةَ نفسِه عند نفسِه(٣)، وأنْ لا يكونَ شيءٌ أهمَّ ولا أكبرَ في سياسته ونظام مُلكه من الفحص عمّا قدّمْنا ذِكْرَه.

الملوك والخلفاء الذين اشتهروا بذلك

(١٣٩)

ولم يُرَ مَلِكٌ قطُّ كان أعجبَ في هذا الأمر من أردشير بن بابك. ويقال إنه كان يُصبِحُ فيعلَمُ كلَّ شيء بات عليه مَن كان في قَصَبَة دار مملكته من خيرٍ أو شرّ، ويُمْسي فيعلَمُ كلَّ شيء أصبحوا عليه. فكان متى شاء قال لأرفعهم وأوضعهم: كان

(١) روى ٱبن ظَفَر هذه الحكاية والتي قبلها بتطويل كبير وتفصيل كثير. (ٱنظر "سلوان المطاع في عدوان الأتباع" المطبوع على الحجر بالقاهرة سنة ١٢٠٨ هـ من صفحة ١٠٠ إلى صفحة ١٠٤؛ وٱنظر ترجمته الى الإنكليزية للعلامة ميشل أماري الطلياني Michel Amari، طبع لوندره سنة ١٨٥٢ ج٢ ص١٥٤–١٦٥).

(٢) صـ : ودقيق.

(٣) صـ : معرفة نفيه.

عندك فى هذه الليلة كَيْتَ وكَيْتِ.[١] ثم يحدّثه بكلّ ما كان فيه إلىٰ أن أصبح.

فيقال إن بعضهم كان يقول إنه كان يأتيه مَلَكٌ من السماء فيُخْبِرُه.[٢] وما كان ذلك إلا لتيقُّظه وكثرة تعهُّده لأمور رعيّته.[٣]

ثم كان فيمن نأىٰ من أهل مملكته علىٰ مثل هذه الحال.

فيقال إن الأُمم كلَّها، أوَّلَها وآخِرَها، وقديمَها وحديثَها، لم تَخَفْ أحدًا من ملوكها خَوْفَها أردشير بن بابك من ملوك الأعاجم ومَن كان قبلهم، وعمرَ بن الخطَّاب من خلفاء الإسلام.[٤]

فإنَّ عُمَرَ كان عِلْمُه بِمَن نأىٰ عنه من عُمَّاله ورعيَّته كعلمه بِمَن بات معه فى مِهادٍ واحدٍ، وعلىٰ وِسادٍ واحدٍ. فلم يكن له فى قُطرٍ من الأقطار ولا ناحيةٍ من النواحى عاملٌ ولا أميرُ جيشٍ إلا وعليه له عَيْنٌ لا يفارقه ماوجده. فكانت ألفاظُ مَن بالمشرق والمغرب عنده فى كلّ مُمْسًى ومُصْبَحٍ. وأنت ترىٰ ذلك فى كُتُبِه إلىٰ عُمَّاله وعُمَّالهم

(١) بفتح التاء، وبكسرها أى كذا وكذا.

(٢) أُنظر التفصيلَ الذى أورده الأبشيهىّ فى "المستطرف" (ج ١ ص ١٠٨).

(٣) ورد هذا الخبر فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٣. وكان كسرىٰ أنوشروان أشدّ الناس تطلّعا فى خفايا الأُمور وأعظم خلق الله تعالىٰ فى زمانه تفحُّصا وبحثا عن أسرار الصدور. وكان يبُثُّ العيونَ علىٰ الرعايا، والجواسيسَ فى البلاد ليقف على حقائق الأحوال ويطّلع علىٰ غوامض القضايا. فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه بالإحسان. ويقول: متى غفل الملك عن تعرّف ذلك، فليس له من الملك إلا اسمه وسقطت من القلوب هيبته. (مستطرف ج ٢ ص ١١٤)

(٤) روىٰ ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٣

(١٤٠) حتّى كان العامل منهم لَيَتَّهِمُ أقربَ الخلق إليه وأخصَّهم به. فساس الرعيــة سياسةَ أردشير بن بابك في الفحص عن أسرارها خاصّة[١][٢].

ثم اقتفى مُعاويةُ فِعلَه وطَلَبَ أَثَرَه[٢][٣]، فانتظم له أَمْرُه وطالتْ له مُدَّتُه.

وكذا كان زِيادُ ابن أبيه يَحتذي فِعلَ مُعاوية كاحتذاء مُعاوية فعلَ عُمَر. وفيما يُحكى عنه أنّ رجُلا كلَّمه في حاجةٍ له، فتعرّف إليه ــ وهو يظُنّ أنه لا يعرفه ــ فقال: أصلح الله الأمير! أنا فُلانُ بن فُلانٍ. فتبسّم زِيادٌ وقال: تتعرّف إليّ، وأنا أعْرَف بك منك بأبيك؟ والله إني لأعرفك وأعرف أباك وجدَّك وأُمَّك وجدّتك، وأعرف هذا البُرْدَ الذي عليك، وهو لفلانِ بن فلانٍ. فَبُهِتَ الرجُل وأُرْعِبَ[٤] حتّى أُرْعِدَ [وكاد يُغشَى عليه][٢].

وعلى هذا كان عبد الملك بن مَرْوان[٢][٥]، والحجّاج بن يوسف.

ثم لم يكن بعد هؤلاء أحدٌ في مثل هذه السياسة حتّى مَلَكَ المنصور. فكان أَكْثَرُ الأُمور[٦] عنده معرفةَ أحوالِ الناس، حتّى عَرَف الوليَّ من العدوّ والمُداجي من المُسالِم. فساس الرعيّة ولَبِسها[٧]، وهو من معرفتها على مثل وَضَح[٨] النهار.

---

(١) وانظر ما وقع له مع النفر الذين كانوا يشربون المزرخفية ومع المــرأة التي جاءها المخاض، في "المستطرف" ج ١ ص ١٠٨ وج ٢ ص ١١٤ و ١١٥)

(٢) روى ذلك في "المحاسن والمساوى" ص ١٥٤ .

(٣) أُنظر ماجاء في المستطرف (ج ٢ ص ١١٥)

(٤) روى صاحب "المستطرف" الحكاية التي أوردها الجاحظ (ج ٢ ص ١١٥ وج ١ ص ١٠٨)

(٥) "المستطرف" (ج ٢ ص ١١٥)

(٦) روى ذلك في "المحاسن والمساوى" ص ١٥٤ .

(٧) لبسها أي تملّى بها دهراً طويلاً.

(٨) أُنظر التفصيل الذي أورده في "المستطرف" (ج ٢ ص ١١٥ ــ ١١٧)

(١٤١) ثم دَرَسَتْ هذه السياسةُ حتّى مَلَكَ الرَّشِيدُ، فكانَ أشدَّ الملوك بحثا عن أسرار رعيّته وأكثرهم بها عنايةً وأحزمَهم فيها أمرًا.

وعلى نحو هذا كان المأمونُ أيامَهُ، والدليل على ما قلنا فيه ماشاهدنا من رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم فى الفقهاء وأصحاب الحديث، وهو بالشأم، خبَّر(١) فيها عن عيبٍ واحدٍ واحدٍ، وعن حالته وأموره التى خَفِيَتْ ـ أو أكثرُها ـ عن القريب والبعيد(٢).

ثم ما عَلِمْتُ(٣) أنَّ أحدًا ممن كان دون السلطان الأعظم فى دهرنا هذا، كان أشدَّ على الأسرار بحثًا وأكثرَ لها فحصًا حتّى بلغ من هذا الجنس أقصى حدِّه وآخرَ نهايته وأبعدَ مداهُ، وجعَلَهُ أكثرَ شُغْله فى ليله ونهاره، إلّا إسحاق بن إبراهيم(٤). فحدّثنى(٥) موسى بن صالح بن شيخ(٦)، قال: كلَّمتُه فى آمرأةٍ من بعض أهلنا وسألتهُ النظر لها.

---

(١) صـ : حصر.

(٢) كان للمأمون ألف عجوز وسبعمائة، يتفقّد بهن أحوال الناس من الأشقياء ومَن يُحبّه و يُبغضه ومَن يُفسد حُرَم المسلمين، وكان لايجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيَه كلها. وكان يدور ليلا ونهارا مستترا. (محاضرات الأوائل)

(٣) صـ : علمنا. [وأهمل هذه الكلمة فى "المحاسن والمساوى" وآستعمل صيغة مطلقة فقال: ولم يكن أحد ممن كان الخ. ولكنه نسى ذلك فعاد وقال حدثنى موسى بن صالح وهى من كلام الجاحظ كما تراه بعد كلمات.]

(٤) هو المصعبىُّ أمير بغداد.

(٥) روى ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٥.

(٦) هو موسى بن صالح بن شيخ (بالشين المعجمة والياء المثناة التحتية والخاء المعجمة) ابن عُميرة الأسدىّ. كان من ندماء الأمير إسحاق بن إبراهيم المُصعَبىّ أمير بغداد.

وآنظر أيضا القصة التى رواها صاحب "الأغانى" فى ج ٥ ص ٨٤ و ٨٥ وفيها إشارة إليه؛ وكذلك الحكاية التى رواها المسعودىّ عن هذا النديم فى "مروج الذهب" (ج ٧ ص ٢١١ و ٢١٢). وكانت وفاته فى سنة ٢٥٧ فى خلافة المعتمد على الله، وقد نيّف على التسعين. وقُبِض آبنه بعد أن عمّر ٩٩ سنة. ("مروج الذهب" ج ٨ ص ٢١٠)

فقال: يا أبا محمد! مِن قصّة هـذه المرأة ومِن حالها ومن فعلها.(١) قال: فوالله! لم يَزَلْ يصفُها ويصِفُ أحوالَها حتّى بُهِتُّ.(٢)

[وحدّث أبو البرق الشاعر قال: كان يُجرى علىّ أرزاقا فدخلتُ عليه، فقال بعد أن أنشدته: "كم عيالُك؟ تحتاج فى كلّ شهر من الدقيق إلىٰ كذا ومن الحطب إلىٰ كذا." فأخبرنى بشيء من أمر منزلى ممّا جهلت بعضه وعلمه كلّه.(٣)]

وحدّثنى(٤) بعضُ مَن كان فى ناحيته، قال: رفعتُ إليه رُقْعَةً أسألُه فيها إجراءَ أرزاق. فقال: كم عيالُكَ؟ فزِدْتُ فى العدد. فقال: كَذَبْتَ! فَبُهِتُّ وقلتُ فى نفسى: يا نَفْسُ من أين عَلِمَ أنى كذبتُ! فأقمتُ سنةً لا أجترئُ علىٰ كلامه. ثم رفعتُ إليه رُقْعَةً (١٤٢) أخرىٰ فى إجراء أرزاق. فقال: كم عيالُكَ؟ فقلتُ: أربعةٌ. فقال: صدقتَ. فوقّع فى حاشية رقعتى: يُجْرىٰ علىٰ عياله كذا وكذا.

ولولا أنْ يطولَ كتابنا فى إسحاق وذكره، لحكيناعنه أخبارًا كثيرةً. وهى من هذا الجنس، وفيما ذكرناه كفاية.

التمييز بين الأولياء والأعداء

فعلىٰ الملك أن يُمَيِّزَ بين أوليائه وأعدائه بالفحص عن أسرارهم ودقيق أخبارهم، حتّى إنْ أمكنَه أن يعرِفَ مبيتَ أحدِهم ومَقيلَه وما أحدث فيهما، فَعَلَ.

(١) يعنى: من قصتها كيت وكيت. وقد ترك المؤلف الخبر لأنه معلوم. وهذه عادة شائعة بين أكابر الكتّاب.

(٢) هذه الكلمة مضبوطة فى س : بَهِتَ. [وهو خطأ ظاهر من الناسخ. وقد روى الأبشيهىّ هذه القصة ونسبها للمأمون. (المستطرف ج ١ ص ١٠٨)]. روى ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٥.

(٣) هذه الزيادة من "المحاسن والمساوى" ص ١٥٥.

(٤) رجع صاحب "المحاسن والمساوى" هنا إلى صيغة المطلق فقال: حدث بعض من كان الخ. وذكر القصة بتمامها وبحروفها. (ص ١٥٥)

فإنّ الرعيّة لا تَسْكُنُ قلوبها جَلالةُ مَلِكها ـ ولو عبدتْه الجنُّ والإِنْسُ ودانتْ له ملوكُ الأمم كلُّها ـ حتّى يكون أشدَّ إشرافاً[1] عليها وأكثر بحثاً عن سرائرها[2]، من أُمِّ الفريد عن حركته وسكونه.

* * *

بماذا تطول مدّة الملك

وأيضًا فإنه يُقال فى بعض كُتُبِ[3] الأوائل فى مواعظ الملوك وآدابها:

"إن المَلك تطول مدّته إذا كانت فيه أربع خصال:

إحداها، أنه لا يرضى لرعيّته إلّا ما يرضاه لنفسه؛

والأُخرى، أنْ لا يسوِّفَ عَمَلًا يخاف عاقبته؛

(١٤٣) والأُخرى، أن يجعلَ وليَّ عهده مَن ترضاه وتختارَه رعاياه لا مَن تهواه نفسُه؛

والرابعة أنْ يَفْحَصَ عن أسرار الرعية، فَحْصَ المُرْضِع عن منام رضيعها."

وقد نجد مِصداقَ هذا القول ونشهدُ به. وذلك أنا لم نر مدّةً طالتْ لَملكٍ عربيٍّ ولا عجميٍّ قطُّ إلّا لمن فَحَصَ عن الأسرار، وبَحَثَ عن خفيِّ الأخبار، حتّى يكونَ فى أمرِ رعيّته على مِثْلِ وَضَحِ النّهار.

(١) فى س: إشراف.

(٢) فى س: "سرائرها فى الفريد". [ولما لم يكن للجملة معنًى أرتضيه فقد صححتُها على ما هو فى المتن ليكون المعنى "أن الملك يجب أن تكون عنايتـه بهذه الأمور أكثر من عناية الأمِّ بحركة ولدها الوحيـد الفريد وبسكونه." وبذلك يستقيم المعنى وينسجم الكلام. يؤيد هذا التخريج قول الجاحظ بعد ذلك بستة سطور: "والرابعة أن يفحص عن أسرار الرعية فحص المرضع عن منام رضيعها."]

(٣) فى س: الكتب.

***

واجبات الملوك عند الأحداث الخطيرة

ومن أخلاق الملك، إذا دَهِمَهُ أمرٌ جليلٌ من فَتْقِ ثَغْرٍ أو قَتْلِ صاحبِ جيشٍ أوظهورِ عَدُوٍّ يدعو إلىٰ خلاف المِلَّة أو قوةِ مناوئٍ، أنْ يترك الساعات التى فيها لَهْوُهُ ويجعلها وسائرَ الساعات فى تدبيرِ مكايدة عدوِّه وتجهيز جنوده وجيوشه، وأنْ يصرف فى ذلك شُغْلَه وفِكْرَه وفراغه (علىٰ مثل ما فعل مَن مضىٰ من ملوك الأعاجم وغيرها) ولا يجعل للتسويف والتمنِّى وحُسن الظنِّ بالأيام نصيبًا.

فإنّ هذا عَجْزٌ من المَلك ووَهْنٌ يدخل علىٰ المُلك.

سنة الأعاجم إذا دهمتهم الكوارث والعظائم

(١٤٤)

وكانت ملوك الأعاجم، إذا حَزَبها مِثلُ هذا، أمرتْ بالموائد التى كانت توضع فى كل يوم أن تُرفَعَ وظائفُها، واقتصرتْ علىٰ مائدةٍ لطيفةٍ تقرُبُ من الملك ويحضرها ثلاثةٌ: أحدهم مُوبَذان مُوبَذ والدبيربذ(١) ورأْس الأساورة. فلا يُوضع عليها إلا الخبزُ والمِلْح والخَلّ والبَقْلُ. فيأْخذ منه شيأً هو ومَن معه. ثم يأتيه الخبّاز(٢) بالبزماورد(٣) فى طبق. فيأْكلُ

(١) فى سـ : والدموبذ. وفى صـ : الربر. [وانظر الحاشية ٢ صفحة ٧٧ وصفحة ١٦٠ من هذا الكتاب].

(٢) الخبّاز (هنا وفى كتب المسعودىّ وفى كتاب الأغانى) معناه خادم المائدة، لا بمعنىٰ الذى يصنع الخبز. وذلك هو الذى نسميه الآن بالسفرهجى.

(٣) قال عاصم افندى فى ترجمة المعجم الفارسى "برهان قاطع" إلىٰ اللغة التركية ما معناه "بَزْمَاوَرْد هو طعام يسمى لقمة القاضى، وفخذ الستّ، ولقمة الخليفة. وهو مصنوع من اللحم المقلىّ بالزبد والبيض. ويقال فيه أيضا برماورد بالراء المهملة". وقال الشهاب الخفاجىّ فى "شفاء الغليل" ما نصه: "زماورد، والعامة تقول بزماورد. كلمة فارسية استعملها العرب للرقاق الملفوف باللحم. كذا فى حواشى الكشاف. وفى القاموس: الزماورد بالضم طعام من البيض واللحم. وفى كتب الأدب: طعام يقال له لقمة القاضى ولقمة الخليفة. ويسمى =

منه لُقْمةً[(١)]. ثم يَرفَعُ المائدةَ ويتشاغلُ بتدبير حَرْبه وتجهيزِ عساكره[(٢)]. ولا تزال هذه حاله حتّى يأتيه عن ذلك الفتق مايرتقه، وعن ذلك العدوّ مايُحِبُّ. فإذا أتاه، أمَرَ أنْ يُتَّخَذَ له طعامٌ مثلُ طعامه الأوّل، وأمَرَ الخاصّة والعامّة بالحضور. وقامت الخطباء أوّلا بالتهنئة له والتحميد لله تعالىٰ بالفتح عليه والنصر له. ثم قام المُوبَذ فتكلّم، ثم الوزراء بنحوٍ من كلام الخطباء. ثم مدّ الناس أيديهم إلىٰ الأطعمة علىٰ مراتبهم. فإذا فرغوا، بُسِط للعامّة فى ظهر الإيوان، وللخاصّة فى صَحْنه بحضرة الملك. وقَعَدَ صاحبُ الشُّرْطة للعامّة، كقعود المَلك للخاصّة. ثم دعا بالمغنّين وأصحاب الملاهى.

وكانوا يقولون: إنّ حقّ شكرِ النعمة أن يُرىٰ أثَرُها.

= بخراسان نواله؛ ويسمى نرجس المائدة وميسر ومهيأ." والذى فى شرح القاموس فى مادة (ورد) يماثل هذا الكلام، ولكنه قال فى مادة (زم رد) إن الزماورد دواء معروف، ووعد بشرحه فى مادة (ورد) ولم يفعل. ويتلخص من هذا البيان أن الباء أصلية فى بنية الكلمة كما يشهد به صاحب "برهان قاطع" وكما يدل عليه استعمال الجاحظ. وربما رأىٰ العرب التخفيف فحذفوا الباء من أوّل الكلمة. ولكن ذلك لايجوز معه القول بأن بزماورد من كلام العامة. ويكون هذا الطعام عبارة عما نسميه الآن (الكفتة). وأما لقمة القاضى فهى الآن فى مصر عبارة عن صنف من الحلوى يُتَّخَذ من الدقيق معجونا بالسمن والسكر ثم يُقلىٰ ذلك المخلوط على أقراص مستديرة لها صومعةٌ رُبَّما تكون فوقها قطعة من القشدة. ورأيتُ فى "كتاب مبادئ اللغة" لابن الخطيب الإسكافىّ المُتَوَفَّى سنة ٤٢١ مانصه: "البزماورد هو المُهنَّأ والمُيَسَّر. وقال بعض المتأخرين:

أكَلُ المُيَسَّر من رأسين، ياسكَنى، ❊ لايُستطَاع ولا سيفانِ فى غمد."

وقد ذكر صاحب "الأغانى" هذا الطعام. (ج ٤ ص ٢٥٤)

(١) فى سـ: لُقَماً.

(٢) روى ذلك صاحب "محاسن الملوك" باختصار ووقف عند هذا المكان، ثم زاد أن ملوك الفرس كانوا يقولون: "أسعدُ الملوك مَن غَلَبَ عدوّه بالحيلة." (ص ١٠٥)

[وكانت الخلفاء والأمراء إذا دهمهم أمرٌ ــ فزعوا إلى المنابر وحرضوا الناس على الطاعة ولزوم الجماعة.](١)

(١٤٥) ما فعله معاوية أيام صفين

وفيما يُذكَر عن معاوية أنه قال: ماذُقتُ أيامَ صِفّينَ لحمًا ولا شحما ولا حُلْوًا ولا حامضا، ما كان إلا الخُبزُ والجُبْنُ وخَشِنُ المِلْح (٢) [إلى أن تمّ لى ما أردته].

ما فعله عبد الملك عند خروج ابن الأشعث عليه

ويُحكى عن عبد الملك بن مروان أنّ صاحب إفريقيّة أهدى إليه جاريةً تامّةَ المحاسن، شهيّة المُتَأَمَّلِ. قال: فلما أنْ دخلتْ على عبد الملك بن مروان، نظر إليها وفى يده قضيبُ خَيْزُرانٍ. فصعّد ببصره إليها وصوّبه، ثم رمى بالقضيب. وقال: رُدّيه علىَّ. فولّتْ. فنظر إليها مُقبِلةً ومُدبِرةً. فقال: أنتِ والله أُمْنِيّة المُتَمَنِّى. قالت: فما يمنعُك ياأميرَ المؤمنين، إذْ كانت هذه صِفتى عندك؟ قال: بيتٌ قاله الأخطَلُ:

قومٌ إذا حاربوا، شدّوا مآزِرَهُمْ * دون النساء، ولو باتتْ بأطهار.(٣)

وكان هذا فى خروج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث. ثم أمر بها أن تُصانَ وتُخدَم. فلما فُتِحَ عليه، كانت أوّلَ جاريةٍ دَعا بِها.

ما فعله مروان ابن محمد عند ظهور العباسيين

ويُحكى عن مروان بن محمد الجَعْدىِّ(٤) أنه أقام ثلاثين شهرًا لم يطأْ جاريةً إلى أنْ قُتِلَ. وكان إذا آستهدفتْ إليه الجاريةُ قال: إليْكِ عَنِّى! فوالله لا دنوتُ من أُنْثَى

(١) هذه الزيادة عن "محاسن الملوك" (ص ١١٠).

(٢) أورد صاحب "محاسن الملوك" هذا الخبر باختصار قليل وأضاف عليه الجملة التى زدناها فى المتن. (ص ١٠٥ — ١٠٦)

(٣) أورد هذا صاحب "محاسن الملوك" فى صفحة ١٠٦

(٤) آخر خلفاء بنى أمية [وآنظر حاشية ٣ صفحة ١٠٦ من هذا الكتاب].

(١٤٦) ولا حَلَلْتُ لها عَقْدَ حَبْوَتي، وخُراسانُ ترجُف بنَصْرٍ[١]، وأبو مُجْرِمٍ[٣] قد أَخَذَ منه بالمُخَنَّقِ[٤]!

(١) ترجف بنصر أى تضطرب به. وهو نصر بن سيّار الذى ولّاه هشام بن عبد الملك إقليم خُراسان فلم يزل واليا عليه حتى وقعت الفتنة بظهور العباسيين وطلبهم الخلافة على يد صاحب الدعوة أبى مسلم الخراسانى. وكتب نصر إلى مَرْوان الجعدىّ آخر الخلفاء الأمويين يستنجده بالأبيات المشهورة، وهى:

أرى خَلَلَ الرّماد وَمِيضَ نار * ويوشك أن يكون له ضِرامُ
فإنّ النارَ بالعُودَيْنِ تُذْكَى * وإنّ الحربَ أوّلها الكلامُ
فإنْ لم تطفؤُها، تَجْنِ حربًا * مشمّرةً يشيب لها الغلامُ
أقول من التعجب: لَيْتَ شِعْرى! * أأيقاظٌ أُمَيّةُ أم نِيامُ؟
فإن يَكُ قومنا أضْحَوْا نِياماً، * فقل: قوموا، فقد حان القيامُ!
ففرّى عن رحالك ثم قولى: * على الإسلام والعَرَبِ السلامُ!

وأخباره معروفة، تراها فى "مروج الذهب" و"معارف" ابن قتيبة و"وفيات الأعيان" و"فتوح البلدان" وأبى الفداء و"الأغانى" وابن خلدون و"معجم البلدان".

(٣) فى س: "أبو مخزوم". وهو تحريف من الناسخ. والإشارة هنا إلى أبى مُسلم الخراسانىّ الذى كان قد ضيّق الخناق على نصر بن سيّار المذكور فى الحاشية السابقة. وقد لقبه مروان بأبى مجرم بدلا من أبى مسلم بمعنى أبى الذنْب والإجرام. وقد بقى له هذا النبز فى الدولة العباسية. فإن المنصور خاطبه بعد أن قتله بقوله:

زعمتَ أن الدَّيْن لا يُقتضَى؟ * فاستوف بالكيل، أبا مُجْرِمِ!
اِشرَبْ بكأس كنتَ تَسْقِى بها، * أَمَرَّ فى الحلق من العَلْقَمِ!

وقال أبو دُلامة:

أبا مُجْرِمٍ، ماغيّر الله نعمةً * على عبده حتى يغيّرها العبدُ!
أفى دولة المنصور حاولتَ غَدْرَةً؟ * ألا إنّ أهل الغدر آباؤك الكُرْدُ!
أبا مسلم خوّفتنى القتلَ فانْتحَى * عليك بما خوّفتنى الأَسَدُ الوَرْدُ!

وانظر ابن خلكان فى ترجمته، و"شذرات الذهب" (ج ١ ص ١٩٨ و ١٩٩) [وانظر ص ٨٢ من هذا الكتاب]. وانظر "البيان والتبيين ج ٢ ص ١٥٥".

(٤) لخص ذلك صاحب "محاسن الملوك" (ص ١٠٦). وقد أورد المسعودىّ هذه الحكاية، فقال: "وأقام مَرْوانُ أكثر أيامه لا يدنو من النساء الى أن قُتل. وتراءت له جارية من جواريه، فقال لها: والله لادَنَوْتُ منك، ولاحَلَلْتُ لك عُقْدَةً، وخُراسان ترجف وتتضرّم بنصر بن سيّار، وأبو مُجْرِم قد أخذ منه بالمخنّق".

("مروج الذهب" ج ٦ ص ٦٣ و ٦٤ طبع أوروبا؛ ج ٢ ص ١٥٩ طبع بولاق)

*

مكايدة الملوك في الحروب

ومن أخلاق الملوك المكايدةُ في حروبها .

ولذلك كان يقال ينبغي للمَلك السعيد أن يجعل المحاربةَ آخرَ حِيَلِه . فإن النفقة في كلِّ شيء إنما هي من الأموال ، والنفقةُ في الحروب إنما هي من الأنفُس . فإنْ كان للحِيَل محمودُ عاقبةٍ ، فذلك بسعادة المَلك ، إذ رَبِحَ مالَه وحقَنَ دماء جيوشه . و إن أعْيَت الحِيَلُ والمكايدُ ، كانت المحاربةُ من وراء ذلك .

. فأسعدُ الملوك مَن غَلَبَ عَدُوَّه بالحيلة والمكر والخديعة .

وقد رُوِيْنا عن نبيِّنا (صلى الله عليه وسلم) ما يُحقِّقُ هذا و يؤكِّده بقوله : "الحَرْبُ خُدْعَةٌ" .

وليس لأحدٍ من الخِدَع ما لملوك الأعاجم ، والأخبارُ في ذلك عنهم كثيرة ، ولكنَّا نقتصرُ من ذلك على حديثٍ أو حديثَيْن .

خدعة بهرام جور

فمن ذلك ما يُذكر عن بَهْرام جُور أنه لمَّا ملك بعد أبيه يَزْدَجِرْد ، بلغه أنّ ناحيةً من نواحي أطرافه قد أُخِذَتْ ، وغَلَبَ عليها العدوُّ ، فاستخفَّ بها وأظْهرَ الاستهانةَ به حتّى قَوِيَ أمرُ ذلك العدوِّ واشتدّت شوْكتُه ، فكان إذا أُخْبِرَ بحاله ، استخفَّ بأمره (١٤٧) وصغَّر من شأنه ، حتّى قيل إنه قد زَحَف إليك ووجّهَ جيوشه إلى قرار دارك ، فقال : دَعُوهُ فليس أمْرُه بشيء . فلمّا رأى وزراؤه تهاوُنه وتراخيَهُ عن أمرِ عدوِّه واستهانتَه به ، اجتمعوا إليه فقالوا : إنّ تَرَاخِيَ المَلك عن عدوِّه ليس من سياسة المُلك ولا تدبيرِ المملكة ، وقد قَرُب هذا العدوّ من قرار دار المَلك ، وأمرُه كلَّ يوم في عُلُوٍّ . فقال بَهرام : دعوه ، فأنا أعلمُ بضعفه وصغَر شأنه منكم . وأقبلَ على اللهو واللعب ، وترَك

مايجبُ عليه من الصَّمْد[(١)] لعدوّه والقصْد له . فلمّا دنا عدوُّه منه وأشرفَ عليه وخاف الوزراء ورؤساء أهل المملكة ٱجتياحَهُ ، ٱجتمعوا فتآمروا بينهم على توبيخ الملك وتعنيفه وإعلامه ماقد أشرفوا عليه من البَوَار والهَلَكة . وبلغه الخبر . فأمر مائتىْ جاريةٍ من جواريه ، فلَبِسْنَ الثيابَ المُصَبَّغَةَ المختلفةَ الألوان ، ووضعْنَ على رؤوسهنَّ أكاليلَ الرَّيحان ، ورَكِبْنَ القَصَبَ . وفعل بَهْرام كما فعلن . فلَبِسَ من ثيابهنَّ المصبوغة ، وركِبَ قَصَبَةً . وأَذِنَ للوزراء ، فدخلوا عليه . فلما رآهم ، صاح بالجوارى . فمررْنَ يخطِرْنَ ، ١٤٨
وبَهرامُ خَلْفَهُنَّ يُغَنِّى ، وهُنَّ يغنِّينَ معه ، ويَصحَكْنَ ويَلْعَبْنَ . فلمّا رأى ذلك وزراؤُه يئسوا منه وٱجتمعوا على خلعه . وبلغه الخَبَرُ . فدعا جاريةً من خاصِّ جواريه ، وقال : لكِ الويْلُ إنْ عَلِمَ أحدٌ من اهل المملكة ما أُريدُ أن أفعلَ ! ثم أمرها أن تَحْلِقَ رأْسَه ، فَحَلَقَتْه . ودعا بمُدَرَّعَة صوفٍ فتدرّعها ، وخرج فى جَوْف الليل ومعه قَوْسُهُ ونُشَّابُهُ . وتقدَّمَ إلى الجارية أن تُخْفِىَ أمْرَه وتُظْهِرَ أنَّهُ عليلٌ إلى رُجوعه إليها . ومضى وَحْدَهُ حتّى ٱنتهى إلى طلائع العدوّ . فكَمَنَ فى مَغارٍ على ظهر الطريق . فجعل لا يَمُرُّ به طائرٌ فى السماء ولا وحشٌ فى البرِّ ، إلّا وضع سَهْمَه منه حيثُ أَحَبَّ . وجعل يجمع كلَّ ماصاد من ذلك ، فجمعه بين يديه حتّى صار كالشيءِ العظيم . قال : فمرّ به صاحبُ طليعة العدوّ ، فنظر إلى أمرٍ بُهِتَ له . فأخذه وقال : ويلك ! ماأنتَ ومَن أنتَ ومِن أين أنت ؟ قال : إنْ أعطيْتَنِى الأمانَ ، أخبرتُك ! قال : فلَكَ الأمانُ ! قال : أنا غلامٌ سائسٌ ، وإنّ مَوْلاىَ غَضِبَ علىّ – وكان لى مُحْسِنًا – فأوجعنى ضربًا ونزع ثيابى وحَلَقَ[(٢)] رأسى وألبسنى هذه المُدَرَّعَةَ وأجاعنى . وإنّى طلبتُ غَفْلَته ، فخرجتُ أطلبُ شيئًا أصيدهُ ١٤٩

---

(١) الصمْد هو القصْد كما فسره المؤلف بعده بواو العطف .

(٢) فى س ‌‌"وحاق" وقد ٱعتمدتُ رواية ض .

فآكلُه . فلما أعجبنى كثرةُ ماصِدْتُ ، أردتُ أن أرمىَ بكلِّ ما معى من هذه السهام ، ثم أنصرِفَ .

فأخذه فحمَلَهُ إلىٰ المَلِك فأخبَرَه بقصَّته . فقال له المَلِك : ارْمِ بين يدىَّ ! فرمىٰ بين يديه . فكان لايضع سهمَه فى طائرٍ ولا غيرِه إلاَّ أصابه حيثُ أراد . فبُهِتَ المَلِكُ ، وطال تعجُّبه . فقال : ويلك ! فى هذه المملكة مَنْ يرمى رِمايتَك ؟ فضحِك بَهْرام ، وقال : أيها الملك ! أنا أخسُّهم رِمايةً وأحقرُهم قَدْرًا . وعندى جنسٌ آخَرُ من الثَّقافة (١) . قال : وما هو؟ قال : أُدْعُ لى بإبَرٍ . فدعا له بها . فأخذ إبرةً فرمىٰ بها علىٰ عشرةِ أذرعٍ ، ثم أتبعها بأخرىٰ فشكَّها ، ثم أتبعها بأخرىٰ فشكَّها كذلك ، حتّى جعلَها سلسلةً قد تعلَّق بعضُها ببعضٍ .

فبُهِتَ المَلِك ومُلِئَ قلبُه رُعْبًا . فقال له : ويلك ! مَلِكُكم هذا جاهلٌ ! أَمَا يعلمُ أنى قد قَرُبْتُ من قرار داره ؟ فضحِك بَهْرام ، وقال : إنْ أعطانى الملك الأمانَ ، نصحْتُه . قال : قد أعطيْتُك الأمان . قالَ : إنّ مِلكَنا إنما تركك آستهانةً بأمْرِك ، وتصغيرًا لشأْنك ، وعِلْمًا بأنك لاتخرُج من قَبْضَتِه . وذلك أنِّى أخسُّ مَنْ فى دار مملكته وأخملُهم ذِكرًا . (١٥٠) فإذا كنتُ ـ وأنا بهذه الحال ـ أقتلُ بألفِ سَهْمٍ ألْفَ رجُلٍ ، فما ظنُّك بالمَلِك ، وله مائةُ ألفِ عبْدٍ فى قرار داره ، أصغرُهم شأْنًا أكبرُ منِّى ؟ فقال له الملك : صَدَقْتَنى فيما قُلْتَ ! ولقد خُبِّرْتُ عن بَهرام من تصغيرِه لشأْنى وآستخفافِه بأمرى ماطابَقَ خَبَرَك . وما تركَنى أبْلُغُ هذا الموضعَ من مُلْكِه إلاّ لِمَا ذَكرتَ .

فأمَرَ عظيمَ جيشِه أن يرتَحِلَ من ساعته . ونادىٰ فى الناس بالرّحيل . ثم خرج لايلوى علىٰ شيءٍ ، وأطلقَ بَهْرَامَ . فآنصرف بعد ثالثةٍ حتّى دخلَ داره ليلاً . فلمّا أصبح ،

---

(١) الحذق والخفة والفطنة .

قَعَد للناس ودخل عليه الوزراءُ والعظماءُ. فقال: ماعندكم من خَبَرِ عدوّنا هذا؟ فأخبروه بانصرافه عنهم. فقال: قد كنتُ أقول لكم إنه صغيرُ الشأنِ، ضعيفُ المُنَّة[١].

ولم يعلم أحدٌ منهم ما كانت العلّة في آنصرافه[٢].

مكايد أبرويز

وكان كسرى أَبْرَوِيز، بعد بَهرام جور، صاحب مكايد وخِدَعٍ في الحروب ونِكاية في العـــدوّ[٣].

(١٥٢) وكان قد وجّه شَهْرَبَرَاز[٤] لمحاربة مَلك الروم، وكان[٥] مقدَّما عنده في الرأى والنَّجدة

---

(١) أى القوّة.

(٢) نقل هذه الحكاية بالحرف صاحب "تنبيه الملوك" (ص ٣٤ — ٣٨)، ولخصها صاحب "محاسن الملوك" (ص ١٠٧).

(٣) الحكاية الآتية نقلها أيضا صاحب كتاب "تنبيه الملوك والمكايد" المنسوب للجاحظ، وفيها تحريف كثير وسَقَطٌ متواتر وآضطرابٌ فى التعبير (ص ٢٢ — ٢٦).

(٤) فى س: شهر زاد. وهو تصحيف من الناسخ، وفى ص: شهر يار وقد صحف ناسخو آبن الأثير هـذا الاسم فجعلوه شهر براز وشهر يزار، كما صحفوه فى نسخ "مروج الذهب" فجعلوه مثل ص شهر يار (وقد صححه العلامة باربيه دومينار فى ترجمته فجعله شهربار ليكون مطابقا للاسم الوارد فى تواريخ الروم.) وأما الصحيح فهو الذى آعتمدناه. (أنظر جميع المؤرخين وخصوصا الثعالبيّ فى "غرر أخبار ملوك الفرس" (ص ٧٠١ حيث أورد هذه القصة). وآنظر آبن الأثير. (ج ١ ص ٣٤٦ — ٣٤٩) وقد أورد قصة أخرى فى سبب آنتقـاض شهر براز وفى الخديعة التى آستعملها أبرويز لصدّ ملك الروم عنه. (وآنظر "التنبيه والإشراف" ص ١٥٦ و ١٥٧).

وقد أورد هذه القصة رواية أخرى فى "المحاسن والمساوى" ص ١٣٦—١٣٧. وسمى القائد "شهر براز" على الوجه الصحيح الذى آعتمدناه فى المتن.

(٥) فى س: فكان.

والبَسالةِ ويُمنِ النَّقيبة. فكان شهر براز قد ضيّق على ملك [الروم] قَرار(١) داره وأخذ بمُخَنَّقه حتّى همَّ بمُهادنته ومَلَّ محاربتَه وطَلَبَ الكَفَّ عنه. فأبى ذلك عليه شهر براز. وٱستعدّ له مَلك الروم بأفضل عُدّة وأتمّ آلة وأحدّ شوكة، وتأهّب للقائه في البحر. فجاءه في جمع لا تُحصى عِدّته. قد أعدّ في البحر كلَّ ما يحتاج إليه من مالٍ وسلاحٍ وكُراعٍ وآلةٍ وطَعامٍ وغيرِ ذلك، والسُّفُنُ مَشحونةٌ مُوقَرةٌ. فبينا هو كذلك إذْ عَصَفَتْ ريحٌ في تلك الليالي فقلَعتْ أوتادَ تلك السُّفن كلِّها وحَمَلَتْها إلى جانب شهر براز، فصارتْ في مِلكه. وأصبحَ مَلك الرُّوم، قد ذهبَ أكثرُ ما كان يملِكُ من الأموال والخزائن والعُدد والسِّلاح. فوجّه شهر براز بتلك الخزائن والاموال إلى أبرويز. فلمّا رأى أبرويز ما وجّه به شهر براز، كَبُرَ في عينه وعظُم في قلبه. وقال: ما نَفْسٌ أحقُّ بِطَيِّب الثناء ورفيع الدعاء والشكر على الفعل الظاهر من شهر براز! جاد لنا بما لا تَسْخُو به النفوس ولا تَطيب به القلوب! فجمع وزراءه وأمر بتلك الأموال والخزائن فوُضعَتْ [١٥٢] نُصْبَ عينيه، ثم قال لوزرائه: هل تعلمون أحدًا أعظَمَ خَطَرًا وأمانةً، وأحرى بالشكر من شهر براز؟ فقامت الوزراء فتكلّم كلُّ واحدٍ منهم، بعد أن حمد الله وشكره ومجّده، وأثنى على المَلِك وهنّأه، ثم ذكر ما خصَّ الله به المَلك من يُمن نقيبةِ شهر براز وعفافه وطهارته ونُبله وعظيم عنايته. حتّى إذا فرغوا، أمر بإحصاء تلك الأموال والخزائن. ثم قام أبرويز فدخل إلى نسائه. وكان للملك غلامٌ يقال له رُسْتَهْ، وكان سَيِّئَ الرأي في شهر براز. فقال: أيها الملك! قد ملأ قلبَك قليلٌ من كثيرٍ، وصغيرٌ من كبيرٍ، وتافهٌ من عظيمٍ، خانَكَ فيه شهر براز وآثر به نفسَه. ولئن كان المَلك، مع رأيه الثاقب وحَزمه الكامل، يَظُنُّ أن شهر براز أدّى الأمانةَ، لقد بَعُدَ ظَنُّه من الحقّ وخَسّ

(١) في سه: فزار داره.

نَصِيبَهُ[1] . فوقع [في] نفس أبرويز ما قال رُسْتَهْ ، فقال له : ما أَظُنُّك إلّا صادقًا . فما
(١٥٣) الرأْيُ عندك ؟ قال : تَكتُبُ إليه بالقدوم وتُوهِمُه أنَّ بك حاجةً إلىٰ مناظرته ومشاورته في أمرٍ لم تَجُز الكتابة به . فإنه إذا قَدِمَ ، لم يُخَلِّفْ ما يملِكُ وراءه ، إذ كان لا يدرى أيرجِعُ إلىٰ ما هناك أم لا . فيكون كلُّ ما يَقْدَمُ به نُصْبَ عينيك .

فكتب أبرويز إلىٰ شهر براز يأمره بالقدوم عليه لمناظرته ومشاورته فى أمرٍ يدِقُّ عن الكتاب والمُراسلة .

فلما مضىٰ الرسول ، أردفه برسولٍ آخَر . وكتب إليه : "إنى قد كنتُ كتبتُ إليك آمُرك بالقُدوم لأُناظرَك فى مُهِمٍّ من أمرى . ثم علِمْتُ أنَّ مُقامَك هناك أقدَحُ فى عدوّك وأنكىٰ له وأصلَحُ للملك وأَوْفَرُ علىٰ المملكة . فأقِمْ وكُنْ من عدوّك علىٰ حَذَر ، ومن غِرّته علىٰ تيقُّظ . فإنه مَن ذهب مالُه ، حَمَل نفسَه علىٰ التلَف أو الفَلَج[2] . والسلام !"

وقال للرسول الثانى : إنْ قَدِمتَ فرأيتَه قد تأهَّبَ للخروج إلىّ وظهر ذلك فى عسكره ، فادْفَعْ إليه هذا الكتابَ . وكتبَ : "أما بعدُ ، فإنى كتبتُ إليك وقد آستبطأْتُ جواب قُدومك وحَرَكتك . وعلمتُ أنَّ ذلك لأمرٍ تُصلِحه من أمر نفسك
(١٥٤) أو مكيدةِ عدوّك . فإذا أتاك كتابى هذا فخلِّفْ أخاك علىٰ عَمَلك وأَغِذَّ السيرَ ولا تُعرِّج علىٰ مُهِمٍّ ولا غيرِه . إن شاء الله !" . وإن لم تره آستعدّ للخروج ولا تأهّب له ، فادفع إليه الكتابَ الأول .

(١) فى سـ : "نفسه" . ولعل الصواب : "نصيبه" . قال فى القاموس : "خسَّ نصيبَه جعله خسيسا دنيئا حقيرا ." . ولم ترد هذه الكلمة ولا التى قبلها فى صـ .

(٢) فى سـ : الفتح ، وفى صـ : الحتف . وقد صححتُ بما فى المتن ليكون المعنى ان الذى يذهب ماله يركب أخشن المراكب فإما أن يتلف وإما أن يظفر وينجح . لأنه يكون فى حالة يأس تحمله على المخاطرة بنفسه أو يفوز .

فقدِمَ الرسولُ الثانى، وليس لشهر براز فى الخروج عزمٌ ولا خاطرٌ، ولا هَمٌّ به . فدفع إليه الكتاب الأول . فقال شهر براز : أوّلُ كلِّ قَتلة حِيلَةٌ . وكان خليفة شهر براز بباب المَلك قد كتب إليه ما كان من قول رُسْتَهْ للمَلك وما كان من جواب المَلك له . ثم نازعت أبرويزَ نفسُه ودعاه شرهُهُ إلىٰ إعادة الكتاب إلىٰ شهر براز بالقدوم عليه .

فلمّا قرأ شهر براز كتابه الثالث قال : كان الأمر قبل اليومِ باطنًا، فأمّا اليومَ فقد ظهر .

فلمّا علم أبرويز أنّ نيّةَ شهر براز قد فَسَدت وأنه لايقدَمُ عليه (١)، كتب إلىٰ أخى شهر براز : "إنى قد ولَّيتُك أمرَ ذلك الجيش ومحاربَةَ ملك الروم . فإنْ سَلَّمَ لك شهر براز ما ولَّيتُك، وإلاّ فحارِبْهُ !"

فلمّا أتاه كتابُهُ أظهره وبعث إلىٰ شهر براز يخبره أن الملك قد ولّاه موضعه، وأمَرَهُ بمحاربته إن أبىٰ أن يُسَلِّمَ إليه ما ولّاه . فقال له شهر براز : أنا أعلم بأبرويز منك . هو (١٥٥) صاحب حِيَل ومكايد، وقد فَسَدتْ نيته لى ولك . فإن قتلنى اليومَ، قتلَك غدا ؛ وإنْ قَتَلك اليومَ، كان على قتلى غدًا أقوىٰ (٢) .

ثم إنّ شهر براز صالَحَ مَلك الروم، لمّا خاف أبرويز . وتوثّق كلُّ واحدٍ منهما من صاحبه . وٱجتمعا علىٰ محاربة أبرويز . فقال له شهر براز : دَعْنى أتولَّى محاربته، فإنّى

(١) هذه رواية صـ . وأما سـ فروايتها : يقدر

(٢) رواية ٱبن الأثير فى هذا الموضوع أحسن وأمتن . ومحصلها أن شهر براز لما ٱمتنع عن إجابة كسرى، بعد طلبه ثلاث مرات، أمر الملكُ بعزله و بتولية أخيه فرُّخان الذى كان معه، وأمره بقتله . فلما أراد فرخان أن يقتله، قال له شهر براز : أمهِلنى حتى أكتب وصيتى . ثم أحضر درجا وأخرج ثلاثة كتب من كسرى يأمره فيها بقتله، وأطلعه عليها، وقال له : أنا راجعتُ فيك أربع مرّات ولم أقتلك، وأنت تقتلنى فى مرة واحدة . فٱعتذر فرخان إليه وأعاده إلى الإمارة . وٱتفقا على موافقة ملك الروم على كسرى . (ج ٢ ص ٣٤٨)

أبصرُ بمكايده وعَوْراته[١] . فأبَىٰ عليــه مَلِكُ الروم، وقال: بل أَقِمْ فى دار مملكتى حتّى أتولّى أنا محاربته بنفسى. فقال شهر براز: أمّا إذ أبَيْتَ علىَّ فإنى مصوِّرٌ لك صورةً، فٱعمَلْ بمـا فيها وٱمتثِلْها.

ثم صوّر له كلَّ منزلٍ ينزِلُهُ بينه وبين أبرويز فى طريقه كلّه، وأىّ المنازل ينبغى له أن يقيم فيه، وأيّها يجعلها طريقا وسَــيْراً ماضيا حتّى اذ أقامه من طريقه كله علىٰ مثل وَضَحِ النهار، قال له: فإذا صرتَ بالنَّهْرَوَانِ، فأَقِمْ دُونه ولا تقطعْهُ إليه، وٱجعله منزلك وجهِّزْ جيوشَك وعساكرك إليه.

فمضىٰ ملك الروم نحوه. وبلغ أبرويزَ الخــبرْ فضــاق به ذَرْعه، وٱرْتَجَّ[٢] عليــه أَمْرُه. فكان أكثرُ جنوده قد تفرَّقوا لطلب المعاش، لقطعِـه عنهم ما كان يجب لهم من إقطاعاتهم وأرزاقهم. فبقِىَ فى جُنْدٍ كالميِّت أكثرُهم هَزْلىٰ أضِرّاء[٣]. [١٥٦]

وكان ملك الروم يعمل علىٰ ما صوّره له شهر براز فى طريقه كلّه، حتّى إذا أشرَفَ علىٰ النَّهْروانِ، عَسْكَرَ هناك وٱســتعدّ للقاء أبرويز. وقد بَلَغَه قلّةُ جموعه وتفرّق جنوده وسُوءُ حال مَن بَقِىَ معه. وكان فى أربعمائةِ ألِفٍ، قد ضاقت بهم الفِجاج والمَسالك. فطَمِعَ فى قتل أبرويز ولم يَشُكَّ فى الظَّفَر به.

فدعا أبرويز رجُلا من النصارىٰ، كان جدُّه قد أنعمَ علىٰ جدّ النصرانىّ وٱستنقذه من القتــل أيامَ قتل مانِى، وكان من أصحابه الذين استجابوا له. فقال له أبرويز: قد عَلِمْتَ ماتقدَّم من أيادينا عندكم، أهلَ البيت قديمـًا وحديثًا. قال: أجَلْ أيها الملكُ! وإنِّى لشاكرٌ ذلك لك ولآبائك. قال: خذْ هذه العصا وٱمضِ بها إلىٰ شهر براز، فأْتِه فى قرار

(١) حـ: وغدراته.

(٢) أى ٱضــطرب.

(٣) أى مهزولون مَرْضىٰ. [والذى فى سـ: هزلا وضرا].

مَلك الروم، فأدفعها إليه من يدك إلىٰ يده . وعَمَد إلىٰ عصًا مثقوبةٍ، فأدخَل فيها كتابًا صغيرًا منه الىٰ شهر براز: ”أما بعدُ فإني كتبتُ إليك كتابي هذا وأستودعتُه العصا . فإذا جاءك، فحرِّق دار مملكة الروم، وأقتُل المُقاتلة، وأسْبِ الذُّرِّيَّة، وأنْهَبِ الأموال، ولا تتركَنَّ عينًا تَطْرِفُ ولا أُذُنًا تسمَعُ ولا قَلْبًا يعي، إلّا كان لك فيه حُكْمٌ. وأعلم أني (١٥٧) واثبٌ بملك الروم يوم كذا وكذا. فليكن هذا وقتَك الذي تعمَل فيه ما أَمَرْتُك.“

قال: وأمر للنصرانيِّ بمـالٍ وجهَّزه، وقال: لا تُعَرِّجَنَّ علىٰ شيءٍ ولا تُقيمَنَّ يومًا واحدًا. و إيّاك ثم إيّاك أنْ تدفع العصا إلّا إلىٰ شهر براز، من يدك إلىٰ يده!

ثم ودّعه ومضىٰ النَّصرانيُّ . فلمـا عَبَر النَّهـروانَ، أتفق أنْ كانَ عُبورُه مع وقتِ ضربِ النواقيس. فسمع قَرْعَ عشرةِ آلافِ ناقوسٍ أو أكثرَ. فأنهملتْ عيناه وقال: بِئْس الرجُلُ أنا، إنْ أعَنْتُ علىٰ دِينِ النصرانيّة وأطعْتُ أمرَ هذا الجبّار الظالم!

فأتىٰ باب مَلك الروم، فأستأذن عليه، فأذِنَ له . فأخْبَره بقصّـة أبرويز حرفًا حرفًا. ثُمّ دفع إليه العصا، فأخذها ونظر فيها. ثم أستخرجَ الكتاب منها فقُرِئَ عليـه . فنخر، وقال: خدعني شهر براز! ولئن وقعتْ عيني عليه، لأَقْتُلَنَّـه!

وأمرَ فقُوِّضَتْ أبنيَتُـه من ساعته، ونادىٰ في الناس بالرحيل. وخرج ما يَلْوِي علىٰ أحدٍ.

و وجه أبرويزُ عينـًا له يجيئـه بخبره. فأنصرف إليـه فأخبره أنّ الملك قد مضىٰ (١٥٨) ما يلتَفِتُ لَفْتَـةً. فضحك أبرويز، وقال: إنّ كلمة واحدة هَزَمَتْ أربعمائة ألف لجليلٌ قَدْرُها ورفيعٌ ذِكْرُها![1]

(١) والعرب تقول: أنفذُ من الرميَةِ، كلمةٌ خفيَّةٌ . (”العقد الفريد“ ج ١ ص ١٦٥)

خاتمة الكتاب

وإذ قد ٱنتهيْنا إلىٰ هذا الموضع من كتابنا هذا، وأخبرْنا بأخلاق الملوك فى أنْفُسها، وما يجبُ علىٰ رعاياها لهـا، بقدر وُسـع طاقتنا، فلْنختِمْ كتابنا هذا بذكر مَنْ بعثَنا على نظمه، وكان مفتاحا لتأليفه وجمعه.

ولْنقُلْ إنّا لم نَرَ فى صَدر هذه الدولة المباركة العباسيّة ولا فى تاريخها وأيّامها إلىٰ هذه الغاية فتًى ٱجتمعتْ له فضائلُ الملوك وآدابُها ومكارمُها ومناقبُها، فحازَ الولاءَ من هاشمٍ والخِصِّيصىٰ[1] من خُلفاء بنى العباس الطَّيِّبـين، والتَّبَنِّى من المُعتصم بالله وإخوته الأبرار من أئمة المؤمنين وورَثة خاتَمِ النبيِّينَ، عدا الأميرَ الفتحَ بنَ خاقانَ مَولىٰ أميرِ المؤمنين.

فَلْتهنِئْـهُ هذه النِّعْمَةُ المُهداة! وبارَكَ له واهبها، وزاده إليهـا الدأْبَ عليها حتّٰى يبلغ به أرفعَ يَفاعِها وأسنىٰ ذِرْوتها وأعلىٰ درجاتها، فى طُولٍ من العُمر وسلامةٍ من عوادى الزمان وغِيَرِه ونَكَباته وعَثَراته! فإنه رحيم كريم!

فى آخر النسخة السلطانية ما نَصُّـــه:

تمّ الكتاب المبارك بحمد الله تعالىٰ وعونه وحسن توفيقه. والحمد لله وحده!

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا!

حسبنا الله ونعم الوكيل!

---

(١) أى الاختصاص بالتفضيل.

تكميل للروايات

و

تصحيحات مطبعيـــــة

تكميلٌ

لبعض الروايات والملحوظات الانتقاديّة التى وضعتُها فى حواشى هذا الكتاب .
والقصد من هذا التكميل أن تزداد فوائده لمن يعنيهم استيفاء بحثٍ خاصّ أو التوسّع فى مطلبٍ ممّا جرىٰ به قلمُ الجاحظ .

صفحة ١١ (حاشية ١)

١ — ورد اسم "ميسرة" فى كتاب "الحيوان" (ج ٧ ص ٢٨) ولكن الجاحظ نعته فيه بلقب "التيّاس" ووصف مقدار أكله ، وما ذا كان يصنع إذا أجهدته الكظّة . كذلك ابن أبى الحديد (ج ٤ ص ٣٢٤ — ٣٢٦) تكلّم عن هذا الأكول وأعطاه لقبا آخر وهو "الرأس" بدلا من "الترّاس" أو "البرّاش" . ولاشك أن هذه الألفاظ كلها محرّفة عن لقب واحد من مادّة واحدة . ولو اعتبرنا كتابتها نجدها كلها متقاربة فى الشكل والصورة . وهذه التحريفات مصدرها إهمال النسّاخين المسّاخين .

٢ — أولع الجاحظ بذكر "قاسم التمّار" وبمداعبته والعبث به فى كتبه . وقد وصفه بطول العنق ، وأشار إلىٰ بعض نوادره وأحواله ، هو وابنه ، الذى كان شرّ شبيه بأبيه .

ويستفاد من كلام الجاحظ أنه كان معاصرا له .

أُنظر كتاب "التربيع والتدوير" (ص ٨٩ و ١٠١) ؛ وكتاب "البيان والتبيين" (ج ٢ ص ٣ وخصوصا ص ١٦١)؛ وكتاب "الحيوان" (ج ٥ ص ٦١)؛ وكتاب "البخلاء" (ص ٢١٥ و ٢١٦ بأكملهما)؛ و"المحاسن والأضداد" (ص ٩ حيث سماه : القاسم التمّار) .

٣ — ذكر الجاحظ "أبا همام السنوط" فى كتاب "البخلاء" (ص ٢٢٨) ، وسماه السموط ، ووصفه بالأكّال . وقد ذكره أيضا فى كتاب "الحيوان" (ج ١ ص ٥٥) .

٤ — مما يجب بيانه فى موضوع المشهورين بكثرة الأكل فى الإسلام أن ابن أبى الحديد نص (فى شرح نهج البلاغة ، ج ٤ ص ٣٢٤ — ٣٢٦) على أن الذى منهم هو " أبو الحسن بن أبى بكر الحسن بن على ابن العلاف" أى ابن الشاعر الشهير بابن العلاف . وقد ورد ذكر هذا الابن عرضا فى "وفيات الأعيان" لابن خلكان فقال عنه : " وهو الأكول المقدّم فى الأكل ، فى مجالس الرؤساء والملوك " . ثم قال عنه فى موضع آخر : "وهو المشهور بكثرة الأكل " (ج ١ ص ١٩٤ ، ٥٣١ طبعة بولاق سنة ١٢٧٥ أى فى ترجمة أبيه الحسن بن العلاف ، ثم فى ترجمة علىّ بن الفرات) .

٥ — ذكر ابن أبى الحديد أيضا " هلال بن أشعر " وهو نفس الذى سميناه " هلال بن الأسعر " . لأن صحة اسمه بالسين المهملة . (أنظر " تاج العروس " فى مادة — س ع ر — وفى مادة — رزم — وأنظر ترجمته فى "الوافى بالوفيات") . وهو هو الذى سميناه فى حاشية صفحة ١١ من التاج : "هلال ابن مسعر" والغلط عن الكتب التى نقلنا عنها وأشرنا إليها فى تلك الحاشية .

٦ — أضاف ابن أبى الحديد لنا اسما جديدا يجب ضمه إلى إخوانه وهو " عنبســة بن زياد " إن لم يكن هو و"عبيد الله بن زياد بن أبيه" رجلا واحدا . فإن تحريف "عبيد" إلى "عنبسة" ليس ببعيد .

٧ — أضاف ابن أبى الحـــديد لنا اسما جديدا آخر ، وهو " أبو خارجة " الذى روى لنا الجاحظ أخباره وقال عنه إنه يضرب به المثل . (أنظر "الحيوان" ج ٥ ص ١٤٧) .

٨ — هذا وأنا أعتقد أن "مزودا" الذى ذكرته فى ضمن أسماء الأَكَلَة فى تلك الحاشية إنما هو "مُزَرِّد" وهو لقب ضرار بن الشّماخ . والتحريف راجع إلى تلك الكتب التى نقلتُ اسمه عنها . وأنظر "تاج العروس" فى مادة — زرد — وإن كان لم يخبرنا بأنه من الأكلة .

٩ — وقد نقل ابن أبى الحديد عن كتاب " الأَكَلَة " للمدائنى — الذى ذكرناه فى آخر تلك الحـاشية — أحوالا وأخبارا تراها فى الجزء الرابع من "شرح نهج البلاغة" (ص ٣٢٤ — ٣٢٦) .

صفحة ١٢ (حاشية ١)

عرّفنا الجاحظ بإبراهيم بن السندى بن شاهك ، فقال فى رسالة "مناقب الترك وعامة جند الخلافة" إنه "كان عالما بالدولة شديدا الحب لأبناء الدعوة ... ... وكان فخم المعانى، فخم الألفاظ . لو قلت : لسانه كان أردّ على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير وسنان طرير، لكان ذلك قولا ومذهبا" .

وعرّف به الجاحظ أيضا فى "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٢٩) بقوله :

كان رجلا لانظير له ، وكان خطيبا ، وكان ناسبا ، وكان فقيها ، وكان عروضيا وحافظا للحديث ، راوية للشعر ، شاعرا . وكان فخم الألفاظ ، شريف المعانى . وكان كاتب القلم ، كاتب العمل . وكان يتكلم بكلام رُؤْبة ، ويعمل فى الخراج بعمل زاذان فروخ الأعور . وكان منجما ، طبيبا . وكان من رؤساء المتكلمين ، وعالما بالدولة وبرجال الدعوة . وكان أحفظ الناس لما سمع ، وأقلهم نوما ، وأصبرهم على السهر .

صفحة ١٦ (حاشية ١)

أضف على البيانات التى أوردتها فيما عن استعمال لفظة "الاستكفاء" بمعنى التولية وتقليد المناصب قولَ الجاحظ نفسه :

قال يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاه على خراسان : إن أباك كفى أخاه عظيما ، وقد استكفيتك صغيرا . فلا تتكلن على عذر منى لك ، فقد اتكلت على كفاية منك . وإياك منى ، قبل أن أقول : إياى منك . فإن الظن إذا أخلف منك ، أخلف منى فيك . وأنت فى أدنى حظك ، فاطلب أقصاه . وقد أتعبك أبوك ، فلا تريحن نفسك . وكن لنفسك ، تكن لك . واذكر فى يومك أحاديث غدك ، تسعد . إن شاء الله !

(البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٩ ثم ص ٢٠٤).

صفحة ١٦ (حاشية ٢)

أضف على هذه الحاشية أن ابن أبي الحديد روى في "شرح نهج البلاغة" (ج ٤ ص ٣٨٠) قصة الرجل الذي أراد سابور أن يمتحنه قبل أن يوليه قضاء القضاة .

صفحة ١٩ (حاشية ٢)

أضف على ماأوردته من البيانات بخصوص الآيين أن الجاحظ نفسه قد استعمل هذا اللفظ ثلاث مرات في كتاب "البخلاء" طبع ليدن فقال :

١ — الآيين فيما نحن فيه أن تكون إذا كنتُ أنا الجالس وأنت المارّ أن تبدأ أنت فتسلّم فأقول أنا حينئذ مجيبا لك : وعليكم السلام . (ص ٢٧) .

٢ — وإن كنتُ آكُل ، فهاهنا آيين آخر . وهو أنْ أبدأ أنا فأقول هَلُمّ ! وتجيب أنت فتقول : هنيئا ! فيكون كلامٌ بكلام . فأمّا كلامٌ بفعال ، وقولٌ بأكل ، فهذا ليس من الإنصاف . (ص ٢٨) .

٣ — إحضار الجَدْي إنما هو شيء من آيين الموائد الرفيعة . وإنما جُعل كالعاقبة ، والخاتمة ، وكالعلامة لليسر والفراغ ، وإنه لم يُحضَر للتمزيق والتخريب . (ص ١٠٣) .

هذا وقد ذكر ياقوت في الجزء الثاني من معجم الأدباء (ص ٥٩) نقلا عن الفهرست أن أحمد بن محمد ابن نصر الجيهانيّ ألّف "كتاب آيين" و "كتاب الزيادات في كتاب آيين في المقالات" .

صفحة ٢٠

الحكاية الواردة في متن هذه الصفحة قد أوردها الجاحظ بنصها وفصها مع زيادة كلمتين فقط (في "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٣٢) . ثم أوردها أيضا في كتاب "البخلاء" (ص ١٩٣) .

وعنه نقلها ابن عبد ربه في "العقد الفريد" بدليل نقله أيضا الكلام الذي عقّب به الجاحظ في موضع آخر من باب الاستطراد .

صفحة ٢٠ (حاشية ١)

أضف إلى ما كتبته عن بلال بن أبي بُردة ما ذكره لنا الجاحظ من أنه خطب بالبصرة يوما، فرأى الناس قد آستحسنوا كلامه، فقال لهم : " لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا أن تقبلوا أحسن ما تسمعون منا " .

(البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠٨)

وقد ذكره الجاحظ فى مواضع كثيرة من كتاب " البخلاء " (ص ٧٥ و ١٦٣ وخصوصا ص ١٦٩) حيث أورد له كلمة ضافية فى المقارنة بين البخل والكرم، وتفضيل الكرم .

صفحة ٢٠ (حاشية ٢)

كان الجارود بن أبي سبرة — ويكنى أبا مفضل — من أبين الناس وأحسنهم حديثا . وكان راوية علامة، شاعرا مفلقا . وكان من رجال الشيعة . ولما آستنطقه الحجاج قال : ماظننتُ أن بالعراق مثل هذا . وكان يقول : ما أمكننى وال من أذنه إلا غلبت عليه، ماخلا هذا اليهودى (يعنى بلال بن أبي بردة) . وكان عليه متحاملا . فلما بلغه أنه (أى الحجاج) وهقه (أى بلالا) حتى رقت ساقه وجعل الوتر فى خصبيه أنشأ يقول :

لقد قرّعينى أن ساقيه رقتا * وأن قوى الأوتار فى البيضة اليسرى
بخلت وراجعت الخيانة والخنا * فيسرك الله المقدّس للعسرى
فما جذع سوء خرّب السوس جوفه * يعالجه النجار يبرى كما تبرى

وإنما ذكر الخصية اليسرى، لأن العامة تقول إن الولد منها يكون .

(البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٦ و ١٢٧)

صفحة ٢٤ (حاشية ١)

الشائع عند العرب آستعمالهم "الأساورة" بصيغة الجمع . ولكنهم كانوا يستعملون المفرد أيضا . والامثلة كثيرة ، نختار منها ما أورده الجاحظ فى كتاب "الحيوان" (ج ٦ ص ١١٤) حيث قال "بصُرت بفهد على قاب غلوة ؛ فسعيتُ إليه ، وأنا أُسوارٌ كا تعلمون . فوالله ! ماأخطأتُ حاقَ لهزمه حتّى رزق الله عليه الظفر" .

صفحة ٤٣ (سطر ٨)

مما يجب تعليقه على مارواه الجاحظ بخصوص تهاون الأمين إبّان محاصرة الجيوش له فى بغداد ، أن صاحب "بدائع البدائه" روى القصة الآتية (فى صفحة ٦٨) وهى :

خرج كوثر ، خادم الأمين ، لينظر الحرب أيام محاصرة طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعْيَن لبغـداد ، فأصابه سهم غَرَب ، بجرحه . فدخل على الأمين يبكى لألَمِ الجراحة . فلم يتمالك الأمين أنْ جعل يمسح عنه الدمَ ويقول :

ضربوا قُرَّةَ عيـنى ، * ومن آجلى ضَربوهُ !
أخـذ اللهُ لقلْبـى * مِن أُناس أوْجعُوه ...

ثم أُرْتِجَ عليه . فآستدعى الفضل بن الربيع وأمره بإحضار شاعر يُجيزُ البيتين . فآستدعى لذلك عبد الله بن محمد بن أيّوب التيمىّ وأنشدهما له فقال :

ما لِمَنْ أهوىٰ شبيهٌ ، * فبـه الدُّنيا تَتيهُ !
وَصْـلهُ حُلْو ، ولكنْ * هَجْرهُ مرٌّ كريهُ !
مَن رأىٰ الناسُ له الفضـ * ـل عليهم ، حسدوه !
مثل ماقد حسـد القا * ئمَ بالملك أخوه .

فأمر الأمين له بوقر ثلاثة أبغل دراهمَ .

صفحة ٤٣ (حاشــــية ٣)

أضف على ما أوردته فى هــذه الحاشــية شرحًا للفظة "بأو" ما أورده الجاحظ فى "البيان والتبيين"
(ج ٢ ص ٣٧) وهو :

قال جعدة بن هبيرة :

أبى من بنى مخزومَ، إنْ كنتَ سائلًا، * ومن هاشمٍ أُمّى، لخـــير قبيلِ !
فمن ذا الذى "يَبْأَى" علىّ بخـاله، * وخالى علىٌّ، ذو الندى، وعقيـلُ ؟

صفحة ٤٤ (حاشــــية ١)

الشجرة المعروفة عند العرب بأسم "السرحة" تكلم عنها علمـاء النبات من الإفرنج مثل العلامة "فورسكال" قديمـا، والأستاذ "شوينفُرتْ" الموجود الآن .

فقال الأوّل : Cadaba farinosa ; foliis ovatis, oblongis, farinosis.
Descr. Folia alterna, semipollicaria, farinoso-tomentosa, plana, integra, obtusa, alterna. Pedunculi racemi ramorum terminales. Rami recentes tomentoso-farinosi. Nectarium album, parvum lingua tubo angustiore revoluta. Petala 4, undulata. Stamina inserta pedicello germinis infra medium.

Arab. Asal. aliis Korrah vel Særah سرح Usus antitoxicus: dum rami recentes & minores masticantur ; vel pulveris forma eduntur.

(P. Forskal, *Descriptiones plantarum flora Ægyptiaco-Arabicæ* : pp. 68)

وقال الثـانى مانصه : Sserahh. Saerah سرح 140 Cadaba c) farinosa Forsk.
(Schweinfürth G., *Arabische Pflanzennamen aus Ægypten, Algerien und Jemen* : p.p. 117)

ولكن شرح هذين العالمين ينطبق على نجم أى شجيرة، مع أن المفهوم من كتب اللغة العربية أنها شجرة كبيرة .

صفحة ٤٧ (حاشية ٤)

أضف على ما بها من المعلومات أن الجاحظ أورد البيانات الخاصة بأبي أُحيحة وعمامته (في "البيان والتبيين" ج ٢ ص ٧٧) فقال ما نصه : "وكان أبو أُحيحة سعيد بن العاص(*) إذا اعتمّ بمكة لم يعتمّ معه أحدٌ. هكذا في الشعر. ولعلّ ذلك أنْ يكون مقصورا في بني عبد شمس. وقال أبو قيس بن الأسلت :

وكان أبو أُحيحةَ، قد علمتُمْ، * بمكّةَ غيرَ مهتضَمٍ ذميمٍ.
إذا شدَّ العصابةَ ذات يومٍ * وقام إلى المجالس والخصومِ،
فقد حَرُمتْ على مَن كان يمشي * بمكّةَ غيرِ مُدَّخَلٍ سقيمٍ.
وكان البَخْتَرِيَّ(١) غداةَ جمعٍ * يدافعهم بلُقمانَ الحكيمِ.
هو البيتُ الذي بُنِيَتْ عليه * قُرَيْشُ السرِّ في الزمن القديمِ.
وسَطْتَ(٢) ذوائبَ الفرعَيْن منهم، * فأنت لُبابُ سرِّهمِ الصميمِ!"

صفحة ٤٨ (حاشية ٦)

أضف ما أفادناه صاحب كتاب "الفهرست" عن أبي حسّان الزيادىّ أنه . كان "قاضيا فاضلا، أديبا ناسبا، جوادا كريما يَعمل الكتب وتُعمل له، وكانت له خزانة حسنة كبيرة ... ومات ... سنة ٢٤٣، وله سبع وثمانون سنة وأشهر . وله من الكتب : كتاب مغازى عروة بن الزبير، كتاب طبقات الشعراء، كتاب ألقاب الشعراء، كتاب الآباء والأمهات". (عن كتاب "الفهرست" ص ١١٠).

(*) يغلط كثير من ناسخى الكتب وطابعيها فيقولون "العاصى" في هذا الرجل وفي عمرو بن العاص وغيرهما من أبناء هذا البيت . والحقيقة أنه من "العوص" لا من "العصيان"، ولذلك يقال لهم "الأعياص" (راجع "الاشتقاق" لابن دريد و"لسان العرب" وغيرهما من كتب الأنساب واللغة والأدب).

(١) البَخْتَرِيُّ الحسن المشى والجسم . (انظر اللسان ج ٥ مادّة ـ ب خ ت ر ـ).

(٢) أي توسّطتَ فكنتَ أنت الواسطة بين الفرعَيْن .

هذا ، وقد أوهمتني عبارة أبي المحاسن عند كلامه على السنة الثانية من ولاية عنبسة بن إسحاق على مصر أن المتوكل ولّى أبا حسان الزيادىّ هذا قضاء الشرقية ، أن المقصود هو إقليم الشرقية بديار مصر . ذلك خاطرٌ سبق إلى وهمي ، وأنا أبرأ إلى الله منه . لأن الشرقية التي تولّى قضاءها أبو حسان الزيادىّ هي أحد شِقّىْ بغداد . وقد وصفها اليعقوبىّ (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب) فقال : "وإنما سُمِّيتْ الشرقيةَ لأنها قُدِّرتْ مدينةً للمهدىّ قبل أن يعزم [أبو جعفر المنصور] على أن يكون نزول المهدىّ في الجانب الشرقىّ من دِجلة . فسمِّيتْ الشرقية ؛ وبها المسجد الكبير ، وكان يُجَمَّع فيه يوم الجمعة ، وفيه منبر . وهو المسجد الذي يجلس فيه قاضي الشرقيّة" . (أُنظر كتاب البلدان لليعقوبىّ طبع لَيْدن سنة ١٨٦٠ صفحة ١٧) .

صفحة ٥٢ (حاشية ٢)

أضف على هذه الحاشية أن الجاحظ قد شرح لنا "التتايع" بقوله : فالمتتايع ، لا يثنيه زجر وليست له غاية دون التلف . (كتاب "البخلاء" ص ١٨٣) .

صفحة ٥٣ (سطر ١٤)

أورده الجاحظ "في البيان والتبيين" أيضا (ج ١ ص ١٦٦) .

صفحة ٥٤ (سطر ١ – ٢ من المتن)

روى الجاحظ مقولة الشعبي في "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٦٦) . ولكن طابعه أورد "تنابذا" بدلا من "تناقدا" التي في طبعتنا نقلا عن ضرم . والظاهر أن هذه الثانية أفضل ، لأن السياق يدل عليها .

صفحة ٥٤ (سطر ٣ — ٧ من المتن)

روى الجاحظ أيضا فى "البيان والتبيين" الحديثَ الذى كان بين المأمون و بين سعيد بن سَلْم بشأن آستحسان الخليفـة له فيما يبديه من "حسن الإفهام وحسن الفهم". (أُنظر "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٦٦ ، وفيها آختلاف طفيف فى بعض الألفاظ مما لا عبرة به).

صفحة ٥٤ (حاشية ١)

أضف إلى الرواية التى أشرنا إليها أن الجاحظ روى كلمة عمرو بن العاص أيضا فى " البيان والتبيين " برواية ثانية فيها آختلاف فى اللفظ لا المعنى ، وهى مغايرة لرواية المبرد التى أشرنا إليها فى تلك الحاشية . (أُنظر "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٦٦).

صفحة ٥٦ (حاشية ٤)

فى "المخصص" لآبن سِيدَهْ شرح "السهم العائر ، والسهم الغَرَب" (ج ٦ ص ٧٦). [وآنظر عن "السهم الغَرَب" ما أوردته فى صفحة ١٩٤ عن تكميل صفحة ٤٣ س ١٠].

صفحة ٥٨ (حاشية ١)

أضف على الخلاصة التى كتبتُها على أبى بكر الهُذَلىّ ما قاله الجاحظ عنه فى "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٣٦) أنه كان قاصًّا وعالما بيّنًا وعالما بالأخبار والآثار. وقد سمّاه (ج ٢ ص ١٢٠) "سلمى" ونقل عنه هذه الكلمة : " إذا جمع الطعامُ أربعا ، فقد كمل : إذا كان حلالا ، وكثرت عليه الأيدى ، وسُمِّىَ الله على أوّله ، وحُمِدَ على آخره " . وأضف على ذلك ما قاله الجاحظ فى ذلك الكتاب أيضا (ج ١ ص ١٣٦) من أنه كان خطيبا قاصًّا وعالما بالاخبار والآثار ، وأنه لما ناظَرَ أهـل الكوفة قال : " لنا الساج والعاج

والديباج والخراج والنهر العجّاج". وقد روى الجاحظ هذه الكلمة فى كتاب "الحيوان" (ج ٧ ص ٧٢) على هذا المثال : "نحن أكثر منكم عاجا وساجا وديباجا وخراجا". ونسبها للأحنف بن قيس فيما فخر به على أهل الكوفة، ثم قال الجاحظ : ويقال إنها من كلام خالد بن صفوان أو من كلام أبى بكر الهذلىّ. وقد أورد الجاحظ هــذه الكلمة فى كتاب "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٨٤) ولكنه اقتصر على نسبتها للهذلىّ هذا، دون غيره.

صفحة ٦٠ (حاشية ١)

أضف على الخلاصة التى كتبتُها عن رَوْح بن زِنْبَاع ما رواه الجاحظ من أن معاوية همّ به فقال له رَوْحٌ : "لا تُشْــمِتَنَّ بى عدوّا أنتَ وَقَمْتَهُ(*)، ولا تَسُوأنّ بى صديقا أنت سررتَه، ولا تَهدِمنَّ منّى ركنا أنت بنيتَه! هَلّا أَتىٰ حلمك على جهلى وإساءتى؟ " (البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٧). وانظر خطبته التى استمال بها الناس لمبايعة مَرْوان بن الحَكَم بالخلافة (فى الكتاب المذكور ص ١٤٧). وانظر فى "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٨٠) كلمة عبد الملك بن مَرْوان التى نقلناها عن "العقد الفريد" فى تلك الحاشية. فلا بد أن يكون ابن عبد ربّه قد أخذها عن الجاحظ.

صفحة ٦٠ (حاشية ٣)

أضف على ما ذكرتُه عن أسماءَ بن خارجة الفزارىّ أن الحجاج بن يوسُفَ الثقفىّ لمـا بلغه موته، قال : "هل سمعتم بالذى عاش ماشاء ثم مات حين شاء ؟ " (البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٣، ١٧٧).

(*) وَقَمْتَهُ أى قهرته وأذللته. [حاشية عن طابع "البيان والتبيين"].

صفحة ٦١ (حاشية ١)

أضف عليها ما أورده الجاحظ فى كتاب "الحيوان" حيث قال :

١ — العقرب تقع فى يد السنور، فيلعب بها ساعة من الليل، وهى فى ذلك مسترخية "مستخذية" لا تضربه (ج ٤ ص ٧٢) .

٢ — ولولا أن الأبغث [هو هو البُغاث] علىٰ حال يعلم أن الصقر... قد أُعطى فى سلاحه وكفّه فضل قوّة، لما "آستخذىٰ" له ولما أطمعه فيه بهربه (ج ٦ ص ١٠٣) .

٣ — ولولا أن الهرّ يمعن فى الهرب غاية الإمعان ثم لحقته [الهرة]، لقطعته وهو "مستخذٍ" (ج ٧ ص ٤٧) .

(صفحة ٦٢ — ٦٥)

أورد فى كتاب "المحاسن والأضداد" المنسوب إلىٰ الجاحظ ماورواه الجاحظ عن آمتحان أنوشروان لمن خانه فى حريمه . والعبارتان يكاد لفظهما يكون واحدا . علىٰ أنّ النصّ الوارد فى روايتنا قد آستوفىٰ نصيبه من التصحيح والتحقيق (أُنظر كتاب المحاسن والأضداد طبع العلّامة نانفلوتن ص ٢٧٧ — ٢٨٠) .

صفحة ٦٥ (حاشية ٣)

أوّلا — ورد آسم خالد بن يزيد فى أثناء الكلام . وقد رأيتُ من الواجب زيادة التعريف به لأنه من السابقين إلىٰ إدخال علوم الفلسفة فى اللغة العربية . فقد روىٰ لنا عنه صاحب "كتاب الفهرست" بعض الشىء، ووصفه بأنه "حكيم بنى أُميّة" . ولكن المعلومات التى أوردها عنه تدلّ علىٰ أنه كان منقطعا إلىٰ الكيمياء . أما الجاحظ فقد أظهر لنا فضله الكبير فى خدمة الأدب والعلم ، فقال : إنه "كان خطيبا شاعرا ، وفصيحا جامعا ، جيّد الرأى كثير الأدب . وكان أوّل مَن ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء ." (البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٦) .

وأنا أريد على ذلك أن هذا الأمير كان مرشحا للخلافة ، فلما حرمها انقطع لخدمة العلم والأدب ، فأبقى لنفسه فخرا باقيا على مدى الأبد .

وليت امراء الشرق فى هذا العصر يقتدون به ، لينفعوا أنفسهم ووطنهم وأمتهم ! ! !

ثانيا — أنظر أيضا مكاتبات عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد الأشدق (فى "البيان والتبيين" ج ٢ ص ١٨٥) ، وتلقيب سعيد بلطيم الشيطان (ج ١ ص ١٥٢ و ١٨٤) ، وأسبابا لطيفة فى تسميته بالأشدق (ج ١ ص ١٩١) .

ثالثا — ذكرتُ فى هذه الحاشية قول ابن الزبير " إن أبا ذِبّان قتل لطيم الشيطان " . واعلم أن " أبا ذِبّان " هو كما فى " لسان العرب " (لقبٌ غلب على عبد الملك بن مَرْوان الخليفة الأموىّ ، لفسادٍ كان فى فمه . والعرب تكنى الأبخر "أبا ذُبَاب" وبعضهم يكنيه "أبا ذِبّان" . قال الشاعر مشيرا إلى هشام ابن عبد الملك بن مَرْوان :

لَعَلِّىَ إنْ مالتْ بِىَ الرِّيحُ ميلةً * على ابنِ أبى الذِّبّان ، أن يتندّما) .

وقال الجاحظ فى كتاب " الحيوان " (ج ٣ ص ١١٨) : "يقال لكل أبخر : أبو ذِبّان . وكانت — فيما زعموا — كنية عبد الملك بن مروان . وأنشد قول ابن خرابة(١) :

أمسىْ أبو ذِبّان مخلوعَ الرَّسَنْ * خلع عنان قارح من الرسن ،

وقد صفت بيعتنا لابن الحسن" .

هذا ، وقد أورد الجاحظ فى كتاب الحيوان معلومات عن "لطيم الشيطان" (ج ٦ ص ٥٥) ، كما أن ياقوت ذكر فى "معجم الأدباء" أن لوط بن يحنف له كتاب فى مقتل عمرو بن سعيد بن العاص ، المعروف بالأشدق وبلطيم الشيطان . (ج ٦ ص ٢٢١) .

(١) هكذا بالنسخة المطبوعة ، والتحريف فيها كثير . وصحة اسم هذا الشاعر هو " أبو خُزابة " (بالخاء المهملة ثم الزاى المعجمة) فإنه من الذين خرجوا مع ابن الأشعث على الخليفة عبد الملك بن مروان (أنظر " الأغانى " ج ١٩ ص ١٥٢ ؛ وأنظر "المشتبه" للذهبى طبع ليدن ، ص ١٦٠) .

وقد روىٰ الجاحظ فى كتاب "الحيوان" (ج ٦ ص ١٠٣) أن بعض بنى مَرْوان قال فى قتل عبد الملك عَمْرو بن سعيد :

كأنّ بنى مَرْوان إذ يقتــلونه * بغاث من الطير اجتمعن علىٰ صقر!

[أى إن هذا من العجب] .

صفحة ٦٧ (حاشية ٣)

أضف علىٰ البيانات التى أوردتُها عن "البان" أن أحد الشعراء المتأخرين قد وصفه بما يدلنا علىٰ هيئته وشكله ، فقال :

لله بستانٌ حَلَلْنــا دَوْحَهُ * فى جَنَّــةٍ قد فَتَّحَتْ أبوابَها!

والبانُ تحسبه سنانيرًا رأتْ * قاضىِ القضاة ، فنفّشَتْ أذْنابَها!

(بدائع الزهور لابن إياس ج ١ ص ١٢٩)

صفحة ٧٥ (حاشية ٢)

أضف علىٰ الشواهد التى أوردتُها ما قاله صاحب "لسان العرب" فى مادة ـــ ر ه ن ـــ وهــذا نصه :

الرهينة الرهن ، والهـاء للبالغة ، كالشتيمة والشَّتْم ، ثم آستُعملا بمعنىٰ المرهون .

صفحة ٧٨ (حاشية ١)

أضف علىٰ هذه الحاشية أن الجاحظ نفسه تكفل بشرح "تَحَصُّن الفرس" ، فقال فى كتاب "الحيوان" (ج ٢ ص ٥٠) مانصه : "فما تقول فى فرس تَحصَّن تحت صاحبه ـــ وهو فى وسط موكبه ـــ وغبارُ الموكب قد حال بين آستبانة بعضهم لبعض ، وليس فى الموكب حِجْر ولا رَمَكَة ، فيلتفت صاحب الحِصان فيرىٰ حِجْرًا أو رَمَكَةً علىٰ قابِ عِرْض أو عِرْضين أو غلوة أو غلوتين؟ حدِّثنى : كيف شمَّ هذا الفرس تلك الفرس الأنثى؟" .

ففى ذلك تأييد تامٌّ لما توهمتُه بطريق التخمين عند شرحى كلمته هنـاك . وكأننى كنتُ أنظر بنور الله إلىٰ هذا الشرح حينما أوردتُ حكاية قايتباى ، سلطان مصر .

صفحة ٨١ (حاشية ٤)

روىٰ الجاحظ أيضا مسايرة سعيد بن سَلْم للخليفة الهادى بنفس ألفاظها التى أوردها فى ''التاج'' وقال : إن الخليفة نَعَتَـهُ بـ''الخائن'' (البيان والتبيين ج ٢ ص ١٥) .

فأنت ترىٰ أن جميع الروايات قد تطابقت علىٰ هذا النعت ، دون غيره .

صفحة ٨٩ (حاشية ١)

أورد الجاحظ فى كتاب ''الحيوان'' أيضا ما قاله طُوَيْس المغنِّى لبعض ولد عثمان بن عفَّان (أعنى هو سعيد آبن عثمان بن عفان) ثم عقَّب عليه بقوله : ولو قال شهدتُ زفاف أُمِّك الطيِّبة إلىٰ أبيك المبارك ، لم يحسُنْ ذلك . [وأنظر مقدّمة هذا الكلام فى الجزء الرابع ص ١٩] .

صفحة ٩٥ — ٩٧

أورد فى كتاب ''المحاسن والأضـداد'' المنسوب إلىٰ الجاحظ مارواه الجاحظ عن آمتحان أبرويز لرجاله فى حفظ الحُرَم . والعبارتان تكادان تكونان بلفظ واحد ، غير أن التى عنـدنا قد أخذَت حظّها من العناية فى التصحيح .

(أُنظر ''المحاسن والأضداد'' طبع العلامة فان فلوتن بمدينة ليدن صفحة ٢٧٧ — ٢٨٠) .

صفحة ٩٩ (حاشية ١)

أُحَلْتُ القارئَ علىٰ بعض المواطن التى يرىٰ فيها تفاصيلَ شافيةً عن بيت النار المعروف بآسم ''النوبهار'' . وأزيد علىٰ ذلك أن آبن فضـل الله العُمَرِىّ تكلّم عنه فى '' مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار'' (ج ١ ص ١٦٦ ، ج ٢ ص ١٥٥ و ١٥٦ من النسخة المحفوظة بدار الكتب الخديوية التى نقلتُها بالفتوغرافية عن نسخة السلطان المؤيَّد شيخ ، الموجودة الآن بخزانة طوبِ قبو بالقسطنطينية) .

صفحة ١٠٢ (سطر ٨) وصفحة ١٠٣ (سطر ٦)

للجاحظ شرح لطيف علىٰ قولهم : " المغبون لا محمود ولا مأجور" . (أنظره فى كتاب " البخلاء" ص ٢٧ و٢٠٣) .

صفحة ١٠٧ (حاشية ٣)

أوردتُ فى آخر هذه الحاشية التى أتصلتْ بصفحة ١٠٨ معلومات عن الجعد بن درهم بحسب ما وصل إليه آجتهادى بعد مراجعة كثير من الكتب ، وذكرت المصنفات التى عثرتُ فيها علىٰ شىء من هذا القبيل . ثم رأيتُ ترجمته فى " سرح العيون" لأبن نباته (ص ١٥٩) فأحببتُ لفتَ النظر إلىٰ ذلك ، وإن كان فى الحقيقة لايحتوى علىٰ شىء يذكر أكثر مما أتيتُ عليه .

صفحة ١٠٨ (حاشية ٢)

أوردتُ فى المتن آسم "سليم بن مُجالد" آعتمادًا علىٰ رواية صر ، وأشرت فى الحاشية إلىٰ أن صاحب "المحاسن والمساوى" قد أورد القصة . ولكن فاتنى أن أقول إنه سماه "سليمان بن مُجالد" . وأنا أضيف الآن أن آبن أبى الحديد روىٰ هذه القصةَ أيضا فى " شرح نهج البلاغة " وسماه مثل صاحب " المحاسن والمساوى" أى "سليمان" وقال إنه "مولى بنى زهرة وكانت له من السَّفَّاح منزلة عظيمة" (وأورد تفصيلات أوفىٰ . أنظرها فى ج ٢ ص ٢٠٧) .

وقد أورده فى النسخة الحلبية لكتاب "التاج" صحيحا : "سليمان بن مجالد" .

صفحة ١٠٩ (حاشية ١)

أضف علىٰ هذه الحاشية أن الجاحظ نفسه روىٰ بعض المكاتبات التى دارتْ بين معاوية وبين قيس آبن سعد بن عبادة أمير مصر من قِبَل علىّ بن أبى طالب (فى " البيان والتبيين " ج ١ ص ٨٢)، وكذلك آبن أبى الحديد (فى "شرح نهج البلاغة" ج ٢ ص ٢٣ — ٢٤) .

صفحة ١٠٩ (حاشية ٣)

أضف على هذه الحاشية : "ومن خطبة أبى حمزة الخارجى : وأما بنو أمية ، ففرقة ضلالة ، وبطشهم بطش جبرية . يأخذون بالظنّة ، و يقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويحكمون بالشفاعة ، و يأخذون الفريضة من غير موضعها و يضعونها فى غير أهلها ." (عن "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٩٥) .

وقال أيضا : آثر الإمامة على ملك الجبرية . (من كتاب فضائل الترك، ص ٤١)

صفحة ١١٠ (حاشية ٣)

أضف على الخلاصة التى أوردتُها عن صباح بن خاقان رأى الجاحظ فيه أنه "كان ذا علم و بيان ، ومعرفة وشدّة عارضة ، وكثرة رواية مع سخاء واحتمال وصبر على الحق ونصرة للصديق وقيام بحق الجار" . ("البيان والتبيين" ج ١ ص ٣٦) .

صفحة ١١٦ (حاشية ١)

أضف على المعلومات التى أوردتُها عن "ابن دأب" ما رواه الجاحظ فى "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٢٤، ١٢٥)

صفحة ١١٨ — ١٢٠

أضف إلى الحواشى التى كتبتُها عن علامات الانصراف ما أورده الجاحظ فى "البيان والتبيين" (ج ٢ ص ٦٠) .

صفحة ١١٩ (حاشية ٤)

أضف إلى شرحى لكلمة "مخصرة" قول ابن سِيدَهْ : "المخصرة مايُشير به الملك إذا خطب" (عن المخصص ج ١١ ص ١٨) . وأما الجاحظ نفســه فقد وفّى هذا الموضوع حقه فى "كتاب العصا" الذى أدمجه فى كتاب "البيان والتبيين" وقال فيه (ج ١ ص ١٣٩) مانصه : "كانت المخاصر لا تفارق أيدى الملوك فى مجالسها ، ولذلك قال الشاعر :

فى كَفِّه خَيْزُران ريحها عَبِقٌ * بِكَفِّ أَرْوَعَ(١) فى عِرْنينه شَمَمُ".

وانظر بقية الأبيات هناك . وقد أورد الجاحظ هذا البيت فى "الحيوان" (ج ٣ ص ١٥٢) وعلق عليه بقوله : لأن الملك لا يختصر إلّا بعودٍ لَدْنٍ ناعِمٍ .

وانظر أيضا كتاب "العصا" لأُسامة بن منقذ ، وقد طبعه العلامة هرتويغ درنبرغ Hartwig Derenbourg فى ضمن كتابه على أسامة بن مُنْقــذ Ousâma Ibn Mounkidh, *un émir syrien aux premiers siècles des croisades.*

صفحة ١٢١ (حاشية ٢)

ذكرتُ فى هذه الحاشية شاعر قريش "عروة بن أُذينة" ، ومما يجب التنبيه إليه أن هناك رجلا آخر اسمه "عروة بن أُدَيَّة" . وقد غلط صاحب القاموس فوصفه بأنه "شاعر" . وترتب على ذلك أن الشارح وقع فى التخليط مع أن شيخه عرف الصواب فنص على (أن الصحيح أنه "ابن أذينة" تصغير أذن) . ولكن الشارح ردّ على ذلك بأن الصاغانىّ نسب هذا القول إلى العامة . (انظر "تاج العروس" ج ١٠ ص ٣) .

والتحقيق أن "عروة بن أُدَيَّة" منسوب إلى جدته "أُدَيَّة" . وأما أبوه فهو حُدَيْر أحد بنى ربيعة بن حنظلة . وقد قتله زياد بن أبيه فى أيام معاوية (انظر "الكامل" للمبرد طبعة ليبسك ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣) .

أما "عروة بن أذينة الشاعر" ، شاعر قريش ، فقد عاش إلى أيام الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان . ونسـبه وأخباره وأشعاره كثيرة جدا تراها فى "الأغانى" خصوصا فى الجزء ٢١ ص ١٦٢ — ١٧١ (وانظر فهرسه أيضا) .

---

(١) الأَرْوَع : الذى يروعك و يعجبك لحسنه أو شجاعته .

صفحة ١٢٣ (حاشية ١)

أضف على ما أوردته عن آستعمال "السُّكَّينة" أن صاحب بدائع البدائه (ص ٢٢٧) قد أنشد لآبن قلاقس الإسكندرىّ مرتجلا :

أتانا الفقيــــه ببطِّيخــةٍ * وسِكِّينةٍ قد أُجيدتْ صقالا ،

فقطَّع بالبرق بدرَ الدُّجىٰ * وناول كلَّ هلالٍ هلالا .

صفحة ١٢٤ (س ١ من المتن ، ثم ح ١)

إتفقت النسخ على التعبير بلفظ "الحوىّ" عن المكان الذى قد ينام فيه الملك . وكنتُ آثرتُ آستعمال "الحاوى" لأنه من آصطلاحات الفلاسفة . والآن أرىٰ أن الرجوع إلى اللفظ الأوّل أفضلُ . لانه وارد فى جميع النسخ الثلاث ، ولأن اللغة لا تمنع من ذلك .

صفحة ١٢٩ (س ٢)

شرح الجاحظ الملال وشهوة الآستبدال فى كتاب "البيان والتبيين" . (ج ٢ ص ١٥٨) .

صفحة ١٣١ (حاشية ٥)

ترىٰ تعريفا لطيفا عن آبن أبى عتيق فى الجزء الثانى من كتاب "الحيوان" (ص ٢٨) .

صفحة ١٤٣ (سطر ٦ وما يليه)

قارن ما كتبه الجاحظ فى "التاج" عن رأى الناس فى المشهور المتداول بما أورد فى كتاب "الحيوان" (ج ٢ ص ٣٦) مما يدخل تحت هذه البابة ويندمج فى ذلك المعنىٰ .

صفحة ١٥٥ (حاشية ١ و ٢)

أضف على هاتين الحاشيتين أن الجاحظ يقول إن الموسوس غلفا بن الحارث ''كان يتغلّف'' ويغلف أصحابه بالغالية، فسُمِّى ''غلفاء'' بذلك ''البيان والتبيين'' (ج ٢ ص ١٦١).

قال فى الصحاح '' وتَغَلَّف الرجُل بالغاليـة وغَلَف بهـا لحيته غَلْفـا ، ومعديكرب بن الحـرث بن عمرو أخو شُرَحْبيل بن الحـارث يُلَقَّبُ بالغلفاء لأنه أوّل من غَلَف بالمسـك، زعموا '' . ونحوه فى ''اللسان'' (ج ١١ مادة غ ل ف) .

صفحة ١٦١ (حاشية ١)

يضاف على السطر الثالث منها أن آبن أبى الحديد روى محاكمة علىّ بن أبى طالب مع خصمه أمام عمر بن الخطاب ''شرح نهج البلاغة'' (ج ٤ ص ١٣٣) .

هذا، وقد صنف أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكرىّ كتابا خاصا فى هذا الموضوع سمّاه ''كتاب من آحتكم من الخلفاء إلى القضـاة'' . [ذكره ياقوت الحموىّ فى ص ١٣٧ من القسم الأوّل من الجزء الثالث من ''معجم الأُدباء''] .

وقد سهوتُ عن ذكر شىء مما وقع من هذا القبيل بالأندلس، مع علم الخاص والعام بغرامى بهذا القطر وبمن كانوا فيه . فرأيت أن أتلافى الآن ذلك الإهمال بالإحالة على ما حصل من قاضى قضاة قرطبة محمد بن بشير (المصرى الأصـل) مع الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ومع عمه ووزيره (وآنظر التفصـيل الوافى فى نفح الطيب، ج ١ ص ٣٩٥ طبعـة بولاق، ج ١ ص ٥٥٥ طبعة ليدن؛ وفى كتاب بغيـة الملتمس للضبى طبع مدريد، ص ٥١؛ وفى كتاب التكملة لكتاب الصـلة لآبن الأبّار، طبع مدريد، ص ٩٠؛ وفى كتاب المدارك للقاضى عيـاض، الذى أشار اليه صاحب نفح الطيب) . ومثل ذلك ما وقع أيضا لمنذر بن سعيد البلوطى مع الخليفة الأكبر عبد الرحمن الناصر (وأخبـار هذا القاضى مشهورة تجد المعجب والمطرب منها فى الكتب المذكورة ـــ بمراجعة فهارسها) وآنظر على الخصوص نفح الطيب طبع أوروبا (ج ١ ص ٤٧٠) وما يليهـا .

صفحة ١٦٦ (سطر ٣ – ٧)

أُنظر ما رواه الجاحظ فى كتاب "الحيوان" عن مهارة بهرام وفروسيته فى صيد الحمار الوحشىّ . (ج ١ ص ٩٤).

صفحة ١٦٩ (حاشية ٢)

أضف على المعلومات التى أوردتُها عن "الطبر" و"الطبرزين" :

١ً – أن ابن جرير الطبرىّ الشهير ذهب إلى أبى حاتم السجستانىّ ليأخذ عنه حديثا فى القياس، فأفاده أبو حاتم، ثم سأله عن بلده، فقال : طبرستان . ولما سأله عن سبب هذه التسمية، قال : لا أدرى . فقال أبو حاتم : إن المسلمين بعد أن فتحوا هذا الإقليم شرعوا فى بناء المدينة، "وكانت أرضا ذات شجر، فالتمسوا ما يقطعون به الشجر . فجاؤوهم بهذا الطبر الذى يقطع به الشجر، فسُمِّىَ الموضع به" . (أُنظر "معجم الأدباء" لياقوت ج ٦ ص ٤٢٨) . وقد ذكر الجاحظ "الطبرزين" و"الطبرزينات" فى كتاب "البيان والتبيين" (ج ٢ ص ٧٦) وفى كتاب "الحيوان" (ج ٧ ص ٥٣) .

٢ً – أن أهل مصر توسعوا فى القرن الثامن للهجرة فأطلقوا لفظة "طَبَر" على السلاح جملةً . يدل على ذلك قول تاج الدين أبى نصر عبدالوهاب السبكى فى كتاب "معيد النعم ومبيد النقم" (ص ٥٠ من طبعة لوندرة سنة ١٩٠٨) : الطبردار وهو الذى يحمل السلاح بين يدى السلطان لأجل حفظ نفسه .

صفحة ١٧٣ (حاشية ٢)

يظهر من كلام الجاحظ نفسه أن الخباز عندهم كان هو الطاهى والطباخ ، وأنه هو الذى كان يقدّم الطعام لمخدوميه .

قارن ما ذكره فى صفحة ١٧٣ من كتاب "التاج" بما ذكره قبل ذلك فى صفحة ٢٠ ، واعتبر كلامه فى "الحيوان" (ج ٤ ص ٢٦) حيث قال : إن "العرب تقول للرجل الصانع ... ... خبّازًا، إذا كان يطبخ ويعجن" . وقد قال فى الجزء الخامس منه (ص ١٣٦) : "ولذلك صار الخبّازون الحُذّاق قد تركوا

الضأن ، لأن المزيبق شحمه ولحمه فيصلُح أنْ يُسَمّن مرّاتٍ ، فيكون أربحَ لأصحاب العُرس " . وآنظر فى الجزء السادس منه (ص ١٦٦ ـــ ١٦٧) قصة الطباخ السندىّ الذى آشتراه ثمامة [بن أشرس] ثم قال عنه الجاحظ : "إنه أحسن الناس خبزا وأطبخهم قدرًا " .

وورد فى كتاب " البخلاء " للجاحظ :

١ ـــ إنك لتغالى بالخباز والطباخ والشوّاء والخبّاص [أى الذى يصنع الخبيصة] (ص ٧٠) .

٢ ـــ قرّبَ خبازُ أسد بن عبدالله ـــ وهو على خُراسان ـــ شواء قد نضجه نضجا ، وكان يعجبه ما رطب من الشواء ، فقـال لخبازه : أتظن أن صنيعك يخفى على ؟ (ص ١٦٠) .

٣ ـــ جاء الخبازون فرفعوا الطعام (ص ١٦٤) .

فكل هذه النصوص تؤيد ماقلناه من أن الخباز عندهم كان هو القائم بخدمة الآكلين ، وأنه كان فوق ذلك قد يصنع بعض ألوان الطعام .

صفحة ١٧٣ (حاشية ٣)

ذكر الجاحظ البزماورد فى كتاب " الحيوان " فقال : والدّجاج أكثر اللحوم تصرُّفا ، لأنها تطيب شواءً ، ثم حارًّا وباردًا ، ثم تطيب فى البزماورد (ج ١ ص ٩١) . ثم قال فى موضع آخَر : إن "أهل خراسان يعجبون بآتّخاذ البزماورد من فراخ الزنابير ، ويعافون أذناب الجراد الأعرابىّ السَّمين . " (ج ٤ ص ١٥) . ثم أورد فى الجزء السادس منه (ص ٢٨) أن الفضـل بن يحيى آستظرف بزماورد الزنابير حينما كان واليا على خراسان . فلما عاد إلى بغداد كان يشتهيها ، فتطلب له من كل مكان . وحكى حكاية رجُل بدوىّ تناول الطعام على مائدة الأمير ، وقد عيّره الندماء بأكل الجراد الأعرابىّ . ثم مالبث الرجل أن رأى القوم أحضروا على المـائدة صحفة ملآنة من فراخ الزنابير ليتخذوا منها بزماوردا للأمير . فخرج البدوىّ وهجاهم بأبيات ، تراها هنـاك .

صفحة ١٧٦ (حاشية ٣)

أُنظر أيضا التفصيل الذى أورده الجاحظ عن قتل المنصور لأبى مسلم الخراسانىّ فى " البيان والتبيين " (ج ٢ ص ٥٥) .

صفحة ١٨٤ (سطر ١٥)

مانى الثنوىّ هو القائل بالنور والظلام . والطالب يرى ترجمته فى "سرح العيون" (ص ١٥٥) . والقائلون بمذهبه يسمون " مانيــة " و" مانوية " . وآسمه عند الفرنسيين Manichée. Manès وآسم أصحابه Manichéens . وكان مولده باليمن حينما كانت تابعة للفرس .

تصحيحاتٌ

لأغلاط مطبعية طفيفة وردتْ فى المتن وبعض الحواشى ، رأيتُ وجوب استدراكها ليكون الكتاب آية فى الكمال بقدر الإمكان .

صفحة	سطر	خطـــأ	صـــواب
١١	١٤	أبو الحسن بن بكر	أبو الحسن بن أبى بكر
٢٠	٨	ويتّسع ، ويقصر ويجتهد	ونتّسع ، ونقصّر ونجتهد
٢٤	١٠	بمخاطبة	علىٰ مخاطبة
٣٣	١٤	بَهرام جُور	بَهرامَ جُور
٤٠	١١	وجاؤا	وجاؤوا
٤٧	٨	حتى	حين
٤٧	١٩	ص ٢٠ من طبعتنا	ص ٢٥ من طبعتنا
٤٨	٢١	قضاء مديرية الشرقية بمصر	قضاء الشرقية ببغداد
٧٠	١٤	حِمالات...	حَمالات
٧٨	١٤	تثب ... تكون	يثب ... يكون
٧٨	١٥	قدّامها	قدّامه
٩٨	١١	خلوا ، تذاكروا	خَلَوا ، تَذَاكَرَا
٩٩	١٥	الأطلاع	الأطّلاع
١٠٢	٩	للسَفَلة	للسّفلة
١١١	١	الرويدية	الزيدية(١)
١١٦	١٢	يقرؤن	يقرؤون
١٢١	٩	بمحارج	بمخارج
١٢٥ } ١٢٦	١٢ } ١ ، ٣	أراد مرد	آزادمرد(٢)
١٣١	٣	غزَل	هزْل(٣)

(١) هذا التصحيح عن النسخة الحلبية . ولعله قريب من الصواب . ويكون الواجب تصحيح رواية س ، ص بمقتضاه ، أى نجعل بدل "الرويدية" لفظة "الزويدية" بطريق التصغير والتحقير لكلمة "الزيدية" (كما فعل فى صفحة ١٣٥ س ٣) .

(٢) هذا التصحيح عن الحلبية أيضا . والفُرس يسمون بهذا الاسم ، ومعناه "الرجُلُ الحرُّ"

(٣) هذا التصحيح عن الحلبية أيضا . وهو وجيه جدّا ومتحتّم يقضى به السياق .

استدراك (١)

للمهمّ من الاختلافات فى رواية النسخة الحلبية ، وخصوصا للزيادات التى انفردتْ بها دون نسختى س ، ص .

(الكلمات الزائدة فى الحلبية أدمجناها فى الرواية بحرف كبير ، تمييزا لها وتنبيها على موقعها)

ص ٢ س ٩ "هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات" [والآية التى فى آخر سورة "الأنعام" (آية ١٦٥ سورة ٦ من مصحف الحافظ عثمان) ليس فيها لفظ "فى" والذى أوجب الخلط على ناسخ الحلبية قوله تعالى فى سورة "فاطر" : "هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض فمن كفر فعليه كفره". (آية ٣٩ سورة ٣٥) وهى غير الآية التى يريدها الجاحظ ، وليس فيها محل الشاهد الذى توخاه].

ص ٤ س ٤ "أى ليّناه" بدلا من "قال كنّياه". [وما اعتمدناه هو الصواب كما تراه فى تفسير الرازى وغيره].

ص ٥ جميع الوارد فى هذه الصفحة ناقص فى س وهو موجود فى الحلبية مثل ما هو فى ص مع بعض اختلاف وقع من الناسخ الحلبىّ .

ص ٧ س ١ اقتصر صاحب الحلبية على ترجمة الباب بقوله "فى الدخول على الملوك" ثم ابتدأ الكلام بقوله : "قال رحمه الله : مما يجب للملك إن كان الرجل من الأشراف والطبقة العالية أن يقف". [وعندى أن ذلك الترتيب أفضل من روايتنا ولذلك اعتمدته فى فذلكة المضامين].

ص ١٣ س ١ "عبد الرحيم" [مثل س] بدلا من "عبد الرحمن" [الذى اعتمدناه عن ص].

ص ١٣ س ١ "الملك" بدلا من "إسحاق". [فكأن ناسخ الحلبية اتفق مع ناسخ س إلا فى وضعه لفظة "الملك" فى موضع البياض الذى تركه صاحب س ، وانظر حاشية ٣ من ص ١٣].

---

(١) أنظر صفحة ٦٢ من التصدير .

ص ١٧ س ٤ ""يعنى"" بدلا من ""يقتدى"" . [وربما كانت رواية الحلبية أحسن] .

ص ١٧ س ١٠ ""كان"" بدلا من ""الحاقّ"" . [ولا بأس برواية الحلبية أيضا] .

ص ٢١ س ٤ ""واذوات"" بدلا من ""وأدوات"" . [وكلا الروايتين لامعنىٰ له وأنظر حاشية ١] .

ص ٢٢ س ٦ فى الحلبية : "وإن كان الملك يشرب الخمرة والعياذ بالله ليس للرجل الواقف فى خدمته أن يختار" بدلا من ""وليس له أن يختار"" ... ... [وفى رواية الحلبية تمطيط لا يتفق مع المعهود من أسلوب الجاحظ] .

ص ٢٣ س ٣ ""حدّ يليها"" بدلا من ""جديليها"" . [وروايتنا هى الصواب وأنظر الحاشية رقم ٢] .

ص ٢٤ س ١١ ""عن أصلها وفصلها"" بدلا من ""عن فضيلتها"" . [وروايتنا توافق المعهود من أسلوب الجاحظ] .

ص ٢٥ س ١ ""وحصر كل طبقة منها قسمها"" بدلا من ""وخص كل طبقة علىٰ قسمتها"" . [فقد وافق حوزنا مافى الحلبية عند ماصححنا ""خص"" بكلمة ""حصر"" التى عينها لنا السياق . وأنظر حاشية ١ فى تلك الصفحة] .

ص ٢٨ س ١٠ ""خرتوماش"" بدلا من ""خرم باش"" . (ورواية الحلبية مغلوطة ، وأنظر الحاشية رقم ٢) .

ص ٢٨ س ١٢ » » » (» » » » » » ») .

ص ٢٩ س ٨ ""تنقل"" بدلا من ""شغل"" . [ورواية الحلبية تتفق مع رواية سـ] .

ص ٣٠ س ١٥ ""بقوانين"" بدلا من ""بآيين"" . [فرواية الحلبية تتفق مع رواية سـ] .

ص ٣١ س ١ فى الحلبية : "إبراهيم الموصلى" ... ... [وأنظر الحاشية التى وضعتها فى أسفل تلك الصفحة] .

ص ٣٤ س ٧ ""واحدا من مغنيه وبطانته فى عشر سنين"" ... ...

ص ٣٥ س ٧ ""قليل العطاء سيئ النظر"" بدلا من ""قليل الإغضاء سيئ الظن"" . [وعندى أن روايتنا أفضل] .

ص ٣٥ س ٩ ""لاتعطى"" بدلا من ""لايعطينى"" . [وعندى أن روايتنا أفضل] .

ص ٤٥ س ٧ "و[لا] سيما" فقد توافقنا مع الحلبية فى إضافة أداة النفى . ولكن الحلبية عادت فأهملت أداة النفى فى موضع آخر . فأوردت "سيما" فى الموضع الذى أشرنا إليه فى صفحة ١٥٧ من طبعتنا . وهذا الموضع قد اتفقت فيه النسخ الثلاث على إهمال أداة النفى [وانظر الحاشية رقم ٣ ص ٤٥ والحاشية ، ثم س ٤ ص ١٥٧] .

ص ٤٦ س ٨ لا يمسوا طيبا يتطيب به الملك دونهم ... ... [وهـذه الزيادة فى الحلبية جميلة لتخصيصها نوع الطيب الذى يستعمله الملك] .

ص ٤٧ س ٢ "مثله وإلا لم يكن بين الملوك والسوقة فرق" .

ص ٤٨ س ١ و ٢ "وإبراهيم بن المهدىّ وقد دخل عليه ابن أبى دؤاد" بدلا من "وهذا إبراهيم بن المهدى بالأمس دخل على ابن أبى دؤاد" . [فاتفق سـ وصـ على أن الداخل هو إبراهيم ابن المهدىّ بخلاف ما جاء فى الحلبية . وعندى أن روايتهما هى أقرب إلى الصواب لأن إبراهيم من بيت الخلافة ، بل إنه أتى عليه حين من الدهر تبوأ فيه مقعدها وقام بأمرها . ولا شك أنه تخوف دسيسة من ابن أبى دؤاد حينا انتقد عليه لبسة هى خاصة بالخليفة] .

ص ٤٩ س ٩ "فى الشرب إذا كان الملك يسكر وأن" ... ...

ص ٤٩ س ١١ " تجاوز حدّ العدل على الخاصة " بدلا من " تجاوز حق العدل على الخاصة " ... ... [ورواية الحلبية أحسن وأبين] .

ص ٥٠ س ١٠ " هـذه الخصال منه " بدلا من " هاتان منه " ... ... [وعندى أن رواية الحلبية أكثر حسنا وأتم بيانا] .

ص ٥٠ س ١٣ "ولا يته اللهم إلا أن" ... ... [وعندى أن هذه الزيادة فى الحلبية فى غاية الجمال] .

ص ٥١ س ٩ "ومن أخلاق الملك السعيد الكامل العقل والأدب أن لا يعاقب " ... ...

ص ٥١ س ١١ "الأمة" بدلا من "الملة" . [وعندى أن كلمة "الأمة" مصحفة عن "الأئمة" الواردة فى سـ . وقد استحسنت "الملة" الواردة فى صـ من أجل المجانسة مع الشريعة الواردة فى جميع النسخ] .

ص ٥٢ س ١ ''غيره'' بدلا من ''السوقة'' ... ... ''العالم'' بدلا من ''الحاكم'' . [وهاتان الروايتان أحسن مما آعتمدناه عن س و ص] .

ص ٥٣ س١٢و١٣''والحديث عنها أقوم منهم إلى فوائد'' بدلا من ''والحديث عنهم أقرم وأشهى منها إلى فوائد'' . [ولا شك أن رواية الحلبية محرّفة وصوابها ''أقرم وأنهم إلى فوائد''. وآنظر الحاشية رقم ٢] .

ص ٥٨ س ٣ ''فآرتاع من حضر'' بدلا من ''فآرتاع ومن حضره'' .

ص ٦١ س ٩ ''يبق'' بدلا من ''يتق'' .

ص ٦٤ س ١٠ ''الجواميس'' بدلا من ''الجواسيس'' . [ومثل هذه السخافات كثير فى الحلبية] .

ص ٧٢ س ١٠ ''(باب فى الخلال التى تساوى الندماء فيها الملوك : قال صاحب الكتاب رحمه الله تعالى : ينبغى أن يكون لندماء الملك و بطانته'' . [وهو تقسيم وجيه لطيف ، ويجب آعتماده فى طبعتنا] .

ص ٨١ س ٧ ''عبد الله بن حسين'' بدلا من ''عبد الله بن حسن'' .

ص ٨٧ س ٢ ''بآسم غير آسمه أو آسم أبيه'' بدلا من ''بآسم أبيه'' . [ورواية الحلبية أكمل] .

ص ٩٥ س ٢ ''أن لا'' بدلا من ''أن [لا] '' . [فكانت زيادتنا لحرف النفى موافقة لما فى الحلبية] .

ص ٩٥ س ١٥ ''التباله'' بدلا من ''التأله'' . [وهذا التصحيف فيه تَبَالُهٌ من الناسخ] .

ص ٩٦ س ٣ ''فآمتحن بعض الملوك''.. ... [وهذه الزيادة سخيفة ، وهى توجد فى س أيضا . والرواية المتعينة هى الواردة فى ص ، وهى التى آعتمدناها فى الطبع] .

ص ٩٦ س ١٧ ''إلى نسائه اللواتى'' بدلا من ''إلى بستانه الذى'' .

ص ٩٨ س ٢ ''التباله'' بدلا من ''التأله''... ... [وهو تَبَالُهٌ ثانٍ من ناسخ الحلبية] .

ص ٩٩ س ٩ ''نيته لعلة صلح بخلافها ومن فسدت نيته لغير علة'' ... ... [ورواية الحلبية وجيهة جدا وواجبة . فينبغى آعتمادها فى طبعتنا] .

ص ١٠١ س ١٣ ''دراهم'' بدلا من ''دنانير''.

ص ١٠٣ س ١ ''أكثروا التغافل'' بدلا من ''السرو التغافل''. [وروايتنا هي الصحيحة].

ص ١٠٤ س ٢ ولا كرامة لك ... ...

ص ١٠٦ س ٥ ثم قال : نعم هذا ... ...

ص ١٠٦ س ٥ ''وجاؤوا بالرأس فوضع بين يديه . فقال لمن حضره : فيكم من يعرف هذا الرأس؟ فقام ... ...'' [وهذه الزيادة يقتضيها السياق . فلتتمم في طبعتنا].

ص ١٠٧ س ١ رحمه الله : وعاد إلى مجلسه فقعد فوثب ... ... [« « « «].

ص ١٠٨ س ٧ ''فقال : أما والله'' ... ...

ص ١٢٠ س ١٠ ''والحظوة والسلطان'' بدلا من ''والحظوة عند السلطان''. [ولعل رواية الحلبية أفضل. ويكون السلطان فيها بمعنى السلطة ، وأما في رواية س ، ص فمعناه الملك الأعظم].

ص ١٢٢ س ١٥ ''فيتواطآن على كذب'' بدلا من ''فيتواطآ''.

ص ١٢٤ س ٧ ''ليس منها فراش إلا ومن ورائه من بعيد على الأنفراد لا يُشَكّ أنه'' بدلا من ''ليس منها فراش إلا ومن رآه من بعيد على الأنفراد لا يشك أنه'' ... ...

ص ١٣٠ س ٧ ''أما ترى'' بدلا من ''ألا ترى''. [ورواية الحلبية حسنة جدا].

ص ١٣٤ س ٦ ''هلال الهمذانى'' بدلا من ''مهاهل الهمذانى''. [وروايتنا هي الصواب].

ص ١٣٤ س ١٠ ''وقد'' بدلا من ''و [قد]''. [فتصحيحنا جاء موافقا لما في الحلبية].

ص ١٣٥ س ٣ ''كردى'' بدلا من ''كريجى''. [ورواية الحلبيـة أقرب للصواب وإنما ينقصها التصغير للتحقير].

ص ١٣٥ س ١١ ''ولعله لا يجد'' ... ... [وزيادة أداة النفي هنا وجيهة ومتحتمة].

ص ١٣٦ س ١٠ ''كل من قرب من نفس الملك'' بدلا من ''كل من أنفس الملك''. [ورواية الحلبية جيدة والاصح اعتمادها . ويكون المعنى : كل من جعله الملك نفيسا عنده].

ص ١٤١ س ٥ "عيسى بن برمك" بدلا من "عيسى بن نهيك". [ورواية الحلبية مغلوطة فى هذا المقام ولكنها صحيحة فى بقية الكلام لأنها عادت فسمته عيسى بن نهيك].

ص ١٤٣ س ٩ "لشىء هو فيه لم ندر" بدلا من "لشىء آخر لا ندرى" ... ...

ص ١٤٤ س ١٤ "مشاهدة أو مشافهة" بدلا من "مشاهرة أو مسانات". [وسخافة الحلبية ظاهرة].

ص ١٤٥ س ١٠ "حوادث الدهر والموت" بدلا من "حوادث المؤن".

ص ١٤٧ س ٤ "موانيد" بدلا من "موابذ".

ص ١٤٨ س ١٥ "يُجدِّده ... ... يجدّدها" بدلا من "يتخذه ... ... يأدبها".

ص ١٥٠ س ١٤ "وجود النّهِم المشاق" بدلا من " " وجود القرم النهم المشتاق".

ص ١٥٠ س ١٥ "لذة الطعام وطيبته" بدلا من "لذة الطعام وأطيبه". [ورواية الحلبية أطيب].

ص ١٥١ س ١٢ "جمعة يوما وليلة" بدلا من "يوم وليلة مرة". [ورواية الحلبية أحسن].

ص ١٥٣ س ٦ "الجمعة وربما لم يشرب فى بعض البواقى من أيام الجمعة. فأما هذان اليومان فلم يكن ليشرب فيهما بتة" ... ... [ورواية الحلبية أجود وأكمل].

ص ١٥٣ س ١٣ "فإذا ذهب رونقه و بعض مابه رمى" ... ... [ولعل الصواب "وبعض مائه" كما فى نسخة ص. والماء هنا بمعنى الرونق والبهاء كما يقال فى الجواهر الكريمة والأحجار النفيسة. وحينئذ فلا يكون هنالك وجه لما أوردناه فى حاشية تلك الصفحة من الظن بأحتمال أن "مائه" محرفة عن "بهائه"].

ص ١٥٤ س ١١ نادرا معجزا معجبا غريبا ... ... [ولا معنى لوضع "معجزا" فى هذا المقام بل هى زيادة من الناسخ تدل على عجزه].

ص ١٥٥ س ٢ "اختلاف الملوك" بدلا من "أخلاق الملوك".

ص ١٥٥ س ٣ "فمن الملوك من كان إذا" ... ... [وزيادة "كان" واجبة].

ص ١٥٩ س ٤ "من أبناء الملوك وأهل الشرف" ... ...

ص ١٥٩ س ٧ "من ملوكهم قبله وبعده" ... ...

ص ١٦٢ س ١ في المملكة بالباطل ... ...

ص ١٦٣ س ٧ "النحس الكبير" بدلا من "النحس البارنكر". [ورواية الحلبية ربما لا تزيل الإبهام].

ص ١٦٥ س ٣ "لتقوى منتك" بدلا من "لتقوى نيتك".

ص ١٦٦ س ٣ "فأخذ التاج" بدلا من "فأخذوا التاج".

ص ١٧١ س ٢ "وحدثنى أبو الترب الشاعر : كان يُجرِى علىّ أرزاقا فدخلت عليه"
"يوما. فقال، بعد أن أنشدته وسألنى عن عيالى: تحتاج عيالك فى كل"
"شهر من الدقيق إلى كذا ومن الحطب إلى كذا ومن كذا إلى كذا".
"فأخبرنى بشيء من أمر منزلى جهلت بعضه وعلمت كله".
[وقد وضعت هذه الزيادة فى طبعتى نقلا عن "المحاسن والمساوى" للبيهقى. وليس بين رواية الحلبية وبين رواية البيهقى خلاف كبير إلا فى اسم الشاعر ولست أدرى صحته أهو أبو البرق أم أبو الترب؟ وأما العبارة التى أوردتها فى طبعتى فهى أصح وأوجه].

ص ١٧١ س ١٢ "وفيما ذكرناه كفاية والله أعلم بالصواب". [وهنا وقفت الحلبية مبتورة].

التعريف بكتاب

"تنبيـــــه الملوك والمكايد"

المنســـوب للجـاحظ

ذكرتُ هذا الكتاب فى "التصدير" وأكثرتُ من الإشارة إليه فى الحواشى التى حلّيت بها "التـاج" .

فلا بدّ أن يكون القارئ قد تشوّف إلى الإلمـام بشىء عنه . فلذلك رأيت أن التعريف به قد تكون فيه فائدة .

عثرتُ على النسـخة الأصلية ـ وهى الوحيـدة فيما أعلم ـ بخزانة الكوبريلى بالقسطنطينية تحت رقم ١٠١٥ (١) .

وقد وضع بعضهم فوق حرف البـاء من لفظة "كتاب" عبارة بخط حادث هذا نصُّها. "تأليف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ". ثم جاء رجل آخر فأيد هذه الرواية إذ كتب تحت العنوان سطرا ثالثا بخط جديد أيضا يغاير خط النسخة من أولها إلى آخرها، وهى "للجاحظ رحمة الله عليه" .

ظننتُ أننى ظَفِرْتُ بدُرّة يتيمة من تلك الدُّرر التى تفرّد بها الجاحظ . فأنشأتُ أتصفّح الكتاب ، ولكننى ماقرأتُ منه سطرين حتّى نقضتُ الحكم ورجعتُ عن الضَّلال الذى أوقعنى فيه ذانك الجاهلان المجهولان .

---

(١) نقلت بالتصوير الشمسىّ نسخة من هذا الكتاب ، هى الآن محفوظة بدار الكتب الخديوية بالقاهرة .

بل هذه مقدّمة الكتاب بنصّها وفصّها :

"بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذى افتتح بالحمد كتابا ، وفتح للعبد إذا وافى إليه بابا ، قسم بين خليقته فطوّروا أطوارًا وتحزّبوا أحزابا . أنفذ فيهم سَهْمَه ، وأمضى فيهم حُكمه ، وجعل لكلِّ شيء أسبابا . فهم دائرون فى دائرة إرادته لا يستطيعون عنها انقلابا . داهشون فى بدائع حكمته ، ومشيئته وإرادته ، يُعِزّ مَن يشاء ، ويُذل من يشاء ، ويرزق من يشاء ، ولم يزل كريما وهّابا . نحمده على ما أولى وأنعم ، ونصلّى على نبيه المبعوث إلى العرب والعجم ، صلى الله عليه وعلى آله وشرّف وكرّم ! (أما بعد) فهذا كتابٌ يشتمل على ذكر تنبيه الملوك والمكايد ، ليَحْصُلَ عند مطالعته الاحترازُ من كل صَديق ورفيق وما تحتَ ثيابه من البُغض والتحاسُد . فنعوذ بالله من ذلك ، ونستعينُ بالله ، ونتوكل على الله ، وَمَن يَتَوَكَّلْ على اللهِ فَهُوَ حَسْبُه إنَّ اللهَ بالغُ أمرِه ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا" .

فهذه المقدّمة وحدها تنادى بلسان الحال أن الجاحظ لا يمكن أن يكون هو المؤلف لهذا الكتاب .

تعالى الجاحظ أن يجرىَ قلمُه بمثل هذا السجع المرصّع أو بمثل هذه العبارات المنمّقة ! فهو أعلى كَعْبا وأرسخ قدما من أن يتنازل لافتتاح أحد كتبه بمثل هذا الكلام . هذا الحكم يؤيده الكتاب نفسه . ففى تضاعيفه أحوال كثيرة عن خلفاء وملوك ورجالات لم يخلقهم الله إلا بعد وفاة الجاحظ بسنين وأعوام . مات الجاحظ فى سنة ٢٥٥ للهجرة ، فكيف يصح فى الأذهان أنه يسرد فى صفحة ٣٠٥ بعض الحوادث التى وقعت فى سنة ٢٦٨ ؟ ثم كيف يعود فى صفحة ٤٣٠ فيفصل الوقائع التى حصلت فى سنة ٣٥٨ ؟ ويا بُعْدَ ما بين ابن طولون وكافور الأخشيدى والمتنبى وبين الجاحظ ! ومع ذلك فقد تضمن الكتاب لُمَعًا من أخبار هؤلاء الرجالات ! ! !

حينئذ لم يبق لدينا أدنىٰ شبهة فى أن المؤلف كان متأخرا عن الجاحظ بزمان مديد .

وكيف لا وقد أفاض فى شرح المكايد والحوادث التى وقعت بعد وفاة الجاحظ ، شرحا يدل علىٰ أنّ المؤلف كان محيطا بأحوال عصره، واقفا علىٰ ماجَرَيات دهره ؟

نعم إن المؤلف سطا علىٰ كثير من الحوادث التى رواها الجاحظ فى كتاب "التاج" فأوردها فى النصف الأوّل من كتابه، وقد وضعنا جدولا للسرقات[1] تراه فى غير هـذا المكان .

ولكن هذا السطو الجزئىّ هل يكون مبررا للسطو الكلىّ ، فيجعل لبعض المتأخرين المتأخرين مساغا فى نسبة الكتاب برمته إلىٰ الجاحظ؟ كلا لعمرى !

هذا . والكتاب فى حدّ نفسه وفى بابه مفيد، وجامع للغرض الذى توخاه المؤلف، وجدير بأن يظهر فى عالَم المطبوعات العربية . وهو يقع فى ٤٣٨ صفحة فى كل صفحة ١٥ سطرا . ولكنه يحتاج لعناية فى التصحيح والتهذيب .

أما موضوعات هذا المؤلَّف فتنحصر فى أربعة أقسام :

(١) مكايد الفُرْس وملوكهم (من صفحة ٣ – ٤٩) .

(٢) « الهنـد (« ٤٩ – ٥٤) .

(٣) « الروم (« ٥٥ – ٦٣) .

وما بقى من الكتاب، قَصَرَهُ علىٰ أخبار العرب فى مكايدها سواء كان فى أيام الجاهلية أم فى صـدر الإسلام أم بعده . وأسهب الكلام فى المكايد التى وقعت من خلفـاء

(١) أُنظر جدول السرقات فى صفحة ٦٩ من التصدير الذى وضعناه فى أوّل هذا الكتاب .

الإسلام أو من رجالاتهم فى أيام الخلفاء الراشدين و بنى أُمَيَّـةَ والعبّاسيين، ثم فى زمن أحمد بن طولون وكافور الأخشيدى . وقد ختم كتابه بقوله فى صفحة ٤٣٠ :

" فهذا ما قُصِد إيداعه فى هذا الكتاب ! وليعلم أن كل مايصنع من هذه المكايد نصْرا لكلمة الدين وإقامةً لعمود الملك فهو حسنٌ عقلا وشرعا : لأن فى المكايد سلامة الأولياء من المخاطرة بالمُهَج ، ولهذا صار أهنَى الفتوح ما بلغ بالمكايد فيـه الغرض المقصود . فإن قُصَيًّ بن كلاب إنمـا غلبت على أهل مكة حيث آنتزعتهـا بالمكيدة التى آستعملها . وكذلك أردشير مؤسس ملك آبن ساسان المرتجع له من أيدى الذين آقتسموه من ملوك الطوائف ، إنمـا وصل إلى ما وصل إليه من جمع المملكة كلها له بمـا آستعمله من المكايد . قال النبى صلى الله عليه وعلى آله أجمعين " الحربُ خِدْعة " . وقد أكد عليه السلام من ذلك بأفعاله التى كان يستعملها فى محاربة أعداء الدين من التورية عن مقصده عند مسيره فى غزواته ، وخصوصا ما آستعمله فى فتح مكة " .

ثم قال فى صفحة ٤٣٨ :

فقد بان أن الشرع والعقل يحمدان المكايد إذا صرفت على الوجه الذى يعز به الدين و ينتفع به المسلمون . وآرتفع بهذا وجه اللوم فى جميع هذه المكايد فى هذا الكتاب .

نجز الكتاب " تنبيـه الملوك " .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، فى "سلخ ربيع الآخر سنة أربعين وستمـائة " .

أما المؤلف فى ذاته فلم أتوصل إلى معرفته مع إنعام النظر فى كتابه . وغاية ماتوفقنا إليه أنه عرفنـا بنفسه عن نفسه تعريفا مبهما مجهولا نستنتج منه أنه من الشيعة ، كما أنه آكتفى بتسمية نفسه مرتين بآسم "جامع الأخبار" .

روى "جامع الأخبـار"(١) أنه سهر ليـلة عاشوراء بخندق الموالى القصرية وأطال التفكير فيما عرض لأهل النبوّة ومعدن الرسالة والإمامة من آستيلاء أعدائهم عليهم

(١) فى صفحتى ٣٢١ ، ٣٢٢ .

حتّى تلاعبت به الظنون فى وجه الحكمة والعدل فى ذلك . فأستولىٰ عليه النوم ورأىٰ الإمام عليا فى صفة الساخط عليه لاعتراضه . وما زال المؤلف يستعطفه حتّى حَظِىَ بنعمة الرِّضوان . ثم آستيقظ وكان بجانبه قاضى "الناحية المذكورة" فأستعلم منه عن سبب آنزعاجه وقلقه فشرح له الأمر . فقبّل القاضى يَدَه ، لأنها لمست يدَ الإمامِ علىّ .

ففى ذلك دليل علىٰ أن المؤلف كان موجودا بالقاهرة فى أيام الفاطميين ، وأنه كان من الشيعة .

ثم عاد المؤلف (فى صفحة ٣٥١) إلىٰ تسمية نفسه بجامع الأخبار فقال :

" هذا الكتاب يبين فضل المجلس العالى السيدىّ الصالحىّ خلّد الله ملكه الذى ينزه بأن يخدع بمثل هذه المحاولات ولهذا يقول فى بعض قصائده :

ولا خَدَعَتْنا منه قَطُّ ملاحم * تُسَدّى بأصناف المُحَال وتُلْحَم .
فأضعفُها ما كان فيه روايةً * وأسقمها الخَطُّ الذى هو أقدَمُ " .

فهذا القول ، أعنى " المجلس العالىّ السيّدى " لا ينصرف بحسب الأصطلاح الرسمىّ المقرر فى ديوان الإنشاء إلا لصاحب الوزارة الكبرىٰ فى أيام المماليك أو الأيوبيين أو الفواطم ، كما يشهد بذلك آبن فضل الله فى " التعريف بالمصطلح الشريف " والقلقشندىّ فى " صبح الأعشىٰ " .

أما المماليك ، فلا شأن لهم هنا . لأن دولتهم إنما كان مبدؤها فى سنة ٦٥٥ أى بعد ١٥ سنة من تاريخ نسخ هذا المخطوط فى سنة ٦٤٠ .

وأما الأيوبيون ، فقد قضوا قضاءً مبرمًا علىٰ مذهب الشيعة بديار مصر . فلا يمكن أن يكتب أحد المؤلفين فى أيامهم شيئا مثل العبارة الأولىٰ التى نقلناها عن وجود

صاحبنا بين القصرين . ونضلا عن ذلك ، فإن صلاح الدين هدم القصرين ، وعبارة مؤلفنا تدلنا على تمام العمران بهذه الخطة حيث كان لها قاض خاص بها فى أيامه .

فلم يبق لدينا أدنى شبهة فى أن التأليف إنما ظهر فى أيام الفواطم باسم أحد وزرائهم الأكابر .

فلننظر مَن هو هذا الوزير حتى نتمكن من تعيين تاريخ التأليف بغاية ما يمكن من التقريب والتحقيق .

أشار المؤلف إلى هذا الرجل باسم "الصالحى" وأنشد له شعرا . فهذا النعت لا ينصرف إلا إلى الصالح طلائع بن رُزِّيك ، خصوصا وقد شهد آبن خلكان بأنه ممن كانوا ينظمون الشعر الجيد ، وأورد لنا غررا من أقواله ، وعرّفنا بأنه رأى ديوانه فى جزأين .

فهذا الوزير تولّى الأحكام على عهد الفائز الفاطمى ، وآستقل بالأمور وتدبير أحوال الدولة ، وكانت ولايته فى ١٩ ربيع الأوّل سنة ٥٤٩ . وبعد وفاة الفائز ، آستمر الصالح على وزارته وزادت حُرْمته وتزوّج العاضد الفاطمى آبنته . ثم دسّ العاضد عليه مَنْ قتله . فكانت وفاته فى ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ .(١)

وحينئذ يتعيّن القول بأن مؤلف كتاب "تنبيه الملوك والمكايد" قد أخرج كتابه للناس فى أخريات الدولة الفاطمية بمصر ، وأن تأليفه كان فى أواخر النصف الثانى من القرن السادس للهجرة .

(١) أنظر ترجمته فى آبن خلكان ، فى حرف الطاء .

التعريف بكتاب
"محاسن الملوك"
لبعض الفضلاء

هذا تعريفٌ وجيزٌ عن ذلك الكتاب الذى أشرتُ إليه كثيرا فى "التصدير" وفى الحواشى . كتبتُه ليكون القارئ محيطا بجميع العيون والمستندات التى لها علاقة بكتاب "التاج" .

عثرتُ على النسخة الأصلية لكتاب "محاسن الملوك" فى خزانة طوب قپو بالقسطنطينية ، تحت رقم ٣٠٥٢ . وهو عبارة عن القسم الأوّل من مجموعة تشتمل أيضا على كتاب آخر يتعلق برسل الملوك وسفرائهم[١] .

فأما "محاسن الملوك" فيقع فى ١٢١ صفحة ، وفى كل صفحة منها ١٥ سطرًا . وعلى طرّته أنه "جمعه بعض الفضلاء" . وقد ٱبتدأه مؤلفه بعد البسملة بقوله :

"الحمد لله المتطوّل بالعوارف ، المميز بالمعارف ، وجاعل الملوك قائمين فى الأرض بالوظائف التى على الخلائف ؛ الآمر بإعظام السلطان لقيامه بأعباء الإيالة ، وٱنتضائه للخلق بالكفالة ؛ وتقلده ما تنتظم به أحوال العالم فى المعاش الذى هو وسيلة معادهم ، وسبب إحرازهم لأصل الخير وٱزدياده . أحمده على نعمه . . . . ."

ثم نوّه بالملك الذى ألف له هذا الكتاب وسماه "مولانا السلطان الملك العزيز" . وقد نعت المؤلف نفسه "بالمملوك" . ثم ختم الكتاب بالدعوات لهذا السلطان ، وكرّر فى غضونها التنويه به إذ قال : "ولا زال مولانا العزيز" .

(١) وقد نقلت نسخة من كل من هذين الكتابين بالتصوير الشمسىّ وأحضرتهما إلى دار الكتب الخديوية بالقاهرة .

وقد تصفحنا الكتاب فلم نجد أثرا آخر يدلنا على المؤلف أو عصره . فبحثنا عمن هو "السلطان الملك العزيز" هذا .

فرأينا أن هذا الاسم لم يكن إلا لثلاثة من ملوك الإسلام : اثنان منهما من بنى أيوب ، والثالث من سلاطين المماليك .

فهذا الثالث هو الملك العزيز بن برسباى . تولى سلطنة مصر فى سنة ٨٤١ هجرية ، ولكنه لم يجلس على سريرها سوى ٣ شهور فقط . فلا يكون حينئذ هو المعنى بالتفخيم والتعظيم الذى أورده المؤلف ، خصوصا أن الكتاب منسوخ فى سنة ٧٩٥ هجرية ، أى قبل أن يأتى هذا السلطان إلى الوجود بنصف قرن تقريبا .

أما السلطان الثانى المسمى "بالملك العزيز" فهو ابن الملك الظاهر غياث الدين غازى الأيوبى . تملك حلب فى سنة ٦١٣ ، بعد وفاة أبيه غياث الدين .

وكان هذا السلطان صغيرا فانتزع عمه الأفضل الملك منه فى سنة ٦٣٤ . ثم صارت حلب لعمه العادل . وتوفى الملك العزيز هذا فى سنة خلعه ، أى ٦٣٤ . فتكون مدة حكمه ٢١ سنة . وقد كان يكون القول بأن الكتاب مؤلف له وباسمه وجيها وصحيحا ، لولا شهادة التاريخ بأنه تولى الملك وهو فى سن الطفولة مما جعل عمه ينتزع العرش منه . وفوق ذلك فإن الأوصاف الملوكانية والنعوت السلطانية الواردة فى أول الكتاب وآخره لا تطلق مطلقا على صاحب حلب ، ولا يمكن أن تنطبق على غير سلطان مصر ، فإنه هو الذى كان متفردا بلقب "السلطان الملك" . وأما من عداه من أولياء الأمر فى الأصقاع الأخرى مثل حلب وحماة وغيرهما فإنما كان لقبهم الوحيد هو "الملك فلان" أو "فلان صاحب حلب أو صاحب حماة" لا غير ، دون إضافة لقب "السلطان"

علىٰ آسمهم مهما كانت الأحوال . تشهد بذلك الكتب المؤلفة لهم والتاريخ يؤيد هذه الشهادة التى تستفاد بالصراحة و بالبداهة من آصطلاح القوم فى تلك الأيام، علىٰ ما تراه فى "التعريف بالمصطلح الشريف" لآبن فضل الله العمرىّ ، وفى "صبح الأعشىٰ" للقلقشندىّ .

لذلك لم يبق لنا سوىٰ القول بأن الكتاب مؤلَّف بآسم ثالث الملوك المعروفين "بالملك العزيز" وهو الملك العزيز آبن السلطان صلاح الدين الأيوبىّ . ذلك الذى جلس علىٰ عرش مصر بالنيابة عن أبيه فى حياته ، ثم آستقل بملكها من سنة ٥٨٩ إلىٰ سنة وفاته وهى سنة ٥٩٥ ، أى إن مدّة حكمه كانت ست سنين .

وقد جرت عادة المؤلفين فى الأيام المتقدّمة أن يُسَمِّىَ الواحدُ منهم نفسه "المملوك" إذا خدم بتأليفه أحد الأكابر وخصوصا أحد الملوك أو السلاطين . وهذا الآصطلاح كان متفشيا بمصر خصوصا فى عصر المماليك ، وعلىٰ الأخص فى أيام الأيوبيين من قبلهم .

والمتصفح لهذا الكتاب يرىٰ من أسلوبه ومن عباراته أنه مَصُوغ علىٰ الطريقة المألوفة فى أيام الأيوبيين بمصر . ولا يمكن القول ـ كما قد يستفاد من عبارة الختام ـ بأن تأليف هذا الكتاب كان فى "شهر المحرم أوّل سنة ٧٩٥" . لأن هذه السنة لم يكن فيها رجل من الملوك فى العالَم الإسلامىّ يسمّى "بالملك العزيز" . فوجب حينئذ الجزم بأن هذه السنة هى سنة آنتساخ الكتاب ، لا سنة تأليفه . ويكون قد مضىٰ قرنان بين وقت تأليفه وبين وقت آنتساخه .

أما الكتاب ، فهـــذه موضوعاته :

أدب الوقوف على باب السلطان .
أدب الداخل على السلطان .
الأدب فى تنجز وعد السلطان .
الأدب فى تعهد السلطان خَدَمَه .
أدب من يجالس السلطان .
الأدب فى الأنصراف عن مجلس السلطان .
أدب من يخاطب السلطان .
أدب من سأله السلطان عن آسمه .
أدب مؤاكلة السلطان .
أدب السلطان فى إقامة الحدود والتعزير .
الأدب فى عزاء الملك .
أدب التعزية بالملوك .
الأدب فى مسامرة الملوك .
أدب مناصحة السلطان .
الأدب فى آستعطاف الملوك .
أدب من أسدى إليه الملك يدا .
أدب من رفع الملك قدره .
الأدب فى ممازحة الملك .
أدب الصلاة مع السلطان .
الأدب فى مسايرة السلطان .
أدب حِجَاب الملك وحُجَّابه .
الأدب فى الرسول .
أدب الملك فى منامه .
الأدب فى آتخاذ الكاتب .
الأدب فى آستعمال الملك الأناة وترك العجلة .
سخاء الملوك .
أدب الملوك إذا دهمهم أمر .

وفى كل هذه الأبواب آستطرادات تتعلق بالموضوع ، تعلقا قريبا أو بعيدا .

وقد سطا المؤلف على كتاب "التـاج" فأخذ منه كل ما يتعلق بهذه الموضوعات تقريبا[1] وآختصر بعض فصوله آختصارا كليا أو جزئيا، وأضاف إليه بعض معلومات ليحلل سرقته أوّلا ، وليجعل لنفسـه ثانيا حقا فى إسناد التأليف إليـه وفى خدمة سلطان العصر به .

(١) أنظر جدول السرقات فى صفحة ٦٩ من "التصدير" الذى وضعناه فى أوّل هذا الكتاب .

فهارس أبجدية

لكتاب "التـــاج"

الفهرس الأبجدىّ الأوّل(١)

بأسماء الكتب التى آستخدمتُها للمراجعة وتحرير الحواشى

(١) هذه الفهارس الأبجديّة كلها لم يرد فيها شىء من المسميات الواردة فى التصدير . فتنبه لذلك .

﴿ ب ﴾

كتاب البخلاء للجاحظ طبع العلامة فان فلوتن بمدينة ليدن سنة ١٩٠٠

بدائع الزهور فى وقائع الدّهور لأبن إياس، طبع بولاق سنة ١٣١١ هـ

برهان قاطع (معجم فارسىّ نقله عاصم افندى إلى اللغة التركية)، وأسمه تبيان نافع فى ترجمة برهان قاطع، طبع بولاق سنة ١٢٥١ هـ

مختصر كتاب البُلدان للهمَذانىّ المعروف بأبن الفقيه، طبع العلّامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٣٠٢ هـ وسنة ١٨٨٥ م [وهو الجزء الخامس من المكتبة الجغرافية العربية]

كتاب البُلدان لليعقوبى، طبع العلّامة جُوَنبول بمدينة ليدن سنة ١٨٦٠

البيان والتبيين للجاحظ، طبع القاهرة سنة ١٣١٣ هـ

﴿ ت ﴾

تاج العروس فى شرح القاموس، طبع القاهرة سنة ١٣٠٧ هـ

تاريخ آبن خلدون = كتاب العبر الخ

تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، طبع العلّامة ده جويه وزملائه بمدينة ليدن سنة ١٨٧٩ — ١٩٠١

تاريخ الطبرىّ = تاريخ الرسل والملوك

تاريخ أبى الفداء = المختصر فى أخبار البشر

التسهيل (كتاب فى النحو) طبع القاهرة، مرارًا

شرح التسهيل (كتاب فى النحو) طبع القاهرة، مرارًا

تقريب التهذيب للحافظ العسقلانىّ طبع الهند سنة ١٢٩٠ هـ

تكملة المعجمات العربية للعلامة دوزى، طبع ليدن سنة ١٨٨١

التنبيه والإشراف للسعودى، طبع العلّامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٨٩٣ [وهو الثامن من المكتبة العربية الجغرافية]

تنبيه الملوك والمكايد، منسوب للجاحظ. [ونسخته محفوظة بدار الكتب الخديوية، منقولة بالفتوغرافيا عن مكتبة الكوپريلى بالقسطنطينية]

﴿ ح ﴾

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى، طبع حجر بالقاهرة بدون تاريخ سنة الطبع

الحماسة (شرحها التبريزى)، طبع العلامة فريتاج بمدينة بونّ سنة ١٨٢٨

الحيوان للجاحظ، طبع القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ

(خ)

خاتمة الأشمونى (كتاب فى النحو) طبع القاهرة، مرارا

خزانة الأدب للبغدادى طبع بولاق سنة ١٢٩٩ﻫ

الخطط للمقريزى، طبع بولاق سنة ١٢٧٠ﻫ وطبع فييت بالقاهرة سنة ١٩١١

(د)

ديوان حسان بن ثابت طبع تونس سنة ١٢٨١ﻫ، وطبع القاهرة سنة ١٣٢١

ديوان الفرزدق، طبع العلامة بوشير ومعه ترجمته له إلى اللغة الفرنسية فى باريس سنة ١٨٧٢ — ٧٥

(ذ)

ذيل الأمالى للقالى = الأمالى

(ز)

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك لخليل بن شاهين الظاهرى، طبع بولس راوبس بمدينة باريس سنة ١٨٩٤

(س)

سلوان المطاع فى عدوان الأتباع لابن ظفر الصقلى طبع الحجر فى القاهرة سنة ١٢٠٨ﻫ [وترجمته الإنكليزية بمعرفة العلامة ميشل أمارى الطليانى، طبع لوندرة سنة ١٨٥٢.]

سيرة ابن هشام، طبع المرحوم الزبير رحمت باشا ببولاق سنة ١٢٩٥، وطبع العلامة وستنفلد بمدينة جوتنجن سنة ١٨٥٦ — ١٨٦٠م

(ش)

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لأبى الفلاح عبد الحى بن أحمد بن محمد العسكرى المعروف بابن العماد الحنبلى. [مخطوط بدار الكتب الخديوية نمرة ١١١٢ تاريخ.]

شرح القاموس = تاج العروس

شرح نهج البلاغة = نهج البلاغة

شفاء الغليل للخفاجى، طبع القاهرة سنة ١٢٨٢ﻫ

(ص)

صبح الأعشى للقلقشندى (الجزء الأول، طبع بولاق سنة ١٩٠٥)

الصحاح للجوهرى، طبع بولاق سنة ١٢٨٢

صحيح البخارى، طبع السلطان عبد الحميد الثانى ببولاق سنة ١٣١١ — ١٣ فى تسعة أجزاء

(ط)

طبقات الشافعية للسبكى، طبع القاهرة سنة ١٣٢٤

الطبقات الكبرى لابن سعد، طبع العلامة سخاو وزملائه بمدينة ليدن من سنة ١٣٢١ﻫ [ولا يزال العمل فيه جاريا إلى الآن.]

طراز المجالس للخفاجي ، طبع القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ

﴿ ع ﴾

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر لابن خلدون ، طبع بولاق سنة ١٢٨٤ هـ

عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني ، طبع العلامة وستنفلد بمدينة جوتنجن سنة ١٨٤٩

كتاب العصا لأسامة بن منقذ ، طبع باريس

كتاب العصا للجاحظ (في ضمن كتاب البيان والتبيين)

العقد الفريد لابن عبد ربه ، طبع بولاق سنة ١٢٩٣

عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، طبع العلامة أغسطس مُلَّر في القاهرة سنة ١٣٠٠ هـ

﴿ غ ﴾

غرر أخبار الفرس وسيرهم للثعالبي ، طبع العلامة زوتنبرج مع ترجمته له إلى الفرنسية ، بباريس سنة ١٩٠٠

﴿ ف ﴾

فتوح البلدان للبلاذري ، طبع العلامة دهجويه بمدينة ليدن سنة ١٨٦٦

الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي ، طبع القاهرة سنة ١٩١٠

الفصل في الملل والنحل لابن حزم الأندلسي طبع القاهرة سنة ١٣١٧ — ١٣٢١

كتاب الفهرست لابن النديم ، طبع العلامة فلوجل بمدينة ليبسيك سنة ١٨٧٠

فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ، طبع بولاق سنة ١٢٨٣ هـ

﴿ ق ﴾

القاموس للفيروزابادي ، طبع القاهرة سنة ١٣١٩ هـ

قاموس الثياب = معجم الثياب عند العرب

﴿ ك ﴾

الكامل في الأدب للمبرد ، طبع العلامة رَيْت المستشرق الإنكليزي بمدينة ليبسيك من سنة ١٨٦٤ — ١٨٨١

الكامل في التاريخ لابن الأثير طبع العلامة تورنبرج بمدينة ليدن سنة ١٨٥١ — ١٨٧١

الكلمات الطليانية المأخوذة عن اللغة العربية للدكتور رينا لدى طبع مدينة نابولي سنة ١٩٠٦ م

كليلة ودمنة ، طبع العلامة ده ساسي بمدينة باريس سنة ١٨١٦

كليلة ودمنة ، طبع بولاق سنة ١٢٨٥ هـ

كليلة ودمنة ، طبع العلامة الأب لويس شيخو بمدينة بيروت سنة ١٩٠٥

﴿ ل ﴾

لسان العرب لابن المكرّم المعروف أيضا بابن منظور، طبع بولاق سنة ١٣٠٠ – ١٣٠٨ هـ

لقف اللقاط في تصحيح ماتستعمله العامة من المعرب والدخيل والمولّد والأغلاط، للسيد حسن صدّيق خان صاحب مملكة بهوپال بالهند (وعليه هوامش للسيد نور الحسن) طبع، حجر بالهند سنة ١٢٩٦

﴿ م ﴾

مبادئ اللغة لابن الخطيب الإسكافي طبع القاهرة حديثا سنة ١٣٢٥ هـ

المحاسن والأضداد، المنسوب للجاحظ، طبع العلّامة فان فلوتن بمدينة ليدن سنة ١٨٩٨

محاسن الملوك لبعض الفضلاء [نسخة محفوظة بدار الكتب الخديوية نقلا بالفتوغرافية عن الاصل المحفوظ بخزانة طوبقبو بالقسطنطينية]

المحاسن والمساوى لإبراهيم بن محمد البيهقي، طبع العلّامة فريد رك شوالي بمدينة جيسن سنة ١٣٢٠ هـ – ١٩٠٢ م

محاضرات الأدباء للراغب الإصفهاني، طبع محمد عارف باشا رئيس جمعية المعارف بالقاهرة سنة ١٢٨٧ هـ

محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر لعلى دده، طبع القاهرة سنة ١٣٠٠

المخصص لابن سيده، طبع بولاق سنة ١٣١٦ – ١٣٢١

مسالك الممالك لإبراهيم الإصطخرى المعروف بالفارسى، طبع العلّامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٨٧٠ [وهو الأول من المكتبة الجغرافية العربية]

كتاب المسالك والممالك لابن حوقل، طبع العلّامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٨٧٣ [وهو الثانى من المكتبة الجغرافية العربية]

المسالك والممالك عن ابن خرداذبه، طبع العلّامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٣٠٦ هـ – ١٨٨٩ م [وهو السادس من المكتبة الجغرافية العربية]

المشتبه فى الأسماء للذهبى، طبع العلّامة ده يونج بمدينة ليدن سنة ١٨٨١

مطالع البدور فى منازل السرور لعلاء الدين على البهائى الغزولى، طبع القاهرة سنة ١٢٩٩ – ١٣٠٠

المعارف لابن قتيبة، طبع العلامة وستنفلد بمدينة جوتنجن سنة ١٢٦٧ هـ – ١٨٥٠ م

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد المرّاكشى طبع العلّامة دوزى بمدينة ليدن سنة ١٨٨١

معجم الأدباء لياقوت الحموى طبع العلّامة مرجوليوث بالقاهرة، من سنة ١٩٠٧ [ولا يزال العمل جاريا للآن]

الفهرس الأبجدىّ الثانى
بأسماء المصنفات المذكورة فى متن الكتاب أو فى حواشيه وتكميله

الفهرس الأبجدىّ الثالث

بأسماء الرجال المذكورين فى "التاج" وحواشيه وتكميل الروايات

(تنبيه : الرقم الكبير يدلّ على الصفحة من متن الكتاب؛ والرقم الصغير يدل على الصفحة من حاشية الكتاب ومن تكميل الروايات؛ والشرطة ـ تحت الرقم الكبير أو الصغير تدل على تكرار الاسم . وهكذا الشأن فى الفهارس التالية)

﴿ ا ﴾

(ب)

(ث)

(ج)

﴿ ح ﴾

﴿ ز ﴾

﴿ س ﴾

﴿ ش ﴾

﴿ص﴾

﴿ض﴾

﴿ط﴾

﴿ع﴾

﴿ غ ﴾

﴿ ف ﴾

(م)

﴿ ن ﴾

﴿ هـ ﴾

﴿ و ﴾

﴿ ى ﴾

الفهرس الأبجدىّ الرابع

بأسماء الأُمم والقبائل والشعوب والبيوت ونحوها

الفهرس الأبجدىّ الخامس والأخير
بأسماء البلاد والمدن والمواضع والأماكن ونحوها

تم الكتاب

والحمـــد لله أوّلا وآخرا

pour ce merveilleux artiste dont il reproduit d'ailleurs plusieurs passages. Il aurait voulu ainsi, en écrivant ses *Mœurs des rois*, enrichir la littérature arabe d'un *Kitâb el Tâdj*, qui ferait en quelque sorte le pendant du monument des Sassanides.

Voilà la raison qui m a déterminé à donner les deux titres à mon édition, imitant en cela l'exemple du Codex de Sainte Sophie.

***

A la présente édition, j'ai ajouté des index alphabétiques, aussi soigneusement faits que possible, afin de provoquer chez les orientaux l'habitude de recourir à cet instrument de travail d'une importance capitale, toutes les fois qu'ils essayeront d'éditer un ouvrage arabe d'une certaine valeur.

AHMED ZÉKI PACHA.

Le Caire, Avril 1914.

P.S. — Je dois renvoyer les lecteurs arabisants à mes prolégomènes arabes placés d'autre part en tête de la présente édition.

On y trouvera des renseignements détaillés et des notes critiques sur le livre et son auteur, sur les deux manuscrits conservés à Stamboul et sur celui d'Alep, ainsi qu'une dissertation documentée sur les deux titres de cet ouvrage.

Je crois avoir réussi à prouver que Djâhiz est incontestablement l'auteur du livre que je présente aux érudits de l'Orient et de l'orientalisme.

A. Z.

le copiste indiquait son nom, la bibliothèque pour laquelle il l'avait exécuté, dans la ville d'Alep, en l'an 885 de l'Hégire.

Si le texte d'Alep nous renseigne sur sa date, en revanche il ne porte aucun titre.

On verra dans mes prolégomènes arabes tout le parti que j'ai tiré, quoique tardivement, de ce manuscrit qui venait de tomber entre mes mains d'une façon si inattendue.

Qu'il me suffise ici de remercier M. Sherman qui a eu l'amabilité de mettre son manuscrit à mon entière disposition. J'ai pris les *fac-similés* de la première et de la dernière page, et je les ai ajoutés à ceux que je m'étais déjà procurés d'après les deux manuscrits de Stamboul, les deux seuls connus et dont l'un a été découvert par moi à Top-Kapou.

***

Les nombreux renseignements que nous trouvons dans le présent volume sont, à n'en pas douter, reproduits par Djâhiz d'après des traités persans consacrés à l'étiquette et au protocole royal. Quelquefois même, comme nous l'avons fait ressortir, Djâhiz nous induit simplement en erreur en reproduisant, comme existant à son époque, un cérémonial qui était à coup sûr tombé en désuétude. Il fait souvent allusion au آيين "Ayïn" des Persans, au "Ayïn" des Cosroés, à leur "Ayïn" au "Ayïn" tout court, livre de l'étiquette sassanide que l'auteur arabe met à contribution.

Nous savons d'autre part qu'il y avait chez les Persans un *Kitâb el Tâdj* qui a été traduit en arabe par Ibn el Moqaffaʿ. Il est très vraisemblable de supposer que cette version a été mise à profit par Djâhiz qui avait une véritable admiration

que le livre de Top-Kapou n'est pas mentionné dans le soi-disant *catalogue* et que le texte de Djâhiz se trouve dans un volume contenant tout d'abord deux traités d'Ibn el Moqaffa'. Il est encore à remarquer que ce titre d'*El Tâdj* n'est donné par aucun des auteurs qui ont parlé des œuvres de Djâhiz. Tous, comme lui-même d'ailleurs, font mention seulement d'un livre intitulé : "*Mœurs des rois.*"

Par un hasard heureux, il m'a été donné d'utiliser encore une troisième copie, mais seulement à la dernière minute.

Depuis assez longtemps déjà, le texte de Djâhiz avait été imprimé, et lorsque dans les premiers jours de décembre 1913 mes prolégomènes arabes et les additions et index étaient enfin presque sous presse, j'eus la bonne fortune de recevoir au Caire la visite de M. Sherman. Il venait d'acquérir à Constantinople la belle collection des manuscrits orientaux de Khâlis Bey, un des favoris de l'ex-Sultan Abdul Hamîd II. Il me pria d'examiner cette collection et de lui faire le catalogue de la partie arabe. Quelle ne fut pas ma surprise et surtout ma satisfaction lorsque j'y rencontrai une nouvelle copie insoupçonnée de *Kitâb el Tâdj !*

Dépourvu de la moindre indication au sujet du titre même de l'ouvrage, rempli d'autre part d'une foule d'erreurs, souvent grossières, présentant enfin plus d'une lacune, et amputé pour ainsi dire vers sa fin, par le copiste, qui a sauté une quinzaine de feuilles environ, le manuscrit que j'avais sous les yeux présentait cependant pour moi, un intérêt tout particulier.

A l'encontre des codex que j'ai mis à contribution pour ma présente édition le manuscrit contenait un colophon où

***

J'ai pris pour base de cette édition le manuscrit conservé à la Bibliothèque de Top-Kapou, que je désigne par la lettre س; il porte le titre de *Kitâb el Tâdj* (كتاب التاج).

La seconde copie de cette œuvre, conservée à la Bibliothèque de Sainte Sophie, a pour titre أخلاق الملوك "*Mœurs des rois.*" J'en ai obtenu dans la suite une copie photographique qui a servi à la révision de mon édition, où elle est indiquée par la lettre ص. Les deux textes, malgré leurs nombreux défauts, se sont complétés, grâce surtout à des recherches patientes et laborieuses que j'ai entreprises dans une foule de documents imprimés et manuscrits.

Le texte de Top-Kapou portait uniquement le titre de كتاب التاج *Kitâb el Tâdj*; celui de Sainte Sophie portait écrit de la main originaire le titre de كتاب أخلاق الملوك *Mœurs des rois,* avec le mot التاج ajouté par une main moderne sur la lettre ب du titre. Nul renseignement sur la provenance ou sur la date, de l'une ou de l'autre copie, ni au commencement ni à la fin. Sauf pourtant que le copiste de Sainte Sophie a ajouté à la fin de son manuscrit cette mention: وكان بالأصل سقامة "L'original qui a servi à cette reproduction était en mauvais état."

La copie de Top-Kapou portait donc formellement le titre *Kitâb el Tâdj* qui était reproduit incidemment en tête de la seconde. Dans quelles conditions cette suscription, évidemment moderne, a-t-elle été écrite sur le manuscrit de Sainte Sophie ? Mystère. L'auteur de cette indication l'aurait-il prise dans le manuscrit de Top-Kapou ? Rien n'autorise cette hypothèse, puisque nous ne possédons aucun indice à cet égard. D'ailleurs cela est peu probable, étant donné

les Abbassides et nous dépeint les stratagèmes qu'ils employaient pour reconquérir la faveur du monarque ou des grands dignitaires de l'Empire. Il nous décrit le protocole qui régit les rapports des Princes avec le Souverain. Une légende est accréditée en Orient qui dépeint le khalife El Mansour sous les traits d'un avare. Djâhiz combat cette légende avec énergie et produit pour soutenir sa thèse des preuves qu'emploieront ensuite Tabarî et d'autres.

Cérémonial employé lorsque le khalife est malade ; façon dont les persans et arabes se comportent avant et après l'Islam, dans les festivals et les réunions intimes ; visites des souverains aux grands dignitaires ; attitude des khalifes pendant les grandes crises qui ébranlent leurs trônes, etc., etc., tout cela est passé en revue par notre auteur.

Le *Livre de la Couronne* est peut-être l'ouvrage où il y a le plus d'ordre relatif, parmi les productions que nous devons à la plume féconde de Djâhiz. Le souci constant qu'il a de ne pas lasser le lecteur l'entraîne ordinairement en effet à traiter, à tout propos et quelquefois hors de propos, les sujets les plus disparates, les plus variés, comme les plus opposés et même les plus contradictoires.

Il explique d'ailleurs lui-même sa méthode dans son grand traité littéraire et indique les moyens de fixer l'attention du lecteur. "Si le livre, dit-il, est de longue haleine, l'auteur, pour captiver et tenir en éveil l'attention du lecteur, doit recourir à divers subterfuges, pour être toujours en faveur auprès de lui. Il est, par exemple, nécessaire de varier les sujets, sans toutefois dépasser les limites du cadre qu'il s'est imposé. Il faut en un mot le renseigner et l'instruire." [1]

---

(1) Cf. entre autres, BAYÂN, t. II, p. 154, et HAYAWÂN, t. V, pp. 50, 51, 64 et 65.

orientaux, les Abbassides suivaient les règles établies par les Sassanides. Cela s'explique d'ailleurs par la contribution armée que les Persans apportèrent pour mettre les Abbassides sur le trône. Les plus grands personnages de l'Empire, du reste, étaient d'origine persane. Mais Djâhiz n'oublie pas néanmoins de nous renseigner sur l'étiquette purement arabe.

Je me permets d'attirer l'attention du lecteur sur *l'interview* (dans le sens actuel du mot) que Djâhiz prit à l'un de ses plus illustres contemporains, Ishâq Ibn Ibrâhîm el Mawsilî. Cette *interview* rappelle les informations de nos plus grands *reporters* modernes. Elle nous initie à la vie intime des khalifes omayyades et abbassides. Nous assistons à leurs divertissements, alors qu'ils boivent en écoutant des chansons. Djâhiz mélange à sa narration ses appréciations personnelles ; il y ajoute des notes complémentaires, d'où résulte une confusion avec les paroles mêmes de l'interviewé que le système de ponctuation nous a permis de dégager et de rendre claires (voir pages 31 à 43 du texte arabe).

Djâhiz nous rapporte tranquillement quelques-unes des particularités de l'étiquette sassanide, alors que ces particularités étaient devenues incompatibles avec l'Islam. Entraîné par son sujet, il oublie même d'attirer le moins du monde l'attention du lecteur sur ce fait.

Il nous renseigne sur la toilette et le costume des souverains ainsi que sur l'usage des parfums qui leur étaient exclusivement réservés. Il nous raconte plusieurs anecdotes et cite des mots historiques. Il nous apprend qu'il ne faut jamais appeler le souverain par son nom, sauf dans la poésie. Il nous donne les raisons de la disgrâce dont furent frappés quelques courtisans sous

bution une foule d'auteurs pour arrêter le texte de façon aussi rigoureuse que possible. Partout où il était nécessaire, pour obvier au défaut de lecture, provoqué par le système graphique de l'alphabet arabe, j'ai mis les points-voyelles pour fixer la prononciation de tel ou tel mot qui présentait une difficulté quelconque. De même pour l'intelligence du texte, j'ai utilisé le nouveau système de ponctuation, adapté par moi à la grammaire arabe, ce qui facilite la lecture en la simplifiant.

Les divisions en paragraphes, destinées à éviter les confusions, ainsi que les manchettes qui jouent un rôle utile pour indiquer les changements de sujet, feront de mon édition, un travail à peu près complet et soigneusement présenté.

Les notes critiques et documentaires, auxquelles s'ajoutent souvent de nombreuses références, permettront au lecteur de trouver facilement tous les détails complémentaires qu'il pourrait souhaiter.

***

J'avais pensé faire une analyse en français du présent ouvrage, mais cela pourrait être un excellent exercice pour un jeune orientaliste qui se trouvera parfaitement en mesure de le faire, grâce aux indications bibliographiques et aux notes explicatives que j'ai semées à profusion à travers tout l'ouvrage.

Je me contenterai donc de dire un mot sur le sujet traité par Djâhiz.

Dans ce livre, l'auteur a voulu nous faire un tableau complet de l'étiquette en usage à la Cour de Bagdad sous les Abbassides, ainsi que du cérémonial adopté par les Omayyades à Damas.

De même que nous voyons aujourd'hui employer l'étiquette européenne, française ou anglaise, à la Cour des Souverains

plus ou moins honnêtes qui lui ont été faits, depuis Tabarî lui-même qui ne le nomme pas une seule fois dans sa vaste compilation historique.

Mass'oudî reproduit souvent des passages entiers du Kitâb El Tâdj, sans indiquer l'auteur ni l'ouvrage. Lorsqu'il est amené à citer une appréciation personnelle de Djâhiz, l'auteur des "Prairies d'Or" se contente d'écrire : *des personnes érudites qui s'occupent de littérature ont dit....*

Cependant Mass'oudî consacre à Djâhiz un article élogieux où il rend hommage à sa profonde érudition et à son talent encyclopédique.

Je ne crois pas utile de citer tous les auteurs postérieurs qui sont dans le même cas, car ils sont légion. Je me suis efforcé d'ailleurs, dans les annotations du présent ouvrage, de relever, dans la mesure du possible, tous les emprunts qui lui ont été faits. Du reste, un tableau de ces emprunts a été ajouté à mes prolégomènes arabes, en tête du présent volume.

La fécondité de Djâhiz est connue de tous ceux qui ont étudié la littérature arabe. L'orientaliste hollandais Van Vloten avait annoncé son intention de dresser la liste des œuvres de Djâhiz, lorsqu'il fut surpris par la mort. Je me suis donné la tâche ardue et délicate de consacrer à ce sujet une monographie détaillée et documentée, qui paraîtra bientôt, je l'espère.

***

Quant au livre même que je publie aujourd'hui, étant donné qu'il fait partie des ouvrages qui inaugurent la série de l'œuvre de la **Renaissance des Lettres Arabes**, j'ai essayé d'en faire une véritable édition nationale. J'ai mis à contri-

sentés, ces ouvrages, fussent-ils médiocres à son sens, étaient cependant accueillis avec enthousiasme.

Notre subtil auteur n'ignorait pas les avantages de ce que nous appelons la vogue. Djâhiz mettait à profit cette pensée juste et que devait exprimer malicieusement La Bruyère en écrivant: "Il n'est pas si aisé de se faire un nom par un ouvrage parfait, que d'en faire valoir un médiocre par le nom qu'on s'est déjà acquis."

Djâhiz se plaint d'ailleurs — et cela ne manque pas de piquant — d'avoir été obligé de recourir à cette supercherie. Il déplore que ses ouvrages les plus soignés n'aient eu vis-à-vis des jaloux et des détracteurs d'autre tort que *d'être signés d'un auteur contemporain.*

Le même subterfuge fut employé par des auteurs postérieurs qui voulurent à leur tour exploiter la célébrité que Djâhiz s'était acquise, mais la ruse eut alors moins de succès.

Djâhiz est, d'autre part, le littérateur qui a été le plus pillé par ses successeurs.

De nombreux plagiaires se font un devoir de s'approprier non seulement ses idées mais encore ses expressions et les formules qui caractérisent son style d'une manière si typique. Leur seule préoccupation en cette occurrence, c'est d'éviter soigneusement de le nommer, sauf à de très rares exceptions. C'est à la faveur d'une inadvertance heureuse qu'ils nomment parfois Djâhiz. Quand ils rapportent ses paroles, au lieu de citer son nom, ils écrivent d'habitude : *on* a vu, *on* a rapporté, *on* a assisté. Ils ont organisé à son endroit une véritable conspiration du silence.

Je me suis attaché pour le cadre restreint du livre que je présente aujourd'hui au public à faire ressortir les emprunts

ou par qui que ce soit. Ils se recommandent d'eux-mêmes. Réunissant avec un scrupule parfait tous les arguments qui peuvent être invoqués pour soutenir telle ou telle théorie, ils se distinguent en dehors de la solidité du fond par la noblesse du style et par la clarté et la simplicité de l'exposition. Ils sont aussi bien à la portée du vulgaire que de l'aristocratie ; les intelligences les plus simples peuvent en profiter comme les esprits les plus cultivés." (1)

On peut se renseigner complètement sur la doctrine de Djâḥiz en consultant le vaste traité littéraire de son disciple, Ibn Abi el Hadîd qui le désigne chaque fois qu'il parle de lui, et il en parle souvent, sous le nom de "Notre maître Abou Osman (شيخنا أبو عثمان)."

La méthode littéraire de Djâhiz, adoptée par plusieurs littérateurs arabes, à pour caractère essentiel le souci constant de tenir en éveil l'attention du lecteur, de ne jamais laisser languir l'intérêt de l'ouvrage. Celui de ses disciples qui l'admirait le plus, au point qu'on peut dire qu'il avait pour Djâhiz un véritable culte, Abou Hayyân Tawhîdî, a, selon moi, réussi à l'égaler et même à le surpasser quelquefois. Je suis heureux de posséder de ce dernier deux grands ouvrages (2), photographiés d'après les originaux conservés à Stamboul.

Comme on l'a remarqué (entre autres Mr. Van Vloten), Djâhiz, pour répandre ses idées et pour s'assurer l'accueil bienveillant du public a eu recours à un ingénieux subterfuge : il nous avoue franchement qu'il avait publié quelques traités sous le nom du grand écrivain Ibn el Moqaffa'. Ainsi pré-

(1) Cf. BAYÂN. t. II, p. 157.

(2) Le Kitâb الامتاع والمؤانسة. de la Bibliothèque de Top-Kapou, et le Kitâb البصائر والذخائر de la Bibliothèque de Fâtih.

ou de l'autre cause. Djâhiz sait mettre en valeur et en évidence les mérites des deux tribus concurrentes.

Aussi, ses contemporains n'ont-ils pas manqué de lui reprocher cette dualité d'opinion. Mais ces attaques ne l'effrayaient nullement et il trouve la réponse judicieuse à ces critiques en déclarant "qu'il se borne à exposer les arguments de deux camps opposés, les faisant parler par sa bouche, en *reporter* fidèle, qui rapporte consciencieusement les opinions les plus diverses pour mieux les faire connaître au grand public. Quant à ses idées personnelles, ajoute-t-il, elles sont notoirement connues."(1)

Et nous savons qu'il les défend avec tout le talent dont il peut disposer.

Le brillant khalife El Mâmoun, qui n'était pas un esprit médiocre, se fit apporter les livres de Djâhiz sur *l'Imamat* (pouvoir spirituel souverain) et les donna à un de ses hommes de confiance, Yazîdî, dont il appréciait le sain jugement, pour qu'il lui en fît un compte-rendu succinct mais exact. Vivement intéressé par ce que lui en dit ce critique éclairé, El Mâmoun voulut les lire lui-même et convoqua Djâhiz qu'il félicita en ces termes : "Des personnes dont l'esprit judicieux nous est connu et en qui nous avons la plus grande confiance, nous ont informé que vos livres étaient des ouvrages de valeur. Nous avons pensé néanmoins que la critique pouvait en être trop élogieuse, aussi avons-nous voulu les lire nous-mêmes. Nous avons constaté avec plaisir que vos œuvres méritaient ces éloges et que l'appréciation flatteuse qu'on nous en avait donnée n'était pas exagérée. Examinant ces livres avec le soin le plus méticuleux, nous avons reconnu leur grand intérêt. Ils n'ont pas besoin d'être prônés ou défendus par leur auteur

(1) Voir l'introduction de son grand ouvrage, *Kitâb el Hayawân*.

convaincre ses contradicteurs les images les plus vives et les termes les plus osés, selon ses habitudes littéraires.

Quelqu'un lui demandait un jour comment le Coran avait pu être *créé*, et Djâhiz de répondre: "Comme un homme, comme une femme, comme une vache, en un mot comme tout être quelconque mâle ou femelle."

Cette réponse, qui traduit sa pensée de la manière la plus claire, la plus crue, fut interprétée par ses adversaires de façon malveillante et leur parti-pris en dénatura le sens.

N'imaginèrent-ils pas en effet d'en conclure et de répandre *urbi et orbi* que Djâhiz professait que le Coran pouvait devenir tantôt un homme, tantôt une femme, etc. ?

L'école motazilite de Bassora, dont Djâhiz était un des plus grands représentants, consacrait la préséance d'Abou Bakr, le premier khalife rachidite, à l'encontre notamment de l'école chéïte qui soutenait et soutient encore que la succession de Mahomet au pouvoir pontifical devait être dévolue à son gendre, Aly, le quatrième khalife rachidite. Malgré sa conviction, Djâhiz écrivit cependant un livre à l'intention de cette dernière école, livre dans lequel notre auteur réussit peut-être mieux que les partisans les plus déterminés de Aly à mettre en lumière les mérites de ce khalife et à faire ressortir les titres qui le désignaient en première ligne pour recueillir directement la succession du Prophète

Quand éclata la grande querelle entre Omayyades et Abbassides, Djâhiz, en brillant avocat, sut exposer avec une égale éloquence et même avec une égale désinvolture, les titres des uns et des autres dans deux traités différents.

S'agit-il de faire ressortir les titres nobiliaires de telle ou telle tribu ? Mieux que n'importe quel partisan convaincu de l'une

ainsi à tout ce que lui inspire sa verve parfois outrancière. et même son extravagance.

Sa plume se complaît à nous retracer des tableaux de mœurs, des scènes de la vie publique ou privée, des incidents, des anecdotes, et il sait, à l'exclusion de la plupart des classiques arabes, trouver la formule la mieux appropriée, le mot juste, l'expression typique. Son amour de la couleur exacte est si vif qu'il ne recule pas au besoin devant l'emploi de termes crus ou grossiers et d'expressions réalistes ou même triviales. Il est en effet le seul parmi les littérateurs arabes, qui sacrifie sans hésiter la noblesse du style à la précision. C'est un réaliste épris de descriptions, et dont la verve inépuisable sait user avec hardiesse de tout ce qui peut servir à donner la note vraie à ses relations. Presque tous les autres classiques s'ingénient au contraire à éviter la moindre vulgarité dans leurs récits même les plus osés, et dans les gauloiseries arabes, s'il est possible de s'exprimer ainsi. En un mot, Djâhiz n'a jamais sacrifié, comme tant d'autres, le fond pour la forme convenue.

***

L'influence de Djâhiz s'est manifestée spécialement à deux points de vue différents. Il a fait double école : une école doctrinale de la secte motazilite et une école purement littéraire ; l'une et l'autre portent son nom.

Nombreux sont les adeptes de sa doctrine religieuse très hardie et qui confine à la libre pensée.

Il professait que le Coran est un objet *créé* (مخلوق), combattant ainsi la théorie qui a prévalu par la suite dans l'Islam orthodoxe, et qui soutient que le texte sacré est *incréé* (قديم = غير مخلوق).

Il défend très vigoureusement ses idées et emploie pour

PRÉFACE

Djâhiz n'a pas besoin d'être présenté au public. C'est un des rares auteurs parmi les classiques arabes dont les œuvres, très populaires en Orient, jouissent d'une faveur particulière auprès des orientalistes européens, qui y trouvent le même intérêt que les Arabes.

Il est dans la littérature arabe, ce que sont dans la littérature française Voltaire et Renan. Qu'il traite les sujets les plus arides, qu'il aborde les questions les plus ardues, il réussit toujours à captiver le lecteur et à retenir son attention. Il parle de toutes choses avec un égal bonheur et sait dire chaque fois tout ce qu'il a à dire. Le lecteur le suit avec plaisir partout où sa fantaisie l'entraîne, sans éprouver en sa compagnie le moindre ennui, la moindre lassitude. L'intérêt ne languit pas un moment dans ses ecrits ; c'est un penseur doublé d'un artiste charmant. Son esprit léger, et souvent ironique, lui inspire les boutades malicieuses qui émaillent ses productions.

Il traite avec un rare talent d'exposition les questions les plus délicates et les plus subtiles qui ont divisé les musulmans aux premières heures de l'Islam, touchant le pouvoir spirituel suprême, le Khalifat. Il plaide avec succès une cause et soutient l'opinion contraire avec la même force de persuasion.

Ces tours de force sont, pourrait-on dire, la spécialité de Djâhiz, qui presque dans toutes ses œuvres s'ingénie à vanter les mérites d'un personnage ou d'une idée pour employer, immédiatement après, toute son érudition à en peindre les défauts. Quoiqu'il en soit, il sait toujours charmer le lecteur et l'intéresse

DJÂḪIẔ.

LE LIVRE DE LA COURONNE.

(*KITAB EL TADJ.*)

TEXTE ARABE

PUBLIÉ POUR LA PREMIÈRE FOIS D'APRÈS LES TROIS MANUSCRITS CONNUS,
ACCOMPAGNÉ D'UNE PRÉFACE EN FRANÇAIS
ET ENRICHI DE NOTES CRITIQUES ET DOCUMENTAIRES

PAR

AHMED ZÉKI PACHA

SECRÉTAIRE DU CONSEIL DES MINISTRES,
VICE-PRÉSIDENT DE LA SOCIÉTÉ KHÉDIVIALE DE GÉOGRAPHIE,
MEMBRE DE L'INSTITUT ÉGYPTIEN.

LE CAIRE.
IMPRIMERIE NATIONALE.
1914.

DJÂḤIẒ.

LE LIVRE DE LA COURONNE.

(KITAB EL TADJ.)